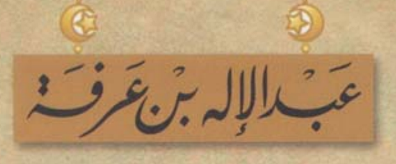



# ياسين قلب الخلافة









رواية


دار الآداب

عبد الإله بن عرفه

# يَاسِين قَلْبُ الخِلافَةِ

رواية

دار الآداب ـ بيروت

يَاسِين قَلْبُ الخِلافَة

**ياسين قلب الخلافة**

عبد الإلٰه بن عرفه / روائي مغربي

الطبعة الأولى عام 2013

ISBN 978-9953-89-265-8



دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana.adab@hotmail.com

rana.adab@gmail.com

info@daraladab.com

 /Dar.Al.Adaab  @DarAlAdab  daraladab.com

# إهداء

إلى روح السلطان «الغازي عبد الحميد خان المظفّر دائمًا»، خاتمة عقد سلسلة الخلافة الإسلاميّة، ونَسْمَةٌ يتيمة هَبَّتْ من القلب الياسيني المحمّدي.

وإلى جميع الصالحين الغَيورين الذين حملوا معه فكرةَ الجامعة الإسلاميّة لِصَوْنِ الأُمّة ومصالحها العليا وحضارتها الكبرى من الغزو الاستعماري التَّدجيلي والتَّدجيني.

# بيان أدبي

## من أجل جماليّة أدبيّة عرفانيّة

قال الشيخ علي الجمل: «اعلم أنّه ممّا مَنَّ الله عليّ في ابتدائي أن تفضَّل عليّ **بالذكر**، ثم استخرج لي من الذكرِ **الحضورَ**، ثم استخرج لي من الحضورِ **العلمَ**، ثم استخرج لي من العلم **الغيبةَ** عمّا سوى الله، ثم استخرج لي من الغيبةِ عمّا سوى الله **المعرفةَ** بالله».

إنّ ما يفيدنا به هذا النّص هو المسارُ الفكري والروحي لصاحبه، والذي يُلَخِّصُ معالمَ الجماليّة الأدبيّة العِرفانيّة التي سعينا منذ بداية هذا المشروع الروائي إلى تأسيسها.

إنّ المداومةَ على **الذكر** يؤدّي إلى **الحضور**، وهو يثمر **العلم** الذي يَزُجُّ بصاحبه في **الغيبة** عن كلّ ما سوى الله، وهو عين الحضور بالله أو **المعرفة** به. فمدار الأمر على الحضور، ونحن نُؤَسِّسُ هذا الأدب على هذا المعنى كما دأَبْنا على ذلك في أعمالنا

السابقة. ولعلّ أفضل عنوان لهذا المشروع هو أنّه **أدب الحضور**.

إنّ المداومةَ على الذكر هي مدوامةٌ على الوجود لأنّ استحضارَ المذكور يُنتج الوجود، ونسيانَ الوجود يستلزم التذكُّر والذكرى، ولهذا فلا ذكرى بدون وجود. وبناء عليه، فالذكرى تابعة للوجود. لا يمكن أن نتذَكَّر ما لم نُوجَد ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ **لَمْ يَكُنْ** شَيْئًا **مَذْكُورًا**﴾.

لقد أعلن الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر نهاية الميتافيزيقا بمعناها الكلاسيكي التي امتدَّتْ من أرسطو إلى هوسرل، لأنّها أغفلَتْ الكائن أو ما سمَّاه «نسيان الموجود» وصبَّتْ اهتمامها على العِلَلِ الأولى. وقد أوْضَحْنَا في بيان سابق أنّ مفهومَ الحضور كما نُؤَسِّسُه يمكن الاقتراب من إدراكه في ما أسماه هايدغر «الدَّازَيْن Da Sein» أي الحضور «هنا الآن». وحيث إنّ تاريخ الميتافيزيقا هو تاريخ فقدان ذكرى الوجود، أونسيان حضور الوجود، فإنّ إعادة الكائن أو الموجود إلى **قلب** الوجود يتمثَّلُ عندنا في مُداومة الذِّكر حتى يُثمِرَ فِكرًا وأدبًا وحضورًا ومعنى وعلمًا ومعرفة. فإذا تحقَّقَ كلُّ هذا أثمرَ بعد ذلك الغيبةَ عن كُلِّ ما سواه، وهو عينُ المعرفة الحقيقيّة التي نُسمِّيها هنا أدب الحُضور، وقد يُسَمِّيهَا بعضُ الفلاسفةِ ميتافيزيقا الحُضور. إلّا أنّه ينبغي أن نلاحظَ أنَّ الميتافيزيقا بهذا المعنى تَتَوَقَّفُ عن أَنْ تكونَ شأنًا من شؤون ما بَعْدَ الطبيعة ليصبحَ المقصودُ منها ما يحصلُ للكائن بعد الوجود من حيثُ هو موجود ومُداوِمٌ على الوجود، وحاضرٌ ومتمكّن في حُضورِيَّتِه. وأسمى صُوَرِ المداومةِ على الوجود هي المحبّةُ والإيثار. ولا محبّةَ ولا إيثارَ إلّا بالمعرفة الحَقَّة، ومَحَلُّهَا **القلب**. والأدب الحقيقي

مدخلٌ لهذه المعرفة وتلك المحبَّة؛ فهو يطمح إلى إعادة اكتشاف هذا الوجود المنسي في **قلب** الوجود. ولا شكّ أنّ لكلّ شيء قلبًا، وقلبُ الوجود هو **الإنسانُ الخليفة**، وتلك هي القضيّة الكبرى لهذا العمل ضمن المشروع الروائي الذي ننهَضُ به.

## الإمكان والاحتمال

ارتباطًا بهذا الأدب، هناك بعض القضايا الفلسفيّة والأدبيّة التي نطرحُها بمناسبة هذا العمل الجديد، مثل قضيّة الممكن المحتمل، والممكن غير المحتمَل. إنّ الروايةَ كما نُؤسِّس لها لا تَتَّخِذُ الواقِعَ موضوعًا لها، بل الوُجودَ. والوجودُ لا يعني ما مَضى، بل إنّه يعني المِنَصَّةَ الذي تَنْتَصِبُ فيها جميعُ الممكنات الوجوديّة. وبناءً عليه، فشخوصُ هذه الروايات العرفانيّة ليْسَتْ ترميزًا شكلِيًّا لكائنات واقعيّة، بل هي شخصيّات تخييليّة وإِنِّيَّاتٌ تجريبيّة وجوديّة. كما أنّ الأحداث الروائيّة ليست نقلاً حرفِيًّا لوقائعَ تاريخيّة، بل هي أحداثٌ أدبيّة وجوديّة بالدرجة الأولى، ولا يجبُ التَّمَحُّلُ أو التَّكلُّف في معرفة مدى مطابقتها للواقع، أي إلى قياسها بما هو خارج عن الأدب. الأدبُ لا يُمَثِّلُ شيئًا آخرَ سِوَى الأدب، والقَوْلُ الأدبي لا يمكنُ أن نُخْبِرَ عنه بثنائيّة الصِّدْقِ والكَذِب، بل بالتَّأَكُّدِ من مدى انسجامه المنطقي الداخلي. وبناء عليه، فالأدبُ يخبرنا عمَّا لا تستطيع أن تُخبرنا به اللغة العاديّة أو التاريخ ولا يستطيعان قولَه. ولهذا، فإنّ النقد الأدبي الناجح نفسه يتَحَوَّلُ ليصبحَ أدبًا. إنّ هذا التوضيحَ ضروريٌّ لفهم قضيّة الإمكان والاحتمال، وفهم الكتابة واللغة الأدبيّة، وكيف ينبغي أن تكون!

إنّ هذا الأدبَ من خلال هذا البيان يطمحُ لتَحريرِ الرواية من الاحتمال الواقعي، ويجيبُ عن أسئلة القُرَّاء المتكرِّرَة وحَيْرَتِهِم حول مدى تَطابُق شُخوص الرواية مع أشخاص تاريخيّين. ويجيب أيضًا عن قضيّة اللغة الأدبيّة التي تَدَنَّتْ عند بعض كُتَّابِنا لتَحكي لغةَ الشارع بِحُجَّةِ أنّها لغةُ الواقِع، ونسي هؤلاء أنّ الأدبَ الرَّفيع لا يبني شرعيّته إلّا بالابتعاد عن اللغة العاديّة الواقعيّة، ويؤسِّسُ لِلُغَةٍ أدبيّة تسمو بالذَّوق وتحقِّقُ شرط التخيّيل والجمال. إنّ الأدب العالي والرفيع يأنَفُ من استبداد الواقع والواقعيّة.

هناك إذن قضايا ممكنة لكنّها غير محتملة، وهناك قضايا ممكنة لكنّها جِدُّ محتملة، وهناك قضايا ممكنة هي المحتملةُ دون غيرها، أي أنّها مُتَمَكِّنَة في احتمالِيَّتِهَا بحيث تُحِيلُ إمكانيّةَ غيرها. وهناك قضايا ممكنة مُحْتَمَلة لكنّها لم تخرج من الإمكان إلى الاحتمال الواقعي الثُّبُوتي. هذه بعض الأسئلة التي نفتحُ البابَ لنقاشها في علاقة التاريخ والواقع والفلسفة بالأدب. كثيرًا ما سألني القُرّاءُ عن الحُدود الفَاصلة بين الأدبِ والتَّاريخ، بل إنّ بعضَهم كان مُنزعِجًا من كَسْرِ المسافة بين التخيّيل والتأريخ. هذه الحيرةُ التي تُصيب بعض القرّاء ناتجةٌ من أمرين اثنين، أوَّلُهما أنّهم يَصْدُرونَ عن تَصوُّر للتَّاريخ يُحِيلُ ما سواه، وعن افْتِراضِ مرجعيّة ثابتة لوقائعه، وثانيهما أنّهم يتوقّفون أمام الاحتمالات الممكنة في التَّاريخ التي يُضيئُها قَلَمُ الكاتب الأدبي كوقائعَ أكثرَ احتمالاً من الوَقائع التي حَدَثَت، ويُفسِّرُ وِفْقًا لها نَتائجَ التَّاريخ الذي وصل إلينا. وهذا يُشْبِهُ إلى حَدٍّ كبير ثنائيّةَ المهمَل والمستعمَل في اللغة. فهناك كلمات ممكنة في المتن اللغوي لكنّها غير مستعملة أو غير محتملة

الاستعمال، وهناك كلمات أخرى كانت غير ممكنة الاستعمال أَضْحَتْ بعد ذلك جدّ محتملة، وهناك نوع ثالث وهو الكلمات الممكنة التي لم تكن محتملة وأضحت هي المحتملة والمستعملة دون غيرها. قد يطول نقاش هذه القضايا التي تُحَتِّمُ علينا تعريفَ الممكن والمحتمل، والإمكان والاحتمال، ثم القضايا التركيبيّة بينهما، ممّا ندعو الفلاسفة ونقَّادَ الأدب إلى سُلوك دُروبها والتَّمثيل لها حتى نخرجَ بنظريّة أدبيّة للممكن والمحتمل في الرواية. وأجِدُني مَدفوعًا إلى القَول بأنّ الروايةَ هي المَحَلُّ الأمثل الذي ينمو فيه التخييل كما هو الحالُ في المرائي والأحلام، فهي تُمَكِّنُ الأديبَ من الانعِتَاقِ من إلزاميَّةِ الاحتمالات الواقعيّة، وتمنحُه حرِّيّةَ مقاومة استبدادها. ولكي أُقَرِّبَ القارئَ من هذه القضيّة أَضْرِبُ له مثلاً من هذا العمل الروائي، فلقاءُ السلطان **عبد الحميد الثاني** بالكاتب الفرنسي الرومانسي الكبير **ألكسندر دُومَا** لم يَحْصُل، أو على الأقَلّ لا نملِكُ بشأنِهِ معلومةً تاريخيّة مُدوَّنة ومحقَّقَة. وعلى العكسِ من ذلك فإنّنا نعلم أنّ السلطانَ كان مُدْمِنًا على قراءة روايات هذا الكاتب، كما نعلم أنّه زار باريس أثناء المعرض الدولي سنة ١٨٦٧ مع عمّه السلطان عبد العزيز، ونعلم أيضًا أنّ الكاتبَ الفرنسي كان في باريس تلك السنة. وكلّ الحوارات التي دارت في الرواية بين عبد الحميد وألكسندر دوما هي متخيَّلة، لكنَّ مادَّتَها الخَام مُسْتَقَاةٌ من أفكار الرجلين التي استطعنا أن نستخلصها من الوثائق التاريخيّة. وعليه، فاللقاءُ بين الرَّجُلين ممكن غيرُ محتمل، لكنَّ ما دار بينهما من نقاش ممكنٌ جِدُّ محتمَل لأنّ المادّةَ التي اعتَمَدْتُ عليها في بناء ذلك الحوار المتخيَّل مادَّةٌ تاريخيّة موثوقة. وهنا يَثُورُ سؤال حول التَّعَارُض الشَّكلي أو التركيب من جهة بين الإمكان غير

المحتمل بالنسبة لشخوص الرواية، والإمكان المحتمل جدًّا بالنسبة لآراء وأفعال هذه الشخوص نفسها من جهة ثانية. والجواب عن هذا السؤال يُوقِفُنَا على سِرِّ الصَّنْعَة الأدبيّة والإبداع الذي يسمو بالتَّخييل إلى حدود الواقعيّة التي ذكرنا حيرةَ المؤرّخين والقُرَّاء حُيَالَهَا. إنّ المبدعَ ليس مُلزَمًا بدقّة المؤرّخ، لكنّه مُلزَمٌ بعدم الكذب الإبداعي باختلاق أحداث يأباها التاريخ ويُحِيلُها. إنّ الأديبَ المبدع يستند إلى التاريخ في بعث شخصيّات حقيقيّة لكنّه يَنْسُجُ بِهَا وَحَوْلَها أحداثًا وعلاقات عَبْرَ التّخييل لا تَجِدُ مُسوِّغاتِها إلّا داخلَ الأدب وليس خارجَه. هذا على الأقلّ في نوع الكتابة التي نُشيدُها ونُنَافِحُ عنها.

إنّ الإمكانَ والاحتمالَ يمكن أن نسوقَه ضمنَ نظريّة العَوالم الممكنة. ولنا في قَضيَّة **سُوقِ الصُّوَر** الذي يدخلُه الإنسانُ في الجنّة يومَ القيامة، فيتشكَّلُ في أيِّ صورة شاءَها تَجسيدًا عمليًّا لهذه النظريّة. فالمبدعُ في أدبِ الحُضور يَدخلُ سوقَ التَّخييل ويختار لشخوصِه الحُلَلَ والصُّوَرَ والأحداث والعلاقات المناسبة إبداعيًّا، ويقتني لها ما يُمليه عليه سياقُ الخيال الخَلَّاق.

إنّ الروايةَ اليوم هي ديوانُ العرب، تمامًا كما كان الشعرُ ديوانَ العرب سابقًا، بيد أنّ القدماء أسَّسوا علومًا جمَّة للتَّدليل على صِحَّة زعمهم، بينما العِلْم بالرواية اليومَ في عالمنا العربي ما زال في بدايته، ولم تتأسَّس له علوم تقوم بالتَّوصيف والتَّعليل والتَّفسير والتَّأويل.

وقد بدأَتْ معالم نهضة أدبيّة عربيّة لعلّ من أبرز مظاهرها الدعم الذي تُقَدِّمُهُ دولة الإمارات العربيّة المتّحدة للأدب والأدباء.

وبهذه المناسبة، أَوَدُّ التَّنويه بظاهرة صحّيّة هي ظاهرةُ الصالونات أو النَّوادي الأدبيّة، مثل صالون المركز الثقافي في العين الذي تُشرِف عليه سموّ الشيخة الدكتورة شمّا بنت محمّد بن خالد آل نهيان، ومجلس إقرأ الذي تُشرف عليه سموّ الشيخة شيخة بنت سيف في أبو ظبي، وصالون بحر الثقافة في أبو ظبي أيضًا الذي أسّسته سموّ الشيخة روضة بنت محمّد بن خالد آل نهيان مع شقيقاتها الشيخة شيخة والشيخة ميثة، وصالون الملتقى الأدبي الذي ترأسه الأديبة أسماء صدّيق. . وتجمع هذه النوادي الأدبيّة ثُلَّةً من خيرة نساء دولة الإمارات الأديبات والمُحِبّات للأدب الرفيع. وقد حَظِيتُ بشرف المشاركة والتكريم في هذه الصالونات، وأُعْجِبْتُ بالجَوِّ الثقافي والأدبي الرفيع. ولا أملك بهذه المناسبة إلّا أن أُعَبِّرَ عن صادق الامتنان وخالص العرفان على الرعاية الأدبيّة الرفيعة التي حَظِيتُ بها، والعناية التي لمستُها بالإبداع، ممّا ستكون له نتائج إيجابيّة على الأدب العربي.

يأتي هذا العمل تتويجًا وخِتامًا للسلسة الثانية المؤلَّفة من الحروف النورانيّة الثنائيّة (حم، طس، طٰه، يس)، كما أنّه يُتَوِّجُ النصفَ الأوّل من هذا المشروع، وعددُه سبع روايات هي التي صدرَتْ لحدّ الآن، من مجموع الأحرف النورانيّة الأربعة عشر. ومدارُ هذا العمل الأخير على قلب الوجود، أي **الإنسان الخليفة**.

فما هو قلب العالم أو الوجود؟ وماذا يوجد في قلبه؟ إنّ القلب سريع التقلّب رغم تواتر الحديث عن رُسوخ القلب. فالكعبةُ قلب الأرض، ويس قلب القرآن، ولا شكّ أنّ لكلّ معنى قلب. فما هو قلب الأمّة؟ إنّ هذا المشروع ينهض على مجموعة من

القضايا من أبرزها قضيّة الولاية. ولا بدّ من التأكيد على أنّ الولايةَ إمّا أن تكون عامّةً ﴿الْمُومِنُونَ وَالْمُومِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وإمّا أن تكونَ خاصّة. والخِلافةُ ولايةٌ خاصّة، وهي مبحث من المباحث التي أتناولها في هذه الرواية. كما أنّ الخلافةَ نوعان: خلافة عامّة للإنسان من حيث هو إنسان في الكون، وخلافة خاصّة لإنسان مخصوص في الأمّة. ونظيرُ هذا المبحث هو ما يسمّيه الفيلسوف إيمانويل ليفناس «تاريخ القداسة أو الصّدّيقيّة»[1]. لقد سبق أن عرَّجتُ على قضيّة الخلافة في أعمالي السابقة وخاصّة في روايَتَيْ «جبل قاف» و«طواسين الغزالي»، لكنّي اليوم أتناولها من زاوية مختلفة للتأكيد على استمراريّة هذه الأمّة في التاريخ بدون انقطاع، مخالفًا بذلك كلّ المحاولات الاستعماريّة والتغريبيّة لترسيخ وَهْم الانقطاع عند بعض النُّخَب السياسيّة والفكريّة في بلداننا، إذ كلّما اقتنعَ المرءُ بانقطاع ذاكرته التاريخيّة كان ذلك أَيْسَرَ في أَنْ يَتَلَبَّسَ بذاكرة الغير ويُنافِحَ عنها، ويَكْرَهَ ذاتَه وتاريخَه.

---

(١) يفضّل ليفناس استعمال «الصديقيّة» بدل «القداسة» هروبًا ممّا يطبع هذا المفهوم الأخير في الكهنوت المسيحي. أمّا في دائرة الإسلام، فإنّ هذا الموضوع قد أشبع بحثًا، فحجّة الإسلام الغزالي، العمدة العقديّة والمذهبيّة في الدولة السلجوقيّة السنيّة حامية الخلافة العبّاسيّة كان يواجه باطنيّة الإسماعيليين، ولهذا جعل أعلى مرتبة في الولاية هي **الصديقيّة** هربًا ممّا يدَّعونه في ذوي القربى من آل البيت، فقال «من تخطّى رقاب الصدّيقين وقع في النبوّة». بينما قال ابنُ العربي الحاتمي أن لا رجلَ بين أبي بكر الصدّيق والنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هناك مقام بين الصديقيّة والنبوّة هو مقام **القربة**. وبذلك جمع بين ما يجب لأبي بكر **الصدّيق** من التعظيم، وما يجب لذوي **القربى** من آل البيت، وعلى رأسهم سيّدنا علي كرَّم الله وجهه من الحرمة. وقد أشار إلى هذا المبحث نفسه ابن طفيل في كتابه «حيّ بن يقظان»، وابن سبعين في مذهبه حول الرجال الخمسة.

يأتي هذا العمل إذن مُتزامنًا مع ما يَشْهَدُهُ العالم العربي الإسلامي من هزّات وتحوّلات، أدَّتْ إلى عودة تركيا إلى الواجهة بعد رَدْحٍ من الزمان التغريبي، وما أشبهَ أمْس باليوم. وإنّنا ما زلنا نَشْهَدُ حاليًا وبشكل أَوْضَحَ النَّتائجَ الكارثِيّة التي ترتَّبَتْ عن إلغاء الخلافة الإسلاميّة. لقد نتج عن هذا الإلغاء تغيير في النظام السياسي للعالم الإسلامي، وانتقل ضميرُ المسلمين من التَّفكير في إطار الأمّة العالميّة والإمبراطوريّة الكونيّة إلى التفكير في إطار الدولة الوطنيّة القُطريّة، والخصوصيّة الثقافيّة، بدل الكونيّة الثقافيّة التي كانت هي السمة الغالبة عند كلّ المفكّرين المسلمين. وهو تحوُّلٌ لم نتبَيَّنْ بَعْدُ نتائجَه بوضوح على جميع المستويات.

## مدائن الرسالة ومدائن الخلافة

لو حاولنا أن نرسمَ خريطة جغرافيّة لمدائن الرسالة والخلافة في العالم الإسلامي لوجدنا أنّ مدائن الرسالة: مكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة، والقدس الشريف (إمامة النبي للمرسلين في حادثة المعراج).

في حين أنّ مدائن الخلافة توزَّعَت تاريخيًّا على: المدينة المنوّرة، دمشق، بغداد، القاهرة، قرطبة، مراكش، فاس، تونس، إستانبول.

ولعلّه من المفيد أن يطلق المؤتمر الإسلامي لوزراء الثقافة مشروعًا حضاريًّا على مستوى العالم الإسلامي للاحتفال بمدائن الرسالة ومدائن الخلافة بشكل دوري على غرار مشروع عواصم الثقافة بهدف إحياء التراث الحضاري والثقافي لهذه الحواضر،

والتأكيد على استمراريّة الأمّة في التاريخ الإنساني، وتَلْحِيم الانتماء الثقافي، وبيان حقيقة الكونيّة الثقافيّة التي ينبغي أن تنهض بها الأمّة.

## خاتمة

في ختام هذا البيان، لا بدّ من أن أحكي حكاية حصلَتْ لي عند كتابة هذه الرواية لما فيها من الإشارات الدَّالَّة. اعترَضَتْنِي فَتْرَةٌ تَوَقَّفْتُ فيها عن الكتابة ممّا هو من طبيعةِ كُلِّ إبداعٍ جَادّ، وكنتُ أنوي السَّفرَ في عطلتي الصيفيّة إلى إستانبول حتى أقفَ على المعالم والآثار والأمكنة والشخصيّات التي كنتُ أكتبُ عنها، ثم شاءتِ الموافقاتُ أن أُسافِر قبل ذلك في رحلة مِهَنيّة لحضور مؤتمر دولي كبير. وفي اليوم الأوّل خرجتُ من الفندق الذي يعقَد فيه المؤتمر، أُريدُ أداء صلاة الظهر فدخلتُ أوَّلَ مسجد على بُعْدِ أمتار قليلة من الفندق، فإذا بي أكتَشِفُ أنّه تَكِيَّةُ الشيخ محمّد ظافر المدني مستشارُ السلطان عبد الحميد، وشيخُه المربّي، وبجانبها قُبّة تضمُّ قبرَه. وفي المساء خرجتُ من الفندق في الاتّجاه المعاكس على بعد أمتار أخرى، فإذا بي أجِدُ نفسي في الجامع الحميدي الذي بناه السلطان عبد الحميد الثاني مُلحَقًا بقصر يلدز الذي كان يسكنُه ويديرُ شؤون الدولة منه. تعجَّبتُ مرّةً أخرى كيف حَلَلْتُ في جِوار الرجلين اللذين كنتُ أكتبُ عنهما من غير سابق علم ولا ترتيب. أَدْرَكْتُ حينَها أنّي كنتُ في قلب قصر يلدز، فزرتُ سكنى السلطان ومكتبَه وقاعات الضيوف والمَابين الصغير والكبير والحَرَامْلِك. وفي ختام زيارتي صادفتُ مبنى مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة

الإسلاميّة بإستانبول (إيرسيكا) الموجود ضمن القصر، فاستقبلني مديره وأهداني مشكورًا نسختين من المصحف الشريف، إحداهما للمصحف المنسوب لسيّدنا عثمان بن عفّان، والثانية للمصحف المنسوب لسيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ويتضمَّنان دراسة علميّة مقارنة وافية. تفاجأتُ بهذه الهديّة وسعِدتُ بها، لكنّي أدركتُ سريعًا أنّها من بركة زيارة الرجلين اللذين كنتُ أكتبُ عنهما: السلطان عبد الحميد الثاني وشيخه ظافر المدني؛ والمصحفان إشارة إلى نور الخلافة العثمانيّة (مصحف عثمان) وسرّ الخلافة العَلِيَّة[1] (مصحف علي).

| | |
|---|---|
| **وأَلْقِ لَنَا أُذْنَ الفُؤَادِ** مُصِيخَةً | وَعِ القَوْلَ مِنِّي وَاسْتَمِعْ لِنَصِيحَتِي |
| إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى السَّعَادَةَ وَالمُنَى | وَتَبْلُغَ مَا عَنْهُ الرِّجَالُ تَوَلَّتِ |
| فَطَهِّرْ بِمَاءِ **الذِّكْرِ قَلْبَكَ** عَامِدًا | بِصِدْقِ اللَّجَا وَاغْسِلْهُ مِنْ كُلِّ عِلَّةِ |

وعُدتُ بعدها إلى بلدي مَشحونًا بِبَهَاءِ **سِرِّ** هذه الزيارة **ونُورِها**، فانطلقَ قلمُ الإبداع يستأنِفُ من حيثُ كانت الفَترة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ **قَلْبٌ** أَوْ **أَلْقَى السَّمْعَ** وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق، ٣٧).

**د. عبد الإله بن عرفة**

**الرباط، المغرب**

---

(١) الاسم الرسمي للخلافة العثمانيّة هو: **الدولة العليّة العثمانيّة**.

﴿يس والقُرْآنِ الحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

* * *

إذا كُنْتَ قُرآنًا فَقَلْبُكَ **يَاسِينُ** وَإِنْ كُنْتَ فُرْقَانًا فَمَا لَكَ مِنْ قَلْبِ

فَإِنَّ وُجُودَ الحَقِّ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ وَمَا لَكَ مِنْ قَلْبٍ فَمَا لَكَ مِنْ قَلْبِ

**ابن العربي الحاتمي**

* * *

# كتابُ الياء

ياسينُ دَوْرةِ الخلافة الصاعدة

اكتملَ مع فتح رومية (القسطنطينيّة)،

وبدأتْ دورة نازلة منذ ذلك الوقت.

مع دخول عام ألف ومائتين وتسع وثلاثين هجريّة، الموافق لألف وثمانمائة وثلاث وعشرين بحساب النصارى، مرض الشيخ محمّد العربي الدرقاوي ولزم زاويته، وأرسل في طلب تلميذه الشيخ محمّد بن ظافر المدني من المدينة المنوّرة، الذي كان قد صاحبه تسع سنوات قبل عودته إلى الحجاز.

دخل محمّد بن ظافر على أستاذه الشيخ الدرقاوي، وقبّل كلّ واحد منهما يد صاحبه على عادة القوم في إذهاب الكُلفة وقَهْرِ رُعُونَات النَّفس من الكِبْر وما سواه. بدأ الشيخ بالكلام فقال: أهلاً بك يا مدني، لقد اشتقنا إليك شوقًا عظيمًا.

فقال المدني: وشوقنا إليكم يا سيّدي عظيم، لم يَفْتُرْ منذ أن غادرتُكُمْ إلى المدينة منذ ما يَقْرُب من خمس سنوات خلَتْ.

ثم سأله الشيخ: وكيف حال طريق الإرادة في بلد الرسول عليه الصلاة والسلام؟

فأجاب ظافر المدني: لقد مكثتُ بها ثلاث سنوات، ونشرت بها طريق الإرادة حتى صارت عامرة بالمريدين والتلاميذ، ولله الحمد. لكن بعض الناس لم يقبلوا التجريد وتخريب الظاهر.

فقال الشيخ: إنّك تعلم أنّ طريقَنا لبسُ المرقّعات والمشيُ حُفَاة، واتّخاذُ السُّبَح الغليظة وجعلُها في العنق، واستعمالُ العصا، والسؤالُ لطرح النفس، والاجتماعُ للذكر. وكلُّ هذه الأمور مُؤَصَّلَةٌ من الكتاب والسُّنّة.

فقال ظافر المدني: إنّ أصعبَ ما يتقبّله الأصحاب هو لبس المرقّعة والمشي بالحفا، فما هو أصل ذلك يا سيّدي في القرآن؟

فأجاب الشيخ: إنّ أوّلَ من لَبِسَ المرقَّعة أبونا آدم وأُمُّنا حوّاء، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ﴾. وأمّا المشي بالحَفا، فأمرُه تعالى لنبي الله موسى عليه السلام ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوَى﴾. وقد قال الحافظ العراقي عن نبيّنا عليه الصلاة والسلام، في ألفيّته:

يمشي بلا نَعْلٍ ولا خُفٍّ إلى    زيارةِ المريضِ حولَه المَلا

وأمّا السبحة، فقد أقرَّ عليه الصلاة والسلام، التسبيحَ في نوى التمر. وكان أبو هريرة رضي الله عنه قد ربط في خيط خمسَمائة عُقدة، ويُسَبِّحُ بها بين يديه، وأقرّه على ذلك. وأمّا حجمُها، فلا اعتبار به، إذا ثبت أنّ الأصل مشروع، سواء عَظُمَتْ أو صَغُرَتْ، فلا يُلْتَفَتُ إلى ذلك.

فقال ظافر: لعلّ التجريد وتخريبَ الظاهر، لا يصلُح لكلّ أَحَد.

فأجاب الشيخ: صحيح، وهَا هُمْ أصحابي، منهم من نحا نحو التجريد والتخريب كالبوزيدي رحمةُ الله عليه، وابن عجيبة، ومنهم من فضّل عكس ذلك، كسيّدي محمّد الحرّاق. وجملة القول إنّ التجريد «بمنزلة الإكسير الذي قِيرَاطٌ منه يَقْلِبُ الخافِقَيْن، فلا يكرهُه أحدٌ إلّا إذا لم يجده». وقد قال ابن عطاء الله «إرادَتُكَ الأسبابَ مع إقامةِ الله إيّاكَ في التجريد انحطاطٌ عن الهِمَّةِ العالية». فلا تَلْتَفِتْ للمنكرين المُؤْثِرِينَ للفانية على الباقية، ولو أنّهم ذاقوا حلاوةَ التجريد ما رغبوا عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ.

ولقد جئتَ في وقتك، فإنّي أحتاجُ إلى الحديث معك في أمر عظيم الأهمِّيّة.

فقال ظافر المدني: خيرًا إن شاء الله.

فقال الشيخ: إنّه يتعلّق بأمر المسلمين. فأنت ترى أنّ الأمم النصرانيّة قد تكالَبَتْ على بلاد المسلمين، وانحسَرَ الإسلام عن بلاد الأندلس بعد أن شعَّت من هناك حضارة عظيمة، ولم يتوقّف المدُّ النصراني الصليبي حتى ناوشنا في بلادنا هنا وهناك، والآتي أعظم.

فقال المدني: وما هو الأمر الهامّ يا سيّدي؟

فأجاب الشيخ: إنّ دورة الإسلام قد انطلقَتْ منذ بزوغ نور سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام إلى العالمين. وقد بلغَتْ تلك الدورة أَوْجَهَا مع دخول العثمانيّين إلى رومية أو القسطنطينيّة،

وبالمقابل، فبعد أربعين سنة من هذا الانتصار انتهى حكم المسلمين في الأندلس وسقطت آخر مملكة إسلاميّة في غرناطة. وبعد ألف سنة على الرسالة المحمّديّة ونهاية عصر الخلافة الراشدة، ظهرت الفتن، واستقوى التدجيل. وإنّنا في هذا الصقْع من العالم الإسلامي قد وقفنا ضدّ كلّ مظاهر هذا التدجيل ووقفنا سدًّا منيعًا أمام نفوذه إلى بلاد الإسلام، لكنّهم قادمون لا محالة. والخلافة الإسلاميّة اليوم مُهَدَّدَةٌ بحِلْفِ التَّدجيل الذي يقتطع منها شيئًا فشيئًا حتى لا يُبقي إلّا على أشلاءَ مُمزَّقَة. وأمام هذا الأمر، لا بُدَّ لدوائر الوِلاية والصَّلاح أن تقفَ أمام هذا المدّ التدجيلي المادّي. وقد آن الأوان يا صاحبي أن نَنْقُلَ سِرَّ الدّلالة على الله إلى **قلب** الخلافة الإسلاميّة حتى يبقى السِّرُّ رغم موجة سونامي القادمة.

فقال ظافر المدني: وما هي **موجة سونامي** يا شيخنا؟

فقال الشيخ: إنّها موجة الانحراف والتدجيل التي تتقنَّع بأفكار التَّحَرُّر. وإنّي علمت فيما يعلَمه العبد من ربّه أَنْ سَيُخرِجُ الله من صُلْبِكَ ولدًا يُبلِّغُ هذا السِّرّ في قلب الخلافة العليَّة العثمانيّة. وأعظم قلب في الوجود هو قلب الصالحين. «وسَتَعُمُّ الوجودَ رحمة عظيمة إن شاء الله تعالى كما عمّته زمنَ الجنيد والغزالي والشاذلي والحاتمي ونُظرائهم رضي الله عنهم، إذ كلًّا منهم كان في الوجود بمنزلة القلب الصافي المجوهَر في الجَسد». فارحلْ إلى برزخ الشرق والغرب من البلاد الإسلاميّة، أمّا مَغرِبُها فقد استعمَلَنا الحقُّ في الدفاع عن ثغورها، وهذا سلطان هذه المملكة الشريفة قد أخذ وِرْدَنَا ونافح عن طريقتنا. وإنّ أكبرَ خوفي على الخلافة أكثر من خوفي على هذه البلاد التي ضَمِنَ الحقُّ لها الحفظَ لِسِرٍّ أراده فيها.

تعبَ الشيخ من الكلام، ولقَّنَ الاسم المفرد مجدَّدًا لظافر المدني، ثم طلب منه أن يعمل بوصيّته.

مرَّتْ أشهر قليلة، وتُوُفِّيَ الشيخ محمّد العربي الدرقاوي، فنقلوه إلى زاويته القديمة في بوبريح ودفنوه بها.

غادر محمّد ظافر المدني بلاد المغرب حتى وصل إلى طرابلس، فالتَفَّ حوله الناس، ثم انتقل منها إلى مصراتة، فأعطاه أهلُها قطعةَ أرض أسّس عليها زاوية، ثم رزقه الله ولدًا بعد ستّ سنوات من وفاة شيخه الدرقاوي، فسمَّاه محمّدًا.

* * *

«لو كانت الكرة الأرضيّة عبارة عن دولة واحدة،

لوجب أن تكون عاصمتها إستانبول».

**نابليون**

يَسَّرَ الله في بروزي للوجود في دورة الانقلاب الفلكي السنوي، حيث وُلدت في السادسِ عشرَ من شعبانَ الموافق للواحد والعشرين من الشهر التاسع الميلادي. كانت أمّي، واسمها تِيرْمِزْكَان قَادِين، تَخُصُّنِي برعاية خاصّة، بسبب موت أختي البِكر نعيمة بِدَاءِ الجُدَرِي في سِنٍّ تُقارِبُ العامين ونصف العام، كما مات أخي الأصغر محمّد عابد أفندي حينما كانت سنُّه تقارب الشهرين فتضاعف عطفُها عليَّ، وحُزْتُ كمِّيَّةَ العَطْف التي كنتُ سأقتسمها مع أختي وأخي لو قُدِّرَ لهما العيش. لكن أمّي كانت تتحاشى تقبيلي، وكان هذا يؤلمني ويغيظني في الوقت نفسه، ولم أكن أعلم سببَ إعراضها عن تقبيلي، وأتحيّرُ في شدَّة حبِّها لي، إلّا أنّها كانت تُعوِّضني عن التقبيل باللُّعب التي كانت تُهديها لي وتطلبُ منّي

أن أجلسَ أمامها وألعبَ بها، وحسبُها أن تنظرَ إليّ، فأرى في عينيها الخضراوين ما لا تستطيعُ أن تقولَهُ الكلمات أو تُوَقِّعَ به الشِّفاهُ القُبلات. وممّا كان يزيد في تعاستي أنّي لم أَكُنْ أحْظَى بالتَّقبيل إلّا من حاضِنتي وخادمتي بحسَب العُرف الصَّارم المتَّبَع في دولة آل عثمان. فلم يكن يُسمَحُ بتقبيل أو حَمْلِ الأمراء الصغار إلّا من قِبَلِ أمّهاتهم وخادماتهم وحاضناتهم.

كانت أمّي امرأة جميلة، شعرها أشقر طويل، وبشرتها شفَّافة بيضاءُ كالبِلَّوْر، فكنت أرى من تحت شَفافَتها عُروقَها الفستقيّة. قوامُها نحيف وخَصْرُها دقيق وسيقانها جميلة ويداها رفيعتان. وكان لها دفتر تكتب فيها أهمَّ الأحداث التي حصلَتْ في حياتها. وذات يوم أخبرتني عن يوم ولادتي، فقالت:

ـ لقد وُلدتَ في صباح يوم الانقلاب الخريفي.

فسألتُها:

ـ وماذا يعني ذلك؟

فأجابت:

ـ في كلّ سنة هناك اعتدالان يكونان في الربيع والخريف، وانقلابان يكونان في الشتاء والصيف. ففي الاعتدال يتساوى الليل والنهار، وفي الانقلاب يزيد أحدهما على الآخر.

ثم أضافت: إنّ أَشِعَّةَ الشمس في الفصل الذي وُلِدْتَ فيه تكون عموديّة، ويتساوى الليل والنهار في هذا اليوم في أنحاء الأرض، وهو أوّلُ أيّام الخريف. ثم يبدأ الليل يأخذ في الزيادة من النهار.

- وما معنى أن يولدَ الإنسان في وقت يزيد فيه الليل على النهار؟

تعوَّذَتْ والدتي من الاحتمال الذي فَتَحَهُ سؤالي على كلامها، فقالت: أرجو الله أن يكون عهدك يا بني، حينما تَكْبرُ وتتسلَّم الحكم، عَهْدَ نُورٍ، وليس عهدَ ظلمة.

حاولت أن أُبَدِّدَ تفاؤُلها بالسؤال مرّة أخرى، فقلت: هل هناك تأثير للزمان والمكان اللذين وُلد فيهما الإنسان؟

تلبَّثَتْ والدتي لِتُفَكِّرَ في هذا الكلام البسيط في مبناه، العميق في معناه، وكأنّها تحاول أن تتبيَّن ما يدور بخَلَدي لتُوَجِّهَ بجوابها تساؤلاتي الكبيرة، وتشاؤمي الخفي من ولادتي في أوانِ زيادة الليل والظلمة على النهار والنور. لكن أمّي تنبَّهَتْ لتخوُّفاتي فقالت:

- كلُّ إنسان يصنَع قدَرَهُ يا بني، وما الليل والنهار إلّا أوانيَ تُطبَخُ فيها حياة الإنسان، ولا بدَّ للطاهية والطاهي من مَوادَّ لصُنعِ طعامه.

أعجبتني هذه الاستعارة الجميلة التي أجابت عن تخوّفاتي، ومثَّلت حال الإنسان بالطاهي الذي يتصرَّف في شؤون حياته كما يتصرَّف الطاهي بالموادّ والمقادير ومُدَّة الطَّهي وغيرها من العناصر، لكنّي عاودتُ الإغارةَ عليها بسؤال آخر: وهل الإنسانُ وحدَه هو من يطبخُ تفاصيلَ حياتِه؟

قالت والدتي، وهي أكثرُ يقينًا مِنْ ذي قبل:

- بل تُوجِّهُ شؤونَ الإنسان حكمةُ الله في خلقه.

أدركتُ أنّ أمّي أَقْفَلَتْ أمامي بابَ المناقشة حتى لا أُثيرَ عليها

أسئلة لا تستطيع أن تجيبَ عنها، فحوَّلتُ الوجهةَ صَوْبَ موضوع آخر.

ـ وكيف كانت الحرارة في إستانبول وقتَ ولادتي؟

فأجابت مرّة أخرى:

ـ كانت الحرارة في ذلك اليوم معتدلة، كما هي عليه في هذا الوقت من السنة في إستانبول، أو بالأحرى إسلامبول، أي مدينة الإسلام.

ـ ولماذا تسمّينها إسلامبول؟

فأجابت الأمّ:

ـ لقد بشَّر النبي عليه الصلاة والسلام بفتح القسطنطينيّة، لما قال «لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينيّة، فَلَنِعْمَ الأميرُ أميرُها، ولنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيش». وحينما فتحها المسلمون يوم الثلاثاء الرابع عشر من رمضان سنة سبع وخمسين وثمانمائة، دخلها جَدُّك محمّد الفاتح بعد ثلاثة أيّام، في يوم السابع عشر من رمضان قبل صلاة الجمعة، وسمّاها «إسلامبول» لأنّ كبار صلحاء المسلمين كانوا يدعون الله أن يجعلها مدينة الإسلام.

ـ وما هو أوّل عمل قام به؟

ـ لمّا دخل جدّك الفاتح إلى هذه المدينة، وقف عند تمثال ثعبانٍ مُثَلَّثِ الرأس، كان الإمبراطور قسطنطين الأكبر قد وضعه قرب مكان أيا صوفيا، رمزًا لانتصار الرومان على الشرق القديم، فضرب الفاتحُ التمثالَ ضربةً واحدة أطاحت بِفَكَّي الثعابين الثلاثة. ومنذ هذا التاريخ صارت العاصمة المقدَّسة للدولة الرومانيّة

والحضارة الهيلينيّة والأرثوذكسيّة، عاصمةً للدولة العثمانيّة، ومنارةً لإشعاع حضارة الإسلام.

ـ هذه سيرة عظيمة، لكن أخبريني، كيف كانت طباعي يا أمّي؟

ـ لقد نشأتَ في القصر السلطاني هادئَ الطِّبَاع، لا تُحْدِثُ ضجيجًا، ولا تُزعجني بكثرة البكاء. وكنتَ تُحِبُّ أن تلهو باللُّعَب الثمينة التي كنت أَحرصُ على إهدائها لك، لكنّك لم تكن مُشاغِبًا كما هو حال بعض الأطفال، وكنتَ مُنَظَّمًا أشَدَّ التنظيم، بحيث لم تكن تَعْبَثُ بتكسير تلك اللُّعب، بل تمرحُ وتلعَبُ بها، فإذا أنهيتَ اللَّعِبَ أرجعتَها إلى مكانها. وكثيرًا ما كنتُ أطلبُ من خادمتِك مُرافقَتَكَ إلى حديقة القصر للتفرُّج على الحيوانات التي كانت بها، فَتُحِبُّ اللعبَ مع الصغير والأَلِيفِ منها، وتبقى تلاحظ الأخرى.

ـ وكيف كان حالي مع التعليم الأوّلي؟

فأجابت والدتي:

ـ لقد كنتَ تُحِبُّ المُدَرِّسِينَ الذين يتناوبون على تعليمِكَ ما يَليقُ بأبناء السلاطين أن يَعْلَموه. وإنّي أذكرُ أنّ أَوَّلَ دَرْسٍ أخذتَه كان بحضور والدك. ومن شجاعتك أنّ أوّلَ يومِ دراسةٍ كان هو يومُ خِتانِكَ أيضًا.

تفكَّرْتُ في هذا التلازم بين يوم الدخول إلى عالم الرجولة والانتساب إلى الأمّة الإسلاميّة، في اليوم ذاته الذي أُقْبِلُ فيه على العلم، فعلمتُ أنّ الانتسابَ إلى الأمّة والدُّخولَ في طور الرجولة، يَتِمُّ أساسًا من باب العلم بذلك. في يوم الألم والجُرح، يتمُّ

الانتماء والدخول في طور من أطوار النشأة الحسّيّة والمعنويّة. إنّ الانتماء الحقيقي هو الذي يخرج من بين فَرْثٍ ودَم، بين سعادة ولذّة. كما هي كلّ لحظات الحياة. إنّ هذه الازدواجيّة والتلازم بين الألم واللذّة هي ما يؤسِّسُ هويّة كلّ إنسان.

وفي هذه الأثناء دخل علينا الآغا إبراهيم أفندي، فضحكتُ من طلعته وسُررتُ بقدومه، ثم ناديته فرِحًا مستبشرًا: أفندي.

ثم قفزت على ظهره فاحتمَلَني المسكين رغم قِصَرِه. وفجأة تَدَخَّلَتْ أمّي إشفاقًا على القزم إبراهيم أفندي وقالت: اتركه يا سَبُعِي، فإنّ وزْنَكَ قد ازداد.

فقال إبراهيم أفندي: لا عليكِ يا مولاتي، فإنّ حَمْلَ سيّدي هو من دواعي غِبطتي وسروري.

وقبل أن يُكمِلَ الآغا إبراهيم حديثَه كنت أهمْزه كالدَّابَّة لِيَرْكُضَ بي، فتحرَّك المسكين وأنا أضحكُ من حركاته المتسارعة. وحينما كان يَتْعَبُ، تتضاءلُ سرعتُه، فيمشي على أربع وأنا فوقه مثل الفارس على دابّته.

كان إبراهيم أفندي من الآغوات البيض الذين يشتغلون في قصر **طولمه باغجة** الذي كنت أسكن فيه. وكانت والدتي تعيش في قصر بكلربكي بسبب مرض السُّلِّ الذي ألَمَّ بها، إذ كان أليقَ بها لأنّه على ساحل البحر، وذلك لتغيير الهواء. كنت أزور والدتي كلّ يوم في سراي بكلربكي، وحينما أزورها كانت تلعب معي لعبة البحث عن الكنز، فتضع كيسًا من أرباع الليرات الذهبيّة، وكيسًا آخر من القروش الفضّيّة تحت الوسائد القطنيّة الحمراء على

السرير، ثم تقول لي: هيّا يا سبعي، انظر ماذا تجد تحت الوسائد؟

أبدأ في البحث، وحينما أجد الكيسين، كنت سعيدًا فأُدخل السعادة على قلب والدتي الطيّبة، التي كانت تتقطّع من الألم لكونها كانت تعلم أنّ مرضَها لن يتركها تستمتع بمثل هذه اللحظات مع ابنها، وكنت أجهل ذلك وقتَها. ولم يكن يخفِّفُ عنها إلّا رؤية سعادتي وفرحتي حينما أجد الكيسين. وحينما أغادر، كنت ألمح الحسرة تَلُفُّها، ممزوجة بخيط من الأمل في معاودة اللقاء في اليوم الموالي. كان إبراهيم أفندي يرافقني في زيارة والدتي، فكانت تقول له دومًا «انتبه لولدي، فهو أمانة في عنقك». ثم كان يزورنا في قصرها بائع المهلّبيّة، فنسمع صوته من بعيد لدى ترديده: مهلبيجي بيجي بيجي.

كان يوزّع علينا المهلّبيّة فنأكل منها ونمرح، ثم أخرجُ إلى حديقة القصر مع إبراهيم أفندي، فأركب حصانًا قزمًا وأركض به.. يعدو إبراهيم أفندي القزم في إثري. لقد كان منظرًا عجيبًا، إذ كنت أرى الأشياء وفق حَجْم الصِّغار، وكنت أحسبُها كذلك. استمرَّ الأمر على ما أذكر هكذا بعض الوقت، ثم مُنعتُ من الذهاب إلى سراي بكلربكي، فاحتججت، ولمّا لم يكن بإمكان أحد أن يخبرني، وحتى إبراهيم أفندي راوغ براءتي في تفسير المنع الذي طالني في الذهاب لزيارة والدتي. ثم لمّا لم يعد ممكنًا أن يُخْفُوا عنّي الأخبار السيّئة، أخذوني إلى والدي السلطان عبد المجيد، فأعلمني بوفاة والدتي، فَبَكَيْتُ كما لم أَبْكِ من قبل مثلَ ما بكيتُ ذلك اليوم، حتى أشفَقَ والدي السلطان عليَّ، وبكى لبكائي، ثم احتضنني وقال لي: لا تبكِ يا بنيّ، فلا اعتراضَ على أمر الله، وأنا

أبوكَ وأمُّكَ معًا. ثم قبَّلني وحاول التَّرويحَ عنّي. ماتت أمّي في سنّ الشَّباب حيث لم تُجاوِزْ **الثالثةَ والثلاثين**، وكنت وقتها في سنّ السابعة من عمري.

بعدها بدأ طور آخر في حياتي، فقد دعاني والدي مرّة إلى غرفته، فدخلتُ عليه، وأخذ يكلّمني كلام الرجال، وأنا أستمع، فلمّا أنهى كلامه قبّلتُ يدَه، ثم أدخلني تحت ردائه وخرج بي قاصدًا حريم نسائه، حتى دخل بي إلى دائرة زوجته الرابعة بْرِسْتُو قَادِين أفندي، فلمّا دخلنا سلَّم عليها فردَّت السلام.

ثم قال: لقد جئتُك بابنٍ جميل. ثم أزال الرداءَ فطلعتُ من خَلْفِهِ، فشَهِقَتْ برستو قادين. ثم قال لي والدي: هذه أمُّك فقبِّلْ يدَها. أَكْبَبْتُ على يدِها أُقبِّلها فأخذَتْنِي وحضنتني في صدرها وقبّلتني.

ثم قال لها والدي السلطان: تركتُه أمانةً عندَك بعدَ الله، فاعتني به كعنايتك بولدك. كنتُ ألحَظُ برستو قادين، وهي تَرْشَحُ بِدُرِّ السعادة، فضمَّتني مجدَّدًا إلى صدرها، ونادت عليّ: يا ولدي، وقُرَّةَ عيني، أنا أمُّكَ منذ هذا اليوم.

كان والدي قد تزوَّجَ منها لمّا رآها في بيت عمَّته، فسلبَتْ قلبَه، ولم يُنْجِبْ منها. وكان حرمانُها من الولد سببًا في اختيارها للعناية بي. ثم ما لبثَ والدي أن أتى بأختي غير الشقيقة من أبي، الأميرة جميلة التي فقدت والدتها هي الأخرى، وعَهِدَ بها أمانة إلى زوجته برستو قادين، فنشأنا معًا في ظلّ هذه الوالدة الطيّبة.

* * *

نشأتُ في إسلامبول أو استانبول، هذه المدينة التي تمتدُّ لتجمع بين قارّتين، ففي الساحل الغربي لمضيقها توجد المدينة الأوروبيّة، وفي ساحلها الشرقي، توجد المدينة الآسيويّة. إنّها مدينة الخلافة التي جمعت بين الشرق والغرب، لكنّ النواة الرئيسة للمدينة توجد في الجانب الأوروبي. وقد أخبرني إبراهيم أفندي أنّ كلَّ حكّام العالم كانوا يعترفون بأنّ استانبول هي عاصمة الدنيا، حتى إنّ كاترين الثانية ذكرت أنّها كانت ترغب في التنَكُّر في زيّ عاملة ألمانيّة لزيارة المدينة والتمتّع بمباهجها، لكنّها ماتت ولم تحقّق رغبتها. حينما تنشأ في مدينة كهذه، تُحِسُّ بالتَّمَيُّز، فأنتَ في مركز العالم وزينةِ الدنيا وعاصمةِ الإسلام. وتأتيكَ كلُّ عجائبِ الدنيا هنا، فلا تحتاجُ إلى السَّفَرِ لِجَلْبِهَا. لعلَّ بعضَ الأمراء تأثَّروا اليومَ بتقليعَة العصر، فصاروا يَرْطِنُونَ بالعُجْمَةِ الغربيّة ويفضّلون باريس ولندن على استانبول، وتلك واحدة من العَثَرات التي لم أَكُنْ أرتضيها أو أُولَع بها.

لا شكّ أنّ بناء استانبول فوق هضابها السبع يعتبر في حدّ ذاته ميزة خاصّة لما يثيره هذا العدد السحري من إيحاءات بالكمال، تمامًا كما هي السماوات السبع وأيّام الأسبوع، وكلّ المسبّعات الوجوديّة. إنّ هذه المسبّعات الخارجة عن قبضة الإنسان تحشره في مجال مطلق يطبع هويّته وثقافته، وهكذا كانت استانبول. وممّا كان يتداعى إلى ذهني حينما أذكر قيام استانبول على تلالها السبع أنّ أمّي كانت تنادي: يا سَبُعي، فَأَطْفِقُ أُقارِن بين قيام كياني على هذه السَّبُعِيَّة، وبناء استانبول، فأزداد فخرًا، وأُحِسُّ بارتباط عجيب مع هذه المدينة. ولا شكّ أنّ أهل المدينة قد يُحِسُّونَ بنفس ما أُحِسُّ

به، فالقوميّات التي تتألَّفُ منها دولةُ العثمانيّين سبع: الترك والعرب، والأكراد، والألبان، واليونانيّين، والروم، والأرمن.

ما أجملَ أن تكونَ في السراي وتتمتَّعَ بمنظر السفن والزوارق التي تَمْخُرُ عُبَابَ المضيق جِيئَةً وذهابًا، تربط بين طَرَفَي المدينة ـ القارَّة. يجلس المسافر الذي يريد أن يستمتعَ بمنظر بَحْرٍ مَرْمَرَةَ في مؤخّرة الزورق، ويستنِدُ بظهره إلى القارب، فترى المجذِّفَ بقميصه الحريري وحِزامه الأَطْلَس، ولون بَشْرَتِه النُّحَاسي الذي أَلهبَتْهُ شمسُ البوسفور، يعالجُ زورَقَهُ بين الأمواج، كالموسيقي الذي يُوَقِّعُ على آلة وتريّة كبيرة صُنعَت من الماء والمجاذف. وما أجملَ اللَّحْنَ الذي تسمَعُه عند انطلاق هذا العَزْفِ البحري، والتقاء عُنْصُرَي الماء والخشب! فينطلقُ اللحنُ تأخذُه الريح حتى يتنزَّلَ في ذاتك رَوْحًا وريحانًا. ولا يفسدُ عليكَ هذه الجلسةَ في صالون الموسيقى البحريّة سوى هذه السفن البخاريّة التي تُنافِس الزوارقَ الشراعيّة، فَتَمُرُّ بجانبك تَزْفِرُ زَفرًا يُخْرِجُكَ عن هدوئك، وتُلْقِي على ثيابك الماءَ حينما تُحاذِيها، فَتَتَنَكَّدُ الرحلة بعد أن كنتَ سَادِرًا في الموسيقى المنبعثة من تَزَاوُج الماء والريح والعِيدان. استانبول من أكثر المدن تغيرًا، فالجوّ يتغيّر من ساعة إلى أخرى، وقد أثَّرَ ذلك على سكّانها، فهم على صورة مدينتهم في تَغَيُّرِ المزاج. ومن أعجب العجائب في مدينتنا إسلامبول، كونُها مبنِيَّةً بالخشب أو الحجَر. ويُحِبُّ أهلُها البيوتَ الخشبيّة، لكنّ المباني العامّة مثل المساجد والقصور العظيمة وغيرها كانت تُبنى بالحجر. وقد عانت استانبول من الحرائق التي كانت تأتي على هذه البيوت الخشبيّة. ورغم هشاشة هذه البيوت، فإنّ الأمن مُسْتَتِبّ، ولهذا كان الناس

يُفضِّلونَ بناء دُورِهِمْ من الخشب، ولا يتخوَّفون من اللُّصوص، إذ نادرًا ما كانت تَحْدُثُ السرقات أو الإخلالُ بالأمن العامّ. وإذا حدث، فعادة ما يكون من بعض لصوص الروم أو البَلغار أو غيرهما. ومن مُؤَشِّرَاتِ الأَمْن الواضحة التي لا تُخْطِئُ هو مُسارعةُ الناس إلى الصلاة في أوقاتها، وتَركُهُمْ لمحَلَّاتهم التجاريّة أو بيوتاتهم مفتوحةً. كما كان بإمكان أيِّ مُواطن عُثماني مهما كانت جنسيَّتُه أو ديانَتُه أن يتركَ أغراضَه الثَّمينة أو أموالَه في المسجد بدون مقابل، فَتُحْفَظَ بأمانة وحرص. وعلى الرّغم من أنّ سُكّانَ مدينتنا كانوا من جنسيّات وأعراق ومذاهب وديانات مختلفة إلّا أنّ الجميعَ تطبَّع بأخلاق العثمانيّين، فالناس هنا لا يَسْهَرُونَ، بل ينامون مُبَكِّرًا ليستيقظوا باكرًا، على عكس ما يُشَاهَدُ في الحواضر الأوروبيّة الأخرى التي يُقَارِعُ فيها الناسُ دِنَانَ الخمور، فتنشَبُ الخصومات، ويَضْطَرُّ الخصوم إلى المبارزة والانتقام.

كنت أُحِبُّ التَّسَكُّعَ في هذه المدينة العظيمة رفقةَ إبراهيم أفندي. وكان يُسْمَحُ للأمراء بالتَّجَوُّلِ في المدينة مرّتين في الأسبوع، فيَخرجونَ مع مُرافقيهم داخل العربات، ويُعطى لكلّ أمير كيسٌ من النقود الفضِّيّة ليصرفَه كيفَ يَشاء. لكنّي كنتُ أُحِبُّ أن أخرجَ مُتنكِّرًا في ثياب عادية حتى لا يَلحظنا أَحدٌ، ونَجُوسَ خلال الدِّيَارِ بين الجوامع العظيمة وكنائس الطوائف المسيحيّة الأرثوذكسيّة والغريغوريانيّة والكاثوليكيّة والبروتستانتيّة، ومعابد اليهود. لكنّ الكنائس لم تكن تَقْرَعُ أجراسَها، وإنّما كانت ساعةُ المدينة تحدِّدُها أصواتُ المؤذّنين المرتفعة من مختلف منائر الجوامع في توقيع عجيب وترتيب فريد، إذ يبدأ الأوّل، ثم يعقُبُهُ الثاني، ومباشرة

يليهما الثالث، وهكذا دواليك.. فلكأنّهم يُوَقِّعُونَ لحنًا ملائكيًّا. وما أجملَ أن تجلس في إحدى الساحات لتتنَعَّمَ بهذا اللَّحن العذب الذي يَسْلُبُ الألبابَ بتنسيقه! ومن العجائب التي ننعم بها في المساجد السلطانيّة الكبرى في استانبول هو أنّ أذان كلّ صلاة يكون بمقام موسيقي مختلف. فأذان صلاة الفجر بمقام الصَّبَا، وأذان الظهر بمقام الرَّصْد، وأذان العصر بمقام الحِجَاز، وأذان المغرب بمقام السِّيكَا، وأذان العشاء بمقام العُشَّاق. وكان لا يتصدّر لهذه المهامّ إلّا ذوو الأصوات النَّدِيَّة الشَّجِيَّة التي تخشَعُ لها القلوب.

ولو سُمِحَ للكنائس بِقَرْعِ أجراسها لحدَثَ نَشَازٌ في المدينة يَصُكُّ الآذان يَنْفِرُ منه الذوق السليم نظرًا للضجيج المترتِّبِ عنه. لكن كان يُسْمَحُ بِقَرْعِ أجراس الكنائس في بعض المدن أو القرى التي يقطنها أغلبيّة مسيحيّة. أمّا منذ عهد التنظيمات التي استحدثها والدي السلطان عبد المجيد، فلم يَعُدِ الأمر بهذه الصَّرَامَة، وسُمِحَ للكنائس بقرع أجراسها، فأثَّرَ ذلك على هدوء المدينة وانسجامها، وكأنّ قَرْعَ النواقيس كان نذيرَ شُؤْم ببداية تَمَزُّقِ الدولة. والمكان الوحيد في استانبول الذي تَقِلُّ فيه السَّمَاحة تجاه المسيحيّين كان هو قُرَّه كُوي، الحيّ الذي كان يسكُنُهُ المسلمون الذي هُجِّرُوا قَسْرًا من الأندلس سنة عشرة وستمائة وألف ميلاديّة، فكانوا لا يَسمحون للمسيحيّين بدخول حيِّهم والاختلاط بهم، لأنّ آباءَهُم وأسلافَهم عُذِّبُوا وأُحرِقوا، وسُلِبوا أموالَهُم من مسيحيي تلك البلاد.

وأهمّ معالم إستانبول أسوارها البيزنطيّة التي تحيط بداخل المدينة على مسافة طويلة جدًّا. وهناك بُرْجُ غَلَطَة الذي تركه

الجَنْوِيُّون، وبرج بايزيد الذي أمر ببنائه السلطان محمود الثاني، وبرج البنت وسط البحر، في مدخل البوغاز، ثم جسر الخليج الذي افتتحه جدّي السلطان محمود الثاني؛ ثم بَنَتْ جدّتي بعد ذلك بعشر سنوات قبل ميلادي، جسرًا ثانيًا على الخليج. وقد تأثَّرَ عمل بحَّارة القوارب من وجود هذين الجسرين، فَنَقَلُوا قاعدةَ عملِهِم من الخليج إلى البوغاز بسبب عَطالَتِهم.

هناك جزء من استانبول لا يسكنه إلّا المسلمون، ويُعْرَفُ بمدينة أيّوب في شمال الخليج، وفي هذا الجزء من المدينة قبر أبي أيّوب الأنصاري، وجامع السلطان الفاتح. وفي هذا الجامع قريبًا من مرقد الصحابي الجليل تَتِمُّ مراسِمُ البيعة، وتقليدُ السلطان سيفَ الخلافة ورايةَ الجهاد. وعادة ما يقلِّدُه هذا السيفَ ويسلِّمُهُ الرايةَ شَيْخُ الصوفيّة.

دخلتُ إلى الضريح الذي يَرْقُدُ فيه الصحابي الجليل أبو أيّوب، الذي لا يدخلُه إلّا المسلمون، فترحَّمْتُ عليه. ووقف إبراهيم أفندي بجانبي كأنّه فتى صغير، يفعَلُ مَا أَفْعَل.

خرجنا من الضريح، وفي طريقنا سألتُ إبراهيم أفندي عن بناية غير بعيدة عن الجامع، فأخبرني أنّها حمّام. كان هذا الفضاء مثيرًا جدًّا، وكنت أُحِبُّ الاستحمام، لكن وضعي كأمير كان يمنعني من الاختلاط بالناس، فأترُكُ الأمرَ لمخيّلتي تُعوِّضُني عن بعض ما لم تَشْهَدْهُ عيناي، ثم يُسعفني إبراهيم أفندي في استكمال الصورة.

كانت هذه الجولات تستمرّ حتى وقت الغروب، فأعودُ إلى القصر مُنْهَكًا بعد يوم حَافِل.

* * *

مَرَّت الأيّام وِفْقَ هذه الوتيرة بين تحصيل واستمتاع بمباهج الحياة في السَّراي حتى حَدَثَتْ حَرْبُ القَرَم التي هُزِمنا فيها أمامَ قوّة روسيا التي ما فَتِئَتْ تَقْطَعُ أَوْصَالَ الدولة العثمانيّة منذ القيصر بطرس الكبير، وأفصحَتْ أخيرًا عن أهدافها بالقضاء على دولة بني عثمان، فأسمَتْهَا برجل أوروبا المريض الذي ينبغي إعلانُ موته.

حدثَتِ القلاقِلُ في بلاد الشام. كان الدُّرُوزُ والمَوَارِنَةُ يقتسمون العيشَ في جبل لبنان، وبينهما مُنافسات قويّة وعَداوات مُتواصلة. وقد كان الدروز يطمَحون إلى استعادة قوّتهم بعد تقَدُّمِ نُفُوذِ الموارنة وتَوَسُّعِهِمْ على حساب الدروز في الجنوب. وزاد في تَعَقُّدِ الأمور أنّ أحدَ أمراء الأسرة الشِّهَابِيّة تحوَّلَ عن الإسلام إلى المسيحيّة، ممّا زاد من تَخَوُّفِ المسلمين من بَسْطِ الموارنة سيطرَتَهُم. وحدث هذا بعد أن غادرت القوّات المصريّة بلاد الشام وجبل لبنان، فتجدَّدَتِ العَداوَة القديمة بين الفريقين. وزاد في تأجيجها تدخُّلُ الدول الأوروبيّة إلى جانب هذا أو ذاك وإمدادهم بالسلاح، ممّا عمَّقَ الشُّروخَ بين الفريقين. فكانت فرنسا وروسيا تؤيّدان الموارنة، فيما ساندت إنجلترا الدروز. وقد تأخَّرَتْ دولتُنَا في التَّدَخُّلِ حتى تَتَّضِحَ لها الرؤية أو تُسَوَّى الأمور بشكل سلمي، كما كان يَحْدُثُ في السابق.

وحدث أن تَمَّ الاعتداء على أحد الموارنة، فَرَدَّ هؤلاء بقتل بعض الدروز، فقامت قيامة هؤلاء وانتقموا من الموارنة وأعملوا فيهم القتل، وخرَّبوا بعض قُراهُم ومُدُنَهُم وانتهبوها. انتقلتِ الفتنةُ إلى دمشق، وتحوَّلَ الصراع بين طائفتين إلى نزاع بين المسيحيين والمسلمين بفعل تدخّل قناصل الدول الأوروبيّة، خاصّة فرنسا

وإنجلترا. وثارت ثائرة سكّان دمشق من المسلمين، فقتلوا عددًا من المسيحيّين، لكنّ الأمير عبد القادر الجزائري، الذي كان يسكن في البيت نفسه الذي كان يسكنه في القرن السابع الهجري، الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي الحاتمي، انتصبَ للدفاع عن المسيحيّين وأَجارَ الآلاف منهم في هذا البيت، وقدَّمَ لهم الحماية خشية أن يُقْتَلُوا، وأبان عن فُتُوَّةِ أهل الإحسان وأخلاقهم العالية. وكنتُ قد رأيتُ هذا الأمير لمّا زار والدي السلطان في استانبول قبل أربع سنوات خَلَتْ، فأُعْجِبْتُ به، ودعا لي بخير، وطلب من والدي السماح لبعض أصحابه بانتساخ كتاب الفتوحات المكّيّة للشيخ الأكبر من النسخ المحفوظة في الدولة العليّة قصد طباعته.

وكانت القوّات الأوروبيّة تتحيَّن الفرصة للتَّدَخُّل في شؤون الدولة العثمانيّة، فقرَّرَتْ إرسالَ حملة عسكريّة تقودُها فرنسا، وفي إثرها المملكة المتّحدة وبروسيا وروسيا والنمسا.

ونتج عن هذه الأحداث انفصال لبنان عن سوريا، وأصبح جبل لبنان سنجقًا عثمانيًا يتمتّع باستقلال داخلي تضمنه الدول الأوروبيّة الخمس، إضافة إلى الدولة العثمانيّة، يقوم بإدارته متصرّف مسيحي كاثوليكي هو داود الأرمني الذي عيَّنَهُ الباب العالي بعد موافقة الدول الموقِّعَة عليه. وعلى الرّغم من الإجحاف الكبير في حَلِّ هذه الأزمة الطائفيّة إلّا أنّ فرنسا سحَبَتْ قوّاتِهَا من بلاد الشام.

كنت أَتَحَسَّرُ على تراجع قوّة دولتنا، وكنت أدرك أنّ الدول الأوروبيّة ماضية في قطع أوصال الإمبراطوريّة العثمانيّة، لهذا لم

أكن أرتاح إلى الإصلاحات التي بدأت في عهد والدي السلطان بتأثير من رجاله المتغربين.

* * *

توفي والدي، وبويع لعمّي عبد العزيز في يوم وفاته سنة واحد وستّين وثمانمائة وألف. وبعد أن كنت طليقًا حرًّا، لزمت السراي لا أخرج منه إلّا بإذن، كما هي العادة المتّبعة في الدولة بإلزام المرشّحين لولاية العهد بدخول القفص، وهو مقصورة داخل السراي. كان يرافقني في هذا السجن الذي لا يُفْصِحُ عن نفسه، أخي مراد الذي يَكْبُرُنِي بعامين. لم يَحْتَمِلْ أخي كثيرًا هذا المنع لأنّه كان مَرِحَ الطبع يحبّ مباهج الحياة، ويَعُبُّ منها في إسراف. كان خطُّ حياته لا يلائمني وأَنْفُرُ منه، وحاولت أن أُقْنِعَهُ مرارًا بالتَّقَلُّلِ منه، لكن غِرَّةَ الشباب وجَبروتَ المال وقوّة السلطان في عهد والدنا كانت مانعة له من رؤية المحاذير التي تحت هذا السلوك. فلمّا مُنِعَ من سابق ما أَلِفَتْهُ نَفْسُهُ، ضَجِرَ بهذا القفص، فلا تراه إلّا مزمجرًا مهمومًا. حاولت قَدْرَ المستطاع أن أُسَرِّيَ عنه، لكنّ النفوس مجبولة على حُبِّ الشهوات.

كان لا يُسمح لنا بالخروج إلّا في بعض الأوقات، وحتى منتزهات القصر، كنّا لا نخرج إليها إلّا تحت الحراسة. حاولت أن أستغلّ هذا الحبس الاضطراري في تكوين نفسي، فأكببتُ على كتب التاريخ والآداب أَعُبُّ منها عَبًّا وأروي ظمئي للمعرفة. قرأت كتاب الأمير لمكيافيلي، وأعجبني حِسُّهُ السياسي. كما كنت أحبّ قراءة روايات الكاتب الفرنسي ألكسندر دوما التاريخيّة؛ وكنت مشدودًا إلى بطولات أبطاله النبيلة أتوس وبورتوس وأراميس،

وانضمام دارتنيان إليهم. تَكَوَّنَ لي رصيد ساعدني على فهم الحياة، وعلى معرفة الأمانة التي حملها آل عثمان، أمانة الخلافة، وتمثَّلْتُ المستقبل واستشرفتُ آفاقه، وأدركتُ الانحدارَ الذي وصلَتْ إليه دولتُنا مقارنةً بالأمم الغربيّة. كان هذا الوعي المكتسَب شَاحِذًا للذهن على عدم الوقوع فريسةَ الحزن والاكتئاب جرَّاء الحبس. وتيقَّظَ في ضميري سِرُّ المسؤوليّة، وحَمْلُ الأمانة، فَوَطَّنْتُ النَّفْسَ على القيام بما يتوجَّبُ عليَّ فِعْلُهُ.

ثم بدأتْ تَخِفُّ الحراسةُ عليّ بعد أن استحكَمَ حُكْمُ عمّي، ففاتحني في أمر زواجي، فوافقتُ على طلبه رجاء أن أعيش حياة عاديّة، وأَفْتَكَّ من حياة الحبس والحراسة المضروبة عليّ. تزوَّجْتُ من نَازِك أَدَاء في سنة ١٨٦٣ بعد أن تعرَّفْتُ عليها، وراقتني بعيونها السوداء الغامضة، وسمرتها الأبنوسيّة، وشعْرها الأسود الطويل وقامتها الفارهة. كانت نازك عازفة ماهرة على البيان، وكنّا نعزف معًا، فآخذُ الكمان، وتتولّى هي العزفَ على آلتها. كان هذا التواطؤ حاسمًا في التقريب بين روحينا، وتسوية أوتار قلبينا على مقام الألفة والمودّة. ورغم شَكِّي الفطري ونُفوري من العواطف الجيّاشة الملتهبة، فإنّي سكنتُ إلى نازك وأحببتُها وأخلصتُ لها في محبّتي بقدر ما يمكن أن يُخْلِصَ أميرٌ في إمبراطوريّة تُقِرُّ بالتَّعَدُّد، وترى ذلك حقًّا من الحقوق الشرعيّة التي لا تُنَاقَش. كان عمري لمّا تزوَّجتُها واحدًا وعشرين سنة، وكانت نازك تبلغ من العمر ثلاثَ عشرة سنة، لكنّها كانت امرأة مكتملةَ البهاء والنُّضْجِ والفَرَاهَة. وبعد سنة من زواجنا رُزِقْتُ منها بابنتي الأميرة علويّة.

كان كبار الضيوف يزورون عمّي السلطان، فكان يسمح لنا

بحضور بعض هذه الزيارات والتباحث معهم. وممّن أذكره الأمير عبد القادر الجزائري الذي زارنا في بداية صيف سنة ١٨٦٥. ولمّا دخل علينا في قاعة السلاملك، وجدته قطعةً من نور رغم أنّه كان شاحب اللون؛ قامتُه متوسّطة، لحيتُه كثَّةٌ سوداء خَضَبَهَا الشَّيْبُ، جبينُه عَريضة، وعيناه زرقاوان لا تستطيع أن تُدِيمَ إليه النظر لأنّه يكشف عن ضميرك بمجرّد الْتقاءِ النظرات. كان يلبَس البياض، وعمامته جزء من ردائه. كان يحمل سبحةً سوداءَ في يده. فلمّا دخل سلَّم على السلطان فَرَدَّ عليه السلام، وطلب منه الجلوس عن يمينه كما كانت العادة عندما يزورنا كبار الشخصيّات المسلمة. فإذا كان غير مسلم جلس عن يساره.

ابتدر السلطانُ الأميرَ بالسؤال قائلاً: كيف كانت رحلتك يا أمير عبد القادر؟

فأجاب الأمير: الحمد لله، لقد أدَّيْتُ فريضة الحجّ، وجاورت هناك مدّة سنة ونصف تقريبًا. ثم قدَّمَ رَبْعَةً تحتوي على أربعة كتب، وقال: هذه يا سيّدي أوّلُ طبعة للفتوحات المكّيّة للشيخ سيدي محيي الدين ابن العربي قدّس الله سرّه؛ وقد كنتُ بعثت قبل سنوات صاحبين لي إلى الآستانة هما الشيخ الطنطاوي والشيخ عليش فانتسخا الكتاب من نسختين أصليّتين إحداهما بخطّ المؤلّف. ويَسُرُّنِي اليومَ أن أُهديكَ هذا العمل بعدما قمتُ بطبعه في مصر. وهو أَجَلُّ كتاب في روحانيّة الإسلام.

بَرَقَتْ عيناي لـمّا أوردَ ذِكْرَ هذا الكتاب وأحببتُ معرفةَ موضوعه، سيّما وأنّي قد سمعتُ مِرارًا كلمة كنّا نردِّدُها قائلين «إذا دخلَ السّينُ في الشِّينِ ظهر قبرُ محيي الدين». ولم يكن أحد يعلم

معناها إلّا لمّا دخل جدّنا سليم الأوّل الشام لأوّل مرّة وبحث عن قبر محيي الدين، فلم يسعفه إلّا رجل من الصالحين دلَّهُ عليه، فبنى عليه جدُّنا قبّة عظيمة، وبنى بجانبها مسجدًا جليلاً، وأخبره بمعنى هذا اللغز «السين هو سليم بينما الشين تعني الشام». كان لمحيي الدين مكانة كبيرة في الدولة العثمانيّة.

أخذ عمّي الكتاب وشكر الأمير على الهديّة الثمينة، ثم تطرَّق الحديث إلى السياسة وحالة الأمّة وأطماع الأمم الغربيّة، فتكلَّم الأمير بكلام نفيس قائلاً: يا مولاي، إنّ الأمّةَ مثلُ الجسدِ، والخليفةَ مثلُ القلبِ، ولا حياةَ للجسد بدون قلب. فأنتم في قلب القلب، وعليكم بالحفاظ على استمرار ماء الحياة في هذه الأمّة برعاية مصالحها آجلاً وعاجلاً.

فسأل عمّي: وكيف ذلك؟

فأجاب الأمير: لمّا تولّى الخلافة أبو بكر الصدّيق، أصبح غاديًا على السوق، وعلى رقبته أثوابٌ يَتَّجِرُ بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما، فقالا: أين تريد؟ قال: السوق. قالا: ما تَصْنَعُ وقد وُلِّيتَ أَمْرَ المسلمين؟ قال: فَمِنْ أَيْنَ أُطعِمُ عِيالي؟ ولمّا وَلِيَ خَطَبَ الناسَ، فَحَمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أمّا بعد، أيّها الناس، فقد وُلِّيتُ أمرَكم، ولست بخيرٍ منكم، وإنّ أقواكُم عندي الضعيف، حتى آخُذَ له بحقِّه، وإنّ أضعفَكُم عندي القَوِيّ، حتى آخذَ منه. أيّها الناس، إنّما أنا مُتَّبِع، ولست بمبتدِع، فإن أحسنتُ فأَعينوني، وإن زُغْتُ فقوِّموني».

فبكى عمّي وبكينا معه. ثم تطرَّق الحديث إلى قضايا أخرى. وكان في المجلس مدحت باشا، الصدر الأعظم، فسأل الأمير يريد

بذلك كسب التأييد لماسونيّته، قائلاً: ما قولك في هذه الجمعيّات الماسونيّة التي دخلت بلاد المسلمين؟

فقال الأمير: لا أعرف عنها الكثير، وبعد الفتنة الطائفيّة التي اندلعَتْ بين المسلمين والمسيحيّين في دمشق، قُمْتُ بما يمليه عليّ واجبي الديني بحماية المسيحيّين المستضعفين، فآويتُهُم ونصرتهم وَمَنَعْتُ عنهم القتل بفضل الله وعونه. وبعد أن خَمَدَتْ نار تلك الفتنة، راسلني جُلُّ كُبراء العالم بمن فيهم القَسُّ الأعظم في روميّة، وقيصر روسيا، وإمبراطور فرنسا نابليون الثالث وغيرهم. وفي خِضَمِّ هذه المراسلات، جاءتني رسائل من جمعيّات الماسون، تُنَوِّهُ بما قمتُ به وتتشرَّفُ بدعوتي إلى الانضمام إلى محافلهم التي تُمَجِّدُ الأخوّة الإنسانيّة. وفي البداية لم أَرَ عَيْبًا في هذا الذي يدعون إليه من الأخوّة الإنسانيّة. ثم توالت الرسائل والأسئلة، وقصدي من مراسلتهم دعوتهم إلى دين الإسلام وهدايتهم إلى الطريق القويم، إذ لاحظت أنّ فكرة الإيمان والألوهيّة حاضرة عندهم. ثم تبيَّن لي بعدما وقفتُ على رسائلهم وتفصيل بعض أجوبتهم أنّهم من الطبيعيّين والدهريّين الذين تحدَّثَ عنهم القرآن ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. فهم لا يؤمنون بالمعاد ولا بيوم القيامة، فلا بداءة ولا رجعة عندهم. وممّا قلته في هذا المعنى على لسان الألوهيّة:

أنا مُطْلَقٌ، لا تَطلُبوا الدَّهْرَ لي    وما لي مِنْ حَدٍّ، فلا تَبْغُوا لي حَدّا

لكنّي لا أزعم أنّي قد أَحَطْتُ علمًا بمذهب هؤلاء القوم، ولهذا قَرَّرْتُ الوقوفَ على أفكارهم خلال زيارتي إلى باريس ومُناظرتهم.

فاعترض مدحت باشا قائلاً: لكنّهم ينادون بقيم المساواة والأخوّة والتضامن. وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذه القيم في دولتنا المكوّنة من عدّة أعراق وشعوب. فلا يخفى عليكم حضرة الأمير أنّ رعايا أفندينا السلطان، منهم المسيحي واليهودي والمسلم، ولا شكّ أنّ القول بالأخوّة الإنسانيّة والمساواة بين رعايا هذه الدولة العَلِيّة، والتضامن بين أبنائها، لَمِمَّا يدعو إليه ديننا الحنيف.

فقال الأمير: وإذا كان ديننا يدعو إليها، فما حاجتُنا لأخذها من غيرنا؟

فأجاب مدحت باشا: إنّ أغلب رجال الأمم الغربيّة اليوم في بلادنا يعيبون علينا أنّنا نُفَضِّل رعايانا المسلمين على باقي الرعايا. ولا شكّ أنّهم بدأوا يستميلون كثيرًا منهم، أفلا يكون من الأولى أن نُظاهِرَهُم على ما يَدْعُونَ إليه، حتى نُثْبِتَ لهم أنّنا نشترك جميعًا في الأخوّة الإنسانيّة.

فقال الأمير: إنّ كلّ قيمة أخلاقيّة لا قيمة لها إذا لم ترتبط بمصدرها العلوي، وأحسب أنّ مصادر تلك القيم التي يتحدَّثون عنها أصبحَتْ منفصلةً عن الإيمان، بل لعلّها تُناقضه، لأنّها تريد أن تحصُرَ كلّ شيء في الإنسان المنفصل عن ربّه. ومن هذه الحيثيّة، لا يمكن بتاتًا مسايرةُ هؤلاء القوم فيما يَزعمون، فقد تنشَأُ عن هذا الأمر فوضى عارمة واختلاطٌ في القيم، ونُكوصٌ إلى البهيميّة. أمّا الخلافة العليّة فهي خُطَّةٌ شريفة، وهي القلب النابض في الأمّة، وعلينا أن لا نُفَرِّطَ فيها بمسايرة هذا اللَّفِيف. وأنت ترى حضرة الصدر الأعظم أنّهم ماضون في اقتطاع أجزاء من بلاد الخلافة. وها هم أبناء الأمّة أنفسهم يَزْمِرُونَ لهذه الأفكار الوافدة باسم

الإصلاح والتحديث. ولا أرى فيها، وأَيْمُ الله، إلّا الدَّمار والتَّخريب. وقد وقفتُ على ما كتبه أحد أتباعهم من مسيحيي العرب الأرمن، واسمه رزق الله حسّون وأترابه من الدعوة إلى القوميّة العربيّة، وهي دعوة عنصريّة يأباها دين الإسلام ويحذِّرُ منها. فقيمة الإنسان تُقاسُ بمدى تقواه لا بِعِرْقِهِ. وإن تُرِكَتْ هذه النار لتنشَبَ أتَتْ على الأخضر واليابس، وظهَرَتْ الدعوات الجاهليّة للقوميّة من كلّ شعوب الأمّة.

فقال السلطان متوجّهًا بالكلام لوزيره: دَعْكَ من هذا يا مدحت باشا، فأنا أعلم أنّك مبهور بهذه الأفكار الجديدة. وقد داخلني كثير من سفراء الدول الغربيّة في هذا، لا سيّما الإنجليز والفرنسيّين. وقد قمت بإصلاحات كثيرة لم يقم بها خليفة عثماني من قبلي، ممّا كان يدعو إليه هؤلاء، حتى استوجبتُ النقدَ من بعض علمائنا وفضلائنا؛ ومع ذلك، فهؤلاء يُسرِّبُون الصحفَ المناوئة إلى داخل دولة الخلافة وينتقصون من قدرها، ويخلقون بُؤَرَ التَّوتّر والنزاع في مناطق مختلفة من البلاد. وما ذكره الأمير صحيح، فقد بدأ بعض الناس يدعون إلى القوميّة التركيّة وآخرون للقوميّة العربيّة، ثم آخرون إلى القوميّة الكرديّة، وفي أعطافهم آخرون وآخرون إلى القوميّات الأرمنيّة واليونانيّة والألبانيّة والكرجيّة... ولو سرنا في هذا الاتّجاه لانفرط حبل الخلافة، وتشتَّتَتِ الأمّة إلى عرقيّات يُقاتِلُ بعضُها بعضًا. ومع علمي بما يَنويه هؤلاء، فإنّه لا مَناصّ من استمرار الإصلاحات التي بدأناها.

كنت أتابع هذا الكلام مع أخي مراد، وكنت معجبًا بكلام الأمير، بينما كان أخي مراد ينتصر لكلام مدحت باشا. وقد لاحظ

الأمير غبطتي حينما كان يتكلَّم، فابتسمَ لي. ثم قام عمّي السلطان، فوشَّح الأمير بوشاح كبير. واغتنَمَ الأميرُ الفرصةَ فطلب من عمّي السلطان العفو عن المتورِّطين في الأحداث الطائفيّة التي وَقَعَتْ في دمشق، فأجابه عمِّي إلى ما طلب. وبعد انتهاء مَراسم التوشيح استأذن الأمير، وطلب مِنْ عمِّي أن يأذنَ لي في مُرافقته، فخرجتُ أُسايره إلى قصر الضيافة التي كان يَسْكُنُ فيه، واطمأَنَّ على حالي، وترحَّم على والدي السلطان عبد المجيد. ثم أخبرني أنّه رآني لدى زيارته السابقة في عهد والدي، واستوصاه خيرًا بي، وكنتُ وقتَها فتى في العاشرة من عمري. ثم سألني عن رأيي في الحديث الذي جرى في مجلس السلطان.

فقلت له: يعلَمُ الله يا سيّدي الأمير أنّ كلامَك وصل إلى قلبي واقتنعتُ به. فهؤلاء الماسون ماضونَ في خططهم، والصدر الأعظم واحد منهم. وقد بلغني أنّه يجتمعُ بهم، وكلُّ القرارات التي اتَّخذها عمّي في اتّجاه التَّقَرُّب من الدول الغربيّة كانت تُتَدَاوَلُ في اجتماعات محفل الماسون في استانبول، فيقدِّمُها مدحت باشا إلى السلطان، ويشجِّعُه في اتِّخَاذِ القرارات بشأنها.

فقال الأمير: بورك فيك يا ولدي، لقد أدَّيْتُ فريضة الحجّ ودخلت غارَ حراء في خلوة استمرَّت مُدَّةً مع شيخي سيّدي محمّد بن مسعود الفاسي، الذي أخذ عن الشيخ محمّد حسن بن ظافر المدني، الذي أخذ عن شيخ شيوخنا مولاي العربي الدرقاوي. وقد أوصانا شيخ شيوخنا بنقل سرّ الدلالة على الله إلى أرض الخلافة. وأثناء الخلوة رأيت أنّ أمام الأمّة أيّامًا صعبة، وأنّ قلبَ الخلافة مُهَدَّد، ثم رأيتُ شابًّا جميلَ المحامد، يشبهك خَلْقًا وخُلُقًا، يقف

في وجه موجة سونامي التي تضرب في الشرق.

فسألت الأمير: وما هي موجة سونامي يا حضرة الأمير؟

فأجاب: إنّها موجة الماسون يا ولدي، وفي المشاهد البرزخيّة تُقْلَبُ الحقائق، فتأتيكَ مرموزة، وأولياء الله ممّن خصَّهم بالتعبير يفهمون تلك الرموز فيُعبِّرونها. فموجة سونامي تأتي من تجمُّعِ ماء المحيط، فتتعاظمُ حتى تصبحَ جبالاً عاتية، ثم تتقدَّمُ باتّجاه البَرِّ حتى تُغْرِقَه. وهكذا انقرضَتْ عدّة أمم بطوفان سونامي. والماسون اليوم هم هذه الموجة التي تعاظمت في الأمم الغربيّة. وقد اختارك الله لأن تتولّى أمور الخلافة كما ألهمني بذلك الحقّ في غار حراء، فأسأل الله لك السَّدَادَ والعون، ونصيحتي لك أن تحافظ على الجامعة الإسلاميّة التي تحفظُ للمسلمين ذِمَّتَهُمْ ولُحْمَتَهُم.

ثم انتفضَ الأمير وعَلَتْهُ لُمْعَةٌ بيضاء من أرض النور فقال: يا عبد الحميد، إنّ الأمم الغربيّة ماضية في قلب الخلافة، وعليك بالمحامد القلبيّة الجامعة لكلّ حمد، فهناك الرِّبَاط، هناكَ الرِّباط.

فقلت: هلَّا خصّصتني بِسِرِّ السَّيْرِ وَوِرْدِ الطريق الذي أَقْوَى به على مواجهة هذه الموجة إن قدَّر الله لي أن أتوَلَّى الخلافة؟

فقال الأمير: لقد كتبَ الله أن تأخذَ ذلك السرّ من طريق آخر، وعلى يد رجل آخر، تنال به **الظفرَ**. فإذا ظَفِرْتَ بهذا **الظافر**، فالزَمْ رِحَابَهُ وخُذْ عنه، فهو من نفس سلسلتنا الدرقاويّة الأكبريّة الشاذليّة المباركة. وقد كان شيخ شيوخنا مولاي العربي الدرقاوي قد استوصى أصحابه بحماية الخلافة العليّة ونُصرتها حين تأتي موجة سونامي الدجَّاليّة.

قَنَعْتُ بجواب الأمير الذي لم يكن يتكلَّم عن هوى، بل يخبر بإخبارات إلٰهيّة على عادة الصالحين من أهل الله. وبعد أن وصلنا إلى قصر الضيافة ودَّعته على أمل اللقاء به في القريب؛ ثم انصرفت إلى المقصورة. كان أخي مراد ينتظرني، فلمّا وقفت عليه ابتدرني قائلاً: ماذا يقول أميرك هذا؟

فقلت له: وما لي أراك غاضبًا ممّا قاله؟

فأجاب: إن كَتَبَ الله أن أتولَّى الخلافة بعد عمّي، فسأواصلُ الإصلاحات بشكل كبير، وسأُدْخِلُ الدستور في قواعد الخلافة. أمّا كلامُ صاحبك عن قِيَمِ الماسونيّة فكلام غير مُحرَّر.

فقلت له: يا أخي، أرجو الله أن تصبحَ خليفة المسلمين، لكنّ الخلافة لها شروط، وهو أنّها خلافة لرسول الله، فلا تنس هذا. لكنّي، أرى أنّ عمَّنا السلطان قد يُغَيِّرُ نظامَ ولاية العهد. ألا ترى أنّه قد وافق حاكم مصر، الخديوي إسماعيل باشا، على تحويل ولاية العهد إلى ولده المباشر، بدَلَ أخيه، كما هو مُتَّبَعٌ لدينا. ولا شكّ أنّها مقدّمة لما يريد أن يقوم به لدى آل عثمان.

أمّا فيما يخصُّ هؤلاء القوم، فهم يَدْعون إلى أن تنفصلَ الخلافة عن حقيقة الإيمان، وترتمي في أحضان الكفر. فلا تَغْتَرَّ بالكلام المنمَّق عن الأُخُوَّة والتضامن والمساواة التي روَّج لها الماسون. إنّها قيم فارغة من حقائقها، وهي مثل السُّمِّ في الدَّسَم. فهدف هؤلاء القوم هو قَلْبُ الخلافة والقضاء عليها.

فقال لي مراد معترضًا: أراك يا أخي عالقًا في أفكارك الاستبداديّة القديمة حول الخليفة والخلافة، والحكم المطلق. أمّا

عن ولاية العهد، فلا أظنّ أنّ عمَّنا السلطان قادر على مخالفة أعرافنا، وإلّا فما هو دور شيخ الإسلام والعلماء إِنْ قَبِلُوا بتغيير نظام ولاية العهد؟

لم يكن من الممكن إقناع أخي الذي كان واقعًا تحت تأثير مدحت باشا والماسونيّين الآخرين، فقلت له: لا تنس يا أخي أنّ الخلافة ميراث نبوي، وقد حكَمَ آل عثمان على هذا الأساس. إنّ قدَرَنا أن نبقى أوفياء لما جئنا إليه.

هزَّ مراد كتفيه، ومضى يعزف على آلة موسيقيّة ليسرّي عن نفسه.

* * *

استمرَّتِ الإصلاحات التي كان يظنّ والدي ثم عمّي أنّها ستوقف الأوروبيّين عن التدخّل في شؤون الدولة، فألغى تعدّد الزوجات، وسرَّح نساء الحريم، لكن هذه المؤسّسة كانت قويّة وتُشَغِّلُ اقتصادَ العاصمة استانبول كلِّها بطريقة غير مباشرة. وواصل عمّي الإصلاحات إلّا أنّه واجه بعض المتاعب بسبب تدخُّل نظام الباب العالي في شؤون الدولة[1]، فوقعت البلاد في أزمات ماليّة متلاحقة، وكثرت الديون، وتغلغلت القوّات الأوروبيّة في قلب

---

(١) الباب العالي: نظام أتت به حركة التنظيمات بديلاً من نظام الديوان كجهاز لإدارة الدولة. ويتقاسم الحكم فيه السلطان والصدر الأعظم والوزراء وشيخ الإسلام. وقد دفع هذا النظام بمشيخة الإسلام إلى درجة ثانويّة وشلَّ عملها. أمّا في نظام الديوان الذي كان أساسَ الحكم العثماني قبل التنظيمات، فيستند إلى ثلاث دعامات: السلطنة، الخلافة، ومشيخة الإسلام. فكان الديوان يأتمر بأوامر السلطان الخليفة، وتقوم مشيخة الإسلام بدور الشورى له.

الدولة وفرضت رجالاتها ونُظُمَها، بحُجَّة أنّهم خبراء ومستشارون لإصلاح شؤون المال والاقتصاد والإدارة. والحقيقة أنّهم كانوا يسعون لتقطيع الدولة إِرْبًا إِرْبًا بتواطؤ أو غفلة أو جهل من بعض العثمانيّين المتغربين.

وعلى الرّغم من أنّ عهدَ حُكْم عمّي لم يعرف ظهورَ حروب خارجيّة إلّا أنّه عرَفَ ظهورَ ما هو أخطر من الحروب، وهو بروز القوميّات في أقاليم الدولة التي ما فتئت تطالب بالانفصال بإيعاز من الأمم الغربيّة؛ وزاد في تفاقم الأوضاع سوء تدبير بعض الولاة للأمور بسبب بطشهم واستبدادهم.

وأطلقت روسيا سياسة الجامعة السلافيّة التي تدعو إلى قوميّة عرقيّة مَدارُها على السلافيين، وتطالب رعايا الدولة المسيحيين بالانفصال عن العثمانيّين. وكان السفير الروسي في استانبول المحرِّك لهذه الحركة السلافيّة بقصد إنهاء حكم العثمانيّين في البلقان، سواء في الجبل الأسود أو في صربيا أو في البوسنة والهرسك وبلغاريا.

ومُوازاةً مع ظهور هذه الحركات القوميّة، بدأَتْ تظهرُ ضمن الأتراك أنفسهم حركة تركيا الفتاة القوميّة التي قامت في سرِّيّة تامّة تُقَوِّضُ أركانَ الدولة ابتداءً من نهاية حُكم والدي عبد المجيد. وقد كان المموِّل الأساسي لهذه الحركة في البداية، حفيد محمّد علي، الأمير مصطفى فاضل باشا، الذي تولَّى الوزارةَ للباب العالي، وكان يفتَحُ أبوابَ بيته لاجتماع هؤلاء المارقين الماسونيين الأتراك.

كان والدي قد طلب في حدود سنة ١٨٦٠ من خير الدين التونسي أن يبعثَ له بالأديب أحمد فارس الشدياق بعد تحوُّلِه إلى

الإسلام، وصارَ يُنَافِحُ عن الدولة العثمانيّة ضدَّ أعدائها من أبناء النُّخَبِ المسيحيّة العربيّة، وخاصّة عدُوَّه اللَّدُود الأديب رزق الله حسّون (إسطفان حسّونيان) الأرمني المسيحي. وكان حسّون يدافع عن استقلال العرب، وخاصّة المسيحيين عن الأتراك، وكتب كتابًا أغفَلَهُ من توقيعه، وكان يُوزِّع سِرًّا بين أبناء الطوائف المسيحيّة العربيّة تحت عنوان «حَسْرُ اللِّثام عن الإسلام»، وجَّه فيه نقدًا لاذعًا للدين الإسلامي ووسمَهُ بالرجعيّة. ولمّا وقع الكتاب في يد أحمد فارس الشدياق أبلغ بغريمه، فاعتُقِلَ على الفور. كان حسّون يدعو سوريا إلى أن تصبح محمِيَّة تابعةً لروسيا. وقد وقع بين يدَيْ الشرطة العثمانيّة ما كان قد كتبَه على هامش مخطوط خطَّه للأناجيل الأربعة بالعربيّة قوله: «رَبَّاه، امنَحْ ألكسندر نقولايفيتش مَلِكَ هذا الزمان، القوّةَ والعُنفوانَ كي يحقِّقَ ما قاله الإسكندر المقدوني لِمَلِكِ الفُرْس داريوس في غابر العصر والأوان: وكما لا تَشِعُّ شمسان في قُبَّة السماء، كذلك لا يملِك في آسيا مَلِكَان». وكان يُعارض بذلك موقف الشدياق الداعم للعثمانيين، بينما هو يدعو إلى وضع العرب وآسيا تحت سيطرة قياصرة الروس.

وبمجرَّد اعتقاله، تحرَّكت الآلة الروسيّة للإفراج عنه من طريق عمّه، بطريرك الأرمن الكاثوليك في استانبول، بتواطؤ مع السفير الروسي، فأعانوه على الفرار برشوةٍ بعضِ مَنْ لا خَلاقَ لهم، ووصل إلى سان بطرسبورغ حيث احتضنه القيصر ألكسندر الثاني. ومن هناك ضاعف نشاطَه التخريبي في نشر أفكار القوميّة العنصريّة عند نُخَبِ الشَّرق.

* * *

كان عمّي السلطان قد غيّر العادات المتّبعة في الدولة القاضية بعدم سفَر السلاطين بعيدًا عن استانبول، فأخَذَنا سنة ١٨٦٣ في زيارة إلى مصر دامت خمسةَ أشهر. وكانت مناسبةً عظيمة استقبلنا فيها أهل مصر استقبالاً عظيمًا. وأصدر عمّي بالمناسبة وبإيعاز من رجال الدولة فرمانًا يسمَح بانتقال ولاية مصر من الأب إلى الابن الأكبر لإسماعيل باشا، محمّد توفيق باشا، بدل أخيه مصطفى باشا.

وبعد رحلة مصر، قرَّر عمّي السلطان عبد العزيز السَّفر إلى باريس للمشاركة في المعرض الدولي لسنة ١٨٦٧، واصطحبني مع أخي مراد في هذه الرحلة، خوفًا من أن يَتِمَّ الانقلاب عليه. كان يرافقنا في الرِّحلة أيضًا ابنُ عمِّنا السلطان عبد العزيز، يوسف عزّ الدين أفندي، التي كانت سِنُّه تبلُغُ وقتَها عشْرَ سنوات؛ ثم وزير الخارجيّة، وعمر فهمي أفندي، أستاذُ عمِّنا السلطان الذي تولّى بعد ذلك مشيخةَ الإسلام، ورئيس مترجمي الديوان الهمايوني، وسفير فرنسا في استانبول. سافرنا بحرًا في يَخْتِ الخَاقَان، ورافقتنا عدَّةُ سفن مُدَرَّعَةٍ. أمّا الصدر الأعظم عالي باشا فبقي في استانبول للنيابة عن السلطان. ولمّا وصلنا إلى مضيق جنا قلعة، رافقَنا الأسطول الفرنسي. كما أنّ الأسطول الإيطالي رافقنا من مِسِينَا إلى كورسيكا. نزلنا على اليابسة في صباح التاسع والعشرين من الشهر السادس، وكانت مراسم الاستقبال عظيمة جدًّا. بعد تناول الغداء والاستراحة ثم العشاء، ركبنا القطار من مرسيليا باتّجاه محطّة لِيُون في باريس التي وصلناها في اليوم الموالي على الساعة الحادية عشرة صباحًا. كان في استقبالنا الإمبراطور نابليون الثالث الذي

رحَّب بنا وسط احتفالات كبيرة. ثم ركبَ عمِّي السلطان رفقةَ الإمبراطور عربةً مفتوحة باتّجاه قصر تويلري Tuileries . وهناك قدَّم لنا نابليون زوجتَه الإمبراطورة أوجيني. وبعد عبارات المجاملة، توجَّهنا إلى قصر الإليزيه الذي خُصِّصَ لإقامتنا. وفي اليوم الموالي، تعرَّفنا على القيصر ألكسندر الثاني الذي كان قد وصل إلى باريس قبلنا. وبعد ذلك، زرنا المعرض الدولي.

وممّا أذهلني وغصَّ به ريقي، التَّقَدُّمُ الكبير الذي أحرَزَتْهُ الدُّوَلُ الأوروبيّة علينا في مجال الصناعة والفنون والعلوم بمختلف أنواعها. ومن أغرب ما رأيتُ البناء البيضاوي الحديث الذي شُيِّدَ لاحتضان هذا المعرض الدولي؛ وتتوسَّطُهُ حديقةٌ صُمِّمَتْ وِفْقَ معايير الحدائق الكلاسيكيّة الفرنسيّة ذات الخطوط الهندسيّة الصارمة. شارك في هذا المعرض أربعونَ بلدًا. وقد التقَينا هناك بعدد من ملوك الدول الأوروبيّة وغيرها مثل ملكة البرتغال، وأمير مملكة السويد، وملك بافاريا، وأمير اليابان، وقيصر روسيا ألكسندر الثاني، وولي عهد إنجلترا الأمير إدوارد، والخديوي إسماعيل، واتَّصَل سفير بروسيا بعمّي وأبلغه رغبة ملك بروسيا في زيارة مملكته.

وكان من دواعي سروري مُعاوَدَةُ اللِّقاء بالأمير عبد القادر الجزائري. فلمّا التقَينا هشَّ لرؤيتنا، وانشغل والدي مع كبار الضيوف، وانفرد بي الأمير، فمشينا نتفرَّجُ على المعروضات العجيبة الآتية من كلّ بلاد العالم. كانت فرنسيّتي لا بأس بها، فكنت أُدبِّر حالي. أمّا الأمير، فلم يكن يُحْسِنُ تلك اللغة. وبينما كنّا نزور أجنحة المعرض، جاء بعض الفرنسيّين يسلِّمون على الأمير

وكأنّهم يعرفونه من قبل، وطلبوا منه زيارَتَهم في مقرِّ جمعيّتهم. ترجمتُ للأمير أقوالَهم، فطلب منّي أن أخبرهم بأنّه مشغول مع مُضيفه الإمبراطور نابليون الثالث، وأنّه لا يستطيع الاستجابةَ لمطلبهم. فلمّا أخبرتُهم بجواب الأمير، امتقعَ لونُ رئيسهم وظهر عليه الغضب، ثم انسحبَ مع أصدقائه. فلمّا غابوا عنّا، سألت الأمير عن هؤلاء الفتية وكيف يعرفونه، فأجابني: يا ولدي، ألا تذكُرُ ما قلتُ لك لما زرتُكم قبل عامين في استانبول، بأنّي سأزور باريس. وفي ذلك الوقت كنت قد توصَّلْتُ بدعوة من هؤلاء القوم، وهم أعضاء في محفل ماسوني مقَرُّه في باريس، ويُعْرَفُ بمحفل هنري الرابع. في طريق عودتي التَقَيْتُ مع بعض الأفاضل من مصر فأخبروني عن حقيقة الماسونيّة. ولمّا وصلت إلى باريس، كانوا بانتظاري في يوم ١٨ يونيو، جمعوا كلّ رؤسائهم، وكانوا في حدود الأربعمائة. فلمّا كان ذلك اليوم الموعود، تخلّفْتُ عن زيارتهم، فقامَتْ قيامتُهم، ووصلتني أصداءُ خيبةِ أملِهم. ثم في طريقي إلى مدينة أمبواز، جنوب غربي باريس، اعترضَ طريقي خمسة وعشرون ماسونيًّا جاؤوا يحثُّونَني على قُبول دعوتهم. حاولتُ التَّخَلُّصَ منهم، فغلبني أدبي مع إلحاحهم، فوافَقْتُ على زيارتهم مرّة أخرى حتى أشرَحَ لهم سببَ تغيُّبِي، وأقفَ على حقيقة مذهبهم بصفة نهائيّة وأُناظِرَهم فيه. وفي الثلاثين من شهر أغسطس، ذهبتُ للموعد المحدَّد في محفل هنري الرابع. فلمّا وصلتُ إليهم، وَجَدْتُهُم قد اصْطَفُّوا في شكلٍ لم آلَفْهُ من قَبْل، وبدأوا يطرحون عليّ عدَّةَ أسئلة، فأجبتُهم بما ألهمني به الله في الوقت. وممّا أكَّدْتُ عليه، حال إخواني في بلاد الجزائر المستعمرة. كان هدفي أن أَضْمَنَ تَضَامُنَ هذه الجماعة المؤثرة لتخليص شعبِ الجزائر المسلم من

الاستعمار، فأكَّدتُ على حقِّ الشعوب في الحرِّيّة. ثم سألوني عن كيفيّة تَقَبُّلِ الناس للأفكار الماسونيّة في البلاد المسلمة. فأجبتُهم بأنّ الماسونيّة في الشرق لا يمكنها أن تنجحَ لأنّ الناس يعتبرون أتباعها مُلحدين بدون شريعة تحكُمهم، ولهم ضِلْعٌ في الفتن التي تنشأ في تلك البلاد. ثم حاولتُ أن أُخفِّفَ من حِدَّةِ هذا الموقف وأن أُداريهم، فذَكَرْتُ لهم بأنّ هذا الموقفَ ناتج عن عدم اطِّلاع الناس على الماسونيّة من أهلها ومصادرها. ردَّ كبيرهم بأنّهم مؤمنون لكنّهم يمتنعون عن مناقشة قضايا الأديان في محافلهم، نظرًا لتعدُّدِ معتقدات أعضائهم. ثم سألوني سؤالاً آخر عن إمكانيّة نشر الماسونيّة بين الشعوب المسلمة. فأجبتُ بأنّ هذا غير ممكن لأنّ تلك الشعوب لا يمكنُها أن تقبلَ بهذا المذهب وتطرَحَ دينها. فأجابني بعضهم، بأنّهم لا يَدْعونَ الناسَ لِتَرْكِ دينهم، وإنّما إلى اعتبار أنّ جميع الأديان تَحُثُّ على المحبّة والسلام. فأجبته بأنّ دين الإسلام دين السَّلام والمحبّة، لكنّه أتى بشريعة واضحة وعقيدة ناصعة، وأنَّ تَساوِي الأديان غير مقبول في عقيدة المسلمين، وأنّ اجتماعًا مثل هذا الاجتماع في هذا المحفل مستحيل في البلاد الإسلاميّة التي أسكنُها. ثم ذكر لي زعيمهم أنّ تَقَدُّمَ الدول الغربيّة هو بفضل إشعاع الأفكار التي تدعو إليها الماسونيّة. فقلت له مع ابتسامة ساخرة لم يَغِبْ عنهم ملاحظَتُها وتأويلُها، بأنّ البلاد الغربيّة تَنْعَمُ بالحرِّيّة، بينما بلادُنا في الشرق خاضعةٌ لاستعمار الدول الغربيّة باسم هذه الأفكار التَّحَرُّرِيّة.

ثم التفتَ إليّ الأمير وقال: يا عبدَ الحميد، لقد أخطأتُ في تقدير هذه الحركة منذ البداية، كغيري من نُخَبِ الشرق، وحسبتُها

جمعيّةً خيريّة تسعى لنشر قيم التَّسَامُح والحرِّيّة والعدل والأخوّة والتضامن، وتبيَّن لي بعد ذلك أنّها أَفْرَغَتِ الكون من المُكَوِّن، فلا تَدِينُ إلّا بحرِّيّة الضَّمير. وممّا زاد في رفضي لهذه الحركة هو تبريرُها للاستعمار الغربي على الشعوب الشرقيّة، وادِّعَاؤُها بأنّه ضروري لنقل التنوير والحضارة إلى الشعوب المتخلّفة.

إنّ هدفَ هؤلاء الرَّهْطِ أن أُصْبِحَ واحدًا منهم حتى يَسْهُلَ عليهم بعد ذلك إقناعُ عامَّة المسلمين بمذهبهم. لقد أخطأ هؤلاء القوم في تقدير سلوكي حينما أَجَبْتُ عن بعض أسئلتهم، وظنُّوا أنّي أُشاطرهم نفسَ القيم والمُثُل التي يَدينون بها. والحقيقة أنّي ما كلَّمتهم إلّا من باب الشَّفقة والرحمة بهم، فدينُنَا يدعو إلى المحبّة الإنسانيّة.

وبينما كنّا نتجوَّلُ في أجنحة المعرض، لمحتُ أخي مراد رفقةَ جماعة من الغربيّين. وكان منذ وصولنا إلى فرنسا قد سلَب الفرنسيّين بطلعته وإتقانه للغة الفرنسيّة، فتجمَّع حوله الأمراء والأميرات لمعاينة هذه النَّادرة الشرقيّة. ثم رأيتُ الجماعة الماسونيّة التي جاءت إلى الأمير تُرافِقُ أخي مراد، وتُبَادِلُهُ القَفَشَاتِ والنِّكَات، وإلى جانبهم بعض الإنجليز، فقال لي الأمير: هل تعلَم الفَرْقَ بين ماسونيّة الفرنسيّين وماسونيّة الإنجليز؟ فأجبتُ بالنفي. فقال الأمير: هناك فرق بينهما. إنّ الإلحادَ مبدأ راسخ عند ماسون فرنسا، وقد تخلَّوْا عن المبدأ الأوّل من ميثاقهم الذي يَعْتَبِرُ أنّ الله هو المهندس الأعظم للكون. وهذه المرجعيّة الإيمانيّة قد أزالها الماسونيّون الفرنسيّون اليومَ من أدبيّاتهم، فهم أَشرُّ من غيرهم.

كنت أستمع بفضول كبير إلى هذه الخلفيّات الفكريّة لطلائع

الاستعمار والفتن في بلاد المسلمين. وأدركتُ مدى الحُمق والغَفلة التي وقع فيها بعضُ المسلمين ممّن أصبحوا من دُعاة الماسونيّة.

كان المعرض تحفةً رائعة يمتَدُّ على مساحة شاسعة في مُنْتَزَهِ حَقْلِ مَارِس Champ de Mars، فهناك أجنحة خاصّة بالأثواب الفرنسيّة الرفيعة، وجناح خاصّ بالخيول الروسيّة، وهناك الحوض المائي الذي يَضُمُّ غرائبَ الأسماك والمخلوقات المائيّة. كنّا نَجُوسُ في غابة من الأعمدة التي تُشْبِهُ جُذُوعَ الشَّجر، وعليها يَقُومُ هذا الحوض، والأسماكُ تَسْبَحُ من فوقنا وعن أيماننا وشمائلنا. كان هذا المنظر غريبًا وعجيبًا. ثم عرَّجنا على الجناح المغربي الأندلسي الذي بناه إمبراطور المغرب، وفي وسطه نافورةٌ رائعة؛ وبجانب الجناح إسطبل للخيول السلطانيّة البربريّة والعربيّة التي أرسلها إمبراطور[1] المغرب للمشاركة في المعرض. فلمّا مررنا بجانب هذا الجناح، قال لي الأمير بمرارة وحزن: لو أنَّ مُنَظِّمِي المعرض بَرْمَجُوا لنا عَرْضًا للخيَّالة في هذا الحقل يُرْسِلُونَ خيولَهم تعدو، ثم يُطلقونَ البَارودَ من فُوهَة بنادِقِهم، فإنّي كنتُ سأكونُ سعيدًا باستعادة ذكريات الجهاد الجميلة التي قضيتُها في شَبيبتي. وبدلاً من ذلك، فها هو نابليون الثالث يُقيمُ استعراضًا عسكريًّا لقُوّاته ليُدخلَ الرُّعْبَ في قلوبِ ضيوفه الحاضرين، والذي كان يحلو له مجامَلَتُهُم أثناءَ ذلك العرض، والتَّعليق على فَقَرَاتِهِ وفِرَقِهِ المختلفة. فكان بعضهم يبتسم، ويُخفي الحَرَجَ، وآخرون كانوا منزعجين، مثل قيصر روسيا الذي لَقِيَتْ قُوَّاتُه عَنَتًا كبيرًا في حرب

---

(١) هكذا هي التسمية الرسميّة لسلطان المغرب في القنصليّات الغربيّة ووسائل الإعلام الغربيّة في تلك الفترة.

القَرم، بفعل تحالف جيش فرنسا وإنجلترا وغيرهما على روسيا.

ثم استمَرَّت الزيارة، وَقَفْنَا خلالَها على تَقَدُّم الصناعة في الدول الأوروبيّة التي كان هذا المعرض ميدانًا للتَّنافس في كسب الزبائن والأسواق الجديدة والتَّوَسُّع في تصدير منتوجاتها. ومن الغرائب الجديدة التي ظهرت في المعرض معدن جديد يُسَمُّونَه الألومنيوم، خفيف الوزن، لا يَصدأ، ويَسهُل استعمالُه في مختلف الأغراض. أمّا العالم الإسلامي، فلم يكن ممثَّلاً إلّا ببعض الدول القليلة جدًّا، وكان أَفضَل ما يُقَدِّمُه هو عمارَتُه وفنونُه العالية وصناعاته اليدويّة. أمّا في الصناعات الحديثة، وأدوات العصر، فلم يكن عنده خَبَرٌ بها.

وبينما كنّا نغادر المعرض رفقةَ كبار الشخصيّات المدعُوَّة، جاءت العربات لِتُقِلَّنَا. ودَّعتُ الأميرَ والتحَقْتُ بحاشية عمّي السلطان، وركبنا إحدى العربات الباذخة التي تَجُرُّهَا ستّة خيول. كانت العربة تُقِلُّ أربعةَ أشخاص، ويخدمُها أربعة أشخاص، سائق في المقدّمة، وحوذيٌّ في الخلف، وخادمان يفتحان أبواب الميمنة والميسرة عند الصعود والنزول. كانت العربة بديعة، وجَلْسَتُهَا مُريحة مُغَطّاة بحريرٍ أَطْلَس أبيضَ اللون تُصاحِبُه زخارفُ بالأحمر والأزرق وخيوطُ الذهب. وقد أخبر الإمبراطور نابوليون الثالث عمّي أنّه استعمل هذه العربةَ في حفل زواجه قبل ما يزيد على ١٤ سنة خَلَتْ. كانت الشوارع مزدحمة، وفجأةً لمحتُ الإمبراطور نابليون جالسًا في عربة مكشوفة رفقةَ قيصر روسيا، ألكسندر الثاني وولديه، فإذا به يدفع بالعربة في طريقٍ جانبي لم يَطْرُقْهُ الموكِبُ الرسمي من عربات الوُفود، ولم تَمُرَّ إلّا دقائق معدودة حتى سمعنا

طلقة ناريّة دوَّت في الفضاء. ارتعَبَ عمّي، وتقدَّمنا بالعربة حتى وصلنا إلى جانب عربة الإمبراطور، فرأينا دُوقًا من مُرافقيه قد انْصَبَغَتْ ثيابُه بالدَّم، وبجانبه فرس ساقطٌ يترنَّح على الأرض. تقصَّينا الأخبارَ، فأخبرونا أنّ أحدَ رجال خَفَرِ الإمبراطور لاحظ رجلاً مجهولاً يُسَدِّدُ طلقةً ناريّةً نحو العربة فارتمى بفرسه لِيَحُولَ دونَ وُصولِها إلى الهدف، فأصابتِ الرصاصةُ الفرَسَ في خياشيمه وتَنَاثَرَ الدم على أَحَدِ مُرافقي الإمبراطور والقيصر. ثم ما لبثوا أن قبَضوا على الفاعل، فاستجوبوه، وأخبرهم بأنّه مُعارض بولوني أراد الانتقام من القيصر على ما فعلَه ببلده. وفي خِضَمِّ هذا الحدث، التفَتَ الإمبراطور إلى القيصر ومازحه قائلاً: «لقد رأينا اليومَ النَّارَ سَوِيَّةً، فها قد أصبحنا إخوةَ سلاح». فأجابه القيصر ببرودة روسيّة: «إنّ أيّامَنا بِيَدِ المقادير».

استمَرَّ الموكب في التَّقَدُّم نحو باريس وسط تصفيقات المصْطَفِّينَ على جنَبات الطريق. أمّا عمّي، فقد داخلَه الجزَع من هذا الحدث، والتزم الصَّمت. عُدنا إلى مقرّ إقامتنا في قصر الإليزيه.

قضينا عشرةَ أيّام في باريس، وقد استغاضَ عمّي من الخديوي إسماعيل الذي طلب من الإمبراطور نابليون الثالث أن يُوافِقَ على تسفير البارون هوسمان لكي يقوم بتخطيط القاهرة مثل ما قام به في باريس. كانت هذه الأعمال مُكَلِّفَةً جِدًّا، وهي تَرْهَنُ مستقبلَ البلاد للأجانب تلبيةً لِنَزَوَاتِ الخديوي ببناء دار الأوبرا وتخطيط حديقة الأزبكيّة وحدائق الجيزة وبنايات كثيرة تُشبه بنايات باريس. كان الخديوي مُفْتَتَنًا بفرنسا والغربيين، وقد درَس في مدرسة سان سير

الحربيّة الشهيرة التي تَخَرَّجَ منها رجالاتُ فرنسا. وممّا أحفَظَ عمّي عليه قولةٌ بلغَتْ إليه حينما قال الخديوي «إنّ بلادي لم تَعُدْ في إفريقيا، بل نحن ننتمي إلى أوروبا».

أردتُ أن أتعرَّفَ على أحد كبار كُتَّاب فرنسا الذين كنت أُحِبُّ أن أقرأَ لهم، وهو ألكسندر دوما. سألتُ عنه إحدى الأميرات التي كانت تُرافقني رغم إعراضي عنها، ولم أَقْبَلْ بِرُفقتها لاحترازي من دَسائس الفرنسيين في التجسُّس علينا. أمّا أخي، فكان أَقَلَّ تمنُّعًا وأكثَرَ تَوَلُّعًا بمثل هذه الفرنجيّات. حاولتِ الأميرةُ أن تُصَوِّرَ الكاتبَ الفرنسي في صورةً سيّئة، فقالت: سيّدي الأمير، إن الرجلَ الذي تسأل عنه لِصٌّ أدبي، ليست له أيُّ أصالة.

استغربتُ جوابَها، وأردتُ الاستيضاحَ عن السَّرقات المزعومة، فقلت: وما الذي يجعَلُكِ تَقولين هذا الكلام؟

فأجابت: لا يخفى عليك أيّها الأمير أنّ فكتور هوغو أديبٌ صديق لألكسندر دوما، لكنّه كان أحدَ الذين اتَّهموه بالسرقة الأدبيّة.

فقلت: هل معنى هذا أنّه ليس هو من كتبَ رواية الفرسان الثلاثة أو رواية كونت مونتي كريستو؟

فقالت بثبات تافِهٍ: نعم، لقد استعان في كتابة رواياته ببعض الأقلام الذين استأجرَهُم، ونسمِّيهم باللغة الفرنسيّة «الزُّنوج». خذ مثلاً، روايةَ الفرسان الثلاثة التي طار صيتُها زُورًا وبهتانًا.. فالواقِعُ أنّه استعان في كتابتها بموهبة رجل يدعى أُوغست مَاكي.

قلت: يظهَر أنّك تعرفين أشياء كثيرة أيّتها الأميرة!

فأجابت بغرور نسائي: نحن الأميرات أعلَمُ بالأدب من الرجال، فأوقاتُنا نَقضيها في قراءة الروايات أو في المنتزهات.

فقلت: لا أكادُ أُصَدِّقُ أنّ رجلاً بهذه الشهرة لا أصالةَ أدبيّة له.

قالت: صَدِّقْ ذلك أيّها الأمير من أميرة عارفة بهذه الخبايا.

ثم قلت لها: لكنّي بحاجة إلى لقائه، فقد قرأتُ له، وأرغب أن أَتَعَرَّفَ عليه حتى أَتَبَيَّنَ حقيقةَ هذه التهمة بنفسي.

قالت: إنّه لا يخالِطُ حاشيةَ الإمبراطور.

فقلت: ولماذا؟

قالت: إنّه رجل فتّان يدعَمُ الثُوّار.

هنا بدأتُ أفهَمُ سِرَّ رأيها السّلبي حول الرجل، فقلت لها: أرجوكِ أن تُرسِلي أحدًا لدعوَته إلى لقائي.

فقالت: سيّدي الأمير، هل تعلَم أنّ هذا العجوزَ قد صدَم الأوساطَ المتمدِّنَةَ لمّا أخذ صورةً مع عشيقته المومسة، وهي شبه عارية، مع أنّها تصغُرُهُ بما يزيد عن ثلاثين سنة، فقد تجرَّأَ هذا العجوز على هذه الفعْلة المنكرة. ونتيجة لهذه الفضيحة المدوِّية، فقد حرمَتْهُ الأكاديميّة الفرنسيّة من عُضويّتها.

قلت لها بدلال مصطنع: لا بدَّ أن أَتَحَدَّثَ إليه يا أميرتي الغاضبة.

فقالت: كما تريد أيّها الأمير، لكنّي أنصَحُكَ أن تنسى هذا الشخص إذا أردت أن تمضي وقتًا مفيدًا في باريس.

فقلت: أشكُرُكِ على لُطفك أيّتها الأميرة، وكما قلت لكِ، فإنّي بحاجة إلى أن أتبيَّن الحقيقةَ بنفسي، إن لم يكن لديكِ مانع.

نادتِ الأميرةُ على أحد غِلمان السُّخْرَةِ وكتبت له بطاقة لدعوة ألكسندر دُوما. التقَطَ الغلامُ البطاقةَ وذهب مسرعًا. طلبَتْ منّي الأميرةُ أن أُماشيها في حدائق القصر. وأخذَتْ تحكي لي عن أسلوب الفرنسيّين في اختطاط الحدائق ذات الأشكال الهندسيّة، والمساحات الواسعة والفضاء المفتوح. وأخبرتُها عن أسلوب الشرقيّين في صناعة الحدائق الداخليّة، التي هي مثال للنَّفس البشريّة المتَحَرِّرَة من كثافة المحسوسات. كانت تستمتع باهتمام. وبين الفينة والأخرى تُطْلِقُ ضحكةً ماجنة. ثم وَضَعَتْ ذراعها اليسرى في ذراعي التي تَلِيها، بينما كانت تُمْسِكُ مِظَلَّةً صغيرة بيدها اليمنى اِتِّقَاءً من أشعّة الشمس. وبين الفينة والأخرى كانت تقترب منّي حتى تكاد تُلْصِقُ جَسَدَها بجسدي. كنت أتعَجَّبُ من جَسارة الفرنجيّات على الرِّجال على عكس نسائنا الأبِيَّات المتَمَنِّعَات.

أمضيتُ مع الأميرة وقتًا ممتعًا رغم أنّي لم أَكُنْ أُحِبُّ هذا النوعَ من النساء اللائي يفتقدن الحياء والخَفَر. لكنّ الأمَمَ الفرنجيّة كانت لها عادات مختلفة عن عاداتنا الشرقيّة المحتَشِمَة!

وبينما كنّا نتحَدَّثُ في مواضيع الأدب والحدائق، إذ بالأميرة تُغِيرُ عليَّ بسؤال غريب. قالت: ألتمِسُ عذرَكَ سيّدي الأمير، لكنّي سمعتُ أشياءَ كثيرة عن الحَريم في دولتكم العَلِيّة، وقد ذُعِرْتُ ممّا سَمِعْت.

فقلت لها: وماذا سَمِعْتِ أيّتها الأميرة الرقيقة ممّا قد يكون أَرْعَبَكِ وَأَفْزَعَك؟

قالت: سمعتُ حكايات عن العدد الكبير من النساء اللائي يعشن في الحريم، ولا يحِقُّ لهنَّ الخروج منه إلّا لقُبورهنّ. وسمعتُ عن المكائد بين النساء، وعدد الأميرات اللائي اخْتُطِفْنَ من بلدانهنّ ودَخَلْنَ هذا السجن. وسمعتُ عن المآسي المفجعة التي تتعرَّض لها بعض النساء. فكم قرأنا من حكاية عن الحروب الداخليّة بينهنّ في الفوز بقلب السلطان، وموت بعضهنّ غِيلَةً أو بِدَسِّ السُّمِّ في الشراب والطعام.

فقلت لها: ومَن أخبركِ بهذا؟

قالت: حكايات تتناقلها الأوساط القنصليّة والأدبيّة.

فقلت: أميرتي العزيزة، يبدو أنّ قراءةَ الروايات قد أثَّرَتْ في مُخَيِّلَتِكِ فأوهَمَتْكِ بأنّ الحراملك سجن كبير. ثقي بي أيّتها الأميرة أنّ النساءَ يتمنَّين الحياةَ التي تمنحُها لهنّ هذه المؤسّسة العظيمة. وهناك مئات من الأسر في دول البلقان وغيرِها يَعْرِضْنَ بناتهنّ على التجّار اليهود لينقلوهنّ إلى استانبول حتى يستطعن الظفر بفرصة الدخول إلى الحراملك. تأكَّدِي أنّ ما تتلَقَّاه نساءُ الحريم من تربية في الأدب والموسيقى والحياكة والفنون أكثر ممّا يمكن أن تعرفَه امرأة غربيّة. إنّ الحراملك مؤسّسة محترَمَة يا أميرتي وليس فيها هذا الذي تَذكرين، وإنّما هو من وحي خيال الكُتّاب، وفضولهم في عدم السَّماح لهم بالدخول إلى هذا العالم العجيب!

فقالت: قد أَفْهَمُ أنّ هذه المؤسّسة محرَّمة على الرجال، لكن لماذا تمنعون النساء الأوروبيّات من الدخول إلى حريم نسائكم؟

فقلت: تلك عقليَّتنا الشرقيّة التي تجعلنا نَغَارُ على نسائنا حتى

من النساء، ولا نسمح بهذا الاختلاط حفاظًا على الدولة وأسرارها.

ثم قالت لي: وما قصّة الخصيان السود والبيض في الحريم؟

فقلت بلغة فلسفيّة: إنّ الخصيان حاجز بين عالم النساء والرجال.

فقالت بذكاء لافت: بل لعلّهم واسطة بين عالم الرجال وعالم النساء.

فأجبتها: يبدو أنّنا تحوّلنا يا أميرتي العزيزة إلى مناقشة قضايا النوع والهويّة الجنسيّة، وهو موضوع معقّد. لكن وظيفة الخصيان تكمن أساسًا في حراسة هذا العالم العجيب.

لم تقتنع الأميرة بكلامي، لكنّها قالت لي وهي تمازحني: لقد قرأت ترجمة حكايات ألف ليلة وليلة الشرقيّة، وأتذكَّرُ كَيْدَ النساء في الحريم حتى وهُنَّ تحت الحراسة. لقد استطاعت إحدى نساء هذه الحكايات أن تَكِيدَ حتى للعفاريت، فما بالُكَ بالإنس؟ أمّا الملك شهريار الذي أفنى نساء مملكته انتقامًا من خيانة زوجته مع عبد من عبيده المكلّفين بحراستها، فقد كادت له شهرزاد هي الأخرى بطريقة راقية. يا أميري العزيز، إنّ كيدَ النساء عظيم، وحتى لو شُدِّدَتْ عليهنّ الحراسة من كلّ جانب لتوصَّلْنَ إلى قضاء وَطَرِهِن.

فقلت لها: إنّ أعظمَ كيد نسائي هو ما قامت به شهرزاد مع شهريار حتى أقنعته أخيرًا بالعدول عن قتل امرأة كلّ ليلة بعد الدخول بها. إنّ أروعَ شيء في هذه الحكايات الخياليّة هي أنّ

الحكيَ والحياة والأدب تغلَّبت في النهاية على القتل والموت والانتقام. إنّ الشرق يقول للعالم من خلال حكايات ألف ليلة وليلة بأنّ الأدب هو الحياة، وبأنّه قضى على الاستبداد والخيانة معًا.

ثم قالت الأميرة بشكل مفاجئ، وكأنّها تختبر فحولتي أمام كيدها: وما رأيك في أن تتزوَّجني وتَضُمَّنِي إلى حريمك؟

ثم أطلَقَتْ ضحكات متوتّرة. تعجَّبتُ من صفاقَتِها وجرأتها، لكنّي أجبتها: أخشى أن لا تتحمَّلي نمطَ حياتنا.

فقالت مرّة أخرى: فهل تعدني بأن تسمح لي بزيارة الحريم في قصر السلطان في زيارة المجاملة التي ستقوم بها الإمبراطورة أوجيني إلى بلدكم؟

فقلت: أميرتي العزيزة، يؤسفني أن أخبِرَك بأنّ عمّي السلطان عبد العزيز لم يعد له حريم خاصّ به، فقد سرَّح نساء الحراملك بعد اعتلائه العرش، ولم يتزوَّج إلّا امرأة واحدة. لكن إن لم يكن لديك مانع، وقد عرضتِ عليَّ الزواج، فقد أسمح لك بمقابلة زوجتي حين زيارة المجاملة التي ستقوم بها الإمبراطورة، وقد فهمتُ أنّك سترافقينها في تلك الرحلة.

قالت: هذا وَعْدٌ يا أميري العزيز!

قلت: وَعْدٌ لا خُلْفَ فيه.

ثم مشينا حتى وصلنا إلى قوس النَّصر المنتصب في ساحة الكاروسيل، وهو ميدان فسيح لاستعراض الخيول ولعبها. وفي الجهة المقابلة كان قصر اللوفر. وبينما كنت أَهُمُّ بتوديع الأميرة حتى أذهبَ لأتهيّأ لحفل العشاء المقام على شرفي مع أخي بمعيّة

بعض الأميرات، إذ بعربة يجرُّها حصانان تقف على مقربة منّا. توقّفَتِ العربة وخرج منها كهل بَدِين له لحية. نزع الكهل أمامنا قبَّعته احترامًا وتحيّة، فتبدَّى شعره الغزير الذي وَخَطَهُ الشَّيْبُ. يبدو وكأنّ عِرْقًا زنجيًّا بعيدًا يسري في دمه. كان يرتدي قميصًا أبيضَ اللون وفوقَه سترة سوداء طويلة، وبنطلونًا باللون نفسه، وحذاء جلديًّا. أمّا عنقُه، فقد زانه برباط حريري أسود رَبَطَهُ الربطة المسمّاة بالفراشة. كان الرجل يحمل عكّازة دقيقة الصنع من خشب رفيع يَنْكُتُ بها الأرض نَكْتًا لا يَنْفَكُّ عنها الفرنجيّون المتمدِّنون، حتى أَضْحَتْ شارةً من شارات مروءتهم ولياقتهم. كان الرجل بدينًا من أولئك الذين عاشوا حياتهم في بذخ وفُحش. أخذَ كفَّ الأميرة في جُرأة نادرة، فأسلَمَتْ نَفْسَها رغم ما قالته لي عن الرجل قبل مجيئه. قَبَّلَ كَفَّها في تَلَبُّث، فاحمَرَّتْ مِنَ الخجل، لكنّها كانت سعيدة بذلك. ثم حيَّاني تحيّة ظرفاء الفرنسيين، فردَدْتُ عليه تحيّته.

دخلنا القصر وصعدنا من السلّم الكبير حتى وصلنا إلى رواق كبير. استأذنتِ الأميرةُ لِتُهَيِّئَ نفسَها لحفل العشاء. وفي رواق من أروقة القصر لمحت أخي محفوفًا بثلاث أميرات وهو يترَنَّحُ بينَهُنّ في سعادة. رفعتُ له يدي فَرَدَّ عليّ بابتسامة طويلة عريضة تحمل كثيرًا من الدلالات. لاحظ ألكسندر ما حصل فقال لي: عجيب أمرُ الرجال، إنّهم يشعرون بفحولة زائدة لأنّ النساء يُقْبِلْنَ عليهم، ويُحِطْنَهُمْ بغُنْجِهِنَّ المعتاد.

فقلت للعجوز الحكيم: يظهر من كلامك يا سيّدي أن خبرَتَك كبيرة!

فقال: أيّها الأمير، أنا شرقيُّ الطباع في مجتمع غربي، ولهذا ينكرون عليّ نمط حياتي ظاهرًا، مع أنّهم يرغبون فيه باطنًا ويفعلونه سرًّا.

فقلت له مُظهرًا الجهل بسيرته: وما هو وجه الإنكار على رجل أديب يعيش حياته وفق ما يعتقده؟

فأجاب العجوز الأديب: يظهر أنّ القوم اكتشفوا أنّي مُولَع بالنساء يا سيّدي، ولو كنت أستطيع أن يكون لي حريم في هذه البلاد لفعلت، لكن نفاقَ الناس ممقوت. فهم يعيشون حياة مزدوجة، فتراهم يَهُفُّونَ إلى خليلاتهم في خلواتهم، بينما يتظاهرون باتّخاذ امرأة واحدة واصطناع الزَّهادة والعِفّة.

فقلت له: الحريم لا تسكُنُه الخليلات، وإنّما أربع زوجات وما مَلَكَتْ يمين الرجل، ونساء الخدمة والجواري والأمّهات والأخوات وغير ذلك، فلا تعتقد أنّه فضاء خاصّ بنساء السلطان التي يعاشرهنّ.

فقال: نحن نسمع كثيرًا عن قصص الحريم، وإنّني مغرم بهذه المؤسّسة العجيبة التي طوّرها الشرقيّون بدون عُقَد، كما هو الشأن عندنا. لكن دعنا من هذا يا سيّدي، وأخبرني عن عِلَّة دعوتي إلى هذا القصر مع أنّي رجل غير مرغوب فيه اليوم بسبب نمط حياتي المتحرِّر من عُقَدِ النفاق الاجتماعي.

فقلت: ربّما لا تعلم أيّها الأديب أنّني أَحَدُ قُرَّائِك الأوفياء. وقد قرأت عددًا من رواياتك، وأعجبتني شخوصها وعوالمها، ولا سيّما الفرسان الثلاثة، والكونت مونتي كريستو. وأذكر شعار

الفرسان الثلاثة «واحِدٌ من أجل الجميع، والجميعُ من أجل الواحد». إنّها أخلاق الفُتُوَّة كما نُسمِّيها عندنا أيّها الأديب.

فقال: لكن بعض ألسنة السوء تُعَيِّرُنِي بهذا الشعار، وتقول بأنّه ينطبق فعلاً على سلوكي مع النساء. وإنّي أعترف بأنّي أحبّ الجنس اللطيف وأَهيم فيه، ولهذا حوّلَ الأعداء عبارتي إلى معنى أنّي رجل واحد لنساء كثيرات، وهُنَّ لرجل واحد.

فقلت له: ليس في هذا مَثْلَبَةٌ عندنا، لكنّي أريد أن أستمتع بحديثك الممتع، وإنّي أرغب أن تنضمّ إلينا في حفل العشاء.

فقال: إنّي مَغضوب عليَّ هذه الأيّام بعد أن التُقِطَتْ لي صورة مع إحدى عشيقاتي الأميركيّات التي عبَّرَتْ لي عن حُبِّهَا بطريقة لم تَرُقْ لهؤلاء المنافقين، فقامت قيامَتُهُم ضِدِّي، ورَفَضَتْ أكاديميّة العَجَزَة والمخَرِّفِينَ أن تَضُمَّني إلى مجلسهم الذي يُسمُّونه مَجْمَع الخَالِدِين. وسنرى من الذي سَتُخَلِّدُهُ أعمالُه، أنا أم هؤلاء المرتعشين.

فقلت: لكنّي أنا الذي أدعوك أيّها الأديب، وهذه جلسة خاصّة. وقد رأيتَ أخي تحيط به مجموعة من الأميرات، ولا أَحَدَ عابَ عليه ذلك، بل لعلّه مُدَبَّرٌ مِنْ قبل.

فقال مبتسمًا: على الرَّحْب والسَّعة أيّها الأمير الشرقي. وإنّ أدبي يمنعني أن أُرفُضَ دعوتَك.

دخلنا إلى قاعة الطعام، فقصدتُ شقيقي مراد مع فتياته وسلَّمتُ عليه، وقدَّمتُ له الأديب، فرحَّب به بطلاقة فرنسيّة استهوتِ العجوز، فبادله عبارات المجاملة. كانت المائدة مُعَدَّة

بأَطْقُمِها لسبعة ضيوف. وبينما كنت أستَعِدُّ لأطلبَ إضافة كرسي مع مستلزماته للضيف الجديد، قامت إحدى الأميرات، ولمزت إلى جهة الأديب قائلة: إنّ من آداب المائدة أن لا يتعدَّى عدد المدعوّين سبعة، وأظنّ أنّنا سَنَضْطَرُّ إلى إضافة كرسي لضيفنا المفاجئ، الأديب الكبير ألكسندر دوما.

فابتدرها الأديب الماكر قائلاً: أيّتها الأميرة المؤدّبة، لا شكّ أنّ من آداب المائدة عند الإغريق أن يكون العدد سبعة والأفضل عشرة، ومعك الحقّ أيّتها الأميرة، لأنّ حضوري المفاجئ بينكم مُخِلٌّ بقواعد الآداب اليونانيّة؛ لكن اسمحي لي بأن أقول لك بأنّنا في بلد لاتيني، ولا بدّ من أن تعتبري آداب الرومان اللاتينيّين بدل اليونان.

فعادت الأميرة التي أُفْحِمَتْ لَتَسْتَفْهِم: هل يمكنكَ أن تخبرنا عن العدد المثالي لضيوف المائدة عند روما اللاتينيّة؟

فأجاب الأديب وقد انفسَحَتْ له فرصة لاستعراض ثقافته الواسعة والانتقام لكبريائه بسبب إخلال الأميرة بمقامه وسوء الأدب معه: إنّ قواعدَ الضيافة عند أجدادنا اللاتين تقتضي إذا ما أراد الرَّجُلُ أن يستدعي أصدقاءه لوليمة على شرفهم أن يكون عدد الضيوف إمّا ثلاثة أو تسعة.

فقالت الأميرة: وما وَجْهُ الحكمة في هذين العددين؟

فقال الأديب الماكر: هناك قاعدة تقول بأنّ عدد الضيوف ينبغي أن يكون إمّا على عَدَدِ ربّات الجَمال والإغواء الثلاث، أو على عدد الشقيقات التسع، ربّاتِ الفَنّ اللائي يحمين الغناء والشعر

والفنون والعلوم والأساطير[١].

ثم أشار بيده إلى فرقة كواتور لِيَشْرَعُوا في العزف، بينما خلَدَ هو إلى الصمت ليستمتع بأثر استعراض معارفه على تلك الأميرة التي تجاسرت على الحَطِّ من شأنه، وتعييره بالتطفُّل؛ فقلتُ: أنت ثامن الجماعة الذي يحرس مائدة هذا المجلس يا سيّدي الأديب مثل فتية أهل الكهف عندنا. لكن دعوني أخبركم أنّي شخصيًّا أُفَضِّلُ أن يكون عدد الضيوف ثمانية وعشرين أو تسعًا وعشرين.

اِزْدَرَدَ الأديب ريقَه لفهمه عنّي أنّ ثامن الفتية كان كلبًا، لكنّه أحجم عن الرَّدِّ لكوني لم أُصرِّح بتلك المُمَاهَاةِ مع جَرْوِ الفتية، ولكون الحاضرين لم يدركوا ما أشرت إليه. التفَتَتِ الأميرةُ تسأل مرّة أخرى عن سِرِّ اختياري: وما سِرُّ هذا العدد يا أمير عبد الحميد؟

فقلت: إنّه عدد الحروف في اللسان العربي الذي نزل به القرآن الذي نَدِينُ به. والناس أَحْرُفٌ منها عَالٍ وسَافِلٍ. والمائدة التي تضمّ هذا العدد فيها الحرف الصَّامت والحرف الصَّائِت، وفيها الجَهْوَرِي والمهموس، وفيها المنقوط وغير المنقوط. وفيها الحارّ وفيها البارد، وفيها الرطب والجافّ. والحروف مثل البشر، والمائدة يجب أن تَضُمَّ الجميع حتى تستوي على قوائمها. ثم إنّ أرفعَ ما في ولائم الضيافة هو الحديثُ الرَّائق الرقراق، ولتتخَيَّلوا مائدة بعدد حروف لغة بالكامل، فإنّ الحديث فيها لا يُمَلُّ ولا ينتهي لأنّها جَمَعَتْ أطراف الكلام كلّه.

---

(١) **autant que les Grâces, pas plus que les muses.**

ترجمة العبارة بالفرنسيّة: على عدد ربّات الجمال، ولا أكثر من ربّات الفنّ...

اِلْتَقَطَ الأديبُ العجوز الكلمةَ قائلاً: براعَةٌ لا يَقْدِرُ عليها إلّا الشرقيّون يا سيّدي، لكن إذا سمح لي الأمير الفاضل أن أُذَكِّر بأنّ أفلاطون يقول هو أيضًا بأنّ عدد ضيوف المائدة يجب أن يكون ثمانية وعشرين.

فأجبته: إنّ الحكمة واحدة، وأفلاطون أحد الحكماء الذين أُفضِّلهم عند قدماء اليونان.

فاستطرد الأديب مصحِّحًا سوءَ تقديري في توجيه اختيار أفلاطون قائلاً: إنّه استخرج هذا التفضيل من دورة فويبي Phoebé التي كانت تقطعها في ثمانية وعشرين يومًا.

أمرَتِ الأميرةُ أحدَ خُدّام المائدة أن يضيفَ كرسيًّا للضيف الجديد مع طَقْم كامل من الصحون والكؤوس والسكاكين والملاعق الكبيرة والصغيرة والشوكات.

ولدى رؤية هذه الشوكات تذكَّرتُ أنّ استعمالَ الشوكة في بلادنا حديثٌ جدًّا، إذ أدخلها والدي عبد المجيد في عادات المائدة عندنا قبل سبعِ سنوات من اليوم، ثم سار على نهجه عمّي من بعده، فاعتمدناها في تناول الطعام. سُوِّيَتِ المائدة من جديد، وتمادى الموسيقيّون في عزفِهم الخافِت. جلستُ، وجلسَتْ بجانبي الأميرةُ التي كانت تصاحبني، ثم جلس شقيقي محاطًا بالأميرات الثلاث، وجلس الباقون. صبَّ الساقي للضيوف كأسًا من الشمبانيا من قنينة شَلْمَنَصَّر Salmanazar. فلمّا أراد أن يَصُبَّ لي اعتذرتُ وطلبتُ عصيرَ عنبٍ، بينما لم يَتَوَرَّعْ شقيقي مراد في الشُّرْبِ على عادته. سألت الأديب العجوز عن سِرِّ هذه التسمية العجيبة، فقال: إنّها مأخوذة من اسم الملك الآشوري شَلْمَنَصَّر الذي أجلى قبائل

العبرانيين الاثنتي عشرة، فَسُمِّيَتْ هذه القنّينة التي تعدل سَعَتُها اثنتي عشرة قنّينة عاديّة من سعة خمسة وسبعين سنتيلترًا باسمه.

ثم أكمل مُعْتَدًّا بإظهار براعته وثقافته: والعجيب أنّ قناني الشراب بسعتها المختلفة لها أسماء عبرانيّة أو آشوريّة بابليّة، مثل قنّينة جيروبوم، وقنّينة ريهوبوم، وقنّينة مَتُوسَالِم، وقنّينة بلتزار، وقنّينة بُخْتَنَصَّر...

تعجَّبت من هذه الثقافة المتعلّقة بمقاييس أواني الخمور، وتذكَّرْتُ أشعار العرب والفرس في ذكر القناني والجِرار والدِّنان، والرَّاوُوق والجِرْيَال والمِبْزَل، والآنيات والكاسات والطَّاسات.

ثم رُصَّتِ الصحون، ووُضعت الأطباق المختلفة، وتناولنا ممّا لَذَّ وطاب. وبقدر ما كان الأديب نَهِمًا شَرِسًا في أكله، كنتُ مُتَقَلِّلاً إلّا من تناول شرائح من الخبز المحمّص مدهونة بطبقة من مَعِدَة الإوزّ الدسمة، ثم قطعة من الحلوى المسمّاة «شارلوت». أحببت أن أفهمَ سِرَّ شهيّته، فسألتُه كمن يستفهم عن أمر عامّ حتى لا أوقفَ نَهْمَتَهُ: ما سِرُّ الشهيّة في رأيك أيّها الأديب؟

فقال بلسان العارف المازح: أيّها الأصدقاء الوارِشُون على صَحائِفِ هذه المائدة البديعة، لقد تلقَّى الإنسان حين ولادته أمرًا نافِذًا من مَعِدَتِهِ بالأكل ثلاث مرّات في اليوم على الأقلّ.

ضحكتُ وضحك الجميع من هذه القفشة الأدبيّة، ثم استمَرَّ في نِكاتِهِ العجيبة سائلاً: أتدرونَ أين ظهر الإنسان لأوّل مرّة؟

لم يصدر من الحاضرين إلّا همهمات غير واضحة، فتابع الأديب النَّهِمُ قولَهُ: لا يمكن للإنسان أن يظهر في بلاد الفاقة

والجوع، وإنّما ظهر الإنسان أوّلَ ما ظهرَ في الهند حيث المناخ الرطب. ولعلّ في تقديس الهنود للبقرة دلالة واضحة على مصدر غذاء الإنسان!

فقلت معترضًا: هل نفهَمُ من كلامك أنّ الإنسان لا يظهر إلّا حيث توجد وفرة في الطعام؟ وما بال الإنسان يعيش في الصحاري القفراء، وبلاد القطب المتجمّد؟

استدرك الأديب مجيبًا: حيثما ولد الإنسان عليه أن يأكل، سواء كان متوحِّشًا أو مُتأنِّسًا، في القَفْر أو في العمارة.

فاعترضتُ عليه مرّة أخرى: لا يمكنك ضَمُّ المتوحِّش إلى المتأنِّس، فالإنسان المتحضِّر لا يأكل مثل ما يأكلُ المتوحِّش من البشر.

وهنا زمزم الحاضرون والحاضرات تأكيدًا لما قلت، فأكملت قائلاً: كيف يُستساغُ أن يُجْمَعَ بين الإنسان المتمدِّن المتحضِّر، والإنسان الحيوان المتوحِّش؟

فأجاب الأديب قائلاً: معكم الحقّ أيّها الجمع النبيل الذي يخشى على مكانته في أعلى دَرَجِ الإنسانيّة. وطبعًا لم يخطر ببالي أن أُقارنكم أو أَخْلِطَ بينكم وبين الإنسان الحيوان، فأنتم زُبدة الإنسانيّة. ومعكم الحقّ، فالإنسان الحيوان يأكل لأجل الضرورة، فيما يأكل الإنسان المتمدِّن لأجل النَّهَم. وما هذه المائدة المليئة بألوان من الطعام إلّا تأكيد على أنّنا لا نأكل لأنّنا نتضَوَّرُ جوعًا بل لأنّ الولائم تُقام لتلبية غريزة النَّهَم في الإنسان المتمَدِّن. وإنّي اليوم أُفَكِّرُ في تخصيص معجم لِفُنون الخِوَان.

فقلت له: لعلَّك تُفيدنا كثيرًا عن طبيعة هذه الفروق بين من يأكل للضرورة، ومن يأكل نَهَمًا وتَرَفًا. لكن دعني أسألك، هل كتابُك المرتَقَب هو للإنسان المتمدِّن المتحَضِّر أم للإنسان المتوحِّش؟

ضحك الحاضرون لهذا السؤال، وضحك الأديب ثم قال: إنّه قطعًا للإنسان المتمَدِّن يا سيّدي الأمير، أمّا الإنسان الحيوان، فليس بحاجة لكتابي لأنّه مُسْتَغْنٍ عن المحفِّزَات التي تفتح شهيَّته للأكل، على عكس أَضْرابِنَا من المتمدِّنينَ المتحضِّرين. كما لا يخفى على مَجمَعِكم البَهِي أنّ الإنسانَ المتوحّش لا يَقرأ، ولعلّه إن صادفَ كتابي في طريقه التهَمَهُ بأنيابه وتجشَّأَ على ما بقي من صفحاته.

ضحك الجميع مرّة أخرى على قَفَشَات الأديب. ثم قالت إحدى الأميرات: إنّي أرى أنّك لا تحتاج لتلك المحفِّزات التي تَدفَعُ أَضْرَابَنا لِلنَّهَمِ يا سيّدي الأديب الماتِع.

ضحك الجميع لسخريّتها من شهيّة ألكسندر الكبيرة للأكل. وحتى يُؤَكِّدَ صِحَّةَ ما قالت، فقد عمَد إلى فَخِذِ طَيْرٍ أمامه فاقتلعه بكفّيه الضخمتين كالكاسِر العظيم، ثم التهَمَه بسرعة متناهية، وسَكَبَ كأسًا طافحة من رَفِيعِ شراب رُومَانِي كُونْتِي في بِرْمِيلِ بَطْنِه.

فاعترض عليه شقيقي مراد قائلاً: مهلاً يا سيّدي الأديب، فما هكذا يُشْرَبُ هذا الرَّحِيقُ الذي أَنْضَجَتْهُ مَنْطَقَةُ تَلَّةِ الذَّهب[١] Côte

(١) منطقة **الكوت دور** هي إحدى مناطق جهة البورغون المعروفة بخمورها الرفيعة والعريقة في شرق فرنسا. وقد اختير لهذه المنطقة اسم غير جغرافي على عكس سائر المناطق هو «كوت دور» أي تلّة الذهب، إشارة إلى اللون الذي تنصبغ به =

d'Or، علاوة على أنّه من أجود أنواع خمور سنة ١٨٦٥، التي كانت استثنائيّة. وأرجوك أن تَسْتَمْرِئَ طعمَه العجيب بغاية اللُّطْفِ والذَّوق.

لم يُعِرْ ألكسندر دُومَا الجمعَ النبيلَ انتباهًا، ثم عمَد إلى قنّينة روماني كونتي فصبَّ كأسًا ثانية وارتشفَها في لمح البرق، وقال: إنّ جوفي يستعذب هذا الرَّحيق أكثرَ ممّا تستعذبه مَسَامُّ لساني، ولهذا أُبْرِقُ به حتى يستقِرَّ في خير قَاع.

سَادَ الوُجُومُ وجوهَ الأميرات، وبدا وكأنّ رؤية هذا النهم قد سَدَّ كُلَّ رغبة في الأكل والشرب لدى باقي الضيوف. حاولتُ وقتَها أن أعودَ بالحديث إلى ما كنّا فيه، فسألتُه: إذا كان كتابُك سَيُوَجَّه إلى المجتمع المتمدِّن، لفتح شهيّته إلى الأكل وتحفيزه إلى أَلَذِّ المطعومات، فإنّي أَظُنُّ أنّ الشهيّةَ أمر يختلف باختلاف الناس.

فأجاب الأديب مرّة أخرى: صدقتَ أيّها الأمير، إنّ الشهيّة في نظري ثلاثةُ أنواع. الأولى هي التي تأتي حين نَبِيتُ على الطَّوَى ولا نجد ما نُطْعَم، فأوَّلُ ما تقع عليه اليدُ تلتهمه البطنُ بشهيّة كبيرة. ثم هناك الشهيّة التي تأتي لدى تَذَوُّقِنَا طعامًا شهيًّا حتى ولو لم نكن نشعر بالجوع. وثالثُ أنواع الشهيّة هي التي تُسْتَثَارُ بعد أن نكونَ قد أكلنا جيّدًا من أطايِب الطعام، ثم يُؤْتَى في الأخير بطبق لذيذ، فلا نَصْبِرُ على تَذَوُّقِه من أجل متعة العين والبطن.

فقلت له: تحليل صائب أيّها العارف الأديب، لكن هل

---

أوراق الكرم الذهبيّة في فصل الخريف. وقد ألهمت هذه التسمية أحد الأدباء، فأطلق على الشريط المتوسّطي في فرنسا كوت دازير، أي التلال الزرقاء، المشهورة عالميًّا بشواطئها.

تستطيع أن تُمَثِّلَ لنا عن هذه الأنواع بوقائعَ حصلت لشخصيّات تاريخيّة، وأنت أديب المؤرّخين ومؤرّخ الأدباء؟

فقال بابتسامته العريضة وقد احمَرَّتْ أوداجُه وانتفَخَتْ: إنّ حوّاءَ تمثِّلُ النوع الأوّل من أنواع الشهيّة لمّا خرجت من ضلع آدم وجهدت في المشي حتى صادفت شجرة تفّاح، فتناولت الثمرة من الشجرة المحرّمة، كما أنّ بروسبرين[1] في الأسطورة اليونانيّة تمثّل النوع الثاني لدى تناولها رمّانة في جهنّم. أمّا النوع الثالث فأمثلته كثيرة.

فقالت له إحدى الأميرات: أرى أنّك ما زلتَ مُصِرًّا على ذكوريّتك المعتادة، إذ قَرَنْتَ صُوَرَ الشهيّة المذمومة بالنساء دون الرجال.

فقال الأديب: تصوَّري يا أميرتي أنّي لو خُيِّرْتُ لاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ أوَّلَ مَنْ يَقْطِفُ من الشجرة المحرّمة، أو يلتهم تلك الرمّانة. إنّه لمجد كبير لبنات حوّاء لم تَلْحَظِيهِ، وأغبِطُكُنّ عليه.

ازْدَرَدَتِ الأميرةُ ريقَها مِنْ حُسْنِ تَخَلُّصِ الأديب.

ثم بدا لي أن أسأله سؤالاً آخر: إذا كانت الشهوة أنواعًا ثلاثة، فهل الشراهة نوع واحد أم أنواع كثيرة؟

ابتسمَ الأديب النَّهِم بشراهَة واضحة، وطَرِبَ للسؤال وكأنّه ينطبق عليه، فأجاب: بالتأكيد هناك أنواع للشَّرَهِ كما هو الحال

---

(١) بروسبرين هي ربّة الفصول عند الرومان، وتقابل برسيفون عند اليونان التي تمضي ستّة أشهر في الجنّة مع أمّها (فصلي الربيع والصيف) وستّة أشهر في جهنّم (فصلي الخريف والشتاء) مع زوجها بلوتن إله النيران الذي اختطفها.

بالنسبة للشهيّة، إذ كلاهما شعور حسّي بالميل إلى الطعام والشراب. وستسرّ الأميرة لأنّي سأمثّل عن الشرَه بأمثلة للرجال هذه المرّة. أعتقد أنّ للشَّرَهِ أيضًا ثلاثة أنواع. هناك النوع الأوّل الذي يسمّيه مونتين «عِلْمُ الأشداق»، والتي يعتبره علماء الدين من الخطايا السبع، وحَدُّهُ الأقصى المذمومُ البِطْنَة. ومن أمثلته في الأسطورة الإغريقيّة زُحَل الذي أكل أولاده خوفًا من أن يأخذوا منه عرشه.

فقالت إحدى الأميرات لجهة الأديب: إنّك مناصر للثورة يا سيّدي الأديب، لكنّي سمعت أحد الظرفاء يقول «الثورةُ مثل زُحل تأكل أبناءَها». وإنّي أخاف أن تأكلَك، فاحتَرِسْ.

ابتسم الأديب ابتسامة ساخرة، وأدرك لَمْزَ الأميرة إلى معارضته للإمبراطور نابليون الثالث ومسانَدَتِهِ للثوّار، لكنّه فضّل تجاهلَ كلام الأميرة حتى لا يفسدَ الجلسةَ التي استولى عليها بحضوره وبدنه العظيم، وقفشاته النَادرة، وذائِقَتِهِ الموسوعيّة. ثم أردفَ في تفصيل كلامه قائلاً: ثم هناك نَهَمُ الظرفاء من المتمدّنين أمثال هذا المجلس البَهِي الذين يحبّون عقد لقاءات دوريّة مع أصدقائهم لأجل المتعة وتلبيةِ شهوات البطن. وحيثُ إنّ الحدَّ الأعلى للشَّراهة كما قلنا هو البِطنة المذمومة التي تُذْهِبُ الفِطنة، فإنّ لهذا النوع الثاني من النَّهم المحمود حدًّا أدنى هو المَلَق، وهو اسْتِرَاقُ الطعام بين الفينة والأخرى مع الإيهام بعدم الإقبال عليه. ومن صِفات الشَّرِهِ أنّه يطلُبُ الكمِّيَّة، في حين يطلب النَّهِم الكيفيّة.

فانتفضت إحديٰ الأميرات تُغِيرُ على الأديب مرّة أخرى: لا أَحْسَبُكَ يا سيّدي الأديب إلّا جامعًا بين الكَمِّ والكَيْف، مُؤْثِرًا

لهما، فلا الكَمُّ يُبلي شَرهَكَ للطعام، ولا الكيفُ يُثْني مَلَقَك عن اتِّباع لذائِذِ المطعومات.

ضحكنا من لمزها الساخر، فأجابها الأديب ببرودة أعصاب: تلك مَنْقَبَةُ الكُمَّل من أهل الأدب والظرف، ووجودُهم عزيزٌ في الزمان. وما فائدة الكَيْفِ إذا لم يَشْبَعِ البطنِ يا أميرتي العزيزة؟ وصُدُودُ المرءِ عن طبق لذيذ بعد الشَّبَعِ مُخِلٌّ بآداب المائدة، فلا فائدةَ مَرْجُوَّة من الزُّهد في هذه المَوَاطِن. بل المروءةُ والكرَم يقتضيان الإقبالَ على النِّعَم الخَالِبَة للنظر، السَّالِبَة للنفس، المُسِيلَة لِلُعَابِ أَهْلِ البَطَرِ في إتيانها ولو مَلَقًا. إنّ الإعراضَ عن فَضْلِ الطعام بعد الشَّبَع في موائد الكرام مَنْقَصَةٌ عظمى في عُرْفِ طوائف الآكلين وآدابهم الرَّاتِبَة.

ضحكنا مرّة أخرى من حضور بديهة الكاتب النادرة، وبلاغته الآسرة.

ثم أكمل كلامه: أمّا النوع الثالث من الشَّرَه، فهو السُّعَارُ المرضي. والمُبْتَلُونَ به ليسوا من النُّهماء ولا من الذَّوَّاقَة، بل هم ضحايا هذا البَلاء الكَاسِح الذي يأتي على الطعام كالجائحة فلا يُبقي ولا يَذَر، ولا يُحِسُّ المبتلى به رِيًّا ولا شَبَعًا، بل إنّه محروم من هذين الشعورين بالرَّوَاء والاكتفاء، وكأنّه أُلقِيَ به في بحر الجوع والعطش، مُخَلَّدًا فيهما أبد الآبدين.

ضحك الحاضرون من هذا التوصيف العجيب لحالة هؤلاء المرضى، لكن أميرة مازحة قالت للأديب: أخشى عليكَ من هذا الذي تَصِفُ يا سيّدي. وإنّي مشفقةٌ على ذلك الطير أمامك الذي لم يبق منه إلّا عِظَامٌ تَصْفِق. أمّا قَناني شَلْمَنصَّر من الشمبانيا، وقناني

شراب رُومَانِي كونتي، فعادت تَصْفِرُ بعد أن سَكَبْتَها في بطنِك كالأسْطال.

ضحك ألكسندر دوما، ثم قال: سَلِمْتِ يا أميرتي على شعورك، لكنّي مالكٌ لشهوتي وشراهتي، حتى وإن رأيتم عِظَمَ خِلْقَتِي واطِّرَاحِي على المطعومات أَزْدَرِدُهَا، والمشروبات أَسْتَمْرِئُهَا وأَعُبُّهَا. وإنّي أرى أنّ أعظمَ جريمة هي أن تُتْرَكَ هذه الأطايِبُ بدون أن تتناوَشَها الأيدي، وتُطعَمَها اللُّهَا ثم تُسْتَنْزَلَ بخير قَاعٍ في بُطونِ البِقَاع.

ثم التفَتَ إليه شقيقي الذي كان يغفل أحيانًا عن تجاذباتنا بحديث عاشق مع إحدى الأميرات، فناوشَ العجوز مرّة أخرى: ألا يَجمُلُ بك أيّها الأديب، وأنت أَعْرَفُ الناس بأن تكونَ كأهل الأولمب الذين لم يكن بهم شَرَهٌ، وكانوا لا يقتاتون إلّا على ذلك الرَّحِيق العجيب الذي قيل في وصفه بأنّه أحلى من العسل تسعةَ أضعاف.

فقال الأديب: لعلّي أَفْعَلُ ذلكَ بعد وفاتي وانتقالي إلى الجنّة رفقة الحور العِينِ ورجالِ الأولمب المَلاعِين.

ضحك الوارشون على هذا الطعام، والنُّدمان على ذلك الشراب حتى استلقى بعضُنا على ظهره من شِدَّةِ الضحك، وخرج عن حَدِّ الأدب الأميري، لكنّ الأديب ألكسندر ما كان ليتركَ أحدًا على تحفُّظِه بكثرة مُغالَطاته ومُناوراته الفاكِهَة.

ثم حاولَتْ إحدى الأميرات أن تُغِيرَ عليه مُجدَّدًا فقالت: في أيّ دائِرَةٍ تسكنُ أيّها الأديب الكبير؟

فابتدرها سائلاً: ولماذا تسألين سيّدتي الأميرة؟

فقالت: أخشى أن لا تستطيعَ أن تعود بمفردك إلى بيتك بعد هذه الوليمة الصَّاخبة التي جُلْتَ في جنبات مائدتها يمينًا وشمالاً كما كانت تفعل الخيول في ميدان الكاروسيل، فما تَرَكْتَ رُكْنًا ولا طَبقًا إلّا وَنَاوَشْتَهُ، ولا شرابًا إلّا سَكَبْتَه!

فقال الأديب مازحًا: صدِّقيني أميرتي، إنّ رؤية هذه المائدة الممتلئة تُشْبِهُ المأساةَ اليونانيّة، فلمّا حَلَّتْ فيها أصابعي تَفْتَحُ التُّرَعَ وتَرْوِي بَطْنَ بُلَع، تحوَّلَتْ إلى مَلْهَاةٍ تُطْرِبُ الثَّكَالَى وتُتْحِفُ العَذَارَى.

ضحك الجميع، فأردفَ الأديب قائلاً لجهة الأميرة: إنّني أسكن الدائرة السابعة عشرة سيّدتي الأميرة.

فابتدرتُه بالسؤال: ما معنى الدائرة السابعة عشرة؟

فقال الأديب: إنّ باريس، سيّدي الأمير، تشبه الحَلزون الذي يرعى نهارًا في دوائرها الغربيّة الغنيّة ثم يعود مساءً إلى دوائرها الشرقيّة الفقيرة، ليتركُ دِبْقَهُ على سُكَّانِ تلك الدوائر البئيسة في حركته الحلزونيّة التي تتشكّل من خلفه في عشرين دائرة، ابتداءً من الدائرة الأولى في قصر اللوفر المقابل لنا.

ثم سألته مرّة أخرى: وهل كان عدد الدوائر دائمًا عشرين دائرة؟

أجاب الأديب: لم يكن كذلك، وإنّما كان عددها، قبل سبع سنوات خلت، اثنتي عشرة دائرة. ثم قام الوالي على المدينة البارون هوسمان فأعاد تخطيط المدينة وأوصلها إلى عشرين بعد تَوَسُّعِ العمران.

عادت الأميرة تسأله مرّة أخرى: وفي أيّ دائرة كنت تسكن في التقسيم الإداري القديم؟

فأجاب: كنت أسكن على حدود الدائرة السادسة عشرة الحاليّة، التي أصبحت في أوّل تقطيع إداري تحمل الرقم ١٣، لكن سكّان تلك الدائرة من الأغنياء رفضوا أن تحمل دائرتهم هذا الرقم، فعدَّل القائمون التقطيع الإداري الأوّل، وقسَّموا باريس على شكل حلزون، وحملت دائرة هؤلاء البرجوازيّين الرقم ١٦.

فابتدرتُه بالسؤال: ولماذا رفض هؤلاء السكّان أن تحمل دائرة سكناهم الرقم ١٣؟

فأجاب ضاحكًا: لأنّ الباريسيّين لديهم عبارة ساخرة حينما يقولون «لقد تزَوَّجَ فلان في الدائرة الثالثة عشرة»، معنى ذلك أنّه يعيش سِفاحًا وليس نكاحًا، لأنّ التقسيم القديم كما قلت لكم كان يتوقَّفُ عند الدائرة ١٢، والدائرة ١٣ كانت غير موجودة. ولهذا رفض الوسط الأرستقراطي والبرجوازي الذي يسكن في هذه الجهة الغربيّة الراقية من باريس أن يُنْسَبُوا إلى السِّفاح خوفًا من الطَّعْنِ في صحّة أَنْكِحَتِهِمْ وأنسابهم، فطالبوا بتعديل الترقيم، فأصبحَتْ دائرتهم تحمِلُ الرقم ١٦.

ثم سألته مرّة أخرى: ولماذا يسكن الأغنياء في غرب باريس؟

فأجاب بتهَكُّم واضح: لأنّ الرياحَ في منطقتنا تأتي من الجهة الغربيّة. وبعد الثورة الصناعيّة تركَّزت أغلب المعامل والمصانع في شرق باريس، فانتقل العمّال والطبقات الشعبيّة إلى حيث يوجد العمل، وسكنوا بالقرب من معاملهم، بينما سكنت الأرستقراطيّة

والبرجوازيّة في الجهة الغربيّة خوفًا من التَّلَوُّثِ والدخان والروائح الكريهة. إنّ باريس مدينة تُحِبُّ المَيْزَ الطَّبَقِي يا سيّدي الأمير. ولهذا قلتُ في البداية إنّ الحلزونَ يترُكُ دِبْقَهُ على الدوائر الشرقيّة في باريس، إشارة منّي إلى ما يتلقَّاه أهل تلك الدوائر من تَلَوُّثٍ وروائح كريهة.

سكت الأديب بعدما أعطانا هذه الصورة الواضحة عن توزيع المجال الحضري لمدينة باريس، وما استتبع ذلك من تقسيم طبقي.

ثم قمنا عن مائدة الطعام، وفي هذه الأثناء اقترب منّا شابَّان سلَّما على أخي مراد وناولاه بطاقة وانصرفا. اقترب ألكسندر من شقيقي وبادله بعض عبارات المجاملة من دون أن يغفل عن ملاحظة البطاقة ومحاولة معرفة مضمونها. كان أخي في حالة من السُّكْرِ البَيِّن، فلم ينتبه إلى البطاقة وحَرِصَ ألكسندر على أخذها منه. وبدل أن يضع شقيقي مراد البطاقة في جيبه، أخطأ الحركة فسقطت منه على الأرض فتناولها الأديب الماكر بسرعة ودسَّها في جيبه. احتمَلَتِ الأميرات الثلاث أخي مراد، وَذَهَبْنَ به إلى حيث لا أدري، بينما ودَّعْتُ الأميرة المصاحبة لي رغم تَلَبُّثِهَا في المُكْثِ معي أملاً في تحقيق خاطر راوَدَهَا بقضاء الوَطَر، بعد أن لَعِبَ الشَّرَابُ بِعَقْلِهَا. قبَّلْتُ يدها بأدب ولاطفتُها بعبارات رقيقة، ثم تقدَّمْتُ نحو الأديب العجوز. فلمَّا قصدتُه طلبَ منّي أن نتمشَّى بعض الوقت حتى يَهْضِمَ أَطَايِبَ الوليمة التي خرجنا منها للتوّ.

ماشيتُ ألكسندر دوما بعدما أشعلتُ سيجارة ناولنيها من صندوق التقَطُهُ، وكأنّه صاحبُ القصرِ العليمُ بمكان الأشياء. ثم قال لي: هل استضافكم الإمبراطور في قصر تويلري؟

فأجبت: لقد عرض علينا ذلك، لكن عمّي اختار قصر الإليزيه.

فقال ألكسندر: هل تعلم تاريخ هذا القصر؟

قلت: لا.

قال: لقد بنته كاترين دو ميديسيس، ويُحكى أنّها أَمَرَتْ باغتيال جزّار كان له مَحَلٌّ جِزَارَة أمام القصر بعدما ادَّعتْ تلك القاتلة أنّه كان يعرف أسرار القصر. لكنّه قبل أن يموتَ قال لقاتله «سأعود». ثم بحثوا بعد ذلك عن جُثَّتِهِ فلم يجدوها. وقد ذكر كثيرون أنّهم رأوا شبحه. وما من أحد رآه إلّا وساءت خاتمته. وقد أخبر أحدُ المنجّمين أنّه رآه وأطلَعَهُ أنَّ من رأى شبح الرجل الصغير الأحمر سيموت. وقد ظهر لماري أنطوانيت قبل سقوط الملكيّة بقليل؛ كما ظهر لنابوليون الأوّل قبل معركة واترلو.. وكلّ من ظهر له لقي حتفه، وساءت نهايته.

فقلت: وماذا تعني بكلامك؟

أجاب: إذا كان الإمبراطور قد عرض عليكم النزول في قصر تويلري، فإنّي أزعم أنّه كان يتمنّى في سريرته أن يظهر لكم شبح الرجل الأحمر.

قلت: وما دلالة ذلك؟

قال بمكر واضح: لعلّه كان يتوقَّع من عمّك السلطان أن يلتقي بشبح القزم الأحمر، طمعًا من الإمبراطور في زوال إمبراطوريّة بني عثمان.

أطرقت صامتًا وأدركت في هذه اللحظة نوايا الأمم الغربيّة

اتّجاهنا، فتملَّكني الغضب، لكنّي تمالكت نفسي، وقلت لألكسندر دوما: وهل تؤمِنُ بهذه الخرافات؟

فقال: إنّ كنتُ لا أؤمنُ بها، فإنّ غيري يؤمن بها. ثم إنّ قضيّة قراءة الرموز وتأويلِها مهمّة جدًّا في الأعراف السياسيّة. ولماذا يحرص السَّاسة على البروتوكول؟ أليس تَلافيًا لمثل هذه الأمور؟

ثم سألته محاولاً مُغالطته بالتَّنويع في الاحتمالات: ما هو مذهبك في الحياة، هل أنت جمهوري أم مَلَكي، أم أنت رومانسي أم رِواقي، أم أنت مسيحي أم ماسوني؟

انتبه الأديب بفطنة إلى مُداراتي، وقال مبتسمًا: أراك تخلط أمورًا متناقضة غير متقابلة في سؤالك. وعمومًا، فمن حيث الأدب، فإنّي أديب رومانسي. ومن حيث فلسفة الحياة، فإنّي على مذهب الفلاسفة الرواقيّين في التمتّع بجميع الملذّات. وقد تزوّجت في الدائرة الثالثة عشرة قبل التقسيم الحالي لباريس. ثم أطلق ضحكات عالية على نُكتته. لقد عاشرت مئات النساء في مختلف البلاد التي زرتها، ولعلّي قد خلَّفتُ منهنّ مئات الأطفال الذين لا أعرفهم. إنّ جزءًا من البشريّة خارج من نسلي.

ضحك الأديب لفخره بفحولته، ثم أكمل حديثه: أمّا عن السياسة، فأنا ثوري أُحِبُّ حياة القصور وما فيها من العُطور والبُدور. أمّا عن الماسونيّة، فإنّي أكره الجمعيّات السرِّيّة التي تتذرَّع بامتلاك أسرار لاستقطاب المغفَّلين. وقد كتبت عن هذا الموضوع رواية جوزيف بلزامو.

أردتُ الاستيضاح منه أكثر، فسألته: لكن أغلبَ رجالاتكم من الماسونيّين.

فأجاب: ليس صحيحًا، فالكاثوليك يكرهون الماسونيّة مثلاً. وحيث إنّ الدولة والملكيّة مرتبطتان بالكنيسة، فَيَصْعُبُ على الملوك والأباطرة المخاطرة بالانتساب علنًا إلى الماسونيّة، علمًا بأنّ الإمبراطور نابليون الثالث يستعملهم في إدارة الدولة داخليًّا وخارجيًّا. وقد عيَّنَ أحدَ رجالِه على رأس مَحْفَل الشَّرق الكبير. أمّا في إنجلترا، فإنّ رئيس الماسون هو ولي عهد البلاد، الأمير إدوارد الذي تعرفه.

فسألته: وما هو هدف الماسونيّة؟

ضحك الرجل وقال بكلّ واقعيّة: إنّه مَجمَع أصحاب المصالح، ولا يدخلها إلّا ذَوُو النفوذ. لقد كان للكنيسة في العصور الوسطى دور سلبي في منع العقول من التفكير والوصول إلى الحقيقة، وجاء عصر الأنوار فأعلن العصيان عليها. ثم جاءت الثورة الفرنسيّة فثارت على الكنيسة المتحالفة مع الإقطاع والملكيّة. وقد اصطَفَّ كثير من الماسونيّين إلى جانب الثورة الفرنسيّة يؤجِّجُونها، بل إنّ شعار الثورة مأخوذ عن الماسونيّة التي جاءت بدين عَلْمَاني جديد. ولست أفهم أُناسًا يَدَّعُون أنّهم عقلاء يَقبلون بالخُزَعبلات التي يتناقلونها عن أسرار مزعومة تحتفظ بها الماسونيّة.

فقلت له: إنّي ألمسُ في كلامك تفكيرَ الرجل الحُرِّ المستقِلّ. لكنّك لم تُجبني عن هدف الماسونيّة.

فضحك وقال: نعم، هدفها هو جمع الثروات وإفساد العقليّات، والاستيلاء على مقاليد الأمور في الدول والإيالات. لست ماسونيًّا، ولن أقبلَ أن أكونَ كذلك، لأنّي أَمقتُ فكرة

الانقلابات والاجتماعات السرّيّة والشخصيّات النافذة، ودلال الأرستقراطيّة التافهة في الحديث عن أسرار لا يعرفها غيرهم ولا يدركها إلّا من كان منهم. وإنّي أُحذِّرُكَ منهم أيّها الأمير الشرقي، ففي ثقافتكم من الأسرار العميقة ما يُغني عن تفاهة أسرار هؤلاء البنّائين. هل يقبل إنسان سَوِيٌّ أن يَسُوسَهُ بَنَّاءٌ بسيط؟

سَحَبْتُ نفَسًا من سيجارتي ودَفَعْتُ بالدخان فانتقَشَتْ في الهواء دوائرُ مُسلسَلَة، وقلت للأديب الحرّ: إنّ هذه الماسونيّة مثل هذه الدوائر الوهميّة لا وجود لها في الحقيقة.

فاعترض عليّ الأديب وقال: إنّي رأيت فتية أعرفهم في هذه المحافل جاؤوا إلى شقيقك، فاحذَرْ من دخول هؤلاء القوم إلى بلادكم باسم التحديث والإصلاح.

فقلت له: إنّ للخلافة العليّة قلبًا نابضًا تحرسه جيوش النور.

ثم بدا لي أن أفتحَ قضيّة البطاقة التي كاد أن يُصَرِّحَ لي باستيلائه عليها، فقلت له: أخبرني عن هؤلاء الشبّان الذين كلّموا شقيقي بعد نهاية الوليمة.

قال: إنّي أعرف هؤلاء يا أمير لأنّي خَبِرْتُ أقوامًا كثيرين. وهذان الشابّان هما من الماسون. وقد سلّما أخاك بطاقة فيها دعوة لحضور حفل تنصيبه في محفل الشرق الكبير في باريس.

تعجَّبت من سرعة إلقاء هذه المعلومات وكيفيّة إدراك العجوز لها، فسألته البَيِّنَة، فقال: إنّ هذا المحفل من أكبر المحافل في فرنسا، وقد وضع الإمبراطور نابليون الثالث أحد رجاله رئيسًا عليه حتى يضمنَ التَّحَكُّمَ في الماسونيّة ويُسَخِّرَهَا لأغراض التَّجَسُّس والحصول على المعلومات داخل فرنسا وخارجها. والبطاقة التي

تسلَّمها شقيقك ثم سَقَطَتْ منه حينما أراد دسَّها في جيبه، دعوةٌ منهم لكي يلتحقَ بالماسونيّة. وقد كُتِبَتْ بطريقة سرّيّة لا يَفْطَنُ بها إلّا من كان على علم باصطلاحات الماسون في التَرَاسُل. وقد تبيَّن لي تَبَعًا لهذه البطاقة أنّ شقيقَك مُطَّلِعٌ على بعض أسرار الماسون في المكاتبات السرِّيّة، ممّا يعني أنّهم درَّبوه مِنْ قَبْلُ على ذلك في استانبول!

تعجَّبْتُ من ذكاء الأديب العجوز الذي لم يَنَلِ الشراب من اتِّقَادِ ذِهْنِهِ مقتلاً، وبقي مُتيقِّظًا. قلِقْتُ على انخراط مراد في هذه الجمعيّة السرّيّة، لكنّي كنت أعلم مُسْبَقًا أنّه قريبٌ من الأوساط الأجنبيّة ويتحدَّثُ لغاتهم بطلاقة كبيرة. ولا شكّ أنّه اطَّلَعَ في استانبول على بعض الأسرار التي كشفوا له عنها حتى يضمنوا سلامةَ مخاطَبَتِهِ وعدمَ وُقُوعِ البطاقة في أيدي رجال عمّي السلطان. ثم سألت الأديب أن يُطلعني على البطاقة، فأخرجَها من جيبه وسلَّمها لي وقال: لا بُدَّ من أن تُخْبِرَ عمَّك بهذا الأمر حتى يأخذَ الموضوع بجدِّيّةٍ ويمنعَ أخاك من الوُقوع ضحيّةً لهؤلاء. أخذت البطاقة وبدأت أُعاينها فلم أفهم شيئًا ممّا فيها، وحسبت أنّ الأمر شطحة من شطحات الأديب اخترعها ليدلِّسَ عليّ. فلمّا رأى إنكار باطني بذكائه النَّفَّاذ، قال لي: أيّها الأمير، إنّها مكتوبة بشكل لا يسمح بالاطّلاع على فحواها، ولا بُدَّ لك من مفتاح لقراءتها.

فسألته مستعجلاً: وهل لديك هذا المفتاح؟

فقال: طبعًا أعرفه. إنّ أبجديّة الماسونيّة هي عبارة عن جدول وصليب. ثم أخرج ورقة ورسم الجدول والصليب ووزَّعَ الحروف اللاتينيّة داخلهما.

ثم استطرد: إنّ نظام الكتابة الماسونيّة يتكوّن من ثلاثة عشر حرفًا، ولكتابة باقي الأصوات، فإنّهم يضيفون النقاط على جسم كلّ حرف من تلك الأحرف. فمثلاً حرف a يكتب هكذا: لـ ولكتابة حرف b، فإنّنا نضيف له نقطة هكذا: لـ٠

أمّا حرف u، فيكتب هكذا: <

ولكتابة حرف v، فإنّنا نضيف نقطة لهذا الحرف: < .

وحتى أُلَخِّصَ لك الأمر بدون تعقيد، إنّ أهمّ رمزين في الكتابة الماسونيّة هما المُثَلَّثُ والفرجار، كما وضَّحتُهما في الحروف التي مَثَّلتُ على كتابتها. وفحوى هذه الرسالة دعوة صريحة لشقيقك للانضمام إلى محفل الشرق الكبير.

تعجَّبت ممّا سمعت، وسألتُ الأديبَ عن مكان مَقَرِّ محفل الشرق الكبير، فأجابني: إنّه غير بعيد عن الدائرة الثامنة التي نوجد بها، فهو في الدائرة التاسعة المجاورة في زُقاق كادي. وإذا أحببتَ أن نَمُرَّ بالعربة من أمامه، فإنّي على استعداد لكي أُرَافِقَكَ في هذه المهمّة الاستكشافيّة.

وافقت على مقترح الأديب العجوز، ثم طلبتُ منه أن أحتفظَ بالورقة التي رسم فيها الجدول والصليب وبها مفتاح قراءة الرسائل السرِّيّة للماسونيّة، فامتنع أوّلاً، لكنّه سلَّمَها على مَضَض. دَسَسْتُ الورقة في جيبي ومشينا قليلاً؛ وبعد ذلك طلبتُ عربة عاديّة بفرس واحد لشخصين حتى لا أُثيرَ الشبهات في رحلتنا الاستكشافيّة. واقترحتُ على الأديب أن أُقِلَّهُ بعد ذلك إلى بيته بعد مرورنا أمام محفل الشرق الكبير. سار بنا الحُوذيُّ على طُول زُقاق رِيشْليُوهْ،

فالتفتُّ إلى مرافقي وقلت له: هذا أحَدُ شخصيّاتك الذي تحدَّثْتَ عنها في رواية «الفرسان الثلاثة». أَوْمَأَ برأسه إيماءةَ الرِّضَا. أكمل الحوذيُّ طريقه في زقاق دُرُوُّوهْ، ولَفَّ يمينًا على زقاق بُرُوفُنْس. وعلى تقاطع شارع مُونْمَارْت، دخلنا إلى زقاق كَادِي، فطلبت منه أن يتباطأ لدى شروعه فيه. لم يكن الزقاق عريضًا. كان الظلام يَلُفُّ المكان، وفي الجهة اليمنى للزقاق، عرَّجنا على مقرٍّ نُحِتَتْ على مدخلِه نجمةُ داوود. أخبرني دُومَا أنّه لجماعة يهوديّة ظاهريّة تُشَدِّدُ على الاتّباع الحرفي للتعاليم الموسَويّة. لم أمنع خاطرًا انتابني عن سرّ مجاورة اليهود مع الماسون. وبعدها لمحت عجوزًا جالسًا أمام بناية عاديّة من أربعة طوابق، في أعلاها عشر دوائر. أشار ألكسندر دُومَا إلى البناية وإلى العجوز الذي كان جالسًا أمام مدخلها يقرأ في صحيفة باريسيّة على ضوء مصباح خافت. أخبرني بأنّ العجوز حارس المحفل، وهو يتظاهر بالقراءة، لكن دورَه يتمثّل في صرف الفضوليين عن دخول البناية، والتَّحقُّق من «الإخوان» والمدعويّين. وفي الجهة المقابلة للبناية مكتبة صغيرة لبيع الكتب فوق بابها رسمٌ لِهَرَم في وسطه عينٌ مُحَدِّقَة. وفجأة رأيت رجلاً يتوقَّفُ أمام العجوز ويحدِّثُه، ثم يختفي داخل البناية، فتأكَّدتُ من صِدقِ دُومَا واطّلاعِه على أسرارِ الماسون وطُقوسِهم.

أكملنا طريقَنا حتى خرجنا من الزُّقاق ووصلنا إلى شارع لافَايِيتْ، فسلكناه باتّجاه الغرب حتى وصلنا إلى شارع هُوسْمَان الذي يتقاطع مع شارع مَالْزِيرْب حيث كان يَقطُن الأديب العجوز. أمر ألكسندر دُومَا الحوذيَّ بإيقاف العربة عند إحدى بنايات الشارع في الدائرة السابعة عشرة، ثم ترجَّل بعدما ودَّعني فودَّعته وشكرته

على إفاداته القَيِّمَة، ووعدتُه بترجمة بعض رواياته إلى التركيّة حتى يستمتع بها العثمانيّون. شكرني على هذه الأُمْسِية الجميلة. ثم وضع قبَّعَتَه على رأسه وأشار إليَّ بيده مودِّعًا بابتسامة صادقة.

انطلقَتْ العربة في شارع مَالْزِيربْ حتى تَقَاطُعِهِ مع زقاق مِيرُومِينِيل، ثم انعطفنا باتّجاه الجنوب حتى وصلنا إلى شارع سَانْ هُونُورِي، فلففنا يسارًا، وفي يمينه دخَلَتِ العربة من بوابة قصر الإليزيه. توقَّف الحوذيُّ في باحة القصر، ودخلتُ لأخلُدَ للرَّاحة بعد يوم حافل بالأحداث.

* * *

لم يحضر شقيقي اجتماعَ محفل الماسون لأنّ عمّي السلطان طلب منّا الاستعدادَ للسفر في اليوم الموالي إلى إنجلترا. لم أفهَمْ سِرَّ هذه العجلة المباغتة، لكنّي كنت سعيدًا بما حصل، حرصًا على نجاة مراد من أيدي هؤلاء. وفي العاشر من الشهر السابع الميلادي، شيَّعَنا الإمبراطور نابليون في محطّة القطار. وفي مدينة بولون الفرنسيّة، ركبنا اليَخت السلطاني مرّة أخرى، وعاد الأسطول الفرنسي إلى قواعده بعد أن تسلَّم منه الأسطول الإنجليزي مهمّة مرافقتنا حتى وصلنا إلى ميناء دوفر. ولمّا رسَتْ بنا السفينة، كان في استقبالنا إدوارد، أمير الغال، الذي كان قد غادر باريس قبل رحيلنا. وفي الطريق انتحى هذا الأمير بأخي مراد، الذي كان قد حاز إعجابه في باريس، وانفردا بالحديث والضحك. رابني سلوكُ ولي عهد إنجلترا وتقرُّبُه من مراد!

ولمّا وصلنا إلى لندن، كانت الملكة ڤيكتوريا في استقبالنا، وخصَّصت لنا قصر باكنجهام لإقامتنا. بينما كانت تسكن في قصر

ويندسور خارج لندن. لقد احتفَتْ بنا الملكة غايةَ الاحتفاء، وتناولنا معها الطعام، وراقَصَها عمِّي السلطان، وهي أوّلُ مرّة يُقدِم فيها خليفة عثماني على مثل هذا السلوك الذي أثارني وأحفظني، لأنّ فيه إِخْفَارًا للخِلافة وشأنِها، لكنّي احتفظتُ بهذا الشعور في نفسي، ولم أُبْدِهِ لعمّي. كذلك تلقَّينا عدّة دعوات رسميّة، وحضرنا بعض عروض المسرحيّات التي كان الإنجليز يحبُّونَها؛ ثم زرنا معارضَ اللوحات، وحضرنا جلسات مجلس العُموم، وزرنا مَصنع السفُن في بورتسموث. ومَنَحَ رئيس بلديّة لندن عمّي السلطان براءةَ مُواطنة فخريّة من الدرجة الأولى. كما شاهدنا عرضًا للسفن الحربيّة ومناوراتها في البحر، وزرنا رئيس الوزراء بارلمرستون، الذي كان يكره الروس ويبدي إعجابه الكبير بالعثمانيّين.

وخلال جولاتنا هذه، كان أخي مراد، النجمَ اللامِعَ الذي يطمع الجميعُ أن يجالِسَهُ ويحادِثَهُ، فقد انتزعَ إعجابَ الجَميعِ بِلباقَتِه وإتقانِه لِلِسَانِ القَوْم، وصادقَ الأميرَ إدوارد وانفرد به في جولات خاصّة. ورأيتهما يُلاطفان الأميرات الإنجليزيّات. وقد كان الأميرُ إدوارد زِيرَ نِسَاءٍ مَعْروفًا في كلّ أوروبا، بل لا يختشي أن يُزامِلَ بائعاتِ الهوى. وقد نقل هذه العَدوى إلى أخي مراد الذي اصطحبه في سهرات ليليّة لا أدري ماذا كانت نهايتُها. وقد تأثَّرَ أخي بطريقة لبس إدوارد، فكان يترك زِرَّ سُتْرَتِهِ الأخير مفتوحًا، وكنّا نعتبرها مَنْقَصَة. فلمّا سألتُ وَلِيَّ العهد عن سِرِّ هذه المُوضَة الجديدة أخبرني بأنّها طريقةٌ جديدة، عمَّت الأوساطَ الأرستقراطيّة في وليمةٍ حَصَلَتْ له فيها تُخْمَةٌ، فَفَتَحَ زِرَّهُ الأسفلَ، فتابعَهُ القَوم!

ثم فوجئتُ بانضمام شقيقي مراد إلى الماسونيّة. فلمّا استَنْكَرْتُ

صنيعَه، أخبرني أنّه انتسبَ إلى هذه الجماعة مُجاملةً للأمير إدوارد الذي هو رأس جميع الماسونيين في العالم. وبدا لي أن أسألَه عن عدم انضمامه إلى محفل الشرق الكبير، فأخبرني بأنّ عمَّنا السلطان علم بخبر طلب محفَل الشرق انضمامي إلى محفلهم، فمنعه من ذلك، وأسرع في تعجيل سفرنا إلى إنجلترا التي كان يرغب في تمتين العلاقات معها. كما أخبرني مراد بأنّ الأمير إدوارد هو من أبلغ السلطان بسعي الماسون الفرنسيّين انضمامَه إليهم، وبيَّن له خطورة أن يصبحَ ابنُ أخيه تابعًا للفرنسيّين. كان مراد يحكي بفخر وكبرياء تنافُسَ الماسون الفرنسيين والإنجليز على انضمامه إليهم، ولم يَفطن إلى ما في هذا من خطر على دولتنا.

ثم رأيت أخي مراد قد انفرد مرارًا بالأميرة لويز كارولين ألبرتا، ابنة الملكة ڤيكتوريا، وكان يُماشيها في منتزه القصر ويُمسك بيدها، وهي تبتسم له وتبادله الغُنْجَ والدَّلال وتُخْفِي قبلاتِهِمَا المختَلَسَة بِشَمْسِيَّتِها الصغيرة. كانت الأميرة لويز جميلة، شقراءَ الشعر، زرقاءَ العينين، تحبّ الفنَّ والموسيقى. وفي مساء ذلك اليوم، وبعد أن راقص مراد الأميرة لويز، وحاز إعجاب الحاضرين لبراعته في الرقص، اقترح ولي العهد، الأمير إدوارد، على عمّي السلطان تزويجَ أخي مراد أفندي بأخته الأميرة لويز ابنة الملكة ڤيكتوريا، من أجل توثيق الصلة بين الإمبراطوريّتين؛ لكن عمِّي رفضَ تلك المصاهرة بأدب، وخَيْرًا فعل! فإنّي لم أَكُنْ أَتَمَنَّى مثل هذه الزِّيجَة التي ستفتح البابَ أمام الإنجليز للدخول إلى قلب الخلافة، وَجَعْلِهَا تَسْبَحُ في فلكهم. أمّا أخي مراد، فقد كان غاضبًا من قرار عمِّنا السلطان، وسارَرني بأنّ اعتراضَه على هذا الزواج هو

بسبب رغبته في تغيير نظام تَداوُل السلطة في الدولة العثمانيّة، وتفويتها لابنه، مثلما فعل مع الخديوي إسماعيل في مصر. حاولت أن أُهَدِّئَ من رَوْعِهِ وأن أُثْنِيه عن إظهار غضبه حتى لا يزيدَ في تشديد الرَّقابة عليه من قبل رِجال عمّي السلطان، وربّما الإيقاعِ به أو قتله. لكن أشدَّ ما كان يخيفني هو انضمامه إلى الحركة الماسونيّة، وانخراطُه في محفل اسكوتلندة الذي يترأَسُه الأمير إدوارد.

أمضينا أحد عشر يومًا في لندن، وفي الثالث والعشرين من شهر يوليو، ودَّعَتْنَا الملكة ڤكتوريا، وشيَّعنا الأسطول الإنجليزي من دوفر حتى عبَرنا بحر المَانْش، ووصلنا إلى مدينة كَالِيه الفرنسيّة. ومنها أخذنا القطار باتّجاه مدينة بروكسيل، عاصمة مملكة بلجيكا، التي وصلناها في اليوم الموالي. لم تكن زيارةُ هذا البلد رسميّة، لكنّنا تناولنا الغداء مع الملك ليوبولد الثاني، ثم تحرَّكنا في اليوم نفسه، تلبيةً لدعوة ملك بروسيا؛ وفي الأثناء غيّر عمّي رأيه وأرسلَ اعتذارًا أبلَغه فيه تغيير برنامجه، لكن ملك بروسيا كان حريصًا على لقائنا، فأعملَ المسير إلينا لمّا وصلنا إلى كوبلنز على نهر الراين، والتي تبعُدُ مسافة ٤٦٠ كلم عن عاصمة ملكه برلين. كان في استقبالنا الملك ولهلم الأوّل رفقةَ الملكة. وقد كان بيسمارك هو الذي أقنعَ الملك بالمجيء لاستقبال السلطان، وعدم تفويت الفرصة للقائه.. خصوصًا وأنّ حرص جميع عظماء العالم على لقاء عمّي كان له دلالةٌ من حيث النفوذ والقوّة في السياسة الدوليّة. حَرِصَ الملك على تنظيم استعراض عسكري لجيشه في كوبلنز حتى لا يكونَ أقلَّ شأنًا من الإمبراطور نابليون الثالث الذي

قام بعرض عسكري لجيوشه في باريس، والملكة ڤكتوريا التي قامت هي الأخرى باستعراض أسطولها البحري. ولمّا شاهدتُ ضخامة الاستعراض العسكري، سألتُ عمّي السلطان عن أقوى جيش بَرِّي في العالم.

فأسرع شقيقي مراد بالجواب: طبعًا، إنّه الجيش الفرنسي. أَنسِيتَ حرْبَ القرم ضدَّ الجيش القيصري؟

فأجبت: بلى، لم أنس، لكنّي ألاحظ أنّ الجيش البروسي منظَّمٌ ومنضبط أكثرَ من الجيش الفرنسي.

فقال عمّي السلطان: إنّ الحربَ المقبلة بين بروسيا وفرنسا ستكون لصالح الجيش البروسي.

قال أحد وزرائه: يا مولاي، يغلب على ظنّي أنّ فرنسا تملك أكبر قوّة بريّة في هذا الوقت. أمّا بروسيا، فإنّها متفرّقة إلى عشرات الممالك الصغيرة.

فقال السلطان: لا تَغُرَّنَّكُم المظاهِر، فإنّ رئيس الوزراء بيسمارك الداهية ساعٍ في بناء قوّة بروسيا، وإنّي أتوقَّع أن تصبحَ إحدى الإمبراطوريّات الكبرى.

كنت أستمعُ بإمعانٍ لهذا التحليل العسكري من عمّي السلطان، وأدركتُ قيمةَ استشراف المستقبل بمُعاينة الواقع.

ثم أخذنا القطارَ مرّة أخرى باتّجاه ڤيينا، فاستقبلنا ملك النمسا وملك المجَر، اللتان كوَّنتا اتِّحَادًا من دولتين. بقينا في ڤيينا الجميلة ثلاثة أيّام، لأنّني أُصِبْتُ بوَعْكَةٍ صِحِّيَّةٍ ألزمَتْنِي الفراشَ في قصر شُونْبرون الذي وضعه إمبراطور النمسا رهنَ إشارتِنا. لم يكنْ ممكنًا

أن يتخلَّف عمّي وقتًا أطولَ في ڤيينا، فركبَ اليخت إلى بودابست على طول نهر ألطونة، واستقبله المجريّون بمظاهرات تأييد كبيرة. كما كان في استقباله مدحت باشا، الوالي على إيالة ألطونة. ثم غادر بعد ذلك بحرًا باليخت السلطاني حتى وصل الحدود العثمانيّة في بداية شهر أغسطس. ثم جاء في استقباله أمير رومانيا. ثم أخيرًا وصل إلى استانبول، وبقيت الأفراح مدّة ثلاثة أيّام بعودة الخاقان الأعظم، البادشاه العثماني. أمّا أنا فقد بقيت في النمسا أسبوعين حتى تماثلتُ للشفاء، فتعرَّفت إلى ولي عهد النمسا وتوطَّدَتْ صداقتي به، ممّا سيكون له أبعد الأثر فيما سيؤول من وقائع وأحداث، وعدت بعد ذلك إلى استانبول.

* * *

بعد عودتنا، أَمَرَ السلطان ببناء ثانويّة غلاتاساراي بنظام دراسي فرنسي، بعدما أعجب بالمدارس الفرنسيّة خلال زيارتنا لباريس. وجلب إليها الأساتذة الفرنسيّين وكان يريد تسريعَ وتيرة الإصلاحات وتكوينَ الأُطر القادرة على إدارة عجلات البلاد. كما قام بتحديث الأسطول العثماني، وأعاد تسليحَ الجيش، تَحَسُّبًا لأطماع الدُّوَلِ الكبرى التي كانت حريصةً على إبداء قوَّتها خلال الاستعراضات العسكريّة التي شهدناها في رحلتنا إلى أوروبا.

وفي الخامس عشر من نوڤمبر سنة ١٨٦٨، تزوَّجتُ من زوجتي الثانية، بدر فلك. كانت زرقاءَ العينين شقراءَ الشعر.

لم يحضر السلطان احتفالات افتتاح قناة السويس التي تمْتَدُّ بين مينائي السويس في البحر الأحمر وبورسعيد في البحر الأبيض المتوسّط، وكان شقُّها قد استغرق عشر سنوات مُضنية. ولقد مكَّنَ

افتتاحُها من القضاء على احتكار الملاحة الدوليّة واختصار الطريق بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي. كان الخديوي إسماعيل يعمل ليجعل من القاهرة مدينة أوروبيّة، ومن مصر دولة غربيّة. وما كان لعمّي السلطان عبد العزيز أن يقبل بأن يُسْبِغَ صَكَّ التَّأييد على هذا التوجّه، فرفضَ دعوةَ الخديوي لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس.

ثم زارتنا الإمبراطورة أوجيني، زوجة نابليون الثالث. واصْطَحَبَتْ في زيارتها الأميرةَ الفرنسيّة التي كانت ترافقني خلال زيارتنا الرسميّة إلى فرنسا بمناسبة المعرض الدولي لسنة ١٨٦٧. وأوّلَ ما وصلَتْ ذكَّرَتْنِي بوعدي لها في إدخالها الحراملك. استأذنتُ من عمّي في القيام بزيارة الحريم القديم في طُوبْ كَابُّو فأذن لي بالزيارة مُشَدِّدًا على اصطحاب أحد الأَغوات. طبعًا، طلبت من إبراهيم أفندي أن يرافقنا. فلمّا رأته الأميرة ابتهجَتْ به، وأخذت تُحدِّثني عن الأقزام في البلاطات الأوروبيّة، ثم سألتني عن دور الأقزام في السَّراي العثماني، فأجبتها: إنّ أدوارَهم متعدّدة، ولكنّهم يحرسون الأمراءَ صِغارًا ويُضحِكونَهم كِبارًا. ثم سألتُها عن أدوارهم في بلاطات أوروبا، فقالت: بعضهم كان مُكلَّفًا بِقَرْعِ أَجْرَاسِ الكنائس، وبعضُهم الآخَرُ كان يُرافِقُ الأميرات ويُمسِكُ بِزِمَامِ الكِلاب أو يَهتمُّون بالخيول.. وربّما تدرّجوا إلى مَراتب كبيرة داخل القصر. ولعلّ أشهر الأقزام القزم بْرُوسْكِي المحتال الذي كان يَدَّعِي صناعةَ الطبّ فَقَتَلَ كثيرًا من جُنْدِ فرنسا، وحُكِم عليه بالإعدام. وفي طريقه إلى المقصلة، مَرَّ به ولي عهد فرنسا، هنري الثاني فاستعطفه القزم وأضحكه.. فَعَفَا عنه واتَّخذه خادمًا. والتقى بالملك فرانسوا

الأوّل وأضحكه. ومن غرائبه أنّه كان يحمل معه يوميّة المجانين الذين التقى بهم ممّن يستحِقُّون الذِّكْر. واتَّفَقَ أنّ الإمبراطور شارل الخامس طلب الإذن بالمرور من فرنسا في طريقه إلى بلد آخر، فعلم القزم بالأمر وضَمَّ اسمه إلى يوميّة المجانين. فلمّا علم الملك بذلك سأل القزم «وما رأيك إذا سمحت له بالمرور مع ما يليقُ به من الشرف والأمن؟»، فأجاب بروسكي القزمُ في الحين «فليسمَحْ لي مولاي أن أمسحَ اسم الإمبراطور من يوميّة المجانين، وأُقَيِّدَ اسمَ مولاي بدلاً عنه»، فضحك الملكُ لجرأة القزم وصراحته. أمّا ما صنع بالملكة كاترين دو ميديسيس زوجة هنري الثاني، فجراءَةٌ زائدة، إذ أعْرَبَتِ الملكة عن رغبتها في لقاء زوجة بروسكي للتَّفَكُّهِ بمعرفة أخباره مع زوجته، وكيفَ يُعاشِرُ قزمٌ امرأةً بقامة عاديّة، وقَصْدُها أن تَتَنَدَّرَ عليه بِتَتَبُّعِ أخباره والإحماض بها في مجالسِ الأرستقراطيّة المخمليّة. فلمّا وقف على نيَّتِها، أقنعَ كُلًّا من المرأتين على انفراد بأنّ الأخرى صَمَّاء، ويتوجَّبُ رفعُ الصوت عاليًا لإسماع مُخاطِبَتِها. فلمّا اجتمعتا صارت كلّ واحدة منهما ترفع صوتها عاليًا حتى تُسمِعَ مخاطبتها، فوصل صوتهما إلى الساحة السفلى لقصر اللوفر، وضحك من ذلك الجميع لانْطِلاءِ المَقْلَبِ عليهما، وتعرُّضِهِمَا للسخرية.

ضَحِكتُ من جرأة هذا القزم المحتال، ثم قلت للأميرة: إنّ هذا قزم داهية، وقد وصلتني بعض أخبار الأقزام العجيبة كقصّة القزم الذي كانت تضعه إحدى نساء عِلْيَةِ الأرستقراطيّة في إناء الشُّرْبَة وسط مائدة الطعام، فإذا حلَّ وقْتُ صَبِّ الشربة للضيوف، رَفَعَ خادم المائدة الغطاءَ فَطلَعَ القزمُ على النِّساءِ المتحلِّقات

فأَرعبَهُنّ بظهوره المُباغِت، ويمضينَ الوقت في التفكُّه بمثل هذه النَّادرة.

عمومًا أميرتي العزيزة، هذا إبراهيم أفندي صاحَبَني منذ صغري، وهو رجل مخلص لي، وقد انتهَتْ سنوات خدمته التسع، لكنّه فَضَّلَ ملازمتي، وسيرافقنا في زيارة القصر حتى يخبرَ بوصولنا. كان قصر طوب كابو مخصَّصًا لبعض الأمراء والأميرات، ولم يعد به حراملك[1]. طفنا بجميع أنحائه وأَخبرتُ الأميرة بالنِّظام المتَّبع فيه منذ أن شيَّده جدّي السلطان الغازي محمّد الفاتح. زرنا مختلف دوائر وأجنحة الحراملك: يُقَسَّمُ نساء الحراملك إلى خمس طبقات: أَوَّلاً، الكادين، وهي الزوجة الشرعيّة للسلطان، وعددهنّ أربع زوجات. ثانيًا، الكاديكليس، وهنّ في خدمة السلطان، مكلّفات بالمائدة السلطانيّة أو باللباس السلطاني. وبعضهنّ يحصل على صفة «إقبال» أو «أوداليك»[2]، أي خادمة الغرفة.

فقاطعتني الأميرة: أحسبُ أنّ الكلمة التي نتداولها في ثقافتنا

---

(١) حراملك: كلمة تركيّة مأخوذة من الكلمة العربية «حرام» بإضافة اللاصقة التركية «لِكْ» في آخر الكلمة، والتي تفيد المكان. فهو المكان المحرّم دخوله على الأجانب. كما أنّ السَّلامْلِك هو الجناح التي يستقبل فيه السلطان الوفود للسلام عليه. وهناك حاجز بين الحراملك والسلاملك، ويقوم الآغوات وهم الخصيان بحراسة المجالين.

(٢) إنّ كلمة «أُوطَة» في عاميّة بعض الدول العربيّة مأخوذة من الكلمة التركية «أوطة أي الغرفة». وخادمة هذه الغرفة تسمّى في الحريم العثماني «أوداليك». وقد دخلت الكلمة إلى معجم اللغات الأوروبيّة وأصبحت إحدى الشخصيّات البارزة في مدرسة الفنّ الأوروبي المعروف باسم التيّار الشرقي *Orientalisme*، حيث نجد لوحات مشهورة لماني وماتيس وغيرهما تصوّر الأوداليسك في أوضاع عارية غير محتشمة.

عن المرأة «الأوداليسك» مأخوذة من لغتكم. فهل خدمة «الأوداليسك» تشمل تلبيةَ رغبات السلطان الجنسيّة؟

فأجبتها: الأوداليك ننطقها في لغتنا بدون سين، وهي فتاة عذراء تخدم الأميرات، لكن قد تبلغ إحداهنّ مراتب عالية بسبب جمالها وكفاءاتها إلى أن يتّخذها السلطان خليلة له، فترتقي في رتبتها. وإذا ما أنجبت منه، تصبح إحدى زوجاته. وأغلب الأوداليك كنَّ من الشركسيّات والجورجيّات.

فقاطعتني الأميرة مازحة: وفي رأيك، هل تقبل أن تتّخذني أوداليك؟

فقلت لها بالمزاح نفسه: أنت سيّدة أيّتها الأميرة، وتستحقّين أن تكوني من الكادين الشرعيّات.

ضحكت الأميرة وأردَفَتْ: لكنّي لن أقبلَ بالشريكات.

فأجبتها: ألم أَقُلْ لك في باريس إنّك لن تقدري على حياة الحراملك؟

فقالت بغُنْج ممزوجٍ بِلَوْم: أفلا تُكْمِلُ الحديثَ عن باقي طبقات الحراملك؟

فأجبتها: يظهر أنّ كلامي لم يَرُقْكِ، لكنْ لا بأسَ فأنا لم أقصد مماثَلَتَكِ مع غيرك من جواري الخدمة السلطانيّة.

ثم أكملتُ قائلاً: الطبقة الثالثة من النساء «الأوستا» أو الشغّالة المكلّفة بخدمة السلطانة أو الكادين وأولادهنّ. والطبقة الرابعة من نساء الحراملك هي لـ «الشاكير» أو المتعلّمات المبتدئات. وأخيرًا، الطبقة الخامسة من الجواري أو الرقيق العادي.

فقالت الأميرة: ومن يُشرف على تنظيم هذه الأصناف؟

فأجبتها: كلّ هذه الأصناف توضع تحت سلطة رئيسة تدعى «كياي كادين». والجميع يعرفها لأنّها تحمل عصا مكسوّة بالفضّة في يدها. ويعمل إلى جانبها «خزندار أوستا»، وهي مكلّفة بالميزانيّة والنفقات واللباس.

تجوَّلنا في مختلف أجنحة الحراملك المسموح بزيارتها، ثم لمحنا بعض النساء يتضاحكن، فسألتني الأميرة عنهنّ، فأجبتها: أولئك نساء يهوديّات، يأتين إلى الحراملك لبيع الحليّ والمجوهرات وغير ذلك. وهنّ الوحيدات اللائي يُسمح لهنّ بالدخول.

كانت الأميرة سعيدة بزيارة الحراملك، وأظنّ أنّها كانت تُكِنُّ لي بعض مشاعر المحبّة أو هكذا يُخَيَّلُ لي، لأنّ نفسيّتي كانت شكَّاكة، ولم أكن أثق بالعبارات المنمَّقة والعواطف الجيّاشة الملتهبة. كما كنت أخاف الدخول في علاقات حُبّ، بل أهرب من إقامة علاقات غراميّة. كانت الأميرة تمسك بيدي فلم أكن أَتَمَادَى في مبادلتها مشاعر التَّزَلُّف والمحبَّة، فغاضها سلوكي حتى قالت لي فجأة: إنّك بلا قلب أيّها الأمير.

فقلت لها متعجّبًا: وما الذي حمَلَكِ على هذا القول؟

فقالت: إنّك مُتَمَنِّعٌ غير مُتَوَدِّد.

فقلت لها: أبدًا، لكنّني لا أُحسِنُ ما تَطلبين منّي، وليس هذا من عاداتنا. ثم إنّني رجل مُتزوِّج.

فقالت: وكم عددُ زوجاتك؟

فأجبتها: لقد تزوَّجت من سيّدتين، لكن لم يَرزُقني الله بَعْدُ بالولد.

فقالت: وهل تسمح لي بزيارة زوجتيك؟

فقلت: ليس لديَّ مانع، وبعد زيارة الحراملك، آخذك إلى قصر طولمة باجة لتتعرَّفي عليهنّ.

قالت: حسنًا.

*** 

التقت الأميرة بزوجتيَّ السَّمراء ثم الشقراء وتبادلَتْ معهنّ بعض العبارات، ثم ودَّعَتْهُنَّ، وأظُنُّ أنّها فَهِمَتْ أخيرًا لما رَأَتْ جمالهنّ ورِقَّةَ أخلاقهنّ أنّ قلبي كان مقفلاً عليها.

*** 

كما زارنا وليُّ عهد إنجلترا، الأمير إدوارد، وافتتح محفلاً ماسونيًّا في استانبول، ضَمَّ مجموعة من رجالات الدولة. اجتمع الأمير بشقيقي مراد مرارًا، واستوصى به عمّي السلطان، وأكَّدَ عليه في أنّ إنجلترا تنصح بعدم تغيير قواعد انتقال السلطة في الدولة، وأنّها ستستَمِرُّ في تقديم العون للدولة العثمانيّة في حال أبقى السلطان على ولاية العهد لابن أخيه مراد باشا.

لم يكن عمّي مرتاحًا إلى هذا التَّدَخُّل السَّافر في الشؤون الداخليّة للدولة، واكتشف أنّ رجالات الدولة أنفسهم كانوا يميلون لرأي الإنجليز الذين استقطبوهم. كما اكتشف أنّ ذريعةَ الإصلاح التي تتشبَّث بها الدول الأوروبيّة كانت سببًا في تزايد حركات التَّمَرُّد والانفصال داخل البلاد، ممّا يعني أنّ الذي يعنيهم هو وضع اليد

على مقدّرات الدولة، وتوجيه سياستها بما يخدم مصالحهم فقط، ولا يَهُمُّهُمْ وَضْعُ الدستور أو انتخاب مجالس تمثيليّة. . وبعد وفاة الصدر الأعظم عالي باشا، أحدِ الرجال القلائل الذين يفهمون في تدبير أمور الدولة، فَقَدَ السلطانُ أَهَمَّ رجلٍ يمكن أن يعتمد عليه في مُواجهة خُطَط الدول الأوروبيّة. استطاع العثمانيّون الجُدد أن يفرضوا واحدًا منهم في الصدارة العظمى هو محمود باشا، وبعده مدحت باشا، وآخرين غيرهما؛ واستمرَّتْ سياسة التعيينات المتجدّدة بسبب عجز هؤلاء عن تدبير سياسة الدولة، واهتمامهم بمصالحهم الخاصّة. ثم سقطت مصر قُرَّةُ عَيْنِ الخلافة في يد الإنجليز، وسُدِّدَتْ بهذا القسط أكبرُ ضربة للوحدة الإسلاميّة. فقَدتِ الدولة هيبَتَها لعجزها عن سَداد ديونها وشارفَتْ على الإفلاس، بسبب تحديث الأسطول العثماني، وَصَرْفِ مبالغَ هائلة، وبناء سكك الحديد والسرايات، فقرَّرَ عمّي السلطان التَّقرُّب من روسيا القيصريّة، بعد أن ازدادت قوَّتُها وتراجعت قوّة فرنسا إثر هزيمتها أمام بروسيا، التي أصبحتْ ثاني قوّة عظمى بعد إنجلترا، بعد أن توحَّدت وانضمَّت إلى اتّحادها ثلاثون دولة ألمانيّة، فأصبحت بذلك إمبراطوريّة قويّة لها أكبر جيش برّي في العالم. وتحقّقت توقّعات السلطان أثناء آخر زيارة لنا في أوروبا.

بعد قلب موازين القوى لفائدة وسط وشرق أوروبا، لم يكن أمام السلطان من حلٍّ سوى عقد معاهدة مع قيصر روسيا بشأن الولايات العثمانيّة التي تقطنها أغلبيّة مسيحيّة، والسماح لأسطولها بحرِّيّة الملاحة في البحر الأسود. لكنّ الدول الغربيّة لم تكن لترضى عن هذا التقارب الذي سيضرب مصالحها في العمق،

وخاصّة إنجلترا التي أصبحَتْ تَتَدَخَّلُ بشكل سَافِرٍ في الشؤون الداخليّة للدولة، بحيث أعربَ سفيرُها عن إرادة دولته في اعتلاء شقيقي مراد أفندي عرش الدولة، ومدحت باشا في الصدارة العظمى، وحسين عوني باشا الذي كان أيضًا مواليًا لها، على رأس الجيش العثماني.

وجرَّاء هذا التدخّل، طلب مدحت باشا من السلطان أن يُخَفِّفَ الحراسةَ عن شقيقي مراد، وأقنعَ السلطان بأنّ علاقات شقيقي مراد مع إدوارد سَتُبَدِّدُ تخوّفات الإنجليز، فوافق على طلبه. على إثر ذلك، كَثُرَتْ زيارات مدحت باشا لأخي في القصر، ورابني منه ذلك، فعلمت أنّه يُعِدُّ لأمر سرّي.

حاولتُ زيارة أخي للاستطلاع عمّا يحصل، فذهبت إليه مرّة بين العشاءين، فوجدته ثَمِلاً مُتَرَنِّحًا من إفراطه في الشرب! استقبلني، وحاولت أن أستفهم منه عمّا يجري، فبدأ لسانه يحكي، وجوارحه تُمَثِّلُ ما يحكيه. ثم سألته عمَّا جرى له مع إدوارد ولي عهد إنجلترا في المحفل الماسوني في لندن. وضع المسكين إصبعه على شفتيه وطلب منّي التَّكَتُّمَ، وذكر لي أنّه لن يخبرني بالأمر إلّا إذا وافقت على الدخول في هذه الجماعة، فأجبته بالإيجاب، وقصدي أن أستطلعَ منه عن أسرارها. ثم قام فأخذني إلى غرفة أخرى، وطلب منّي الجلوس أمام منضدة عليها غطاء، فوقه جمجمة. فأطفأ الأنوار إلّا من ضوء خافت جدًّا بحيث صرنا لا نرى تفاصيل الأشياء بوضوح. ثم قام إلى دولاب وأخرج كتابًا وسَيْفًا وبعض الأغراض الأخرى، وطلب منّي أن أضع يدي على الكتاب وأُقسم، فسايرتُه فيما يَطلب، ونيّاتنا غير مُتَّحِدَة، فهو يعتقد

أنّي أُقسِمُ على ما يَنويه، وأنا لم أقسم على الكتاب المجهول، بل أقسمت في سرِّي على الرغبة في معرفة ما يجري. لم يكن المسكين في حالة تجعله يتأكّد من إخلاص قَسَمي. ثم أخذ يسألني:

هل فكَّرتَ جيّدًا في الانضمام إلى هذا المحفل المقدّس، علمًا بأن إفشاء أسراره سَيُعَرِّضُكَ للقتل؟

تعجَّبتُ من هذا التهديد، لكنّي أجبته: نعم.

فقال لي: سأتركك تُفكِّر بعض الوقت حتى تختبرَ نفسكَ أنّك قادر على حفظ الأسرار. سمعتُه يخطو بعض الخطوات. ثم عاد إليَّ مرّة أخرى وسألني: هل ما زالَتْ لديكَ الإرادة نفسها في كتمان الأسرار، والانضمام إلى هذا المحفل المقدّس؟

فأجبتُه مرَّة أخرى: نعم.

ثم سألني أسئلة عامّة عن اسمي ومكان ولادتي وديني وصفتي وعمري. فأجبته بما يعرف، ونيّتي أن أقف على كامل الطَّقس الذي تعرَّض له في لندن. ثم سألني مرّة أخرى: هل أتيتَ إلى هذا المحفل من أجل السُّمعة أو للوقوف على أسرار المحفل؟ فأجبته بالنفي. وسألني: هل أنت منتسب لجماعة أخرى تحارب محفلنا؟ فأجبته مرّة أخرى بالنفي. ثم سألني سؤالاً غريبًا: هل أنت مشترك في محاولة انقلاب على دولتنا، وعلى زعيمتها؟

استغربتُ صيغةَ السؤال عن الزعيمة، لأنّ الذي يحكم دولة آل عثمان هو عمُّنا السلطان عبد العزيز. ثم تفكَّرت جيّدًا، ففهمت أنّه يعني دولة إنجلترا وملكتَها ڤيكتوريا، فهالني الأمر! لكنّي حافظت على برودة أعصابي وسايرتُه حتى أظفرَ بجميع ما جرى له هناك،

فأجبته مرّة أخرى بالنفي، وقصدي من الجواب أنّي لا أتآمر على الخلافة، كما هو الشاهد من حالي، وما عليه عَقْدُ إضماري.

بعد ذلك طلب منّي نزع ثيابي الخارجيّة، وأخذ منّي جميع أغراضي المعدنيّة بما فيها خنجري وخاتمي وساعة جيبي وبعض الدبابيس والحلي التي تعلّق على ثيابي، فاستغربت أكثر. ثم رفع بيديه سروال رجلي اليمنى إلى حدِّ الركبة، وكشف عن الجهة اليسرى من صدري، ثم أعطاني نعلاً (شَبْشَب) ووضع عصابة على عينيَّ، فتظاهرت بمساعدته على وضعها، فيما كنت أُزيحها قليلاً عن عيني اليسرى لأترك منفذًا صغيرًا للنور يمكّنني من متابعة ما يحدث. ثم أخذ بيدي وتقدّم بي في الغرفة حتى وصلنا أمام باب يؤدّي إلى غرفة أخرى، فطلب منّي أن أقرعه ثلاث قرعات. على إثر ذلك القرع، فُتح لي الباب. دخلت إلى القاعة التي يظهر أنّها تحاكي قاعة المحفل. فضرب أخي الأرض بعصا تناولها وهو يحاكي دور شيخ وقور، ثم قال: أيّها الإخوة الحُرّاس ساعدوني في فتح هذا المحفل العادل الكامل؛ ثم استدار وكأنّه يخاطب جماعة أخرى قائلاً: هل هذا يناسبكم؟ وبعد أن اطمأنّ إلى موافقة الأشباح التي أجابته بالقبول، توجّه بالسؤال مرّة أخرى إلى شبح آخر، فقال: أيّها الأخ الحارس، هل أنت ماسونيٌّ؟ ولمّا تلقّى جوابه، سأله مرّة أخرى: لماذا أصبحت ماسونيًّا؟ وما هو الواجب الأوّل على كلّ ماسوني؟ تحوَّل شقيقي يجيب نيابة عن الماسوني الحارس قائلاً: لقد كنتُ في الظلمات والغفلة، أبحث عن النور والحكمة، وإنّ واجبَ كلّ ماسوني هو التأكّد من أنّ الأبواب مقفلة، وأنّ الأمور تسير وفق نظام صارم قبل الشروع في الكلام.

تَوَجَّهَ أخي مرّة أخرى، وهو يمثّل دور الشيخ الوقور مخاطبًا الحارس الماسوني: قم بدورك إذن. ثم سأل الشيخ الوقور: كم الساعة؟ فأجاب: إنّها منتصف الليل. فقال الشيخ الوقور: بما أنّه منتصف الليل، فلنفتح المحفل، أخبروني بالإشارة والملامسة وقُبلَة السلام.

بعد تنفيذ هذه الأوامر، يضرب أخي، وهو يؤدّي دور الشيخ الوقور، الأرضَ بعصاه مرّة أخرى، ويقول: أيّها الأخ الحارس، إنّ محفلَ المبتدئين قد فُتِح، ثم يقوم بإشارة خاصّة. ثم يمثّل أخي مرّة أخرى دور الحارس بإعادة الإشارة. ويعود مجدّدًا إلى رئاسة المحفل سائلاً: هل هناك من مُقترَح؟ فيجيب الحارس: هناك مبتدئ يرغب في الانضمام إلى محفلنا الموقّر. ثم يسأل الشيخ الوقور مرّة أخرى أشباح الحاضرين: هل توافقون على استقبال هذا المبتدئ؟ فيتظاهر الشيخ الوقور باستلام إيماءاتهم بالموافقة.

بعد ذلك يأمر مديرَ المراسم بإحضار المبتدئ. يأتي إليَّ أخي، وقد انتقل إلى أداء دور مدير المراسم، ويأمرني بقرع الباب ثلاث مرّات، فيخبر الحارس الذي يخبر الشيخَ الوقور، فيأمرهم باستطلاع هذا الذي أَزْعَجَ هُدوءَ المحفل في هذا الوقت. ثم يفتح أخي، في دور الحارس، البابَ جزئيًّا، ويسألني: من الطارق؟ فأجيبه بعدما بدأت أفهم أطوار هذه المسرحيّة: إنّني طالب مستنير أبحث عن الهداية والنور. فيخبرون الشيخ الوقور مرّة أخرى بأنّ الطارق مستنير يطلب الهداية والنور. وبعد ذلك يأمرهم بإدخالي، فأدخل إلى المحفل. ثم يخاطبني أخي وهو يمثّل دور الحارس: انطلاقًا من هذه اللحظة، سأتركك لقدرك، ولا يمكنني أن أنفعك

بأيّ شيء. ثم يأتي أخي في دور الحارس الثاني، ويضع في يدي اليسرى سيفًا مسلولاً ويأمرني بأن أضع سِنَانَهُ الحَادّ على شِقِّ صدري الأيسر؛ ثم يسلّمني للحارس الثاني الذي يأخذني بيده اليسرى، ثم يتناول السيف بيده اليمنى، ويقودني حتى أقف أمام الشيخ الوقور بين الحارسين. كنت أتعجّب كيف كان شقيقي يتقن لعب هذه الأدوار المختلفة، وكأنّها انتقشت في ذهنه إلى الأبد! فأدركت أنّه تَدَرَّبَ عليها، أو أنّه حضر مثل هذه المراسم مرارًا، وخمَّنت أنّهم ربّما طلبوا منه تولّي رئاسة محفل ماسوني يفتحونه في استانبول، متى ما أتيحت له الفرصة وتولَّى شؤون الدولة.

وقفت إذن أمام أخي في دور الشيخ الوقور، فسألني: ماذا تريد؟ هل جئت من أجل الفُضول؟ أو من أجل الاطّلاع على أسرارنا وإذاعتِها؟ ما هي قدراتُك وكفاءاتُك في المجال العلمي؟ هل تتقنُ فنَّ الإدارة؟ ما هي الواجبات المترتِّبة عليك؟ هل سبق وأن قُمْتَ بسلوك شائن يتعارضُ مع سيرة شخص صادق؟ هل أنت عضوٌ في جماعة تُعادي محفَلَنا؟ هل لديكَ الرَّغبةُ الصَّادقة في الانضمام إلى محفَلنا؟ وهل أنتَ مستَعِدٌّ للخُضوع لجميع الطقوس التي سنُجريها عليك؟

فأجبت بدون تردُّد: نعم. وقصدي أن أصلَ إلى نتيجة كلّ هذا.

ثم خاطب الشيخُ الوقور شبحَ الحارس الثاني قائلاً: أيّها الحارس الثاني، قُمْ بالسفر به بين السماء والأرض، من المساء إلى منتصف الليل حتى الصباح، ثم عند الزوال اذهب لجهة الغرب.

وبعد أن تظاهر بإجراء تلك الرحلة، خاطبني الشيخ الوقور

قائلاً: ما هو رأيُكَ في الدين؟ هل أنت مُنْخَرِطٌ في انقلاب ضدَّ الدولة وزعيمتِها؟ هل قتلتَ أحدًا عن ترصُّدٍ وسَبْقِ إصرار؟ هل نِيَّتُكَ ما زالت قائمة؟

ثم أمر الحارسَ أن يسافر بي هذه المرّة عبر عنصر الماء. وبعد إتمام السفر، يلتفتُ إليّ الشيخُ الوَقور قائلاً: ها قد أتممتَ سفرَكَ الثاني، لكنّك مقبلٌ على سفر صعب، هل تدركُ هذه الصعوبة؟ وهل لديك القدرةُ والشجاعة على اجتياز هذا الاختبار وتَحَمُّلِ ما يمكن أن يعترضَك في سفرِك؟ فَكِّرْ جيّدًا، لأنّ الأمرَ يتطلَّبُ منك صبرًا على احتمال شدائِد هذا السفر. ما هو قرارُك؟

ثم يعطي أوامرَه لكي أقومَ بهذا السفر، ويُشَدِّدُ على عدم التَّساهل في إتمامه.

وبعد إتمامي لهذا السَّفر، تمَّ اقتيادي بين الحارسين أمام الشيخ الوقور، فقال لي: لقد أنجزتَ أسفارَكَ الثلاثة، ونحن راضون عن شجاعتك التي برهَنْتَ عليها. لكن هذا غيرُ كافٍ، ويلزمُك أن تُعطينا الدَّمَ الذي يجري في قلبك. ثم يأمرُ قائلاً: أيّها الأخُ الجرَّاح، انزِعْ منه ما يُعادل أربعَ أُوقياتٍ من الدَّم.

وافقتُ مبدئيًّا على الأمر لعلمي بأنّ شقيقي في دور الشيخ الوقور لن يقومَ بهذه العمليّة، فأخذني وأجلَسني على كرسي وأشعرني بأنّه سيبُاشرُ عمليّةَ أخذِ الدَّم. ولمّا رأيتُه قد عزم، كدتُ أن أُوقِفَ هذه المسرحيّة حتى لا يقعَ ما لا تُحمَدُ عقباه، لكنَّ فُضولي في استكناه الباقي كان أعظمَ من تَوَجُّسَاتِي. ولِحُسْنِ الحَظِّ، لمحتُه يأخذُ ريشةً حادَّة شَكَّ بها ذراعي، ثم صَبَّ على إسفنجَةٍ ماءً دافقًا دَافِئًا أخذه من الإبريق الذي كان يُعِدُّ به قهوتَه،

ومسحَ على ذراعي بالإسفنجة وعصَرَها، فانهمَر منها الماء الأحمر. وقد حرِصَ على وضع إناء الإبريق لاستقبال الماء الدَّافق المختلِط بحُمرة دمِ ذراعي. ثم وضع ضِمَادَة صغيرة على العِرْق الذي شَكَّه، واقتادني مرّة أخرى بين شَبَحَي الحارسين وبين يَدَي الشيخ الوقور، فقال لي: إنّ إصرارَك على اجتياز جميع الاختبارات التي أجريناها لك، لا يُخَوِّلُ لك بعد أن تصبحَ عضوًا في محفلِنا. وقبل أن نخبرَك بأسرارنا المقدّسة، يجبُ أن تؤكّدَ لنا عزمَك باليمين المغلَّظة على الإخلاص التامّ، والكتمان المطلق. ثم يلتفتُ إلى شبحِ الحارس الأوّل، ويقولُ له: أرشِدْهُ أيّها الأخُ الحارس الأوّل إلى المذبَح بالخطوات السَّبع الصغيرة، والخطوات الثلاث الكبيرة المعتادة. ثم يأخذني هذا الحارس إلى الموضع المعيَّن بعد أن ضربني على كتفي اليمنى، ثم أمرني أن أجثُمَ على المثلَّث، وأن أضع أصبعين من أصابع يدي اليمنى على الكتاب الذي كان قد أخرجَه سابقًا من الدُّولاب، بعد أن فتح الكتاب. كنت أرى ما يحدُث بصعوبة لأنّ هذه الطقوسَ تسبَّبتْ في تَدَلِّي العِصابة عن عينيَّ بعض الشيء، فحالت دون رؤيتي كما يجب، ولم أَعُدْ أرى إلّا ما يَحدُثُ جهةَ الأسفل. رفعتُ رأسي إلى الوراء حتى أتمكَّنَ من رؤية ما يجري، ثم ناولني في اليد اليسرى فرجارًا مفتوحًا وجَّه سِنَانَه إلى قلبي.

بدأ الشيخُ الوَقور يَسْرُدُ القَسَم، ويأمرُني أن أُرَدِّدَه: في حضرة المهندس الأعظم للكون، وحضور أعضاء هذه الجمعيّة الموقَّرة، أنا فلان الفلاني، أُعاهِدكُم على كتمان أسرار الماسونيّين الأحرار، مهما تطلَّب ذلك من تَضحيات، ولا أُفْشِيهَا إلّا أمامَ أخٍ مخلص

وصادق، وبعد التَّأَكُّدِ من نواياه، أو في محفل ماسوني محترَم من الإخوان والأصحاب. كما أتعهَّدُ بعدم كتابتها أو طباعتها أو رسمها أو طَمْرِهَا تحت الأرض، أو غير ذلك من الأسباب التي تُعَرِّضُها للكشف. وفي حال مُخالفتي لهذا التَّعهُّد، فإنّني سأتعرَّض لأن تُقطَع رأسي، ويُسَلَّ لساني، ويُنتزَعَ قلبي ليدفَنَ في رمال البحر بعيدًا عن السَّاحل بمراحل، ويُحرَقَ بدني حتى يتحوَّل إلى رماد، ثم يُذَرَّ على وجه الأرض حتى لا يبقى له أثر. ووفق هذا العهد والقسَم، أطلبُ العونَ من الله.

بعد ذلك، أخذ الشيخ الوقور مطرقة خشبيّة وضرب بها ثلاث مرّات على رأس الفرجار الموجَّه إلى قلبي؛ ثم قادني الحارسان مرّة أخرى أمام الشيخ الوقور الذي سألني: هل تريد الآن أن ترى النور الذي جئت بحثًا عنه؟

فأجبت بالإيجاب.

عند ذلك نزع عنّي العصابة، ففوجئتُ بسيف مُوجَّه إلى صدري، وتخيَّلتُ أنّ سيوفًا أخرى كانت سَتُوَجّه إليّ من باقي أعضاء المحفل. فيخاطبني الشيخ الوقور قائلاً: إنّ هذا السيفَ وسيوفَ باقي الإخوان كلّها ستقطَعُ قلبَك إِرْبًا إِرْبًا في حال ما إذا ثَبَتَتْ خيانَتُك لهذا المحفل الموقّر. لكنّهم بالمقابل مستعِدُّون للتضحية بأرواحهم من أجلك، والدفاع عنك ضدّ أعدائك لو التزَمْتَ بواجباتك الماسونيّة، وكنت أخًا ماسونيًّا صالحًا.

ثم أدخل سيفه في غِمْدِه، وحَسِبْتُ أنّي سمعتُ أشباحَ الحاضرين تُغمِد سيوفَها تبعًا للشيخ الوقور.

ثم خرجنا إلى الغرفة الأولى ولبستُ ثيابي من جديد. وبعد ذلك عدتُ مرّة أخرى إلى قاعة المحفل، فاستقبلني الشيخ الوقور مرّة أخرى، وخاطبني بقوله: أخي، إنّ من عادة المحفل أن يُقدِّمَ للعضو الجديد ثلاثَ هدايا: المئزرَةُ التي ترمُز للبراءة، وقُفَّازان رِجاليّان يرمُزان إلى أنّنا لا نُدنِّس أيادينا بالوِشايات والأرْجَاس، وقُفّازان نسائيّان للتعبير عن احترامنا للجنس اللطيف. ويمكنك إهداؤهما للمرأة المحترمة التي وقع عليها اختيارك.

ثم أعطاني إشارة الحَلْق، واللمس، والكلمة المقدّسة، وكلمة المرور، والمكان الذي ينبغي أن أحتلَّه في المحفل، ومعلومات أخرى..

وأخيرًا، تقدّم أخي في دور خطيب المحفل ليُلقي خطابًا صغيرًا حول طقوس السلوك الماسوني من الدرجة الأولى.

بعد انتهاء المراسم، سلَّم عليّ شقيقي بطريقة السلام بين الماسونيّين، وأخذ يخاطبني بلفظة الأخ المستنير وكأنّي واحد من المجموعة. ثم خاطبني قائلاً: اعلم أيّها الأخ المستنير أنّ أسرارَ الماسونيّة لا تُذاع إلّا بين المنتسبين إليها، وبصفَتِك واحدًا من أعضاء المحفل، يسعدني الآن أن أخبرَك أنّ الاتّصالات بيني وبين الماسونيّين تَتِمُّ عبر أخينا السفير الإنجليزي في استانبول. وقد كان فاتحني بالانضمام إلى هذه الجماعة، فماطَلْتُه، وقبل أشهر من زيارتنا إلى أوروبا، أخبرني بأنّ ولي عهد إنجلترا يرغب في صداقتي، وأنّه يعرِضُ عليّ الانضمام إلى الماسونيّة في مقابل نُصرتي ومساعدتي في اعتلاء السلطة على رأس دولة آل عثمان. رحَّبت بالمقترح، ووعدتُ السفيرَ بأنّي مستعِدٌّ للانضمام إلى هذه

الجماعة بشرط أن يُقدِّموا لي يَدَ العونَ، فيما كان عمّي يريد أن يحرمني من حقّي في ولاية العهد التي ينوي أن يَعهَد بها إلى ولده يوسف عزّ الدين أفندي.

كان أخي يظنّ أنّه يلقّنني السلوكَ الماسوني، ولمّا أخبرني بكلّ ما أُريد، وأحسستُ بتعبه وغلبة النوم عليه، ساعدتُه حتى أوصلتُه إلى غرفة نومه، ثم خرجتُ إلى دائرتي، وأنا لا أكادُ أُصَدِّقُ ما جرى، وكيف تتآمرُ علينا الأممُ الأوروبيّة باستقطاب رجالاتنا في الداخل. كان الغضب ينهَشُنِي، لكنّ العقلَ والرَّزَانَةَ كانت تُلْجِمُ نارَ غضبي حتى أمنحَ فرصة لعقلي كي يُفكِّرَ بطريقة سليمة تُخرج أخي من هذه الورطة، التي أوقعَ نفسَه فيها جرَّاءَ رغبة نفسِه الأمَّارة التي تبتغي الرئاسة والإمَارة. وكيف بالله يستحقُّها من باع دينَه وبلادَه وخانهما!

* * *

في صباح اليوم الموالي، تحاشيتُ أن أَذهبَ لزيارة أخي، والتقينا في حديقة القصر، فسألني: هل زرتَني ليلةَ أمس؟

فأجبتُه بالنفي وقلتُ: كيف أزورُك وأنا أعلمُ أنّك تقضي وقتَك في السكر! وهذا ممّا لا أقبَلُهُ ولا أَرتضيه.

زمجَرَ في هدوء، ثم قال لي: لقد رأيتُ في المنام أنّك أصبحتَ واحدًا من الماسون، وأخشى أن أكونَ قد أذعتُ بعض الأسرار بعدما أقسمتُ على عدم إشاعتِها. ثم رأيت كأنّي قُتِلْتُ لِعَدَمِ تَحَفُّظِي.

فقلت له: استعِذْ بالله إذن، واتْفُلْ ثلاثًا لجهة اليسار، فإنّ هذا

الحلم المزعج لن يكون بإذن الله.

استجاب لما قلت، ثم تحدّثنا في أمور أخرى، واستأذنتُ منه للذهاب إلى المدينة من أجل الصلاة في المسجد السليماني.

منذ تخفيف الحراسة عليّ، كنت أخرجُ أتجوّل في استانبول مرارًا لأتعرَّف على البلاد وأهلها، وأفوزَ بما فاتني معرفتُه. وصلتُ الجامعَ فصلَّيت مع المصلّين، ثم جلستُ متخفِّيًا بلباس عادي بين الناس، ورأيتُ شيخًا وقورًا، عليه أماراتُ الصلاح، فاقتربتُ منه، وسلَّمتُ عليه. فقال الشيخ: السلام على ابن الخلافة.

تعجَّبتُ من رَدِّه، وكيفَ استطاعَ أن يعرفني. فسألته قائلاً: هل تعرفني؟

فأجاب: ما جئت إلّا لكي ألقاكَ وأتعرَّفَ إليك وعليك، فأنت أملُ الخلافة يا سيّدي.

ازدادَ تعجُّبي، وتوجَّستُ من أمره لدى ذكره الخلافة، وظننتُ أنّه قد يكون من هؤلاء الذين لا يَفْتُرُونَ عن تدبير الانقلابات، ولم يكن لي طاقة ولا نيَّة في الانقلاب على عمّي، سيّما بعد الذي سمعتُه من شقيقي مراد.

تنبَّه الشيخُ لما حاكَ في صدري، فقال لي: لا تجعلْ للشيطان إلى قلبِك سبيلاً، ولا تخطئ في نيَّتي يا سيّدي.

فقلت له: وكيف لا أتوجَّس ممّا تقول أيّها الشيخ، وأنت تدعوني إلى الخلافة، مع أنّ للمسلمين خليفة يحكمُهُم؟

فقال الشيخ: بوركَ فيك يا سيّدي، ولكنّي لم أدعُكَ إلى مثل هذا، وإنّما ذكرتُ لك أنّك أَمَلُ الخلافة، وهذا شيء آخر.

فسألته: وما هو ذاك؟

فأجاب: نحن في آخر دورة الخلافة يا سيّدي، ولا بدّ أن يكون خَتْمُها قائمًا بالمحامد، كما كان مُبتداها فتْحًا بالمحامد البكريّة.

لم أفهَمْ كلامَ الشيخ، لكنّه أدركَ ذلك، فقال لي: دعنا من هذا الآن، وأخبرني عن أحوالك.

فقلت له: حالي بخير، لكن أخبرني من تكون؟

فقال: اسمي محمّد ظافر ابن الشيخ محمّد حسن بن ظافر المدني.

تفاجَأت باسم والده، فقلت له: هل أنت ابن الشيخ محمّد حسن بن ظافر المدني؟

فأجاب: نعم، الشيخ محمّد حسن رحمه الله، والدي.

فقلت له: هل تعرفُ الأمير عبد القادر الجزائري؟

فقال لي: ومن لا يعرفُ الأمير، وقد شرَّقَ ذكرُه وغَرَّب؟

فسألته: وهل تعرِفُ أنّه أخذَ الطريقَ عن الشيخ محمّد بن مسعود الفاسي، عن والدك الشيخ محمّد حسن، عن الشيخ الأكبر مولاي العربي الدرقاوي الحسني؟

فقال، وقد عَلَتِ الابتسامة مُحيَّاه: وكيف تعرِفُ يا سيّدي سَنَدَ الأمير إلى شيخ شيوخنا مولاي العربي الدرقاوي، قدَّس الله سِرَّه؟

فأجبت: لقد أخبرني بذلك الأمير نفسُه.

فسألني الشيخ مرّة أخرى: وهل أخذتَ الطريق عنه؟

فأجبت: لا يا سيّدي، لم يتيسَّرْ لي ذلك، لأنّ الأميرَ أخبرني بأن...

توقَّفتُ عن الكلام، وتذكَّرت في هذه اللحظة ما أوصاني به الأمير عبد القادر.

فقال لي الشيخ: لماذا توقَّفتَ عن الكلام، وبماذا أخبرَكَ الأمير؟

بقيتُ متفكِّرًا للحظات، ثم قلت: لقد أوصاني الأمير بشيء عجيب لم أفهم معناه إلّا في هذه اللحظة.

فقال الشيخ: وما هي وصيَّتُه لك؟

فقلت: لقد أخبرني بأنّي سآخذُ طريقَ الإرادة على يد رجل آخر، وحَسَبَ عبارته التي انتقَشَتْ في ذاكرتي، سـ «تنالُ به **الظفر**. فإذا ظَفِرْتَ بهذا **الظافر**، فَالزَمْ جنابَه وَخُذْ عنه».

سألني الشيخ: وما الذي استوقفَك في هذا وأثار انتباهَك فجأة؟

فقلت له: إنّه كان يدُلُّني عليك يا سيّدي، وها قد كتب الله أن ألتقي بك، فأنت هو الشيخ الظافر. كما أنّي فهمتُ مغزى كلامك الذي فاتحتني به في البداية.

ابتسم الشيخ وقال: بارك الله فيك، والأميرُ شيخنا، لكنّ الله أراد لهذا الظفر أن يَتِمَّ من هذا الطريق المدني.

فقلت للشيخ: أرجوك يا سيّدي أن تُلَقِّنَني.

فقال: ليس بعد، يا سيّدي، لكن سيكون لنا موعد في وقت لاحق.

فقاطعته قائلاً: لماذا يا سيّدي تُماطِلني في هذا الأمر؟

فقال الشيخ: لكلّ أجلٍ كِتَابٌ يا ولدي، ولم يَحِنْ بعد هذا الأمر الذي كتبه الله. ونحن يا ولدي لا نتصرَّف من ذواتنا، ولا نتحَرَّك إلّا إذا حَرَّكَنَا المولى عَزَّ وَجَلَّ، فلا تَقْلَقْ، ولا تَوْجَسْ، وستأتي عليك أوقات عصيبة، لكنّك ستنجو بإذن الله من كلّ الابتلاءات، ففيك خير كثير. وكما قلتُ لك، أنت أَمَلُ الخلافة بإذن الله، فَاحْمَدِ الله.

ثم قام وتركني واجمًا أُردِّدُ عبارات الحمد، وأتفكَّرُ في كلماته العجيبة التي نَزَلَتْ على قلبي رَوْحًا وريحانًا، لكنّها أثارت فضولي، واستعجلتني لمعرفة كُنْهِها. وبعد أن استفَقتُ من استغراقي وَوُجومي، الْتَفَتُّ بحثًا عن الشيخ، فلم أَجِدْ له أثرًا. بحثتُ في كلّ أنحاء المسجد، فلم أجده. ثم خرجت مسرعًا أَتَقَفَّى أثره، فلم أَعْثُرْ له على أثر.

تجوَّلْتُ في المدينة، ثم عُدْتُ أدراجي إلى القصر. بقيتُ ذلك اليوم، متفكِّرًا في أمر هذا اللقاء، وكيف أنّ الله سخَّر لي السلوك إليه على يد هذا الرجل، لكنّه ماطلني لأمر لا أُدرِكُ حكمَته. ثم تفكَّرت في حال أخي الأكبر، مراد، وكيف أنّه سلكَ سلوك التدجيل. تعجَّبْتُ من حكمة الله، كيف خرجْتُ مع شقيقي من بطن واحد بنطفة مختلفة؟ لكنّ الله كتب سلوكي إليه، بينما كان سلوك أخي على يد الماسونيّة الدجّاليّة. تفكَّرت جيّدًا في حالي وحال أخي، وحاولت أن أجدَ له مخرجًا من هذه الورطة العظيمة التي أَوْقَعَ نفسَه فيها.

وفي اليوم الموالي، ناديتُ على مُرافقي إبراهيم أفندي القزم،

وأمرتُه أن يُسدي لي خدمة عظيمة، بعدما أخذتُ منه الأيمان المغلَّظَةَ على عدم إفشاء سرّي. وبعد أن وثِقْتُ من قَسَمِه، وكنت أعرفُه منذ طفولتي بصلاحه وأمانته، ودائمًا كان يردِّد ما أوصته به والدتي رحمة الله عليها «انتبه لولدي، فهو أمانة في عنقك». فتُخالجني العَبَرات كلَّما ذكر تلك العِبَارَات.

قلت له: يا إبراهيم أفندي، أريد منك أن تتسلَّل إلى دائرة أخي، وتَكمُنَ في ركن من أركانها حينما يأتي لزيارته مدحت باشا، واحذَرْ من أن يمسك بك أحد أو يكشفَك. وإذا ما مسكوا بك، فلا تخبرهم بأنّي أرسلتُك للتلصُّص على أخي مراد وجليسِهِ مدحت باشا، واخْتَلِقْ عُذرًا ما.

بقي إبراهيم أفندي صامتًا، فقلت له: هل تستطيع القيامَ بما أمرتُك به أم لا؟

فأجاب: يعلم سيّدي أنّي مستعِدٌّ لدفع حياتي لأجله. ولكنّي كنت أتفكَّر في كيفيّة الدخول، والكُمون في دائرة سيّدي مراد باشا. لكنّي سأتدبَّر حالي مع بعض أصدقائي الآغوات هناك حتى أترصَّدَ ما يجري. وعليّ أن أقضي الليلة هناك حتى الصباح، لأنّ الأبواب كما يعلم مولاي تُغْلَقُ ثلاثَ ساعات بعد غروب الشمس، ولن أستطيعَ أن أخرجَ حتى يَطْلُعَ الصباح من اليوم الموالي.

فقلت له: لن تعدمَ حيلةً في الكُمون في أحد الدواليب، وسيساعدك قِصَرُ قامتِك وضآلَةُ بدنِكَ على الاختباء في أيّ مكان، بحيث تستطيعُ أن تَكْمُنَ ولا ينتبهَ إليك أحد حتى تأتيني بما يجري بينهما.

لَمَعَتْ عَيْنَا إبراهيم أفندي لهذه المهمّة، ودَبَّ فيه نشاطُ الشباب وحيويَّتُه، ثم تركتُه يتدبَّرُ أُمورَه.

وخلال ذلك الأسبوع حضر مدحت باشا كعادته لزيارة شقيقي مراد. فتَّشْتُ على إبراهيم فلم أجد له أثرًا، وتحاشيتُ أن أسألَ عنه حتى لا أثيرَ الشُّبهات. توقَّعْتُ أن يكونَ قد دَلَفَ إلى الدائرة وكَمَنَ في أحد أركانها لِتَرَصُّدِ الأخبار، والتَّنَصُّتِ للحديث الذي سيدور بين وزير الماليّة وشقيقي مراد.

بِتُّ تلك الليلة على أَحَرّ من الجمر أنتظر ما يأتيني به إبراهيم أفندي. خرجت إلى الحديقة للاسترواح، فالتقيت بأخي مراد وماشيتُه قليلاً، ثم بدأ كلامه بالحديث عن سيرة والدنا السلطان عبد المجيد قبل أن يصل إلى ذكر عمِّنا السلطان عبد العزيز. كان ناقمًا عليه، ولم يَتَوَانَ عن توجيه عِدَّة تُهَم له، وحمَّله مسؤوليّة الإفلاس الذي تعاني منه البلاد. وبعد أن رسم صورة قاتمة لحكمه، قال لي: لا بدّ يا أخي من تغيير الأمور، وإلّا ستسوء الأحوال إلى ما هو أعظم.

فأجبته: مهلاً يا مراد باشا، لقد قام عمُّنا بإصلاحات كثيرة، وحاول تحديث الجيش حتى يحافظَ على وحدة الدولة وتماسُكِها. ولم يحدث في عهده حروب.

فقال مراد معترضًا: ما زلتَ تدافِعُ عنه بعدما حَبَسَنا في المقصورة، ولولا تدخُّل مدحت باشا لما تمتَّعْنا بالمشي في هذه الحديقة الآن.

فقلت: لعلّه تدخَّل لصالحنا، لكن لا تنس أنّ جماعة الأتراك

الجدد لها أهداف أخرى، وتريد تغيير نظام الحكم، خلافًا لما عهدناه في هذه الدولة العليّة.

فأجاب مراد: ما زلتَ متعلِّقًا بأفكارك القديمة يا أخي. ألا تريد أن ترى دولتنا مثل فرنسا وإنجلترا؟

فقلت: بلى، لكن فرنسا وإنجلترا تسعيان لتحطيم دولتنا باسم النصائح التي تقدِّمانها عن الإصلاح.

فقال مراد: قد أُوافقك في أنّ فرنسا قد تكون لها أطماع في دولتنا، لكنّي مطمئنٌّ إلى حسن نيَّة إنجلترا اتّجاهنا بحكم أنّها جزيرة مستقلّة بذاتها.

فاعترضتُ على قوله: أما ترى ما فعلته بنا في مصر، وهي ماضية في استعمارها؟

فقال: إنّ غرضَها من مصر هو سلامة التجارة العالميّة بعد شَقِّ قناة السويس.

فأجبته معترضًا: أفلا تسمّي هذا أطماعًا واضحة؟

فأجاب: لقد كلَّمتُ السفير الإنجليزي، وطمأنني على نوايا دولته، كما أنّ وليّ عهد إنجلترا قد أبلغني بدعمه لوحدة الدولة واستقرارها.

فقلت له: أرجو ذلك، لكنّي لا أثق بهؤلاء القوم.

وبينما كنت أتجوَّل مع مراد باشا في الحديقة، لمحتُ إبراهيم أفندي يتسلَّل كالبرقِ خارجًا من دائرة مراد، فاستأذنتُ شقيقي في الانصراف، وأسرعتُ باتّجاه دائرتي.

دخلتُ، فوجدتُ إبراهيم أفندي منهَكًا من طول الليلة التي قضاها متكَوِّرًا في أحد الدواليب، فقلت له: هِهْ، أخبرني بما سمعتَ أو رأيت.

فقال المسكين: لقد كانت ليلة صعبة يا سيّدي. وقد نجحتُ بفضل دهائي في الاختباء في أحد الصناديق الموجودة في غرفة أخيك، بعدما تسلَّلتُ بتواطؤ أحد الآغوات العاملين هناك، وأخبرته أنّي أريد أن أمضي الليل معه في المسامرة. فلمّا كان وقت راحته جلسنا على مائدة الطعام نتحادث. واخترت أن أَدُسَّ له مُخَدِّرًا في شرابه حالما قام لإحضار بعض الطعام. تناول الشراب فأصابه النُّعاسُ حتى نام. ثم فتحتُ دولابًا سرِّيًا في غرفته كنت أعلم أنّ بداخله سلّمًا صاعدًا إلى دولاب علوي آخر، فتحتُه فألفيتُ نفسي في غرفة سيّدي مراد أفندي.

دخلت أحد الصناديق وكَمَنْتُ هناك بعد أن وضعتُ غطاء عليَّ. انتظرتُ طويلاً قبل أن يأتي سيّدي مراد باشا مع الصدر الأعظم مدحت باشا. كانا يتكلَّمان بصوت منخفض، لكنّي سمعتُ حديثَهما. وقد هالني ما سمعت!

فقلت له على عجل: أخبرني بسرعة، ماذا سمعت؟

فقال إبراهيم أفندي: أَدْرِكْ أَفَنْدِينَا، يا سيّدي، قبل فوات الأوان.

فانتهرته قائلاً: ماذا تقول، وما دَخْلُ أفندينا في الموضوع؟

فقال: إنّ مدحت باشا قد أخبر شقيقَك سيّدي مراد باشا بضرورة عزل أفندينا عن الحكم.

شَهِقْتُ لقوله، لكنّي طلبتُ منه أن يسترسلَ، فقال: لقد اتَّفَقَ مدحت باشا مع وزير الحربيّة وشيخ الإسلام على عزل أفندينا، وتنصيبِ شقيقك على كرسي الخلافة.

فسألته: ومتى ينوونَ القيامَ بهذا الانقلاب؟

فأجاب إبراهيم أفندي: لم يَذْكُرْ مدحت باشا موعِدًا لهذا الأمر، إلّا أنّه أخبرَ شقيقَك أنَّ قضيّةَ العزل وشيكة، وأنّ دولة إنجلترا راضية عن الأمر، مُساندة له. وقد قرأ مدحت باشا على شقيقك رسالة من السفير الإنجليزي ذكر فيها موافقة دولته على التغيير. ولضمان نجاح المؤامرة، لا بُدَّ من تنظيم مظاهرات ضدّ الدولة، لكنّ الأمر يحتاج إلى أموال. وهنا تدخَّل مراد باشا، فاقترحَ أن يُسَاهِمَ في تمويل التظاهرة، فأخبره مدحت باشا أنّه يلزَمُهُم توزيعُ قطعة مجيديّة واحدة لكلّ متظاهر يُخْتَارُونَ من طلّاب المدارس الدينيّة العالية. ثم تساءل شقيقُك عن المبلغ المطلوب، فأجابه مدحت باشا، بأنّهم يلزمهم ألف قطعة مجيديّة توزّع على ألف طالب علوم. وهذا العدد كفيل بأن ينضَمَّ إليه أعداد أخرى من الغاضبين والساخطين والأوباش والعاطلين عن العمل. وهنا نتدخَّل ونفرض على عمِّك ما نريد.

ولمّا وصل إبراهيم إلى هذا الحدّ، أخذ نفسًا طويلاً، وقال: وهنا كادت تكون الكارثة، يا سيّدي، فبعد أن قرأ مدحت الرسالة، سلَّمها لأخيك، فأخذها، ثم تقدَّم نحو الصندوق الذي كنتُ أختبئ فيه، فعلِمْتُ أنّه يريدُ أن يفتَحه، وكنت لمّا دخلت في الصندوق، وجدت فيه مجموعة من الوثائق والأوراق والقطع الذهبيّة مغطّاة بثوب. وبسرعة فائقة، أخذت الثوب والْتَحَفْتُ به. فتح مراد باشا

الصندوق، ثم رمى بالرسالة الملفوفة داخله وأخرج كيسًا من فئة ألف قطعة مجيديّة بدون أن يَتَلَبّث، ثم أغلق الصندوق مرّة أخرى. كان وجيب قلبي يضرب بقوّة، لكن صندوقَ الموسيقى كان يعزف فَلَمْ يسمَعا صوتَ ضربات قلبي. بقي مدحت باشا يحادث سيّدي مراد باشا، ويذكر له تشكيلة الحكومة المقبلة، وكيفيّة التعامل مع الأحداث. ومن أهمِّ ما تناقشا حوله، مصيرُ أفنديْنا، فقد أَصَرَّ مدحت باشا على اغتياله، فيما أَصَرَّ مراد باشا على سجنه في أحد القصور انتقامًا من فترة الحبس التي قضاها في المقصورة. ويظهر أنّ مدحت باشا وافقه في الأخير على هذا الرأي. ثم استأذن الوزير بعدما طلب من سيّدي مراد باشا أن ينتظرَ حتى يخبرَه بما يُستَجَدّ، وأن يلزمَ دائرته. بعد ذلك، خرج مدحت باشا، فرافقه سيّدي مراد باشا. وبعدما تأكَّدتُ من خروجهما، خرجتُ من الصندوق بعدما أصلحتُ الثوب الذي يُغَطِّي الوثائق، ووضعتُ الرسالة في الوضع نفسه الذي أُلْقِيَتْ عليه. ثم توجَّهتُ إلى الدولاب السرّي ودخلته، وفي داخله السُلَّم المفضي إلى حجرة صديقي الآغا السفليّة. بقيت هناك أرقُب ما يجري حتى رجع سيّدي مراد باشا، فتوجَّه مباشرة إلى الصندوق وتركه مفتوحًا، ولو كنتُ بقيتُ مختبئًا فيه لانفضَحَ أمري. ثم أخذ يقرأ الرسالة من جديد. وبعدما قرأها وتمعَّن فيها، احتسى بعض الشراب، وصار يَخْطُرُ في الحجرة مُنْتَشِيًا بالخُطَّة التي دبَّرها مع وزير الماليّة. بعد ذلك نزلتُ السُّلَّم بهدوء حتى وصلتُ إلى الحجرة السفليّة لصديقي الآغا المكلّف بخدمة سيّدي مراد. فتحتُ باب الدولاب فألفيتُه يَغُطُّ في نومه. حاولت النوم لكنّي لم أستطع، فلمّا أصبح الصباح، قام الآغا، فدخل الحمّام، فتظاهرتُ بالقيام. شكرته على السَّمَرِ الجميل وحكيتُ له بعض القفشات التي

اختلقتُها. لكنّه قال لي بأنّه لم يعد يتذكَّرُ شيئًا ممّا حصل، فقلت له مازحًا: لعلّك قَرُبْتَ من سِنِّ التَّقاعد وترك الخدمة، إذ لا يجمُلُ بالخدَم النسيان.

رافقني إلى الباب المؤدّي إلى الحديقة، ثم ودَّعني. فلمّا صرت في الخارج حمدت الله على نجاتي بأعجوبة.

بعدما أنهى إبراهيم أفندي ليلته الحافلة بالمغامرات، تنفَّس نَفَسًا عميقًا، واستأذن في أن يذهب ليغتسل ويتناول ما يَسُدُّ به رمقَه. تركتُ المسكينَ يذهبُ لحال سبيله بعدما أكَّدْتُ عليه مرّة أخرى أن يَدْفِنَ ما سمع ورأى في قَبْرِ صَدْرِه إلى يوم الدِّين. ثم جلستُ أَتَفَكَّرُ في كيفيّة تدبير هذه المستجدّات الخطيرة، وأدركتُ كيف أنّ إنجلترا بمحافلها الماسونيّة وبنوكها الرِّبَوِيّة، ودسائِسِها الاستعماريّة قد استمالَتْ مجموعةً من الرجال في الدائرة الضَّيِّقَة للسلطة في الدولة العليّة.

وبعد طول تفكير، قرَّرْتُ أن أتحدَّثَ مع عمّي السلطان بدون أن أُثيرَ شكوكَ الأتراك الجُدد الذين كانوا يستعدُّون للانقلاب عليه. تخيَّرت فترة كنت أعلمُ أنّه بمفرده، فاستقبلني في دائرته الخاصّة.

بدأت الحديث معه عن حالته الصحِّيّة وطمأنته على نفسي، لكنّه سرعان ما فتح قلبَه لي، وأخبرني بسوء الأحوال التي تَمُرُّ فيها البلاد، فقال: يا ابنَ أخي، هل تُدرِكُ أنّ الديونَ الخارجيّة بلغَتْ إلى حَدِّ هذه السنة (١٨٧٦) مائتي مليون قطعة ذهبيّة. كما أنّنا نقتطع ١٤ مليون قطعة ذهبيّة سنويًّا لسداد جزء من هذه الديون، لكن هذا المبلغ لم يعد كافيًا، بحيث إنّنا نَضْطَرُّ لكي نُسَدِّدَه إلى الاستدانة مجدَّدًا. ثم إنّ البلغار قد اجتاحوا القرى المسلمة وقتلوا

ألفًا من المسلمين. فلمّا أخمدنا الفتنة، قامت الصحف الأوروبيّة تُنَدِّدُ بنا وتَنْشُرُ أخبارًا زائفة عن أنّنا قتلنا عشرات الآلاف من المسيحيين ودمَّرنا قُراهُم. ونحن نُواجِه اليومَ موجة عنصريّة معادية لنا في أوروبا. أمّا أعداء الداخل، فكانوا يتفرَّجون ويتآمرون. وعلى رأس هؤلاء شرذمة من الأتراك الجدد.

وظهر لي أن أُنَبِّهَ عمّي إلى ما يجري بدون أن أُوَرِّطَ أخي مراد، فقلت له: يا سيّدي، إنّ الأممَ الأوروبيّة ليست راضية عن التحديث الذي قمتَ به، وتطويرِ الجيش العثماني لكي يتمكَّنَ من صَدِّ كلّ عدوان على دولتنا؛ لكن هؤلاء الخُبثاء لهم رجال في الدولة تعرفُهم أكثرَ ممّا أعرفُهم، وإذا سمحتَ لي برأي، فإنّي أرجوك أن تُبعد هؤلاء عن دائرة الحكم عاجلاً، وخاصّة مدحت باشا. فإنّي أخشى أن يتحالفوا مع الإنجليز لتنفيذ خطّة سرِّيّة معادية لجنابكم.

فقال لي: يا ابن أخي، منذ غياب عالي باشا، ونحن نعاني من غياب الرجال الأكفّاء الذين يستطيعون تدبير أمور الدولة. ومدحت باشا، رجل ذكي إلّا أنّه مُناور خطير ولا يهتَمُّ إلّا بمصالحه الخاصّة، وقد حقَّق أرباحًا ماليّة كبيرة على حساب الدولة. أمّا الصدر الأعظم، فرجل سبَّبَ لنا عدّة مشاكل، ولا أُخفيكَ أنّي أرغبُ في استبداله للتخفيف من حدّة التوَتُّر في البلاد، وإخراس الصحافة المعارضة.

ثم ظهر لي أن أُنَبِّهَ عمّي إلى ضرورة أن يُعلنَ دستورًا للبلاد ليسحبَ البساط من تحت أرجل كلّ الانقلابيين.

فأجابني عمّي السلطان: إنّي أفكِّرُ في ذلك بشكل جِدّي لأمنحَ

دولتَنا نظامَ المشروطيّة، التي يُسمُّونها في أوروبا الديموقراطيّة، لكنّ العقليّات في دولتنا ليست مستعدَّة بعدُ لهذه الفكرة.

لم أستطع إخبار عمّي بما سمعتُ خوفًا من انتقامه من أخي، وليقيني بأنّ مظاهرة ألف طالب لن تُغَيِّرَ الأمور، إذ المطلوب أن يتولّى أحد الانقلابيّين وزارة الحربيّة، وهو ما لم يكن ممكنًا في هذا الوقت.

استأذنتُ عمّي في الخروج، وطمأنتُه إلى أنّي معه قلبًا وقالبًا، ومستعِدٌّ لكلّ ما يأمرُني به. شكرني على وفائي وإخلاصي، ثم خرجت.

* * *

كان المتآمرون قد اجتمعوا خلال تلك الأيّام، ودبَّروا أمورَهم فيما بينهم، لكن كلّ واحد كانت له أهداف مُعلَنة وأُخرى خفِيّة، وكنت أعلم أنّهم يَكرهون بعضَهم، لكنّهم كانوا مُضْطَرِّينَ للتحالُف من أجل الإطاحة بالسلطان عبد العزيز الذي عاكس مصالحهم. وقد كان عمّي متمسِّكًا بالوَلاء للعثمانيّة رغم أفكاره التنويريّة وإصلاحاته الجريئة. ومن بين ما كان يَقُضُّ مَضْجَعَ أعدائه من الأُمَم الأوروبيّة تحديثُه الجيشَ العثماني والبحريّة بأحدث التجهيزات حتى يستطيعَ الثَّبَاتَ أمام أعدائه. كما حصَّن القلاع، وطوَّر سكّة الحديد، حيث فَكَّ العزلةَ عن كثير من المناطق، وسهَّل وصولَ الجيش للدفَاع عنها في كلّ أنحاء الإمبراطوريّة. ما كان لهذه السياسة الجديدة أن تَرُوقَ للأُمَم الأوروبيّة وحلفائهم من الطابور الخامس داخل البلاد، الذين كانوا لا يرغبون إلّا في تحقيق مصالحهم الخاصّة ولو على حساب أمن واستمراريّة الدولة.

وفي اليوم الموالي، خرجَتْ مُظاهرَةٌ طلّابيّة تجوبُ الشوَارِعَ وتُندِّد بالسيَاسَة المَتَّبَعَة، وبالصدر الأعظم، فسارع عمّي بتوجيهات من الماكر الخبيث عميل إنجلترا، مدحت باشا، إلى عزل الصدر الأعظم حتى يفرغَ له المكانُ ويستفرِدَ بالسلطان. وبينما نحن ننتظِرُ التقاريرَ حولَ المظاهرة الطلّابيّة، لمحتُ من شرفَةِ دائرتي، سليمان باشا مع فرقته العسكريّة من جُند الشام الذين لا يتحدَّثون التركيّة. وكان قد قَدِمَ على متنِ يَخْتٍ قُبالةَ السَّراي. . واستأذنَ للدخول على عمّي. طلبتُ من صاحبي إبراهيم آغا أن يَسْتَرِقَ الأخبار ويأتيني بما وصل إليه. ذهب القزم مسرعًا، ودخل دائرة السلطان التي يعرف دهاليزها وممرّاتها. وبعد مدّة قصيرة، عاد يخبرني بما سمع، فقال: يا سيّدي، لقد سمعت سليمان باشا يذكر لأفندينا أنّه قد تعرَّض لمحاولة اغتيال، وأنّ سراي طولمة باجة حيث نُقيم، مُطوَّقٌ بكتيبتين من الجند تحرسان السلطان وسائر أفراد عائلته.

فسألته، وماذا كان قول عمّي السلطان؟ أجاب إبراهيم أفندي: لقد استسلم لما قال سليمان باشا، وذكر له أنّه يضع نفسَه تحت حماية الجيش. وبعد ذلك استأذن سليمان باشا من أفندينا واعتذر له حتى يتفرَّغ لتأمين القصر، قبل أن يخبرَه أنّه سيعود فيما بعد لينقُلَ السلطان إلى قصر طوب كابو لكونه يسمَحُ بتأمين سلامة السلطان أفضلَ من سراي طولمة باجة. . وبعد ذلك خرج.

ثم سألت إبراهيم أفندي: وماذا صنع السلطان بعد خروج سليمان باشا؟

بَقِيَ مُتَفَكِّرًا في أمره، وعليه أمارات التوَتُّر والانزعاج. وبقي في القصر بعض الجنود الذين كانوا يحرسون جميع المداخل بحيث

لا يسمحون بزيارة عمّي السلطان.

أمضينا تلك الليلة في ترقُّب، ولم يحصل ما يُكَدِّرُ الخاطر، لكنّ النوم هجَر عينيَّ. وفي الصباح لمحتُ سليمان باشا يستأذِنُ مرّة أخرى على السلطان، فحاولتُ أن أرسلَ إبراهيم أفندي لاستطلاع الأخبار، لكن سليمان باشا كان قد خرَج للتوّ برفقة السلطان، وتوجّها إلى اليخت، ثم غادرا.

توقَّعت أن تسوءَ الأحوال بعد الذي حصل، وخمَّنتُ في أنّ عمّي ربّما يكون قد تصرَّف تصرُّفًا خاطئًا بخروجه مُنفردًا مع سليمان باشا على هذه الصِّفة، مع أنّنا لم نسمَع طلقات ناريّة؛ ولم يكن هناك مظاهرت تُهَدِّدُ القصر وساكنيه، فتوجَّستُ من الأمر، وطَفِقْتُ أُحَوْقِل وأسأل الله السلامة. ورابني أنّ كبارَ رجال الدولة لم يَحْضُرُوا مع سليمان باشا، الذي كان قائدًا للمدرسة الحربيّة في استانبول!

ومباشرة بعد خروج عمّي، رأيتُ الجنْدَ يحتَلُّونَ القصرَ ويدخلون إلى دوائر السلطان، ثم بدأ النَّهْب. ورأيت كثيرًا من كبار الضبّاط والجند يستولون على التُّحف والجواهر والنُّقود، ويتسابقون في ذلك، فعلمتُ أنّ الأمر مُبَيَّتٌ بليل، وأنّ العسكرَ قد انقلبَ على عمّي. لم أحتَجْ إلى كثير من الدَّهاء لأُدْرِكَ أنّ مدحت باشا وبقيّة العصابة التي كانت معه هُمْ من خطَّط للانقلاب بدعم من إنجلترا. ولَم يَمُرَّ وقتٌ طويل حتى حضرَتْ عصابة من أربعة رجال هم: الصدر الأعظم رشدي باشا، ومدحت باشا وزير الماليّة، وعوني باشا وزير الحربيّة، وخير الدين أفندي شيخ الإسلام، البَغيض الذي يكرهه العلماء لِنَزَقِهِ وخِفَّتِهِ وتَعَصُّبِهِ الزائد، وافتخارِهِ المُفْرِط بِنَفْسِه وبالمنصب الذي

يتوَلّاه. وكان الناس يسمُّونه «مُفْسِد إمام» أي «الإمام المفسد».

لم يكن في دائرتي ما يستحِقُّ أن يُنْتَهَب لأنّي وَضَعْتُ أموالي في البنوك، وحرِصْتُ على تَعَذُّرِ الوصول إليها إلّا بضمانات. أمّا باقي ممتلكاتي، فكانت في قصر والدتي برستو قادين، وبعضها الآخر في مزرعتي. وقد كنت أُحِبّ أن أقضي أوقاتي هناك بدل أن أقضيها في شقّتي التي كانت تحت تصَرُّفي في قصر طولمة باجة، نظرًا لكثرة المراسم الرسميّة المزعجة التي كانت تُقام في هذا القصر. ثم إنّ الجند لم يصلوا إلى دائرتي أو دائرة أخي، فأدركتُ أنّ الأوامرَ كانت قد أُعْطِيَتْ لهم بذلك، لكن أموالَ عمّي وسنداتِه أُخِذَت ووُضعَتْ في البنوك لسداد القروض العثمانيّة. كما مُنحَ المشاركون في الانقلاب مبالغَ ماليّة، ورُقُّوا في مناصبهم مكافأة لهم على المشاركة في الانقلاب.

ومن صفاقة عوني باشا، وزير الحربيّة، أنّه سارع بالتصريح لصحيفة أجنبيّة أنّ عدد الانقلابيين كان ثمانية وستّين فردًا، والآخرون انضمُّوا بدون معرفة ما يحصل.

ثم وجَّهوا إلى السلطان عدَّة تهم، أبرزُها عدمُ أهليَّتِه لإدارة حكم البلاد. وتزعَّم هذه الفتنة الصدرُ الأعظم رشدي باشا، وناظر البحريّة عوني باشا، ومدحت باشا الماسوني، وزير الماليّة، وأقنعوا شيخ الإسلام حسن خير الله أفندي، الذي استقطبوه هو الآخر، بهذه الفِرْيَة، فاصطفَّ إلى جانبهم وحرَّر فتوى بهذا الصدد، سوَّد بها صحيفَتَه يوم يلقى الله.

انطلق المتآمرون إلى السراي، وطلبوا مقابلة السلطان على عجل، ثم تَلَوْا عليه فتوى شيخ الإسلام القاضية بعزله، ووضعوه

ضمن الإقامة الجبريّة في قصر طوب كابو. وفي اليوم نفسه، نَصَّبوا شقيقي مراد سلطانًا على البلاد، فأصبحتُ وليَّ العهد الأوّل.

لم أَكُنْ راضيًا عمّا حدَث، وكنت أخشى على عمّي من الانقلابيّين. وحدث فعلاً ما كنت أخشاه. فبعد خمسة أيّام، أي في الرابع من شهر يونيو سنة ستّ وسبعين وثمانمائة وألف، أصدرَتْ عصابةُ الأربعة بيانًا رسميًّا ذكرَتْ فيه أنّ السلطان عبد العزيز قد انتحرَ بِفَصْدِ ذراعيه. لم يُصدِّق أحد هذه الكِذْبة الفاضحة، وتعالتْ أصواتُ الاستنكار والإدانة، وبكى العثمانيّون السلطانَ بكاءً حارًّا. أمّا الدول الأجنبيّة التي كانت مستريبةً من النهضة التي استهلَّها السلطان، فقد وظَّفَتْ بعضًا من رجالات العثمانيّة لإزاحته عن الحكم.

ذهبتُ لزيارة أخي مراد، فوجدتُه في حالة غريبة، وسألته عن سبب حالته، فأجابني بالبكاء. لم يكن يريد قطعًا أن يُقْتَلَ عمُّنا عبد العزيز. وكلّ هَمِّه كان أن يصبحَ سلطانًا. فلمّا حدث ما حدث، أصبح شارِدًا لا يَعِي ما يجري. حاولتُ معرفةَ السببِ، فسألتُ إبراهيم أفندي عن حقيقة ما حصل له، أخبرني أنّ موعدَ الانقلاب الذي كان قد حدَّده مدحت باشا قد قُدِّمَ بيوم واحد، فلمّا جاء العسكري المكلَّفُ بإخبار مراد باشا للجلوس على العرش، ظنَّ المسكين أنّ أفندينا رحمة الله عليه قد كشفَ تورُّطه في الانقلاب، وأنّ العسكري جاء لاعتقاله، فأصابته صدمةٌ نفسيّة وعقليّة. ثم أدمنَ على الشراب بكثرة فاختَلَّ أمرُه. ومنذ ذلك الوقت، وهو على هذه الحال.

كان مدحت باشا هو العقل المدبِّر، وكان عوني باشا هو

الأداة المنفِّذَة، وكان الآخرون تابعين لهما.

كان الناس يستنكرون ما حصل، أمّا في السراي، فقد أقسمَ عدد من أفراد العائلة على الاقتصاص من الفاعلين. لم أُبْدِ لأحد نيّتي، وبَيَّتْتُ انتقامي فيما بعد. وبعد مرور أسبوعين من الانقلاب، وخلال اجتماع الحكومة الجديدة، اقتحمَ المجلس أخو زوجة السلطان المغتال، فقتل بمسدَّسِه عوني باشا، ورشيد باشا ناظر الخارجيّة، وأشخاصًا آخرين.

كان لهذا الحدث الأخير وقع مضاعف على حالة شقيقي مراد، السلطان الجديد، فزادت حالتُه النفسيّة سوءًا، وخشي على نفسه من الاغتيال.

جلس مراد على العرش ولم يكن في حالة تمكُّنُه من إدارة الأمور بسبب تَعاطيه للشراب من بداية الليل إلى طلوع الصباح رفقةَ بعض أصدقاء السوء مثل الشاعر المشهور نامق كمال. كان مراد يَظُنُّ أنّ الشرابَ سيساعده على نسيان ضلوعه في مؤامرة الإطاحة بعمِّنا السلطان عبد العزيز، ثم قَتْلِه. كلَّمتُ أخي في هذا الشأن ونصحتُه بالإقلاع عن شرب الخمر، وحدَّثْتُ نامق كمال غيرَ مَرَّة حتى لا يُزَيِّنَ لأخي في الشرب. ولمّا أَعْيَتْنِي الفكرة، دعوتُ هذا الشاعر الماجن مرّة أخرى وقلت له: «اِعْلَمْ جيّدًا يا كمال أنّك ستكون السببَ المعنوي في موت أخي».

لم يكن نامق كمال يَفْتُرُ عن الخمرة مثلَ أغلب الشعراء الذين تغنَّوْا بها. فلمّا يَئِسْتُ منهما، كنت أتوقَّعُ أن تتَّجِهَ الأمور بالتَّسَارُع لعزل مراد.

وقبل أن تَتِمَّ البيعة لمراد ويتسلَّم سيفَ الجهاد في ضريح أبي

أيّوب الأنصاري، كما هي العادة المتَّبعة في الدولة، اتَّفَقَتْ زُمرَةُ الفساد الماسكة بالأمور أن تخلَعَه بعد مُضِيٍّ ثلاثة وتسعين يومًا على تولِّيه، وأَوْدَعُوهُ قَصْرَ جراغان مع أُسرتِه. لم يكن من الممكن أن يبقى على رأس السلطنة بعدما كَثُرَ القِيلُ والقَال، وخشي القوم على مناصبهم، وخافوا مآلات الأمور التي كان من الممكن أن تَزُجَّ بهم في السجون ويُحاسَبوا على ما فعلوا. عقَدوا مجلسًا، وصوَّتوا فيه على تعيين سلطان جديد، فلم يَجِدُوا بُدًّا من التَّصويت عليّ. أخبروني بالأمر، فأخبرت أحدَهُم بمُوافقتي، وأنّي سَأُعَيِّنُ مدحت باشا صدرًا أعظم مدى الحياة. كان قصدي أن أُنَوِّمَ أعدائي وأُطَمْئِنَهُم. ثم أرسلتُ له بعضَ الهدايا القيِّمة.

كان أخي مراد متبَحّرًا في الثقافة الغربيّة، ويتكلَّم الفرنسيّة والإنجليزيّة بطلاقة، ويُحِبُّ الموسيقى الغربيّة والرَّسم. ولم يكن له مُيول للثَّقافة الشرقيّة العثمانيّة، على عكس عمِّي عبد العزيز. أخطأ أخي في سلوكه لأنّه أعطى الفرصةَ لأنصار المشروطيّة (النظام البرلماني) وإنجلترا حتى يعبَثوا باستقرار الدولة العثمانيّة.

* * *

جاء دوري لأصبِحَ خليفةَ المسلمين وأحافظَ على الأمانة التي في عنقي للإسلام والمسلمين منذ أن انتقلَتْ الخلافَةُ إلى بني عثمان. كنتُ أُدرِكُ جيّدًا ما حدث، ولهذا كنت حَذِرًا غاية الحَذَر من أيّ تَصرُّفَات خاطئة أو رُعونة في السلوك والتفكير.

سايَرْتُ القَوْمَ في البداية لِمَا هُمْ مَاضُونَ إليه، ولم أَكُنْ أَمْلِكُ غير ذلك. تشاءمتِ من سَراي طولمة باغجة الذي شَهِدْتُ فيه ما حدَث لعمِّي وشقيقي، ولم أَكُنْ أُريدُ أن يُصبحَ مصيري مثل

مصيرهِما. ثم إنّ هذا القصرَ كان مكشوفًا لجهة البحر لأنّه على البوسفور، فلا يُؤْمَنُ جانبُه. راودتني فكرة تَشييدِ قصر خاصّ بي حتى لا أتركَ الفرصة لأعدائي، وعمِلتُ عليها في صمت وأَنَاة.

لقد كان من بركات تَقَلُّدِي منصبَ الخلافة أن حضر بأيّام قبل مراسم البيعة الشيخ محمّد ظافر المدني، فاجتمعتُ به وابتهجتُ بلقائه بعد لقائي العابر به فيما مضى قبل أربع سنوات، وسألته وقتَها أن يلقِّنني طريق الإرادة فأمهلني إلى وقت لاحق لم يحدِّده. ولعلّه اليوم سيقبَل بتلقيني ذلك السِّرّ لأنّي في حاجة ماسَّة إليه. إنّ الإمامة العظمى وخلافة رسول الله ﷺ لا تكون في الخليفة إلّا إذا تخلَّقَ بِسِرِّ الاسم المفرد. خلوتُ بالشيخ ظافر، فقال لي من غير أن أسألَه: ابْسُطْ يَدَكَ. فَبَسَطْتُ كَفِّي إليه، فأخذها، ثم بدأ يقرأ في صمت ذِكْرًا لم أتبيَّنْ مضامينَه، وخِلْتُ نفسي أَسْبَحُ معه في بحر بينما كان يأخذ بيدي. استمرَّ الحال مدّةً لا بأسَ بها. ثم عاد ففتح عينيه، وقال لي: اسمع ما أقول، وردِّدْ بعدي مثلما سمعت، حَذْوًا بِحَذْوٍ، من دون زيادة أو نقصان.

ثم قال: اللـه، اللـه، اللـه.

وردَّدت خلفَه على نحو ما سمِعْتُ من إطالة المدّ على اللام الثانية، فشعرت كأنّي انتقلتُ إلى عالم آخر. لقد كان مجرَّدُ النطْقِ بهذه الكلمة الشريفة كافيًا للزَّجِّ بي في حضرة لم يَسبِقْ لي أن توهَّمتُها من قبل. أدركتُ أثناء ترديدي أنّني فعلاً أصبحتُ خليفةَ المسلمين. رأيت خلال ذكر الاسم المفرد كأنّي في جمع مَهيب فيه من جميع أصناف الأمم والشعوب، وكنتُ أحملُ سيفًا صقيلاً يلمَع بنور أَخَّاذ، ثم شاهدتُ الخلافة في صورة قلب نابض بالحياة...

تعلو طرفه الخارجي قتامةٌ، لكن تلك القتامة لم تكن تُرَى للرائي بفضل قوّة النور المُفَاض على سائر القلب. لم أَدْرِ مصدرَ النور، هل كان من السيف أم من القلب أم منهما معًا. وكان ذلك النور يحجب بسطوعه الباهر ظلمةَ تلك القتامة التي لم يكن يراها غيري ممّن كان حاضرًا من ذلك الجمع.

حمدت الله بما وفّقني إليه في ذلك النَّفَس الوجودي والمشهد البرزخي، وعلمت يقينًا أنّ سرَّ الخلافة محفوظ، وأنّ رسول الله وضع سيف ذلك الحفظ بيدي، فلهجت بالصلاة على النبي الفاتح الخاتم.

ثم أوضح لي الشيخ ظافر كيفيّة الذكر ومراحلَه من استغفار وصلاة وهيللة. ثم أعطاني وردًا قرآنيًا يوميًا من سورة الفاتحة والإخلاص والفتح والمُلْك ويَس. وقال لي: سترى بركات هذا الوِرد في الحفاظ على سرّ الخلافة.

أُخرِجَ العرشُ إلى فناء قصر طوب كابو بحسب أعرافنا العريقة، وتَمَّت البيعة في آخر يوم من أيّام شهر أغسطس.

وفي السابع من شهر سبتمبر احتشد سكّان استانبول في الشوارع والطرقات وعند ضريح أبي أيّوب الأنصاري. خرجت من قصر طولمة باجة في منتصف النهار على سفينة الخاقان مع خمس سفن أخرى في موكب عظيم وأُبَّهَةٍ عالية. دوَّت المدافع بقوّة من السفن العثمانيّة والأجنبيّة المرابطة في البوسفور، وهتف سكّان استانبول باسمي. كنت أضع طربوشًا أحمر اللون على رأسي، وكسوة خضراء مزيّنة بأشكال نباتيّة مذهّبة؛ ومن جهة الكتف، نَتَأَتْ بنياشين ذهبيّة. كانت الراية السلطانيّة الحمراء ترفرف بين يديَّ وتتراقص على وقع الموسيقى العسكريّة. وصل الموكب إلى ضريح أبي أيّوب، فرفعتُ

يدي لتحيّة الجُموع الغفيرة التي كانت تُبادلني بالتّحايا المضاعفة التي تُعَبِّرُ عن ارتباط الناس بالخليفة. دخلتُ إلى الضريح فتقلَّدتُ سيفَ الجهاد، وأَقْسَمْتُ على حماية بيضة الإسلام والمسلمين. كنت في قلب الخلافة، فصرتُ أنا ذلك القلب. ورغم ثباتي، فإنّي أعلم أنّ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يُقَلِّبُهَا كيف يشاء. فقد انقلبَ الانقلابيّون على عمّي، وخلعوا شقيقي بدون رحمة ولا شفقة ولا رعاية حُرْمَة. فَلْأَكُنْ في رحمة الله بين أصابع الرحمٰن، وليقلِّبْنِي كيف شاء، متى ما شاء، ﴿وَهُوَ الوَلِّيُ الحَمِيدُ﴾. لا أملكُ إلّا أن أردِّدَ المحامدَ القلبيّةَ ليبقى سرُّ الخلافة العليّة مستمِرًّا حتى يأذنَ الله بنهاية دورتها. كان عمري ثلاثًا وثلاثين سنة وزيادة، وفي هذا السِّنّ سِرٌّ إلٰهي يعلمه أهلُ الذِّكْر والفكر، فكم يا ترى ستستمِرٌّ خلافتي؟ أرجو الله أن يُنَاظِرَ سِنُّ عُمْري اليومَ مُدَّةَ خلافتي حَذْوًا بِحَذْوٍ، فتكتملَ دورةُ القلب المحمّدي بذكر الاسم المفرد: الله. ولا قيام للخلافة بدون هذا. والخليفة الحقّ هو من كان لاهجًا بذكر الحقّ، وعُمْرُه من أعمار الأمّة المحمّديّة ما بين الستّين والسبعين.

خرجت من الضريح وركبتُ حصانًا أبيض اللون مُطَهَّمًا بسرج مُذَهَّب، واتَّجَهْتُ في موكب مَهيب نحو قصر طوب كابو. كان الحرس الإمبراطوري يحيط بي إحاطة السِّوَارِ بالمعصم. كان لباسهم مثيرًا وساحرًا. وقد وضعوا على قلانسهم ريشًا أخضر، بينما كانت ملابسهم تشِعُّ بألوان ذهبيّة. دخلنا ساحة القصر وبدأت الوليمة الكبرى، وَوُزِّعَتْ أطباقُ الأرزّ واللحم والحلويات على سكّان استانبول.

* * *

لو لم يُقتَل عوني باشا لما أصبحتُ خليفة، فقد كان يكرهني، ويتوجَّس من تَحفُّظي واقتصادي في سلوكي، وصمتي المزعج للمثرثرين. وعلمتُ أنّه كان قد قرَّر أن يرفعَ صلاح الدين أفندي، ابن شقيقي مراد باشا إلى أعلى هرم الدولة نائبًا عن أبيه، ويبقى هو دكتاتورًا مدى الحياة. كان وجودي يُضايِقه ويعاكسُ أهواءَه ومشاريعَه، لكنّ الله قضى بإزاحته من الطريق، وسمح بأن أتولَّى الخلافة.

مضى حكمُ المشروطيّة، وأُعلِنَ الدستور، وكانت السلطة بيد غيري، واقتصر دوري على الخلافة والإمامة العظمى، ولهذا حرصت على إمضاء نصِّ الدستور بتوقيع «خليفة المسلمين». كان شأن الخلافة قد قلَّ في عهد سلاطين بني عثمان السابقين، وقد علمتُ باستقراء التاريخ أنّ الأمرَ يحتاج إلى بعث الحياة في قلب الأمّة بتجديد العمل بفكرة الخلافة الإسلاميّة، وتوحيد الأمّة حول قلبها. كنت أعلمُ أنّ هذا سيزعِجُ العناصرَ غير المسلمة في الدولة، وستساعدهم القوى الاستعماريّة في طلب الحماية لهم، لكنّ الأمر كان يستحقّ التضحيّة.

لم يكن لي ضِلْعٌ مباشر في السياسات المتَّبعة التي كان العثمانيّون الجدُد قد وضعوها. حدَثَتْ فوضى كبيرة لأنّنا لم نكن مستعدّين بَعْدُ لنظام المشروطيّة، فكلّ برلماني في المجلس النيابي تحرِّكُه قوى أجنبيّة، ويدافع عن شعب أو أقلّيّة. كانت الدولة العثمانيّة شعوبًا متعدّدة، ولم يكن من الممكن تسيير الدولة بمثل هذا النظام لانعدام الولاء للأمّة وللقلب النابض. كان في الدولة أتراك وعرب وأكراد وروم وأرمن وألبان وبلغار وغيرهم، فيهم

المسلم والمسيحي واليهودي. كانت الفكرة العثمانيّة هي الجامعة التي ينضوي تحتها الجميع.

كان الدستور من بنات أفكار مدحت باشا وزمرته. كان هذا الرجل واليًا ممتازًا في الولايات التي كان يتولّاها، إلّا أنّه لم يكن له دراية بتدبير دولة، ورعاية مصالحها العليا. كما أنّ من آفاته الكبرى إدمانُه الشراب وتحدُّثه في مجالس الشراب بما لا يعني فيما لا يعني ممّا هو مَجْلَبَة للمظالم والمشاكل والفِتن. وأَخَسُّ صفاته، أنانيَّتُه المفرطة التي قد تقودُه إلى التضحية بأُمَّة من أجل مصلحة خاصّة، عدا عن كونه رجل إنجلترا والأمم الأجنبيّة التي كانت تستعمله للضغط على الدولة وعلى الخليفة. صَبِرْتُ عليه كثيرًا، وعيَّنتُه صدرًا أعظم بعد استقالة رشدي باشا من منصبه بسبب ضغوطات مدحت باشا عليه. كان العثمانيّون الجدد يريدون تنصيبَ شاعرهم الكبير ضياء باشا، ويدفعون مدحت باشا إلى تحقيق هذه الغاية، لكنّه كان يسعى سرًّا إلى تنصيب نفسه في الصدارة العظمى. كنت أعلم كلّ هذه الخلفيّات، فعملتُ على ضرب بعضهم ببعض، وعيَّنته فيما كان يُؤَمِّلُ بعدما نَشَرَ رجالي الخبَرَ على أنّ البادشاه عبد الحميد قد عَيَّن مدحت باشا نزولاً عند رغبته، وإصراره على تولِّي الصدَارَة العظمى. لم يغتفر القوم لصاحبهم طُموحَه الغادر، وشبَّتْ بينهم العداوة.

لم يُحدِث إعلانُ الدستور أيَّ تأييد للدولة العثمانيّة لدى الأمم الأوروبيّة التي كانت تطالب من قبل باعتماده، فخاب ظنُّ العثمانيّين الجدُد وخاب ظَنُّ مدحت باشا، مهندس ذلك الدستور في حلفائه الذين خذَلوه.

شخصيّتي مختلفة عن والدي السلطان عبد المجيد، وعن عمّي السلطان عبد العزيز، وعن شقيقي السلطان مراد الخامس. كنت مسلمًا عثمانيًّا شرقيًّا، رغم أنّي درستُ الثقافةَ الغربيّة وتعلّمتُ بعض لُغاتها، وتعلّمت الموسيقى الغربيّة، وكنت أعزفُ على البيان والكمان، لكنّي لم أنسَ أصولي الشرقيّة، وأخذتُ بجِدٍّ قضيّةَ الإمامة العظمى، وعلمت أنّها الحائطُ الذي يحمي الجميعَ، واللواءُ الذي يَفْزَعُ إليه الكُلّ، لكنَّ ساعتي لم تَحِنْ بَعْدُ. كان لا بدَّ أن يجرِّبَ الناسُ المشروطيّةَ وإملاءات الدول الأجنبيّة وتدخّلاتها من خلال المحافل الماسونيّة وغيرها إلى عمق الدولة.

كنت أحبُّ الرياضةَ وركوبَ الخيل، وكانت صحّتي جيّدة. لا أُنْكِرُ أنّ الشهوات قد استهوتني لفترة مثل سائر الشباب، فانسَقْتُ وراءها لمدّة ثم أقلَعْتُ، لكنّي بقيتُ مُدمِنًا على التدخين وشُربِ القهوة العربيّة. كنت حَذِرًا شَكّاكًا صامتًا، كان والدي السلطان عبد المجيد رحمة الله عليه، ينادي حينما كان يتودَّد إليّ «ابني الصامت الشكّاك». قد تبدو هذه الصفة سيّئة، لكنّها في مواقع المسؤوليّة حِرْزُ أمان. ما أَخْرَقَ مَنْ يُكثِرُ الحديثَ وهو في السلطة؟ يُلقي الكلامَ لا يَدري أوَّلَه من آخره، حتى يُفاجَأ بأنّ الموجةَ الصغيرة أصبحت بحرًا زخّارًا يأتي على الأخضر واليابس. كما أنّ الشكَّ مِحَكٌّ لاختبار نوايا من يتعامل معهم الإنسان. لكنّي رغم شكّي لم أكن سجينًا له. ومن خصالي الأخرى، أنّي كنت حافظًا للمال أمينًا عليه، وقد بَلَغَتْ أموالي ملايين الليرات الذهبيّة، فيما كان أخي مراد مديونًا بمبلغ مليون ليرة ذهبيّة. لقد عانت الدولة من التبذير الأخرق فيما لا يُفيد، وجاء دوري لترشيد النفقات، وتصحيح

المسارات. التحقتُ مع شقيقي بجمعيّة العثمانيّين الجدد في بداية تأسيسها، لكنّي تركتُها بعد سنة بعدما وقفتُ على أهداف أصحابها التي كانت تسير في اتّجاه معاكس لمصلحة البلاد والعباد، رغم بريق الشعارات الجميلة حول الحرِّيّة والديموقراطيّة أو المشروطيّة. أمّا أخي، فبقي عضوًا في هذه الجمعيّة حتى نصَّبوه على العرش ثم ما لبثوا أن خلعوه. جاؤوا بي لأنّهم لم يجدوا بُدًّا من ذلك، فقد كنتُ وليَّ العهد، وحالةُ أخي النفسيّة والعقليّة لا تمكِّنُه من حكم البلاد.

كنت أكره الحرب، وحدَثَتْ اضطرابات في البوسنة والهرسك وصربيا، فقامت قيامة الأتراك الجدد ودعاة القوميّة بضرب السلافيين الصرب بقوّة. كنت متحفِّظًا على شَنِّ حرب شاملة، وكان رأيي تهدئة الأوضاع، لكنّ العصيان والتمَرُّد استمرَّ في البوسنة والهرسك وصربيا وأقاليم أخرى ضدّ الدولة، فتدخَّلت القوّات العثمانيّة وهزمتِ الجيش الصربي المدعوم من روسيا. كان مدحت باشا من دعاة القوميّة التركيّة يدعو إلى الحرب ضدّ روسيا، ودَفَعَ نظام الباب العالي إلى إعلانها. حاولت ثَنْيَهُ عن ذلك لكنّه أصرَّ على موقفه، وأكد أنّ إنجلترا ستقف بجانبنا في حال قيام الحرب مع روسيا، فَرَدَدْتُ عليه بأنّ ألمانيا ستقف إلى جانب روسيا. كنت أكره الحرب وأعلم المآسي التي تُسبِّبُها، ولم نكن في وضع يسمح لنا بخوض حرب جديدة، بل كنّا نحتاج إلى تدعيم قواعد الدولة؛ لكن مدحت باشا أنشأ مجلسًا. خطب في الحاضرين بحماسة كبيرة، ودفع المجتمعين إلى التصويت على الحرب رغم أنّهم لم يكونوا مقتنعين بذلك. ثم دفع للطلبة والعاطلين الأموالَ ليتظاهروا

تأييدًا للحرب، فوصلوا إلى القصر وكنت أسمع هتافاتهم الحماسيّة الفارغة. لقد كان مدحت باشا بارعًا في مثل هذه الأمور، ودعا الصحافة، فجاءت تُصَوِّرُ الأمر وتَصُبُّ الزيت على النار. لقد افتعل المظاهرات لإسقاط عمّي، وها هو اليوم يفتعل المظاهرات لإشعال حرب ضدّ دولة قويّة. لم أكن أملك، بمقتضى نظام المشروطيّة أن أنسخَ قرار المجلس، كما أنّي كنت متوجِّسًا من جماعة الأتراك الجدد الذين أخذوا في الترويج لإعادة شقيقي مراد باشا إلى منصبه بعد أن تحسَّنَتْ حالته الصحِّيّة. لكن غضبي زاد لمّا علمت بتورّط مدحت باشا في محاولة الانقلاب عليّ، وإعادة شقيقي مراد إلى الحكم، وساعده على الخروج من إقامته متخفِّيًا في لباس امرأة، لكن رجالي قبضوا عليه. لم يكن يهُمُّني المنصب لكنّي كنت أُدرك أنّ أخي ضعيف وأنّه لم يكن يصلح للخلافة بسبب سلوكه وانخراطه في الماسونيّة. وكان في الجهة المقابلة من يَدُقُّ طبول الحرب من القوميين الروس السلاف. غادر سفراء الدول المعتمدة عاصمَتنا، وتركونا لوحدنا في مواجهة روسيا القيصريّة، بعدما كانوا يُشيعون أنّهم سيدخلون الحرب إلى جانبنا، وأوهموا مدحت باشا ورجالَه بمساندتهم لنا. لم يكن أمامي من بُدٍّ سوى أن أعزلَ هذا الأخرق الأناني بعد خذلان الإنجليز له، وعيَّنتُ مكانه أستاذي الذي درَّسني اللغة الفرنسيّة، إبراهيم أدهم باشا. لكن ذلك لم يكن كافيًا لردع الرجل، فأصدرتُ قرارًا بنفيه خارج الدولة في بيرنديزي في إيطاليا، حتى نسلمَ من مؤامراته المتكرّرة. لم أَحْتَجْ إلى تبرير هذا القرار، لأنّ المادّة التي استندت إليها في نفي الصدر الأعظم، كان قد وضعها مدحت باشا نفسه، وأوكل بموجبها الحقَّ للحاكم في نفي كلّ شخص يُشَكِّلُ بقاؤه ضررًا على سياسة الدولة. وهي المادّة

نفسُها التي لجأ إليها مرارًا مدحت باشا لإبعاد معارضيه، فأتيته من الجهة التي بها احتمى.

اندلَعَتِ الحربُ بين الإمبراطوريّتين المترامِيَتَي الأطراف، وكان هذا سببًا في استنفار جيش الدولتين بالكامل، نظرًا لتوزُّع الألوية والفيالق في مختلف أنحاء الإمبراطوريّتين، عكس ما كان عليه الأمر بين بروسيا وألمانيا في حربهما ضدّ فرنسا. فميدان العمليّات كان محدودًا، بينما كان العكس هو واقعُ حالنا في هذه الحرب. وخسرنا الحرب بعد بطولات كبيرة أبداها جيشنا، وخسر الروس عددًا كبيرًا من الجنود لكنّهم انتصروا في هذه الحرب، واقتُطِعَتْ أطراف من دولتنا لصالح روسيا وحليفتها صربيا. دامت الحرب تسعة أشهر وكانت خسارة كبيرة، فطلبتُ من الملكة ڤيكتوريا أن تتوسَّطَ لعقد معاهدة صُلْحٍ بيننا والروس. أصبح الروس بموجب نتائج الحرب سادة البلقان، ووصلوا إلى بحر إيجة والبحار الدافئة والمفتوحة، وبطريقة غير مباشرة إلى البحر الأبيض المتوسّط. ثم عزلتُ الصدر الأعظم، وعطّلت العمل بنظام المشروطيّة، وأوقفتُ عمل المجلس لأجل غير محدود. وقد كان هذا النظام سببًا في حصول هذه الكارثة. لقد علّق فون بسمارك، رئيس وزراء الفدراليّة البروسيّة الألمانيّة، وأحد أكبر رجالات السياسة العالميّة في عصره على هذا القرار بقوله «إن لم يكن قِوَامُ الدولة شعبًا واحدًا، فإنّ ضررَ مجلسها يكون أكبرُ من نفعه». لم تكن روسيا القيصريّة، وبروسيا وألمانيا اللتين اتّحدتا، تنظران بارتياح إلى نظام المشروطيّة القائم على مجلس النوّاب، فلمّا أوقفتُ العمل بهذا المجلس وذلك النظام، كان هذا القرار بردًا وسلامًا عليهما، وحُجّة في وجه

المعارضة اليساريّة الداخليّة لدولهما التي كانت تتندَّر بالقول إنّ الرجل المريض استطاع أن يدخل نادي الديموقراطيّات مثل إنجلترا وفرنسا. .

تدخَّلتُ بصورة مباشرة، وصِرْتُ الحاكمَ الحقيقي، وجعلتُ النظَّار تابعين لي مباشرة، مؤتمرين بأوامري، وتقلَّص دورُ الصدر الأعظم. لم يكن ممكنًا في عهد التنظيمات ونظام المشروطيّة أن يكون للسلطان كلّ الصلاحيّات التي حُزتُها، لكنّ الكارثةَ التي حدَثَتْ بسبب تعريض نظام المشروطيّة الدولةَ إلى السقوط، أقنعَ الجميعَ أنّ الأمرَ يحتاج إلى يد قويّة تُصلح ما أفسدَتْه جماعة مدحت باشا والعثمانيّون الجدد. لقد كان مجلس النوّاب بتشكيلته العجيبة شيئًا يهدِّدُ سلامةَ الدولة، فالنوّاب لم يكن لهم إدراك بالواجبات والمسؤوليّات الملقاة على عاتقهم. كما أنّ النواب الذين يمثّلون الأقلِّيّات كانت لهم علاقات مع دول أجنبيّة يَرْعَوْنَ مصالحها ويتقاضَوْنَ رشاوى منها، ويدافعون عنها ضدّ الدولة الأمّ، وهو ما لم يكن مقبولاً في أيّ نظام كيفما كان، ويعتبر خيانة يُجَرِّمُها القانون. وطبعًا، لم يكن لي ضلع مباشر في نتائج الحرب مع روسيا، لكنّي جَهِدْتُ بعد ذلك في تقليص الخسائر، وامتنعتُ عن تسليم سِتِّ بوارج من أحدث سفن الأسطول العثماني كتعويض حربي إلى روسيا. لقد عملت على المماطلة والتَّسويف في تطبيق بنود معاهدة الصلح، واستعملت كامل دهائي السياسي للإبقاء على الإمبراطوريّة، وحافظت على الدولة في وجه أعدائها الكثيرين.

* * *

في خضمّ هذه المتغيّرات، كان لا بدّ لي من الاجتماع بالشيخ

محمّد ظافر المدني حتى أجد عنده الدعم النفسي اللازم لإدارة شؤون الإمبراطوريّة على أحسن وجه. أرسلتُ في طلبه، فجاءني إلى سراي طولمة باجة، فأذنتُ له في الدخول فورًا.

لمّا دخل سلَّم عليَّ بما يليق بمقام الخلافة، فتنزَّلْتُ إليه وتَوَدَّدْتُ، بما يليق بمقام العلماء الصالحين، وقُمت لأستقبله، وكنت قد آلَيْتُ على نفسي ألّا أستقبلَ ضيوفي جالسًا، بل أقف لهم، إلّا ما كان من أفراد أسرتي، أو من كان تحت إمرتي من الآغاوات والقَلْفَاوات.

قلت له: أهلاً بك يا شيخنا. وقد آن أوانُ الخلافة الخاتمة، وإنّي أحتاج للوزير والمُشير، ولن أجدَ خيرًا منك.

فأجاب: لقد أولاك الله منصبَ الخلافة مع أنّك لم تكن ترتقب ذلك. كان عمُّك السلطان عبد العزيز رحمه الله في صحّة جيّدة، ثم حدث ما حدث ممّا نعرفه. وبعد ذلك، تولَّى شقيقك مراد باشا، إلّا أنّه لم يَدُمْ في السلطنة إلّا مدة يسيرة ولم يُبَايَعْ له. وأبى الله إلّا أن تحمِلَ هذه المسؤوليّة العظيمة. فلمّا تبدَّلتِ الأحوال، أسرعَ بي حادي الشوق إلى اللقاء لأضعَ نفسي وما علَّمني ربّي رهنَ إشارتك. ويعلمُ الله أنّي زاهد في الدنيا لا أطلبُ خُطَطَهَا، لكنّ الأمر جَلَلٌ، وإنّي وزيرُك بدون وزارة، ومُشير عليك من عين القُرب بما يُلهمني الله إيّاه.

فقلت له: بوركَ فيك يا شيخُ ظافر أفندي. إنّ الأمّة تَمُرُّ اليومَ بظروف عصيبة، وقد تكالبَتْ علينا الأمم الأجنبيّة تَنْهَشُ جِسْمَ الدولة من كلّ جانب. وابتُلِينَا بقوم من أبنائنا يرون أسمى مَطمح لهم في التَّفَرْنُجِ وخدمة مصالح أعدائنا، ويُسْلِمُونَ قِيادَ البلادِ

الإسلاميّة إليهم، ظنًّا منهم أنّهم أمناء يريدون الخير لنا.

فقال الشيخ: صدقت يا مولاي، فإنّ أكثر ما يُهَدِّدُ الأُمَّةَ اليومَ هم أعداؤُها في الداخل لأنّهم يمنحون غطاءً للعَدُوِّ الخارجي.

فقلت: ولهذا السبب استَدْعَيتُكَ حتى تكونَ بجانبي، وتعملَ مُستشارًا لي، فالخلافة لا تستغني عن أمثالك.

قال الشيخ: لقد قَدَّر الله ما شاء. ورغبةُ مولاي أَمْرٌ أَقْبَلُهُ بإذن الله، وأسألُه أن يُوَفِّقَنَا للخير، ويدفعَ عنّا كلَّ شَرّ.

فقلت له: هل لديك رغبات معيّنة، يا مولانا الشيخ؟

فقال الشيخ: لا شيء من أمور الدنيا سوى أن تجعل لي تَكِيَّةً أخلو فيها أوقاتًا، وتكونَ بيتًا من بيوت الله يَقصِدُها الطلبة للعلم والذكر والتربية. فأنتم يا مولاي تعلمون أنّني أخذتُ الطريقة عن والدي رحمة الله عليه التي أخذها عن شيخه مولاي العربي الدرقاوي. وهي طريقة مبنيّة على الكتاب والسُنَّة.

قلت له: لك ما تريد، إلّا أنّي أريدك أن تبقى قريبًا منّي في السراي.

فقال الشيخ: ربّما لا أستطيع أن أنضبط بمراسم القصر يا مولاي.

قلت له: لا تهتمّ بهذا الأمر، فإنّي اليوم ما زلت أسكن قصر طولمة باجة، لكنّي لست أشعر بالراحة فيه، وإنّي بصدد توسعة سراي يلدز، وآنذاك نبني لك شقّة خاصّة تنزلها حتى تكون بمرأى ومسمع منّي، وأستشيركَ فيما يَعِنُّ من الأمور، ويَسْتَجِدُّ من القضايا.

ثم أردفت: يجب أن تقوم دولة الخلافة على فكرة جيّدة تجمع الأمّة، وأرجو أن تساعدني على ذلك.

فقال الشيخ: ليس هناك أفضل من فكرة جمع الأمّة يا مولاي على التوحيد.

فقلت: وكيف نسمّي ذلك؟

فقال الشيخ: نسمّي هذا الهدف الكبير «الجامعة الإسلاميّة».

فقلت: فكرة سديدة يا شيخ ظافر أفندي. وقد كان عمّي يفكّر في مثل هذا في الفترة الأخيرة من حكمه، لكنّه لم يستطع أن يمشي بها بعيدًا. وأمام تصاعد القوميّات التي ستمزّق الأمّة إرْبًا إرْبًا، فنحن في أَمسِّ الحاجة إلى هذه الفكرة الناصعة «الجامعة الإسلاميّة» التي تَتَّسِعُ للمسلمين وغير المسلمين من الشعوب في هذه الدولة العليّة. لكن، كيف نعمل على هذه الفكرة يا شيخ؟

قال ظافر أفندي: تَأْمُرُ خطباءَ المساجد حتى يركِّزوا خطبَهم على هذا الموضوع، ثم تستدعي علماءَ الأمّة ومفكِّريها من جميع البلاد الإسلاميّة، وتحدّثهم عن هذا المشروع حتى يكتبوا عنه، وينشروه في بلادهم ويُرَوِّجُوا له. كما أنّ مشيخة الإسلام يجب أن تقوم بمسؤوليّتها في الترويج لهذه الفكرة والتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وحماية غير المسلمين.. ثم نستخدم جميع الزوايا والتكايا وطرق التربية والتزكية وأتباعها لنشر الفكرة وتعميمها. كما تستدعي الصحفيين والأدباء للترويج لهذه الفكرة. ويمكننا الاستعانة ببعض الأسماء البارزة في البلاد الإسلاميّة مثل الأمير عبد القادر الجزائري، والشيخ جمال الدين الأفغاني، والأديب أحمد فارس الشدياق. ومثل هؤلاء بإمكانهم الوقوف ضدّ القوميّين العرب

والأتراك والأرمن والروم وغيرهم من القوميّات الأخرى التي تتشكّل منها الإمبراطوريّة.

كنت أُنْصِتُ بإمعان لكلام الشيخ، وهو يرسُم برنامجًا دقيقًا وواضحًا لفكرة مذهلة ستمنح الدولة والخلافة نفَسًا جديدًا، لكنّي أحببت أن أستطلع رأيَه مجدّدًا، فقلت: لكنّ الدول الأجنبيّة ستعارض هذه الفكرة، وستتَّهِمنا بموالاة المسلمين على حساب الرعايا الآخرين ممّن يَدينون بدين آخر، وستوظِّف هذه الدول أجهزَتَها وإمكانيّاتها لمحاربتنا.

فقال الشيخ: صدقت يا مولاي، لهذا لا بدّ أن يكون في طليعة من يدافع عن الجامعة الإسلاميّة بعض الأدباء والمفكّرين المسيحيّين من العرب والأرمن وسواهم، ممّن لهم ولاء للدولة. وأنا أعلم أنّ المحافل الماسونيّة ستحاربنا وستعاكس فكرتنا، بالترويج زورًا لفكرة الأخوة الإنسانيّة التي يتصيَّدون بها الغُفْلَ وَالهَمَل.

فقلت: لقد أصبتَ يا شيخ، وستكون الزوايا والتكايا وأتباعها عناصر فاعلة في ترويج هذه الفكرة، وتزويدنا بالأخبار المطلوبة في كلّ أنحاء البلاد الإسلاميّة وأوضاعها. أمّا الماسونيّة، فإنّي أعلم من أمرها أكثر ممّا تعلم، وقد خَبِرْتُ شؤونَها ووقفتُ على خطرها علينا، وكيف أنّها تتصيَّد رجالات الدولة الكبار لتجعلهم تابعين لها منافحين عن أهدافها، مرتبطين بالأمم الأجنبيّة التي تصرف عليها. وسوف نسمع كلامًا حول عصبيّة الإسلام، مع أنّ أغلب سكّان الدولة هم من المسلمين. لكنّك، لم تخبرني يا شيخ عن برنامج يخصّ التعليم والتربية.

فقال الشيخ ظافر أفندي: صدقتَ يا مولاي، وهذا أمر في غاية الأهمِّيّة، إذ لا بدّ من العناية بالناشئة وتربيتهم على هذه الفكرة. ولضمان نجاح هذا المشروع لا بدّ من تعميم ترسيم تعليم اللغة العربيّة التي هي اللغة الحضاريّة والروحيّة للأمّة، وبدونها ستنقطع عن مصادر هويّتها. إنّ تشجيع تعليم العربيّة في سائر أنحاء الدولة ولكلّ الطوائف والشعوب التي تُكوِّنُ الإمبراطوريّة من شأنه أن يُقَلِّلَ من مزاعم أعدائنا واتّهامنا بالعنصريّة، لأنّ عناية الخليفة العثماني باللغة العربيّة دليل قاطع على نصاعة فكرة الجامعة الإسلاميّة التي تفسح المجال لأبناء الأمّة كلّهم، مهما كانت ديانَتُهم ولغاتهم وعرقيّاتهم.

فقلت: صدقت يا شيخ، فلا بدّ لهذه الفكرة الكبيرة من وعاء يحملها، والأفكار لا تنجح إلّا بحواملها. إنّي أعرف أنّ تشجيع العربيّة سيضايق هذه الفئة المارقة من الأتراك الجدد الذين يماثلون أقرانهم القوميّين السلاف والآخرين. وإنّي منزعج من فكرة القوميّة التي دخلَتْ إلينا مع الثورة الفرنسيّة، والتي لم تكن شيئًا معروفًا من قبل. إنّ القوميّة يا شيخ ظافر مرتبطة في الفكر السياسي بنشوء الدولة القوميّة أو الوطنيّة في حين أنّ الإمبراطوريّات، ومنها دولتنا العثمانيّة العليّة، ترفض مثل هذه الأفكار الضيّقة لأنّها تضمّ شعوبًا متعدّدة. ومع أنّ الإمبراطوريّات تتشكّل من قوميّات متعدّدة إلّا أنّها يجب أن تقوم على فكرة قويّة، أو ما يسمّيه ابن خلدون عصبيّة مركزيّة، ولا شكّ أنّ ما قامت عليه الدولة العثمانيّة هو فكرة العثمانيّة والإسلام. ولغة الإسلام العربيّة. فهي لغة غير خاصّة بالعنصر العربي، بل هي في ملك الأمّة قاطبة!

فقال الشيخ: بورك فيك يا مولاي على هذا العمق في التحليل والرؤية، ووفَّقَك الله لإدارة الأمور وفق ما يُرضي الله ورسوله. وعطفًا على كلامك في الاستعانة بالزوايا والتكايا، فإنّي أطلب من فضل مولاي أن نفتح زوايا للطريقة الظافريّة الدرقاويّة الشاذليّة في مناطق من العالم الإسلامي حتى تكونَ روافد لهذه السياسة العليّة.

فقلت: هي أوّل من سيكون في خطّ حمل فكرة الجامعة الإسلاميّة، ونحتاج إلى الأتباع في تزويدنا بالمعلومات، ومراقبة عمل محافل الماسونيّة، ومعاكسة أهدافها، ودعوة الشباب للدفاع عن هويّة الأمّة بالخصوص.

فقال الشيخ: تأكيدًا لهذا الأمر يا سيّدي، فسأحكي لك حكاية عن أحد الشباب العلماء والفضلاء الذين التقيت بهم في مصر، وصار من تلامذتي، وقد حكى لي حكاية عجيبة. هذا الشابّ يدعى محمّد عبده، وأتوقّع أن يكون له شأن كبير، ويمكن أن نوظّف كفاءاته في الترويج لفكرة الجامعة الإسلاميّة في مصر التي بدأت تبرز فيها فكرة القوميّة العربيّة. لقد أخبرني هذا الشابّ الأزهري أنّ سبب إقباله على العلم كان بفضل خاله الشيخ درويش خضر. وكان هذا الرجل من تلامذة والدي رحمة الله عليه، حينما قصده في طرابلس الغرب وتعلّم على يديه، وكان درويش يحفظ موطّأ الإمام مالك، وشيئًا من الحديث. وقد أخذ عن والدي الطريقة الظافريّة الدرقاويّة الشاذليّة. وحكى لي محمّد عبده أنّه زار مرّة خاله الشيخ درويش خضر في قرية بصعيد مصر تسمّى كنيسة أروين، وطلب الشيخ من ابن أخته أن يقرأ له بعض الرسائل المجموعة في كتاب كان بيده، بسبب ضعف بصره. وكانت الرسائل مكتوبة بخطّ مغربي

دقيق، تضمّنت رسائل مولاي العربي الدرقاوي مع شروح والدي عليها، كان قد بعث بها إلى بعض مريديه وأتباعه. وأخبرني محمّد عبده أنّه رفض طلب خاله، ولعن القراءة ومن يشتغل بها، ونفر منها أشدَّ النفور. ثم لمّا وضع خالُه الكتابَ الذي يحتوي على الرسائل بين يديه رمى به بعيدًا، لكن خالَه لم يَنْهَرْهُ، وبدلاً من ذلك ابتسم له، وعامله بألطف مظاهر اللطف والحِلم. ولم يزل مُلِحًّا عليه حتى أخذ الكتاب من جديد، وقرأ عليه بضعة أسطر، فاندفع خالُه يفسّر له معاني تلك الأسطر التي قرأها محمّد عبده، بعبارة واضحة غَالَبَتْ إعراضَه عن الكتاب، فغلَبَتْهُ وسَبَقَتْ إلى نفسه. ولم يمض وقت قصير على هذا الحادث حتى أتى أصدقاؤه من الفتيان يدعونه لركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية، فرمى محمّد عبده مرّة أخرى بالكتاب وانصرف إلى زملائه. وبعد العصر أتى خاله مرّة أخرى بالكتاب، وألحَّ عليه في قراءة شيء منه، فامتثل لذلك وقرأ بضعة أسطر، ففسَّرها له على نَحْوِ ما فعَل من قَبْلُ، ثم تركه إلى اللعب. وفعل في اليوم الثاني ما فعله في اليوم الأوّل. أمّا في اليوم الثالث، فاستمرَّت القراءة والشرح ثلاث ساعات لم يحصل فيها مَلَلٌ للفتى محمّد عبده الذي كان من قبل يمقُتُ القراءةَ وأهلَها. ولمّا حان أَوانُ مغادرة خاله للعمل في المزرعة، طلب محمّد عبده منه أن يتركَ له الكتاب ليقرأ فيه، فتركه معه، وبقي يقرأ فيه. وكلّما مرَّ على عبارة لم يفهمها وضع عليها علامة ليسأل خاله عنها. فلمّا كان أوان الظهر، لم تحدّثه نفسه بالذهاب للعب كما كان معتادًا، بل بقي يقرأ في الكتاب. فلمّا كان أوان العصر جاءه خالُه، فسأل الفتى الشيخ درويش عن العبارات التي لم يفهمها، فأبان له معناها على عادته بأفصح بيان، وظهر

على خاله الفرح والسرور بما تجدَّدَ عند ابن أخته من الرغبة في المطالعة والفهم. ولم يأتِ اليوم الخامس إلّا وقد أبغض اللهو والزهو مع زملائه. وصار أحبَّ شيء إليه ما كان يُبْغِضُه من قبل، وكرِهَ صورةَ أولئك الفتيان الذين كانوا يَدعونه لِلَّهو والفخفخة، ويُزهِّدونَه في القراءة والمطالعة والفهم وعِشْرَةِ الشيخ درويش خضر. ولم يمض اليوم السابع حتى جرى بين محمّد عبده وخاله نقاش حول واقع الإسلام وطرق الإصلاح. ولم تمض بضعة أيّام أخرى حتى صار الفتى اللاهي سابقًا، يطير في عالم آخر غير الذي كان يأنس إليه.

هذا الشابّ يا مولاي أحدُ من يمكننا التعويل عليه في حَمْل فكرة الجامعة الإسلاميّة.

فلمّا أنهى الشيخ ظافر المدني هذه الحكاية، قلت له: وما موضوع تلك الرسائل التي كانت سببًا في انتشال الفتى من بطالته السابقة إلى نور العلم وضياء الفهم؟

فأجاب ظافر أفندي قائلاً: إنّ هذه الرسائل المباركة تحتوي على شيء من معارف الصوفيّة وكلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق، وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزهيدها في الباطل من مظاهر الدنيا.

فقلت له: لا بُدَّ لي منها، ولْنَخْتَرْ بعضًا منها لتكون ضمن البرنامج التعليمي الذي ينبغي أن نرسُمَه لطلّاب المدارس.

فقال الشيخ: نِعْمَ الرأيُ يا مولاي!

ثم أخرج من بين ثيابه نسخة بخطّ مغربي من رسائل مولاي

العربي الدرقاوي كانت لا تفارقه.

أخذتُها وتمعَّنْتُ فيها، واستَصْعَبْتُ قراءةَ خَطِّها المغربي الجميل، فطلبت من الشيخ أن يقرأ لي منها، فافتتحها عند أوّل كلام طلع له: «كنت ذات يوم أغتسل غُسْلَ جَنابَة بشُعْبَةٍ خالية بقرب دارنا الكائنة بقرب ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف نفع الله به بِرَبْعِ بُومَعَان بالقبيلة الزرواليّة أَوَّلَ هذه السنة التي هي تسعٌ ومائتين وألف، إذ وجدت نفسي بجبل عظيم محيط بالدنيا وراءَ ما في علمي، وهو على لون الخضرة، وليس به عمارة ولا بجواره، بل بعيد من العمارة غاية البعد. وعادتي أن أُطَوِّلَ في الوضوء والغسل. ثم إنّي لمّا طالت حيرتي، تفرَّستُ بعقلي في حالتي غاية الفراسة، هل هو كما وجدتُ أم هو حُلْمٌ أو عَبَث؟ فَصَحَّ عندي أنّي كنت ببني زروال وبجبل قاف في وقت واحد. ثم طال الأمر بي هكذا حتى فرغت من الغُسل وانصرفت. فحينئذ فقدتُ الجبلَ ووجدتُ نفسي ببني زروال، والله على ما نقول وكيل والسلام».

ولمّا أنهى قراءة هذه الواقعة قلت للشيخ ظافر: هذا كلام عجيب!

فقال الشيخ: لعلّ مولاي قد استشكله!

فقلت: نعم، لقد استشكلتُ أن يكونَ الإنسان في موضعين في آن واحد.

فقال: ليس في هذا إشكال يا سيّدي، بل قد كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أخبر قومه وأصحابه بأشياء من عالم الشهادة، كما أخبر عمَّا صادفه في الإسراء والمعراج بدون مفارقة لكلا

العالمين. وحصل مثل هذا لبعض أصحابه كما في قصّة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لمّا نادى في خطبة الجمعة على جيش المسلمين الذي أرسله بقيادة سارية، فقال: يا سارية الجبل. فلمّا أنهى الصلاة، جاءه الناس وسألوه عن قوله لأنّهم لم يفهموه، فأخبرهم أنّه رأى وهو على المنبر انهزام المسلمين فأمر سارية مع رجاله بالاستناد إلى الجبل. ومرَّ شهر فعاد الجيش مظفرًا وأخبروا أنّهم سمعوا في اليوم نفسه والساعة نفسها الخليفة عمر يطلب منهم الاحتماء بالجبل بعد أن كانوا منهزمين، ففعلوا وانتصروا على أعدائهم.

ثم سألته: وما يعني جبل قاف؟ وأين يوجد؟

فقال الشيخ: كما ذكر شيخنا مولاي العربي الدرقاوي، يوجد جبل قاف مُحَايِثًا لعالَمَي الحسِّ والروح معًا. فحيث يوجد عالم الحسّ يوجد عالم الروح. وجبل قاف منتصب كالبرزخ بينهما، ولا يراه إلّا ذوو البصائر النافذة التي تعبر من عالم الحسّ إلى عالم الروح.

فقلت: هل هو جبل معنوي أم حسّي؟

فقال الشيخ: إنّه جبل معنوي يا مولاي، وإلّا فلا يُعقَلُ أن يحيطَ بالأرض، فهذا مخالفٌ لنواميس الكون. إنّه ليس جبلاً من حِجارة وتُراب، بل إنّه جبلٌ يَحْجُبُ عالَمَ الحِسّ عن عالم المعنى.

ثم سألته: وما سِرُّ اقتران مشاهدته لهذا الجبل بالغُسل من الجنابة؟

فقال الشيخ ظافر: لأنّ الجنابةَ مُجانَبة، ومشاهدةُ الجبل غُسْلٌ

عمّا به جَانَب. إنّ الجنابة يا مولاي مُتأتّية من قيام ذوقِ سرِّ الخَلْق عند النكاح بالجُنُبِ في أَخَصِّ ما انفرد به الخالق، لهذا تجب الجنابة من هذا الشهود ﴿تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾.

فقلت: كلام عميق يا شيخ ظافر، لعلّي لم أستوعب كلّ دقائقه. لكن ما علاقة هذا الجبل بسورة ق في القرآن؟

قال: لقد تكلَّم بعض المفسّرين عن بعض معاني ذلك الحرف النوارني الذي افتُتِحَتْ به هذه السورة، وقالوا إنّ جبل قاف محيط بالأرض. وكما بيَّنتُ فإنّ هذا الجوابَ لا يُقنِعُ النفوسَ الظَّمْأَى إلى المعرفة بالله، وبأسرار كلامه. لكن بصورة عامّة، إنّ ق مفتتح أسماء الله تعالى قوي، قادر، قدير، قائل، قريب، قدوس، قيوم، قائم، قهار، قابض، قاهر، قديم. ويمكن توجيه المعنى بأنّه سبحانه قد أقسم بأسمائه وبالقرآن المجيد.

فسألته مجدّدًا: وما هو مُتَعَلَّقُ هذا القسَم، أو ما هو جوابُه في الآية؟

فأجاب الشيخ: جوابُ القسم محذوف، ومعناه «لتبعثن يوم القيامة». وقد يكون مذكورًا، وهو قوله ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

فسألت مرّة أخرى: ولماذا لا يكون ق اسمًا من أسماء القرآن؟ وفي هذه الحالة فالعطف على ﴿القُرْآنِ المَجِيدِ﴾ أولى.

فأجاب الشيخ: صدقت يا مولاي، هذا أحد معاني هذا الحرف النوراني المبارك.

ثم خطر بخاطري خاطر، فسألته: ولماذا لا يكون أيضًا اسمًا

من أسماء النبي عليه الصلاة والسلام؟ والحال أنّ عائشة رضي الله عنها أخبرت بأنّه قرآن يمشي على وجه الأرض.

فقال الشيخ: صدقت يا مولاي، كلّ ذلك وارد، وهذا أحد أوجه الإعجاز في هذه الحروف المقطّعة التي تدلّ على الوجود بشرط قيام الناظر فيها بالشهود. ومن حيث إنّه اسم له ﷺ، فهو إشارة إلى القلب المحمّدي، كما أنّ حرف ص هو إشارة إلى صورته الكليّة. ولا يعرف جبل قاف إلّا من أدرك سِرَّ القلب ومعناه. فمن أخبر بأنّه صعد الجبل فقد أخبر أنّه اطَّلَعَ على مقام القلب فوجب عليه أن يتلو حكايةَ القسَم بقاف والقرآن المجيد. وقد أخبر الأكابر من الأولياء بأنّ الله طوَّقَ بهذا الجبل حيَّة عظيمة قد جمع الله رأسها إلى ذنبها، ومن سلَّم عليها ردَّت عليه السلام.

فقلت للشيخ: لا شكّ أنّك تتكلّم بلغة المجاز لا بلغة الحقيقة يا شيخ ظافر.

فقال: المجاز عين الحقيقة يا مولاي، وقد وَهِمَ الناس من استيلاء عالم الحسّ عليهم، فجعلوه حقيقة، وجعلوا الحقيقة مجازًا. ولم يُسَمَّ مَجازًا إلّا لأنّ صاحبه ملزم بالجواز بين الحقيقة الظاهرة إلى الحقيقة الباطنة، فكأنّه يَمُرُّ على جسر معنوي. ونظيرُ هذا تعبير الرؤيا، فالمُعَبِّرُ يَعْبُرُ من الخيال إلى الحسِّ أو العكس. ومن صعد جبل قاف، فإنّه لا شكّ واقف في هذه المنطقة التي تجعل المرء يُطِلُّ على عالم الحسّ فيعطيه حقَّه، ويُطِلُّ على عالم المعنى فيعطيه حقَّه، ويستوفي كلًّا منهما ما يستلزمانه من المراتب الوجوديّة. أمّا الحيّة التي طوَّقَت هذا الجبل، فمعناها في لفظها، فهي حيّة أي أنّ الحياةَ قائمةٌ بها، وكذلك القلب المحمّدي فإنّه

قلبٌ حيٌّ لا يموتُ أبدًا. ومعنى أنّ رأسَها إلى ذنبها ديمومةُ الحياة التي ما تنطفِئُ إلّا لتعودَ من جديد مثل طائر العنقاء. ألم يذكر القدماء بأنّ العنقاء (السيمورغ بالفارسيّة، والفينيكس عند اليونان) تعيش ألف سنة ثم تموت، ومن رمادها يولد طائر جديد، وهكذا دواليك؟ كما أنّ على رأس جبل قاف يا سيّدي زمرّدة خضراء.

فقلت متعجّبًا: وما تفسير هذه الرموز يا شيخ؟

فقال ظافر أفندي: إنّ الخضرة مرتبطة بالحياة، وما سمّي سيّدنا الخضر بهذا الاسم إلّا لأنّه شرب من ماء الحياة. ولون الزمرّدة هو الذي يعطي للسماء زرقتها وللأرض خضرتها.

فقلت للشيخ: لقد فهمت الرموز التي يستعملها أهل الله في كلامهم حتى يُعَمُّوا على غيرهم، لكن هل يحقُّ لنا أن نَخْرِمَ قاعدةَ التخاطب والتواصل بين البشر بتحميل الألفاظ دلالات ليست في العُرف العام ولا في الوضع العامّ؟

فأجاب الشيخ: هذا سؤال عن الحقّ، وكلامنا عن الحقيقة، لكن لا بأس، فإنّ هذا الحديث سيفتح مغاليق سرّ الوضع اللغوي، إنّ كلمة «قلم» مثلاً تفيد آلة الكتابة التي نمسكها باليد، كما أنّها تفيد المعاني والدلالات التي لا ندرك كنهها، لكنّنا نصدّق بها حينما نسمع الفلاسفة والحكماء يردّدون عبارة «القلم الأعلى». فما هو هذا القلم الأعلى الذي كتب به الحقّ تعالى ما كان وما سيكون إلى قيام الساعة؟ هل نستطيع أن نضع له كيفيّة معقولة؟ طبعًا، هذا أمر مستحيل، لكنّنا نؤمن بوجوده، ولا ندري كُنْهَهُ ولا صُورَةَ وُجودِه. وأقصى ما يمكننا أن نَحْمِلَهُ عليه من المعاني القريبة هو أنّه مَلَكٌ من الملائكة.

ثم أخذ نفَسًا وأكمل حديثه الماتِع: إنّ علماء اللغة قد قسَّموا الكلام إلى حقيقة ومجاز، وللجمع بينهما لا بدّ من التأويل، وحَدُّه إخراجُ دلالة اللفظ من الدلالة المجازية إلى الدلالة الحقيقيّة من غير إخلال بقواعد اللسان في التجَوُّز بتسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مُقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي تُبيحُ لنا هذا الانتقال.

فسألته مرّة أخرى: لكن، ما هي الشروط المتواضع عليها في التأويل الذي لا يَخرُج بنا إلى الحَدِّ الذي يَنعدِمُ معه التواصل والتأصيل؟

فأجاب الشيخ: إنّ عمليّة التأويل ترتكز أساسًا على العقل وقدرته على إيجاد الأدلّة والقرائن والبراهين. أمّا فيما يخصّنا، فإنّ شرط العقل وحده غير كاف، بل لا بدّ من الذَّوْقِ والمشاهدة فيما نخبر به ونحكي عنه. وهذا أمر مُتعلِّقٌ بالقلب، إنّ العقل يَعقِلُ ويَرْتِق، والقلب يقلِبُ ويَفْتِق، وهنا مكمن الصعوبة.

فقلت مرّة أخرى: إذن فأنت ترى أنّ التأويل يعني التفسير والبيان والعبور من المعنى المجازي إلى المعنى الحقيقي بقرينة عقليّة أو قلبيّة.

فقال ظافر المدني: إلى حدّ ما، إنّ التأويل يعني ما ذكرت يا مولاي، لكنّه يعني أيضًا ترجيح أحدِ مُحْتَمَلات اللفظ، ولو بتلويح دقيق، وإشارة خفيّة. إنّ الصعوبة يا مولاي تكمن في أنّ أهل الله لا يُعاملون اللغةَ على أنّها وسيلة تعبيريّة للتواصل فقط، بل إنّهم يرون في الحروف والألفاظ أُمَّةً معنويّة من الأمم، ولا فرق آنذاك بينها وبيننا. فهي كائن وجودي مثل سائر الكائنات، وهنا تكمن صعوبة

التأويل لأنّها تفترض النَّفاذَ إلى عمق الوجود لمعرفة خبر الانتقال من دلالة بيّنة إلى أخرى خفيّة. لعلّ السياقَ الوجودي أحدُ أهمّ الوسائل التي تمكّننا من الإخبار بتلك اللغة الرمزيّة حتى لا يقع التكرار. فأشياء عالم الغيب قد نخبر عنها بألفاظ كثيرة من عالم الشهادة، ونحتاج إلى السياق لتوسيع دائرة المعاني والخروج من التكرار. وقد كان الشيخُ الأكبر قدَّسَ الله سرَّه أحدَ فرسان استثمار العلاقة بين الظاهر والباطن والحسّ والمعنى والشهادة والغيب، لمّا ذكر أنّ «اللسانَ العربي يُعطي التَّفَهُّمَ بأدنى شيء من مُتعلّقات التَّشبيه».

فقلت: طبعًا هذا فهم لا يمنحه الله إلّا لمن اختصّهم بالعناية الأزليّة، حيث أسبلَ عليهم فتح العبارة، فيشتقُّون من الكلام ما يريدون لعلمهم بمواطن التوليد اللغوي.

وإنّني اليوم سعيد بالحديث إليك، وأؤكّد عليك مرّة أخرى أن نبدأ في تشكيل شبكة من الزوايا والتكايا في كلّ أنحاء العالم الإسلامي لنشر فكرة الجامعة. وقد أدركت أنّ قوّة الأمم الغربيّة اعتمادها على إنشاء الجمعيّات السرِّيّة للتغلغل في مختلف البلاد، فهي وجه آخر من وجود النفوذ والتدخّل في توجيه السياسات التي تخدم مصالحها. ونحن، لدينا مناصرون في كلّ العالم، لكنّنا لا نستفيد منهم في بناء شبكة سرِّيّة تزوِّدنا بالمعلومات وتحفظُ مصالحنا، وإنّي أعتمد عليك في اختيار بعض أهل الخير ممّن لهم غيرة على الأمّة ومصالِحها لكي يكونوا رجالاً لنا في مختلف البلاد، ويوقفونا على ما يجري فيها من شؤون، ويدافعوا عن مصالح الخلافة العثمانيّة والجامعة الإسلاميّة، ويراقبوا الثغور

وتحرّكات كلّ المنظّمات السرّيّة المناوئة، وعلى رأسها الماسونيّة.

فقال الشيخ: إنّ كلّ الزوايا والتكايا يا مولاي رجالنا في هذه القضيّة لنشر الفضيلة والدفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين والمحافظة على الجامعة الإسلاميّة والخلافة العثمانيّة. أمّا عن فرقة الماسونيّة، فقد ذكر الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين ابن العربي في الفتوحات المكّيّة أنّ الدجّال يسكن جزيرة الشمال مع الدابّة.

فقلت: وماذا يعني بجزيرة الشمال؟

فقال الشيخ: لقد ظهرت الماسونيّة يا سيّدي في إنجلترا، وهي جزيرة تلي بحر الشمال، ومنها دخلت وستدخل مجدّدًا علينا كثير من الويلات. ومن إنجلترا، نشأ سرطان الماسونيّة وانتقل بعد ذلك إلى مختلف البلاد. وقد كانت هذه الحركة في بدايتها محافظة على ما وصلها من تراث روحي إلّا أنّها بدّلت وغيَّرت وتحالفت مع التيّارات المادّيّة العَلمانيّة المنحرفة. فجماعة البنّائين في العصور الوسطى كانت محافظة على الإيمان. وبعد أن حصلت التحوّلات في بلاد الغرب، وتمّ القضاء على المسيحيّة، نشأت فكرة الماسونيّة الحديثة إلّا أنّها سرعان ما انفصلت عن الإيمان رغم أنّها كانت تقول بفكرة المهندس الأعظم، ويعنون بها الإله.

فسألته: وهل هناك ما يدعم فكرة البناء وهندسة الكون عند المسلمين؟

فقال الشيخ: طبعًا، لقد وردت فكرة البناء في القرآن عدّة مرّات، إلّا أنّ هناك فرقًا جليًّا بين بنيان الحقّ وبنيان الباطل. يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوى

مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ **بُنْيَانُهُ** علَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. إنّ الفرق بين البنيانين هو أنّ بنيان أهل الحقّ ثابت في قلب الأمّة، وهي قلب الخلافة التي تُستمدّ من القلب المحمّدي، وقد كفل الله حفظ هذا القلب، فلا يتقلّب إلّا بين الخير وما هو خير منه، بينما ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي **قُلُوبِهِمْ** إِلَّا أَنْ تُقَطَّعَ **قُلُوبُهُمْ** وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. إنّ هذه الآية العظيمة توضح بجلاء الفرق بين بنيان الخلافة الدجّاليّة في بحر الشمال، وبنيان الخلافة الإيمانيّة في أرض الإسلام. **فقلب** الخلافة في ثبات ويقين ونور، **وقلب** التدجيل في ريبة وشكّ وظلمة.

فسألته مرّة أخرى: فهل يجوز أن نطلق لفظ «البَنَّاء» على الحقّ سبحانه وتعالى؟

فأجاب الشيخ: لقد نسب الحقّ البِنَاء إلى نفسه في القرآن الكريم، لكنّ الاسم الذي يفيد معنى «البَنَّاء» في الشرع هو الاسم «البديع». وقد ذكر الشيخ هذا المعنى في الباب السادس من الفتوحات الذي خصّصه لمعرفة بدء الخلق الروحاني ومن هو أوّل موجود، ومِمَّ وُجِد، وفِيمَ وُجِدَ، وعلى أيّ مثال وُجِد، ولِمَ وُجِد وما غايته؟ وقد ذكر في ذلك الباب أنّ الإنسان من حيث إنّه بنيان الله في الوجود هو «عالم صغير من طريق الجسم، لكن صحَّ له التألُه (أي السيادة) لأنّه خليفة الله في العالم، والعالم مسخّر له مألوه. كما أنّ الإنسان مألوه لله تعالى».

فسألته مرّة أخرى: إنّ الماسونيّة تستعمل عبارة «المهندس الأعظم» للدلالة على الإله، فهل هناك ما يوجب هذا الاستعمال؟

فأجاب الشيخ: لقد ذكر أكابر القوم أنّ أنواع المعلومات أربعة هي: الحقّ تعالى، الحقيقة الكلّيّة، العالم، الإنسان الخليفة. فهذه أمّهات المعلومات. وقد أوضحوا صدور الإيجاد إلى أنّ «الله لمّا أراد وجود العالم وبدأه على حدِّ ما عَلِمَه بعلمه بنفسه، انفعل عن تلك الإرادة المقدّسة بضرب تجلٍّ من تجلّيات التنزيه إلى الحقيقة الكلّيّة، انفعل عنها حقيقة تسمّى الهباء، هي بمنزلة طَرْحِ البِنَاءِ الجصّ، ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور، وهذا هو أوّل موجود في العالم». وهذا يفيد معنى هندسة الكون، لكنّ الأسماء تؤخذ من النصوص الصحيحة مع اعتبار أنّ جميع الكمالات لله تعالى.

ثم بدا لي أن أسأله مرّة أخرى: وما قصّة الدابّة يا سيّدي؟

فقال: تلك الدابّة ورد حديثها في الخبر الصحيح عند الإمام مسلم في حديث الدجّال، حين دَلَّتْ الصحابي تَمِيمًا الدَّارِي عليه وأخبرته بالدجّال شوقًا إلى حديثه: «وهي الآن في جزيرة في البحر الذي يلي جهة الشمال وهي الجزيرة التي فيها الدجّال». ومن خصائصها أنّها تَسِمُ المؤمن وتَسِمُ الكافر لدى نفخها، فيرتقم في جبين كلّ شخص ما هو عليه من إيمان أو كفر. وتتكلّم بجميع الألسن، ويقال لها الجسَّاسة، وهي دابّة كثيرة الشعر لا يُعْرَفُ قُبُلُهَا مِنْ دُبُرِهَا. وشَرُّ البلايا خرج من تلك الجزيرة التي في بحر الشمال يا مولاي! فالماسونيّة العَلمانيّة الدجّاليّة هي غير الماسونيّة التراثيّة القديمة التي كانت تدعو إلى الإيمان. ولعلّ الدابّة هي رمز عن الماسونيّة المنحرفة التي لا يُعرف قُبُلُها من دُبُرِها، أي مَخرجها من مَدخلها. إنّها تستغلقُ على الناس، فلا يعرفون متى ظهرت وأين!

فقلت مرّة أخرى: هناك رموز متداولة بين الماسون هي المسطرة والمثلّث والفرجار. وقد وقفت على استعمالها بطريقة سرّيّة، فهل هناك ما يشير إلى أصل لها؟

فقال الشيخ: إنّ طوائف البنّائين عند المسلمين كانت تستعمل هذه الأدوات وخَطّ البناء في بناء المساجد والثغور وغيرها، وكانوا يكتبون اسم الجلالة «الله» بهيئة هذه الأدوات، فالألف للمسطرة، واللامان للفرجار، والهاء للمثلّث. ثم أخرج ورقة وخطَّ عليها اسم الجلالة «الله» هكذا:

أو هكذا:

إنّ هذه الأدوات أدوات شريفة لكلّ مهندس بنّاء مؤمن، لكنّها تحوّلت في يد الماسونيّة المنحرفة إلى أدوات لقطع أوصال الدول وفصلها عن مصدر الإيمان، ولا أشكّ أنّ قلب الماسونيّة الدجّاليّة في جزيرة الشمال بإنجلترا مع فروعها المحيطة بها في الأمم الغربيّة قد انطلقت تستعمر العالم وفق ما خطّه دجاجلتهم، فأضحت المسطرة والكُوسُ والفِرجار أدوات للتشريح وزرع الفرقة وصنع الحدود والخرائط الوهميّة بين الشعوب والأمم. وقد اقتبسوا تعاليمهم من بعض شياطين سيّدنا سليمان، بدليل قوله تعالى: ﴿والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾. أمّا أهل الإيمان، فهم كالبنيان المرصوص الذين قال فيهم الحقّ تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾.

فقلت: صدقت يا شيخ ظافر، لقد ظهرت الماسونيّة في جزيرة الشمال بإنجلترا، ومن هناك انتشرت في غيرها من البلاد. ونحن اليوم حاملون لأمانة الخلافة نقاوم الاستعمار المادّي الدجّالي للبلاد المسلمة. لكن لماذا كان للدجّال عين واحدة فقط؟

فأجاب الشيخ: هناك أخبار وردت تذكر أنّه ولد بعين واحدة طافية كالعَنَبَة، فهو لا يرى الأمور إلّا بعين النقص، بينما أهل الكمال من الرسل والأنبياء والأولياء، وأهل الحِفظ والإيمان عمومًا يرون الأمور بالعينين، فجمعوا بين الظاهر والباطن وشهدوا بنور إيمانهم النَّجدين، فلم يُنكروا ما شَهِدُوه ولا جَحدوا ما تيقَّنوه. وهم يسمعون من الدابّة التي أخبرت عن الدجَّال لمّا قال لهم الحقّ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ فصدَّقوا بذلك ولم يتأوَّلوا الأمر ويُخرجوه عن ظاهره، بل حملوه على حقيقته حتى لا يَصْدُقَ فيهم قول الله تعالى ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾. والدابّة آية من آيات الله التي أنزلها، وقد أنكرها غير الصادقين وخرجوا بها عن ظاهرها، فلم يستقرّ الإيمان في قلوبهم كما ذكر الله تعالى لأنّهم لم يقبلوا الإيمان بهذه الآية على حقيقتها الظاهرة. فهم ينظرون بعين واحدة مثل الدجّال، بينما أهل الصِّدِّيقيّة ينظرون بالعينين ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. فهم يرونها دابّة بالعين الأولى، ثم يرون حقيقتها التي آلت إليها بالعين الثانية. هذه هي الصورة التي خلق الله عليها الإنسان، وما عدا ذلك فَمَسْخٌ. وهذه الصورة سُنَّة كونيّة في الظاهر والباطن. فمن كان يرى الأشياء المعنويّة كما يرى الأشياء المادّيّة بعين واحدة فهو خارج عن هذه الصورة الكماليّة النورانيّة إلى صورة النقص الدجّاليّة المسيخِيّة.

فسألته: وما معنى أن يرى الإنسان الأشياء بعينين؟

فأجاب الشيخ: نحن نرى بعينين ونعقل بقلب واحد ونخبر عمّا نرى ونعقل بلسان واحد وعبارات شتّى. إنّ حقائق الأشياء منها ما هو نوراني، ومنها ما هو ظلماني، ومنها ما هو أقرب إلى النور منه إلى الظلمة، ومنها ما هو أقرب إلى الظلمة منه إلى النور، فهذه صور أربع لحقائق الأشياء. والدجّال لا يرى إلّا صورة النقص والظلمة تبعًا لأصلهِ الظلماني. وكلّ واقفٍ مع نظره مُؤْثِرٌ لِهَواهُ، فيه أَثَرٌ من أَثَرِ التدجيل والظلمة.

كان كلام الشيخ ينساب في فَكِّ شيفرة الأشياء بسطوة النور، وزاد إدراكي للأشياء، وعاينتها في شفافتها ثم في كثافتها، فنظرت بالعينين وسلّطت سهام الحدقتين على حقائقها. كانت الخلافةُ قلبَ العالم، وجزيرةُ الشمال قلبَ التدجيل، وكنّا في الهزيع الأخير من سيادة ليل الخلافة، لكن لمحة النور النابضة من القلب المحمّدي كانت تشعّ على قلب الخلافة ألويةَ المحامد، فأدركت أنّ الله استعملني في نهاية دورة الخلافة حتى أحفظ الأمانة. كان الشوق يحدوني والرغبة تقودني إلى أن أسمع كلام الشيخ حول القلب المحمّدي النابض بالحياة في قلب الخلافة القائمة بسرّ قلب القرآن، بعد أن سمعت منه كلّ ما ينبغي عن قلب التدجيل، لكنّ الوقت كان للعمل، وسِرُّ ذلك البثّ لا يُنال إلّا في وقت الذكر، فهو حديث قلبي عن يس قلب القرآن، وقلب القلب ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾.

* * *

# كتاب السين

بدأتُ ترتيبَ قلبِ الخلافة وِفْقَ ما فَقِهْتُهُ عن الشيخ ظافر، وأرسلتُ في البلاد الإسلاميّة الدعاةَ لمشروع الجامعة الإسلاميّة، وبنينا الزوايا الحاملة لمشروع هذه الفكرة الإيمانيّة، وضربتُ بِيَدٍ من حديد على كلّ الخوَنة الذين باعوا الأمَّة بأبخس الأثمان. وكاتبت ملوك المسلمين وأمراءهم لكسب تأييدهم لمشروع الجامعة الإسلاميّة. وقد أرسلت الهدايا بهذا الشأن حتى نُذيب الشكوك. راسلت سلطان المغرب الحسن الأوّل، فرحّب بالفكرة. وأرسلت له مع الرسالة بعض خيار النساء الشركسيّات[1] ليعقد عليهنّ. ثم

---

(١) وصلتْ إلى المغرب في الربع الأخير من القرن التاسع عشر مجموعة من النساء الشركسيّات، تزوّج من بعضهنّ السلطان الحسن الأوّل (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤)، مثل للّارقية التي أنجبت له السلطان مولاي عبد العزيز (١٨٩٤ ـ ١٩٠٨)، وللّا آمنة التي أنجبت له السلطان مولاي يوسف (١٩١٢ ـ ١٩٢٧)، والد الملك محمّد الخامس (١٩٢٧ ـ ١٩٦١) وجد الملك الحسن الثاني (١٩٦١ ـ ١٩٩٩). ومن بين النساء الشركسيّات الأخريات في عهد الحسن الأوّل: للّا خديجة، وللّا نُضار وللّا فَخِيتَة. ونظرًا لأنّه كان من عادة سلاطين آل عثمان الزواج بالشركسيّات دون غيرهنّ، فقد أرسل السلطان عبد الحميد الثاني هذه الهديّة تقديرًا للسلطان مولاي الحسن الأوّل ومكانته.

أوفدْتُ بعد ذلك مبعوثًا خاصًا هو عبد الله السنوسي، فاستُقبل بفتور في مدينة طنجة بسبب كيد الفرنسيّين الذين أشاعوا أنّ لنا نِيَّةً في ابتلاع المغرب، وأشعلوا نارَ الفتنة لإجهاض فكرة الجامعة الإسلاميّة.

بلغتني وفاة الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق وحزِنْتُ كثيرًا لوفاته، فقد كان سنَدًا كبيرًا للخلافة ومُنافحًا عنها، واشتغل أبناؤه سفراءَ لدولتنا. وسرَّتني وصيَّتُه في أن يُدْفَنَ بجوار الشيخ الأكبر ابن العربي في الصالحيّة بدمشق، رحمة الله عليهما جميعًا.

انتقلتُ للسكن في قصر يلدز في حدود سنة ١٨٨٤ بعد أن اكتمل بناؤه، وصار مدينةً داخل استانبول. كنت أُحِبُّ النجارة فبنيتُ ورشةً داخلِ القصر آوي إليها لأصنعَ بالمسطرة والكوس والفرجار أدواتٍ ذُكِرَ عليها الاسمُ المفرد، وأَخُطَّ خريطة الأمّة بالنور، مقاومًا لما تعمل عليه أدوات الظلمة والتدجيل الماسونيّة.

ثم أقمتُ زاوية للشيخ ظافر في حيّ بشكطاش غير بعيد عن ضريح خير الدين باربروس، بينما عهدتُ إلى مهندس إيطالي بتصميم مختلفِ مَرافقِ قصر يلدز. وبنيتُ الجامع الحميدي عند مدخل القصر على أعلى التلّة وسط أشجار الصفصاف والقسطل والتوت البرّي والخوخ والتّين والمانيوليا وغيرها. وصنعتُ لزاوية الشيخ ظافر نوافذَ ودولابًا وعدَّة أبواب وأغراضًا أخرى.

ولمّا اكتمل بناء الزاوية ذهبتُ إليها متخفِّيًا لحضور حلقة من حلق العلم والذكر التي كان يعطيها الشيخ ظافر. خرجت رفقة رجلين من خاصّتي راكبًا على عربة عاديّة لا تثير الفضول. كان الطريق من قصر يلدز ينحدر نحو التكيّة التي توجد في اتّجاه

البحر. توقّفت العربة في موقف خاصّ أمام التكيّة. دخلت من الباب الحديدي الخارجي، ونزلت عدّة أدراج ثم اتّجهت نحو قبّة الوضوء المسدّسة الشكل التي كانت تربض أمام باب التكيّة بألوانها الزاهية الورديّة والبيضاء. كان بها ستّ حنفيّات تصبّ في مغاسل فرديّة. كنت أنوي أن أخرج عن جاهي وعلمي بالوضوء أمام التكيّة كما يفعل سائر وارديها. وكان الشيخ ظافر قد أخبرني بقصّة الإمام الشاذلي الذي توضّأ قبل أن يلتقي بشيخه ابن مشيش، في إشارة إلى خروجه عن علمه وتواضعه أمام حضرة الشيخ، فأردت أن أفعل الشيء نفسه. لم أحضر إلى التكيّة بصفتي سلطانًا، وإنّما بصفتي رجلاً مؤمنًا مقبلاً على ربّه كسائر الناس. خلعت سترتي وعلّقتها على مِشجب نحاسي مثبّت على الجانب الأعلى للحوض. حَسَرْتُ عن ذراعي وفتحت سِكَّةَ جزمتي. أدرت مفتاح الحنفيّة النحاسيّة الذي نُحِتَ بِطُغْرَاءِ السلطان عبد الحميد. ثم أتيت بالوضوء مُتَلَبِّثًا كما لم أفعل من قبل. لمحني أحد المتردّدين على التكيّة بدون أن يتعرّف عليّ، فسارع يناولني فوطةً أمسح بها أطرافي، جَفَّفْتُ أطرافي ثم شكرته على لطفه. كانت التكيّة من طابقين، وبها نوافذ علويّة على شكل أقواس، في حين أنّ نوافذ الطابق الأرضي مستطيلة. وكانت التكيّة تشبه من الخارج بيتًا لأحد الوجهاء، ولم يكن يفضح وظيفتها سوى مئذنتها الدائريّة. دخلت باب الزاوية الذي تعلوه كتابة من ثلاثة أسطر. وبعد المدخل الخارجي للزاوية غرفة صغيرة عادة ما يصلّي فيها الناس حينما يقفل باب التكيّة الذي يليها. تقدّمت نحو الباب الداخلي للزاوية الذي انفتح على بهو الوسط. وفي جهة اليمين من الخلف درج من الخشب يؤدّي للطابق العلوي. صعدت السلّم

الخشبي فألفيت نفسي في الطابق العلوي للتكيّة. تجوّلت هناك، وتأكّدت من ملاءمة النوافذ والمشربيّات التي خرجت من ورشتي في قصر يلدز لهذه التكيّة. كانت تلك النوافذ والمشربيّات قد نصبت في الوسط لكي يطوف المرء حولها، بحيث يمكنه أن يفتحها ليطلّ على الطابق الأرضي أو ليعاين قبّة الزاوية التي يمكن رؤيتها كذلك من الطابق السفلي. وفي جهة اليسار باب يؤدّي إلى بيت خاصّ. نزلت السلّم مرّة أخرى إلى الطابق الأرضي، ودخلت قاعة الصلاة. وعن يمين القاعة وشمالها دكّتان مرتفعتان قليلاً بمقدار ذراع من الأرض. كان الشيخ ظافر جالسًا في جهة اليمين يقرأ في كتاب كبير الحجم. أحجمت عن إزعاجه، وتقدّمت لأداء تحيّة المسجد. وبعد هنيهة، قام الشيخ وتوجّه ناحيتي وسلّم عليّ. رفع رأسه ليرى الغريب الذي زاره في التكيّة فتعرّف إليّ، وعلَت محيّاه ابتسامة خالطتها الدهشة. رددت عليه السلام وصافحته طويلاً. فأخذني من يدي فماشيته إلى الدكّة التي كان يجلس فيها. طلب منّي الجلوس وأعطاني مخدّة أسندها إلى ظهري، ثم جلس أمامي متّكئًا على الدولاب الذي صنعته له لحفظ بعض أغراضه كالعمامة والطربوش والجُبّة وغيرها. جُلْتُ بنظري في أرجاء التكيّة، فأعجبني اتِّساقها ودَكَّاتُ زواياها الأربع. كانت الزاوية تقوم على ثمانية أعمدة من الداخل تدور في شكل مثمّن لتحمل القبّة الوسطى.

تركني الشيخ ظافر أجول بنظري في جمال التكيّة، وأعاين تفاصيل معمارها وتطاريز جدرانها وبهاء النور المتسلّل إليها من النوافذ التي تخترق جدرانها. فلمّا امتلأ بصري من المكان، امتلأ

قلبي بالأمان، فالتفَتَ إليّ الشيخ قائلاً: أهلاً بك يا مولاي في هذه الزاوية المباركة.

فقلت له: شكرًا لك يا شيخ ظافر، وأرجو أن يكون الأثاث الذي صنعناه للزاوية قد راقك.

فقال: ما كان أحد من أهل الله يطمع أن يصنع له خليفة المسلمين أثاث زاويته. إنّ في اتّحاد خلافة الظاهر وخلافة الباطن سرًّا لم تعرفه الأمّة إلّا في عهد الخلافة الراشدة، وأسأل الله أن تلحق إمارتك بتلك الخلافة الراشدة بإذن الله.

فقلت: بورك فيك يا شيخ ظافر، وإنّي جئتك اليوم في هذا الوقت حتى أظفر إن شاء الله بإذن ذكر الاسم المفرد في الخلوة الذي طالما وعدتني به. وأرجو أن لا تُسوِّفني مثلما حصل لجدّي محمّد الفاتح مع شيخه آق شمس الدين.

فقال الشيخ ظافر: وماذا حصل بينهما؟

فقلت: لقد طلب جدّي من شيخه أن يدخله لخلوة الاسم الأعظم فتمنَّع عليه، وغضب وقال له: كيف تُدخل عوامَّ الناس بكلمة واحدة، ولا تدخلني الخلوة. فقال له الشيخ: إنّك إذا دخلت الخلوة تجد لذّة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختلّ أمورها، فيمقت الله علينا ذلك. والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، ثم نصحه بما يجب عليه فعله.

فقال الشيخ ظافر: يا مولاي، لقد كان عصر جدّك يحتاج إلى ما نبّهه عليه الشيخ شمس الدين. أمّا اليوم، فإنّ الخلافة في خطر وإنّك تحتاج إلى هذا السرّ الذي لا يوضع إلّا في الأيدي الأمينة

والقلوب الطاهرة، وأنت يا مولاي حامل لذلك السرّ باعتبار وظيفة الإمامة العظمى التي استعملك فيها المولى عزّ وجلّ، واليوم بعد أن اكتمل بناء الزاوية وعمارتها الحسّيّة، فقد حان الوقت لعمارتها بالذكر الذي يحفظ سرّ الإمامة والخلافة.

فقلت: أوصني يا سيّدي.

قال الشيخ: أوصيك أيّها الأخ الإلٰهي أن تعرف الحقّ سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه، مع ما ينبغي لجنابه من التنزيه والتقديس، واحرص على أن تعرفه من طريق الإيمان وطريق العلم، كلّ طريق منهما على حدة ولا تجمع بينهما. واجعل الإيمان لقلبك، فإنّ قلب الأمّة هو الإمام الأعظم. واحذر أن تضيّع وقتك في تتبّع فكرك بالنظر لما أعطاه لك إيمانك.

فقلت: ولماذا لا أجمع بين الفكر والإيمان؟

فأجاب: اعلم أيّها الأخ الطالب أيّدك الله بروح منه أنّ الله أوسع من أن يقيّده عقل عن إيمان، أو إيمان عن عقل. فمنتهى العقل والفكر والنظر في طلبه للحقّ هو وقوفه على مجموعة من السلوب التي يسلبها عن الحقّ في إقامة دعواه على تنزيه الألوهيّة عمّا قد يتلبَّس بها من البشريّة والحدوث. والإيمان يُقِرُّ العقل والنظر على ما وصل إليه من تقرير تلك السلوب، لكن دائرتَه أوسع من دائرة العقل، لِيَقِينِهِ بِصِحَّةِ ما أعطاه له الكشف في تَنَزُّلِ الألوهيّة في صفات لا يَعقِلها العقل والفكر ممّا يستوجبها نور الكشف.

فقلت: وما منتهى معرفة المخلوق بالخالق؟

فأجاب الشيخ ظافر: إنّ أقصى ما وصل إليه أصحاب الهياكل

النورانيّة في رحلة السفر لمعرفة الحقّ هي إدراك المرتبة، أمّا الذات الإلٰهيّة فخارجة عن مجرّد التَّلَبّس بأدنى ذرّة من ذرّات نورها ووجودها الأقدس. فكلّ العقول وقفَتْ على حقيقة قُصورها في العلم بالله.

فقلت: وإذا كان كما تقول، فإنّ اليأس من معرفة الله هو أقصى ما يمكن أن يبلغه الطالب على درب الحقّ.

فقال الشيخ: ليس من طريق إلّا التهَيُّؤ لاستقبال الوهب الإلٰهي، ولهذا فطريقنا هو تهيئة المحلّ لاستقبال ما يهبه المولى من المعرفة به عبر تَرَادُف التجلّيات. وهذا الباب هو أكملُ بابٍ في المعرفة، وما دونه فأضغاث أحلام. وقد سار على هذا الطريق الملائكة والكُمَّلُ من عباد الله من الأنبياء والأولياء. فانزع عن هِمَّتِك كلّ تَفَكُّرٍ للعلم بالله، واحذَرْ من سلوك تلك الطريق، فإنّها غير مُوصِلة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾.

فقلت: لمّا كان الله قد أوجدَ العالم وفق مشيئته وإرادته، فإنّ أثر تلك الإرادة قد تَحَصَّلَ في العالم، ولا شكّ أنّ المتتبّع لآثار إرادة الوجود القديم في الكون حاصلة إذا تهيّأ المكان لإدراكها واقتناصها.

فقال الشيخ: صدقتَ يا أخي، لكن علم الله الذي انتقش في العالم هو على قدر صفاء العالَم ونورانيّته، وإلّا فعلم الله أوسع من ذلك.

فقلت: إذن، ما دام أنّ ما انتقش في العالم من العلم الإلٰهي هو ما عليه العالَم، فإنّ الاكتفاء به قصور همّة لأنّ علم الله أوسع

من ذلك، ومنتهى أَمْرِ الطالب الوصولُ إلى مُوجِدِ العالَم وصانِعه، لا طلبُ صنعته.

فقال الشيخ: تمامًا، إنّ النفس إذا تجوهرَتْ وَصَفَتْ مرآتُها لم تُقَابِلْ بها العالم لأنّ ما انتقش فيه هو على صورة العالم، وهي إنّما تطلب موجدَ العالم. فلا تُقَابِلُ النَّفْسُ المجوهرة بمرآتها إلّا الحضرةَ العليّة على ما يقتضي ذلك من الذِلّة والافتقار لكي يحصل لها علوم الوهب. وهذا العلم الذي ينتقش في النفس نتيجة هذه المقابلة مع الحضرة العليّة لا ينتقش في مرآة العالَم.

فقلت: جَيِّد، لقد أدركتُ قيمة هذا الذي تُنَبِّهُ عليه، لكن دعني أستشكلُ عليك الأمرَ مرّة أخرى. فما قولك فيما انتقشَ في اللوح المحفوظ ممّا كان وسيكون إلى قيام الساعة؟ وهو ممّا عَلِمَهُ القلم أو العقل الأوّل. وما يحصل لطالب الحقّ من العلم بالذات العليّة هو ممّا في العالم، فكيف تجيب عن هذا الإشكال؟

ابتسم الشيخ قليلاً وقال: لم يُدَوَّنْ في اللوح المحفوظ ولم يُسَطِّرِ القَلَمُ من العلوم إلّا ما كان يَقْبَلُ القَوْلَ ويُخْبِرُ به النَّقْلُ. أمّا علوم التجلّي التي تُنْتَقَشُ في القلوب الصافية والنفوس النورانيّة، فلم يُنْتَقَشْ أصلاً في العالَم، ولم يَحْصُلْ للإنسان إلّا من الوجه الذي هو لكلّ موجود مع مُوجِدِهِ، مِصداقًا لقول المولى تعالى على لسان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام عن هذا العلم أو السرّ بأنّه «لا يطّلع عليه مَلَك مُقَرَّب ولا نبي مرسل». وهذا العلم خارج عن قبضة اللوح والقلم، ولم يُنْتَقَش أو يُسَطَّر فيهما أو بهما.

فقلت: وكيف السبيل إلى هذا العلم؟

فقال الشيخ: لا يُنال هذا التجلّي إلّا بتفرُّغ الخاطر والقلب من علوم الفكر والنظر، ونسيان ما عُلِم ومَحْوِ ما سُطِّر وكُتِب، والجلوس على بِساط الصفاء مع الحقّ تعالى مع تجريد الباطن من التعلّق بما سوى الله. فإذا جلستَ فاجلس معه بدون عِلَّةٍ ولا سبب، ولا تُشرك في جلوسك وقتًا ولا حاجة ولا شيئًا ممّا سوى الله. فإن عيَّنْتَ زمانًا أو مكانًا أو صاحبة أو ولدًا أو حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لم يَحْصُلْ لك ما تُريد لإشراكك مع الحقّ. وإن فُتِحَ لك مع التعيين شيءٌ، لا يأتي منه شيء، فهو كالرِّيح العَقيم.

فقلت: وما هو الذِّكر الذي ينبغي أن أُلازِمَه في هذه الخلوة مع الحقّ؟

فقال الشيخ: اِجْعَلْ ذكرَك «الله»، «الله» لا شيء سواه، من غير تخيُّل بل بتعقُّلِ الحروف التي تُكَوِّنُ الاسم. وإذا جلستَ، فلا تنتظر فَتْحًا، بل لِيَكُنْ ذِكْرُكَ له لما يستحِقُّه من العظمة والجلال، لا ممّا تعتقد أنّك تعرِفُه عنه ممّا أدَّتْهُ لك عقيدتُك أو عِلمُك به. بل اجلس معه وأنت مقتنع بجهلك التامّ، فإن فتَح لك بابًا للعلم لم يكن عندك به خبر ولا ذوق، فاقبله هديّة من مولاك ولا تَقِفْ عنده، وداوِمْ على ذكرك واشتَغِلْ بمولاك، فإن ترادَفَتْ عليك العلوم والأذواق بلسان الأرواح المجرّدة، فاسلُكْ معها سلوكَك مع الرُّوح الأوّل الذي أتاك حتى تشتعلَ في باطنك جِذْوَةٌ ممّا هو خارج عن أذواق هذه الأرواح، ولم تَشُمَّ رائحته من قبل لما نبَّهتك عليه، من أنّ لكلِّ عبدٍ سرًّا مع الله لا يعلَمُه ملَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرسل. فهذه قاعدة اعمل عليها، فما يأتيك من الوهّاب لم يَهَبْهُ لغيرك، ولا

قَبْضَةَ للملأ الأعلى عليه.

قلت: وماذا يأتي بعد ذلك من الأذواق؟

فقال الشيخ: داومْ على الذِّكر وانظُرْ في تلك الأذواق المترادفة عليك، فإن دلَّتْ على اسم من الأسماء الإلٰهيّة التي أتى بها النقل، فلا تقنَعْ منه بما أعطاك ولا تقِفْ عنده، وعامل ذلك الاسمَ مُعامَلَتَكَ للأرواح التي ظهرَتْ لك في أوَّل مُنازلة.

قلت: فإن حصلَتْ لي حيرة، فكيف أصنع؟

فقال الشيخ: إن وجدتَ ذوقًا يحيِّرك ولا تستطيعُ أن تدفعَه عنك، ثم يَكْتَنِفُكَ تفريقٌ وتَشَتُّتٌ، فلتكنْ حالُك معه كحالك مع ما سَبَق.

فقلت: وإن وجدتُ حيرةً مع جمعٍ وسكينةٍ، فماذا أَصنع؟

فقال الشيخ مخبرًا عن هذه الأحوال السَّنيّة بلسان العارف الخبير السالكِ دروبَ معرفة الحقّ بالتجلّي الأقدس: إن وجدتَ حيرةً مع جمع وسكون، فذلك المطلوب، فداوم عليه واعتمده.

فقلت مرّة أخرى: وإن استطعتُ أن أدفع عنّي ذلك السكون، أَفَأَسْلُكُ معه سيرتي مع الأرواح، والأسماء، والحيرة المشَتِّتة، والحيرة الساكنة، أم أَقِفُ عند هذا الحَدّ؟

فقال الشيخ: إن استطعتَ أن تدفعَ إلى ما بعد ذلك السكون، فافعل، فإن ترادفَ عليك نفسُ الذَّوق مرَّتين أو أكثر حتى تعلمَ ما بينهما من الفروق، فليس ذلك بالمطلوب، وإنّما عليك أن تتخلَّص ممّا ذكرتُ لك.

قلت: وأين المنتهى؟

قال: إذا حصلَتْ لك هذه الأذواق، ورُددْتَ إلى عالم الحسّ أدركتَ الحضرةَ التي نطقَتْ منها الرُّسُل، وتنزَّلَتْ منها الكُتُب، وعَلِمْتَ منها ما بقي مفتوحًا رحمةً من الله باستمرار النَّبأ عن الله، وما سُدَّ منها بخِتام الرسالة. فإن حصلتَ هناك علمتَ ما تقولُ هناك، وما يُقالُ لك، وسمعتَ من كلّ شيء وبكلّ شيء وفي كلّ شيء. وصار المنكرُ معروفًا، والمعروفُ منكرًا، وأنكرتَ المنكرَ وعرفتَ المعروفَ، وعلمتَ أنّك أعلمُ الخلق بأنَّكَ أجهلُهُمْ، ولم يبقَ لك إلّا أن تدعو ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، فبه تحيا وبه تموت.

ثم أنشد الشيخ من شعر الششتري:

| | |
|---|---|
| ٱنْـظُـرْ فِـي مِـرَاكْ | ٱنْـظُـرْ فِـي مِـرَاكْ |
| وَالَّـذِي تَـرَى فِـيـهَـا | أَنْـتَ هُـو ذَاكْ |
| اِرْفَـع الـمِـرَا وَانْـظُـرْ | يَـظْـهَـرْ كُـلُّ شَـيْ |
| تَـرَى الـخَـالِـي وَالـمَـعْـمُـور | وَمَـيِّـتْ وَحَـيْ |
| مَـا يَـظْـهَـرْ لَـكَ الـمَـسْـتُـورْ | إلّا بِـالْـمُـرَيْ |
| يَـنْـكَـشِـفْ غِـطَـاكْ | يَـنْـكَـشِـفْ غِـطَـاكْ |
| تَـبْـقَـى فِـي الـوُجُـودْ وَحْـدَكْ | مَـا تَـرَى سِـوَاكْ |

سكت الشيخ قليلاً ثم قال لي: ها قد دَلَلْتُكَ يا أخي على ما فيه السعادة الأبديّة، فهل أنت حريصٌ الآن على هذه الخُلوة الأقدسيّة؟

فقلت والشوقُ يَحْدُونِي: والله ما جئتُ إليكَ إلّا لذلك.

اعتدلَ الشيخ في جلسته واستقبلَ القبلة، ثم قال لي: ادنُ

منّي، وأَلْصِقْ ركبتيكَ بركبتيَّ.

فعلتُ ما أمرني به، ولم أَعُدْ أجلسُ إليه بصفتي خليفةَ المسلمين، بل بصفتي طالبَ حَقٍّ على باب الافتقار إلى مولاه.

ثم قال لي: ابسُطْ يدك.

فبسطتُها، فمسكها بيده المباركة، وأحسست بسريان سِرٍّ لا أعلَمُ له كُنْهًا قد نفحني بمادّة السَّيْر، وكأنّه انتشلني من بُطْءِ جُثْمَانِيَّتي وجِرمِيَّتي الكثيفة إلى سرعة لطافة النور.

ثم قال لي: اِفعَلْ نَحْوَ ما أَفْعَل، واسمَعْ ما أَقول، ثم ردِّدْ بعدي بعد أن تُسْبِلَ أجفانَكَ وتُغْمِضَ عينيك لكي تفتحَ عينَيْ بصيرتِك.

مسكَ الشيخ على مِجَسِّ رُسْغِي النابض وكأنّه يختبر وَجِيبَ قلبي بِمِنْصاتِ فُؤادِه، ثم فترَتْ شفتاه بنطق الاسم المفرد: الله.

نطقتُ على نحو ما نطق به بتحقيق الهمز، والمدِّ على اللام الثانية. غَرِقْتُ في بحر لا ساحلَ له، ولم أَعُدْ أُبْصِرُ شيئًا، فقد غَطَّى عوالمي كلَّها هذا الهائلُ الوجودي الذي لم أَكُنْ أُدْرِكُ أن مجرَّدَ استحضار النطق بهذه الأحرف الأربعة سَيُحْدِثُ فيَّ هذا الأثر. ناوشني إدراكٌ في هذه اللحظة أنّ الشيخَ كان مأذونًا بنطق الاسم وفق ما يقتضيه ذلك النُّطقُ من الأدب، لكنّي أَزَحْتُ هذا الخاطرَ عن نفسي حتى ألتزمَ بنفس ما ألزمني به الشيخ من عدم الوقوف مع الخواطر التي تهجُمُ أثناء الذكر، وكلُّها تقول لك: أنا هو، أنا هو. فإن أنت وقفتَ معها فَاتَكَ من العلم بالله على قَدْرِ وُقُوفِكَ مَعَهَا. ثم رأيتُ كأنّي في مركب نمخُرُ عُبابَ البحر، وقد

نامَ الركّاب، وقمتُ لأَقضِي حاجتي فزلِقَتْ رجلي ووقعتُ في البحر وأخذتني الأمواجُ وسكتَ الرائسُ لعجزه عن نجدَتي. وبينما أنا أُعارِكُ تلك الأمواج مُوقِنًا بالهلاك مُستسلِمًا لقضاء الله وقدَره، ألهمني الحقُّ فقلت: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾، فإذا بطائر عظيم الخِلْقَة قد قبضَ عليّ وأقامني بين الأمواج وحملني على وجه الماء فأعادني إلى المركب. ثم وقف الطائر على جَامُورِ صَارِي السفينة، فتعجَّبْتُ منه، وحِرْتُ في أمره، فدنا من أذني وقال لي: أنا ملَك من الملائكة أرسلني الحقّ إليك، واسمي ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾. فإنّي أَنْتَشِئُ كلّما تلا تَالٍ تلك الآية.

أخرجني الشيخ مرّة من هذا البحر اللجّي بنُطقه مرّة ثانية بالاسم. أحسستُ وكأنّه انتَشلني من وسط ذلك البحر المحيط الذي رماني فيه. فَررْتُ من الله إلى الله، وقام بي قوله تعالى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾. ما أعجبَ أن تَفِرَّ من الله إلى الله. فأنت تَفِرُّ من قيام الوجود بذاتك إلى وجه آخر من هذا الوجود القديم، فما بَرِحْتَ ذاتَك.

مدَّ الشيخ على الاسم مَدَّة، فرمى بي في بحر لُجِّي آخر، كما يرمي الصيّاد خَيْطَ سِنَّارتِه بعيدًا ليخدعَ السَّمك الباحث عن الطُّعْم. لم أكن أدري هل أنا الخيطُ أم الصيّادُ أم السمكة التي غُرِّرَ بها أم الطعْم، أم الماء؟ أدوارٌ هي هذه الدنيا، مَنِ الصائد ومن المصطاد؟ هل الصيّاد هو من صَادَ السمكة؟ أم أنّ السمكة هي التي عَلِقَتْ بسِنَّارَةِ الصيّاد؟ يمكن أن نبقى إلى نهاية العالم نكرِّرُ سؤالَ البدايات، وحقيقةَ العِلَلِ والمسبّبات. قَدَرُ الإنسان أن يبقى في حيرة من أمره حُيَالَ سِرِّ القَدَر، وسِرِّ السبب والمسبّب. كانت هذه

الخواطر تُضاجعني في سرير الذكر، ثم تبدو لي لُمْعَةٌ بيضاء فأعود للصفاء، وَطَرْدِ ما عَلِقَ بالخاطر. كان حالي حالَ من يطلبُ الوجودَ بالعدم. فالقصد كان هو الوصول إلى الوجود بِطَرْدِ كلِّ وُجُود. أدركتُ أنّ العدمَ أيْ إعدامَ الخواطر في السَّير إلى الوجود هو اللُّباب. فما أعجبَ سرَّ هذا الوجود! إذ طلبُكَ له يعني غرقَكَ في بحر العدم. لم يكن من السَّهل تخليةُ المَحَلِّ من كلّ موجود حتى يمتلئَ بالعدم، فهذا أمر ليس في وُسْعِ الإنسان أن يصل إليه إلّا بجُهد جَهيد أو بمِنحَة إلٰهيّة.

خرجتُ من هذه الخواطر الوجوديّة العدميّة بترديد الاسم وفق ما عَقَلْت، وحَذْوَ ما سَمِعْت. نطقَتْ ذاتي بهذه الأحرف القليلة، العزيزة الجليلة، التي لم يُقَدِّرْ قدرَها إلّا من قامت به حقيقَتُها تخلُّقًا، وسما إلى معرفتها تَعَلُّقًا، وجلس على بابها تَحَقُّقًا. صفا أُفْقُ ذاتي مرّة أخرى، وطَرَدْتُ بالذكر كلَّ الخواطر الآسِرة التي تريد أن تشغَلَني بفِتْنَةِ حُسْنِهَا عن مُرادي.

ثم نطق الشيخ مرّة أخرى بالاسم، فرأيْتُنِي في قَاعٍ لا أَدري منتَهاه ولا مُحتَواه. حاولتُ أن أصرفَ النَّفْس لطلبِ أسمى، فجاءتني الغَيريَّات تَتْرَى. لم أَدْرِ ما أَصنَع، ولم أجِدْ أعظَمَ عاصم لي ممّا كنت أُلاقيه من أهوال ومَنازِع سوى أن أستدعي الاسمَ مرّةً أخرى لأعوذَ به ممّا كان ينتابُني من تَرادُف الغيريّات. نطقتُ بالأحرف العجيبة فانقشَعَتْ عنّي كلّ الغيريّات ورأيتُ الصفاء بحرًا من مِسْك.

أثمرَ هذا الذكرُ دعاءً، فقلت: اللَّهمَّ بِكَ أَصُولُ وَفِيكَ أَجُول، ومِنْكَ أستعيذ، وعليك أعتمد، وإليك أستند. أحمدُكَ اللهُمَّ يا مَنِ

افْتَتَحَ بالسِّرِّ العَاطر الأحمدي في زمانِ الليل السَّرمدي، أن تختِمَ بالنور الفائحِ المحمَّدي في نهار العَصْر الأبدي كلَّ ذَرَّةٍ من وُجودي حتى تكتملَ دورةُ الخلافة بالمحامد كلِّها، بسرّ ﴿يس والقُرآنِ الحكيم﴾، اجعل قلوبَنا لا تَعْرِفُ وِجْهَةً سِواك، ولا تتقلَّب منك إلّا إليك، واحفظ هذا القلب الكُلِّي من دَرَنِ الغفلة وذُبَالِ نيران الكثرة بِسِرِّ التوحيد.

أمرني الشيخ بفتح عينيَّ ففتحتهما فلم أُبصِرْ سوى النور، فقال لي: هكذا، هكذا. لقد أتيتَنا وفتيلةُ قنديلِكَ مُسرَجَة، ولم يبقَ إلّا أن نُوقدَها، فقد تَعَشَّقَتْ زَيْتًا، وكذْتَ تُضِيءُ من دُونِ أن تمسَّكَ نار. أيّها الأخُ الصالح، قد أرادَكَ الله لهذا الأمر، فعليك بالمحامد كلِّها، فلا بُدَّ لدورة الخلافة أن تُخْتَمَ بالمحامد العثمانيّة ﴿وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾.

ثم أضاف قائلاً وكأنّه يُطلعني على محطّات السفر الروحي الذي قمت به في لحظة التلقين: اعلم أيّها الأخ الإلٰهي أنّ للقلبِ مرتبتين: مرتبة الياء، ومرتبة السين. فالمرتبة الأولى للقلب الملكوتي الشمسي. وهو الحدُّ البرزخي بين عالم اليسار وعالم اليمين. ونقطة هذا البرزخ في السماء الرابعة التي هي قلب الأفلاك حيثُ مسكنُ الشمس، ومنزلُ إدريس عليه السلام، قطب الأرواح. فعالم اليَسار يبدأ من تلك السماء إلى أسفل سافلين. وعالم اليمين ينطلق منها إلى أعلى عِلِّيِّين. والمسافر يترقّى عن العوالم الحسّيّة بكشفه لما يُقابلها من عوالم النور واللطافة. أمّا المرتبة الثانية، فهي للقَلب الربّاني الذي وَسِعَ الحقّ، وصاحبُه هو الخليفة والعبد الكامل الذي له وَجْهٌ إلى الحقّ، ووَجْهٌ إلى الخلق، فهو برزخ

البرازخ. فمن أُشْهِدَ هاتين المرتبتين القلبيّتين من سِرِّ **يس، فقد شهدَ نورَ المطّلع بطلوع نجم الكَشف**.

ثم قام الشيخ وأخذني من يدي فماشيتُه في المسجد نَدورُ في زواياه الأربع. توقَّفَ عند المنبر الرخامي الأبيض. تأمّلته فوجدت جملة قد نُقشَتْ على إفريزه الأعلى «إذا دخل الإمام فلا صلاةَ ولا كلام». كانت العبارة موجَّهة إلى المصلّين عند دخول الإمام يوم الجمعة للخطبة، لكنّي قرأتها اليوم وفهمتُها فهمًا آخر يَتَنَزَّلُ منزلةَ السِّرِّ الذي لقَّنني إيّاه الشيخ ظافر. لاحظ الشيخ ما قام بي، فابتسم. ثم واصلنا المشي، وصعدنا للدَّوْرِ العُلْوي. فتح بابًا في الجهة الغربيّة للتكِيَّة وطلب منّي أن أتبعه. كان الباب يُفتح على خلوة صغيرة ليس فيها من متاع الدنيا إلّا حصيرٌ وكُوزُ ماء، ولا كُوَّةَ فيها لدخول النور. التفَتَ إليّ الشيخ وقال: الآن تدخلُ خلوتَك كما تدخل قبرَكَ إلى قيام الساعة.

فقلت معترضًا: كيف ذلك، وأنا خليفةُ المسلمين، وأمامي مَهامٌّ ومسؤوليّات؟

فقال الشيخ مبتسمًا: أَلَمْ أُخبرْكَ بشروط خلوة الاسم الأعظم؟ فإمَّا أن تدخلَ بدون تعيين وقت ولا غيره، وإمّا أن تنسحبَ من الآن. الوقتُ يا سيّدي صنَم من الأصنام، فاكسِرْهُ على عَتَبَةِ هذه الخلوة، وادخُلْ بالله، ولا تجلِسْ إلّا مع المَلِكِ الديَّان بلا حساب أو وقت أو زمان.

فقلت: لعلّ الأمرَ شديد؟

فقال: لقد قال الحقّ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾. وأعظمُ

قولٍ وأثقَلُه هو ذكرُ الاسم الأعظم يا أخي، فإن كنتَ تستأنسُ من نفسِكَ الصبرَ على هذا الامتحان، فالبابُ دونَكَ للمُثول بين يَدَي الملك الديّان؛ وإن كنت مُتشبِّثًا بمُلك الدنيا، فبابُ هذه الخلوة أوسعُ من كتفيك. فاختَرْ لنفسك ما تُريد.

بقيتُ حائرًا في كلام الشيخ بين الدُّخول في هذه الخلوة وطَرْحِ كلِّ أُمور الدنيا التي كنت مُتلَبِّسًا بها، أو العودةِ إلى المسؤوليّات الجسيمة التي طوَّقني بها الحقّ تعالى لسياسة أمر المسلمين. ركبتني حيرة عظيمة والشيخ مُطْرِقٌ إلى الأرض، غافِلٌ عن مُساعدتي وإخراجي من هذا التِّيهِ الوجودي أو العدمي. رفع حاجبيه مُستفهمًا عن قَراري، فأجبتُ بحالي المتردِّد بين الطريقين، طريقِ النَّظر الذي يُثَبِّطُنِي من دخول هذه الخلوة، وطريقِ الذكر الذي يستحِثُّني على مجالسة الديّان. أو لعلّ حيرتي ناجمة من تَرَدُّدِي بين طريق التدبير، وطريق إسقاطِ كلّ تدبير.

أدركتُ في هذه اللحظات خُطورةَ الاختيار وصعوبتَه، فالأمرُ دقيقٌ والخطبُ جسيم، وما بينهما من الفُروق شَعْرَةٌ أمضى من السيف الصقيل، وأَحْلَكُ من سَواد الليل البَهيم. أسلمتُ أمري لله وتوكَّلتُ عليه حقَّ التوكّل، فهانَتْ في نظري الدنيا كلُّها وأدركتُ أنّ الاختيار هو بين أن أختارَ الله، أو أختار ما سوى الله، فثارت نفسي من مقابلة العدم بالوجود، وصِحْتُ بأعلى صوتي، سأدخلُ خلوة نفسي وأدفنُ جثماني في قبري حتى تقومَ الساعة. وردَّدْتُ شعرًا كان الشيخ يذكره في أحايين الوجد:

أنا بالله أَنْطِقْ ... وَمِنَ اللهِ أَسْمَعْ
كَيْفَ تخفَى الحقيقة ... وشُمُوسهَا تُشَعْشَعْ

ابتسم الشيخ من حالي وقال لي: بورك فيك يا أخي، فقد وفَّقَك الله وأنجحَ مسعاك في اختيار الصواب، إذ كيف نُفاضِلُ بين الحقّ وما دونَه. فاختيارُك الجلوسَ معه لا يَعْدِلُهُ شيء، وقد أدركتَ أنّ الحقّ أسمى وأعلى وأكبرُ من أن يُشْرَكَ به في مجالسته. فهذا أوَّلُ درس أخذتَه، وقد جُزْتَ الامتحان بخير وسلام. فادخُلْ على بركة الله، والْتَزِمْ بما قلتُ لك من عدم الرُّكون إلى الأكوان، وستأتيكَ الخَواطِرُ وتهجُمُ عليك الأفكار، تنازِعُكَ في السفَر والسير، فلا تَسكنْ إليها، وداوِمْ على ذكر الغَنِيِّ حقيقةً تُجْلَ لك الأُصول، وتُثْمِرْ لك الفروع. فعليكَ بالوهَّاب لتظفرَ بعلوم الوَهْب التي نبَّهْتُكَ عليها. واطْرَحْ عنك الخواطر والأسماء، وإن رَكِبَتْكَ الحيرة، فانظر فيها هل خالطَها جمعٌ أم تَشتيت. واحرِصْ على طلب السكون والسكينة، ثم وَجِّهْ وَجْهَكَ للحقّ، ولا تقنَعْ بشيء سواه. فهذه نصيحتي الصادقة لك إن كنتَ تُريدُ أن تظفَرَ بالسِّرِّ الأعظم والكبريت الأحمر.

سَلَّمتُ على الشيخ سلامَ مُوَدِّعٍ مُفارق كما لو أنّي كنتُ أدخلُ قبري فأدركتُ حقيقةَ الموت والحياة في هذه اللحظة. أقفلَ الشيخ الباب وتركني في ظلام دامِس. جلستُ على ركبتيَّ وتوجّهت لجهة القبلة وشرَعْتُ في الذِّكر ببطء شديد، فكنت أحقِّقُ الهمز وأطيلُ في مَدِّ اللام الثانية، وأرسمُ بجذعي صورةَ المصلّي في سجوده. كنت أستبطن النفَس بنطق الألف، وأَزْفِرُ بباقي أَحرُف الاسم. تعجَّبت من قيام الألف مُقابل اللامين والهاء، وخِلْتُ أنّ الألفَ باطنُ الذات، فيما الباقي ظاهرُها. ولمّا أعياني الذِّكر على هذه الصفة، صرت أُسرع في نطق الاسم المفرد، فلم أَعُدْ أُمَيِّزُ

بين شهيق وزفير، إذ كنت أنطق بالاسم في نفَس واحد. وتسارعَتْ وتيرةُ الذِّكر وتسارع لها ما كان يقوم بي من الخواطر التي كانت تناوشني، لكنّي كنتُ طولَ الوقت أحمِلُ سيفًا صقيلاً من نور أَنْزِعُ به خيوط العنكبوت الفكريّة التي تنسُجُها الأفكارُ والخواطر حولي. لم أَرْضَ ببيت العنكبوت الواهن، فكان السيفُ الصقيل سلاحي الذي يقصِمُ كلَّ الخواطر المُنازِعَة. وفي خِضَمِّ الذِّكر رأيتُ أقوامًا يتهدَّدونني. ثم رأيت نفَرًا بأطْمَارٍ سوداءَ وقلانِسَ سوداءَ عالية، لم أتبيَّنْ وجوهَهُم التي توَارَتْ في غابة لِحَاهُم الطويلة. حاولت أن أُحصي عدَدَهُم فكانوا اثني عشر رجلاً. ثم رأيت هرمًا في وسط محفَلِهم عليه أدراج حاولت عَدَّها فكانت ثلاثًا وثلاثين. وفي رأس الهرم عينٌ مُشِعَّة زرقاء، مرعبةُ الحدَقة، تنظر في كلّ اتِّجاه، وترمي بشَرَرِهَا. نَصَبْتُ سيفي وشَقَقْتُ جموعَهم ثم ضربتُ الهرم ضربة فانشقَّ شِقَّين، وانهَدَّ جزء منه إلى الأرض وبقي الجزء الثاني قائمًا، فبدا لي بداخله مثالات بيت المقدس وقبَّة الصخرة والمسجد الأقصى. أمّا الجزء المنهَدُّ فسقط في بحر لجِّي، وَبَقِيَتْ صخرةٌ من الهرم طافيةً كالجزيرة، تشبَّثَ بها الرجال الاثنا عشر خشية أن يغرقوا، وجاءهم المدَد والسَّند من سُفنٍ في ذلك البحر فانتشلوهم، لكنَّ عيونَهم وقلوبَهم كانت متعلِّقة بالجزء القائم من الهرم الذي لم ينهَدّ، والذي بداخله مثالات بيت المقدس. ثم رأيتهم وقد جلسوا ضارعين على تلك الجهة فَحِرْتُ في أمرهم. ثم أزحتُ هذا المشهدَ المرعب من أمامي بضربة من السيف الصقيل الذي كنت أحمله، والذي خرج لي من أَلِفِ الاسم المفرد الذي تحوَّل سيفًا نوارنيًا عجيبًا كلّما نطقتُ بالاسم. ثم رأيتُ الأحرفَ الباقية تتشكَّل في أشكال

مختلفة، وتَحُلُّ في كلّ الموجودات ثم تُفنيها كما شاءت ومتى ما شاءت. وأحيانًا كانت هذه الأحرف العليا تلد حروفًا صغرى تُصِيغُ منها أسماء إلٰهيّة، فتطوفُ بتلك الحروف طوافَنا حول الكعبة. واستمَرَّ الحال كذلك. وركبتني حيرة ممّا كان يتجلّى عليّ، ولم أَعُدْ أُمَيِّزُ بين المنصَّة والمتجلِّي والمتجلَّى له. تَشَتَّتْتُ في هذه القِسمة وحِرْتُ أَيَّمَا حيرة، ثم أخذتُ سيفي مرّة أخرى، وأزحتُ الحيرةَ بضربة قاصمة، انفتح أمامي بابٌ كبير فدخلتهُ فوجدتُ نفسي في أرض كأنّها كثيبٌ أبيض فسكنت لهذا الفضاء اللامنتهي، وطَفِقْتُ أذكُرُ أو يُذكَرُ بي. وكلَّما ذكرتُ تشكَّلَ من ذلك الذِّكر مخلوقاتٌ عجيبة ملأَتْ ذلك الكثيب، لكنّه كان من الشسَاعَةِ بحيث كانت تلك الخلائق مثل قطرة في محيط. وفجأة رأيت جبلاً انقشع عن عماء، ما فوقه سحاب وما تحته سحاب. أعملت المسير إلى ذلك الجبل الشامخ خمسمائة عام فأدركته، ورأيت حيّة عظيمة تطوّقه، سلّمت عليها فردَّت عليّ السلام، واقتربَتْ من قلبي فعايَنَتْ صفاءَه كالمرآة المجلوّة. تبعتني كلّ تلك الخلائق إلى سفح الجبل تُبايعني، لما رأتِ الحيَّة العظيمةَ التي تُطَوِّقُ الجبل قد أَقْبَلَتْ عليَّ تلاطفني وتُرحِّب بي. صَعِدْتُ الجبل وأَشْرَفْتُ على كلّ المخلوقات فبايعني النَّبَاتُ والحَجَر والإنس والجانّ. وما من مخلوقٍ إلّا وقدَّم البيعة، وسمِعْتُ أحدَ الأرواح يتلو سورة يس، إلى أن وصل إلى قوله تعالى ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾، فالتفَتَ إليّ وقال أنتَ اليومَ عينُ الرَّحمة في المرتبة، فاَحمِلْ هذا القلبَ ثلاثًا وثلاثين سنة.

وفي هذه الأثناء سمعتُ الأذانَ يرتفِعُ من مَنارة التكيّة، فجاءني

الشيخ ظافر، وقال لي: قد انتهتْ مُدَّةُ خلوَتِك، وَحَصَلَتْ ولايتُك يا سيّدي.

تعجَّبتُ من كلام الشيخ وكيف يخبرني بانتهاء الخلوة، وظنّي أنّي سألبثُ فيها ما حييتُ حتى يَنْزِعَ الله روحي.

أدركَ الشيخُ حَيْرَتِي فقال لي: لقد دخلتَ الخلوة وفتيلةُ مِصْبَاحِكَ مُسْرَجَةٌ مُشْبَعَةٌ بالزَّيت تَكادُ تُضيءُ من دون أن يَمَسَّهَا نور. ولم يَحْصُلْ لك هذا الاجتباء إلّا بفضلٍ من الله واصْطِفَاء. ثم إنّ الحاملَ لمرتبة الخليفةِ له من الاستِعدادِ ما ليسَ لغيره. وقد قطعتَ ولله الحمد تلكَ العقباتِ بِحَدِّ سَيْفِ السَّيْرِ ومَادّته، لكنّي أخشى عليك من أولئك الرجال.

فقلت متعجِّبًا: وكيف علمتَ بأمرِهم يا شيخ ظافر؟

فقال الشيخ: لقد رأيتُ دخانًا منبعثًا لما كنتَ تُقارِعُ تلك الأهوال، فأدركتُ أنّ رجالَ الظلام قد اعترضوا طريقَك.

فقلت: وما تفسيرُك لهذا المشهد؟

قال: سيبتليكَ الله في مقام الخلافة بمثل هؤلاء، فأنتَ الآن على علم بهم وبأوصافهم. فإذا رأيتَ مَنْ يشبهُهم فيما يحصلُ لك من الأقضية الدُّنيويّة فاحزِمْ أمرَكَ وعاملهم بحدِّ السيف حتى تطردَ ظلمانيّتهم عن قلب الخلافة.

ثم سألته عن المشهد البرزخي الذي أُشْهِدْتُهُ أثناءَ تَلْقِينِ الاسم المفرد، فقال: ذلك الطائِرُ الذي انتَشَلَكَ مِنَ الماء مَلَكٌ من الملائكة، وقد أشارَ لك إلى سِرِّ القَدَرِ الذي أودَعَهُ الله في الخلافة ومُدَّتِهَا قبل ارتفاعها عند الآية ﴿والشَّمْسُ تَجْرِي **لِمُسْتَقَرٍّ** لَهَا ذَلِكَ

تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾. فَشَمْسُ الخلافة تجري منذ بزوغ النور المحمّدي إلى أن تبلَغ نهاية دورتها الألفيّة في مغربها ومُستَقرِّها. وفي «مُستَقَرٍّ» سِرُّ تقدير مُدَّةِ الخلافة. وهذا من ألطف أسرار الله المكتومة. فعند بلوغها ذلك المستقَرّ، تقول يا عبد الحميد: **الحمد لله ربّ العالمين**

فقلت: بورِكَ فِيكَ يا شيخ.

ثم ذهبنا للصلاة، فطلبَ منّي الشيخ ظافر أن أُصلّي بالناس. طلبتُ عمامةً بيضاءَ لففتُها حول طُربوشي الأحمر، ووضعتُ الرداءَ على كتفي. ثم تقدَّمت نحو المحراب المرتفع قليلاً عن الأرض، وصلَّيت صلاةَ الإمامة العظمى في نفَرٍ من المصلّين، لكنّي رأيتُ أثناءَ الصلاة جموعَ الخلائق تُصلّي من ورائي.

بعد أن أنهينا الصلاة، خطرَتْ ببالي فكرةُ زيارة المخلَّفات النبويّة المحفوظة في قصر طوب كابو. عادة ما كانت هذه الدائرة تفتح في النصف من رمضان للزيارة السنويّة حيث يقام حفل ديني بالمناسبة، ويحظى أفراد البيت العثماني ورجالات الدولة وبعض الفضلاء بزيارة الدائرة ومعاينة الآثار الشريفة. أخبرتُ الشيخَ أنّي أرغب في زيارتها تَوًّا، وطلبتُ منه اصطحابي، فلمَع في عينيه بريق عجيب أدركتُ منه شدَّةَ تَوَلُّهِهِ بمعاينة تلك الآثار. خرجنا من التكيّة وركبنا العربة التي أقلَّتنا إلى قصر طوب كابو على ساحل البوسفور. وصلت إلى حيث المخلّفات النبويّة، وفتح لي الحرّاس المكلَّفون بالدائرة التي تُحْفَظُ فيها هذه الآثار. كان عددُ هؤلاء الحرّاس أربعينَ يتناوبون على حِراسَتها ليلاً ونهارًا، بمْعدَّل أربعةِ حرّاس كلّ مرّة. وكانت المفاتيح محفوظة في محافظَ مختومة بالشَّمع وعليه

خاتم الخليفة. كان الشيخ بجانبي. تقدَّمْتُ في هيبة ووقار أمام الدولاب الفِضّي الذي تُحْفَظُ فيه الصناديق الذهبيّة التي تَحْفَظُ المخلّفات النبويّة في صمت مهيب، لا أكاد أتكلّم برفع صوت حُرمَةً لصاحب هذه الآثار ومُراعاةً للأمر الإلهي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾. أخذتُ المفتاحَ وفتحتُ الدولاب الفضّي. ثم فتحتُ الصندوق الأوّل الذي يَضُمُّ لواءَ النبي ﷺ، ويسمّى «سنجقي شريف»، ثم الصندوق الثاني الذي يحفظ فيه سيف الخلافة، وهو الذي يُبَايعُ به عند تنصيب الخليفة الجديد في ضريح الصحابي الجليل أبي أيّوب الأنصاري في حفل البيعة. كان كلٌّ واحد من هذه المخلّفات محفوظًا في صندوقين ذهبيين على حِدَةٍ، وملفوفًا في أثواب رفيعة. وكانت الصناديق مختومةً بالشمع وعليها خاتم السلطان الذي نُقِشَتْ عليه الطُّغْرَاءُ السلطانيّة. بعد أن فتحتُ الصناديقَ، قبَّلتُ الأثوابَ التي تحفظُ الآثارَ النبويّة، وارتمى الشيخُ ظافر ليقبِّلَها بخشوع ملائكي. ثم أزحتُ الأثوابَ الحافظة فبدَتْ مخلَّفاتُ رسول الله التي مسَّتْهَا يدُه الكريمة، وعَلِقَتْ بها أنفاسُه الزكيّة. ثم فتحت صندوقًا للنعال النبويّة، فانتابني حال غريب، ورَأيتُني أَقْتَفِي الأَثَرَ على نَفْسِ طَريقِ الصِّدْقِ بِالاتِّبَاعِ لا بِالابْتِدَاعِ، فَتَلَوْتُ قولَه تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. أخذتُ مِبْخَرَةً وأطلقتُ أرفعَ البخور لتعبَقَ بالمكان الطاهر. لم أَجْرُؤْ على لمسها من فرط الهيبة التي ركبتني لدى كشف الثوب الحافظ لها. أمّا الشيخ ظافر، فقد رَكِبَتْهُ رَعْشَةٌ ودمَعَتْ عيناهُ أمامَ مُخَلّفاتِ حضرة النبي عليه الصلاة والسلام. تمالكَ نفسَه ثم قال لي: خُذْ سيفَ

الخلافة بيدك يا سيّدي، ثم احمِلْ لواءَ رسولِ الله بيدِكَ، والْزَمْ قَدَمَ الصِّدْقِ بِحَذْوِ النَّعْلِ حذوَ النَّعْل، فأنتَ اليومَ خليفةُ رسولِ الله، المتحقِّق بالولاية الظاهرة والباطنة.

تقدَّمتُ نحو مخلَّفات رسول الله بعد حصول الإذن من الشيخ المبلِّغ عن الحضرة النبويّة، وأنا أُحاذِرُ من سُوء الأدب، وانتابني شعور غريب بعدم أهليَّتي في حمل هذه الأشياء التي هي ميراث رسول الله لأُمَّته من بعده، وخصوصًا لخلفائه، إذ فيها سِرُّ أنفاسه التي تحفَظُ الأمّة، مثلما أنّه ترك لنا القرآن والسُّنّة، وأوصانا بعِتْرَتِهِ الطاهرة الشريفة. كلُّ هذا ميراثُ رسول الله الشريف الذي يستوجِبُ منّا الحِفْظ والصيانة والتعاهُد بما يلزم من الوَقار والحُرمَة. حملتُ سيفَ الخلافة بيدي، فشَعَّ في قلبي نورٌ سرى إلى عينيَّ فلم أَعُدْ أُبْصِرُ ما حولي، من فَرْطِ وَمِيضِ ذلك النور. وتذكَّرْتُ أنّي حمَلتُ هذا السيف في خلوة الذكر، وها أنا اليوم أحمِلُه في عالم الحِسّ لتأكيد أنّ العبورَ من عالم إلى عالم حَقٌّ، والكلُّ حَقٌّ، ومَنْ رزقه الله الفهمَ أبصر بالعينين. ومن كان كذلك كان وارثًا محمّديًّا، ومن كان يرى بالعين الواحدة فهو من أهل الشقاء الدجَّالي المسيخي.

ثم تقدَّمتُ وحملتُ لواءَ رسول الله فطفِقْتُ أَحمَدُ الله بجميع المحامد التي أعرِفُها والتي لا أعرفها وجَرَتْ على لساني في الوقت. وشاهدت قلبي ينفَتِحُ لِيَعُمَّ الخافِقَيْن رحمةً. ثم رأيتُ نكتةً سوداءَ يتراءى من خلالها عالَمُ الظلمة وفيه أقوام يلبَسون قلانسَ سوداء ومعاطفَ كأنّها أَطْمَارٌ. رأيتُهم يتحلَّقون أمام هرم وبأيديهم أدواتُ بنَاء، يتعاهدون بها الهرم بالإصلاح والبناء كلّماً تساقَطَتْ أحجارُه التي كانت تنهَدُّ كلّما لهجتُ بالحمد. فلمّا قرأتُ منزل

يس، تدحرجَ ذلك الهرم وعدا على القوم فقتل معظمهم، وفرَّ الآخرون. استوى الهرم أرضًا، وتضاءلت النكتة السوداء حتى كادت تغيبُ نهائيًّا، إلّا ما بقي من أثر خفيف جدًّا. ولم يبق من الرجال سوى ثلاثة وثلاثين، كلّ واحد منهم تشبَّثَ بحجر من أحجار الهرم المتهدِّم. وبينما كنتُ في هذا المشهد البرزخي، مَسَكَ بيدي الشيخ ظافر وقال لي: اليومَ يا سيّدي، أنت الخليفة، ولا بدَّ أنْ تلبسَ البُرْدَةَ الشريفة. أَفَقْتُ من مُبَشِّرَتِي، وفتحتُ الصندوقين الذهبيين وكشفتُ عن الخِرقة الشريفة، ثم قلت للشيخ ظافر: أنت من يُلبسني يا شيخ ظافر، فَتَقَدَّمْ بإذن الله.

تقدَّم الشيخ في وَجَلٍ وخُشوع لا يوصفان، ثم تناول الخرقةَ الشريفة ووضعها على كتفي. كان وجهها الخارجي من الخَيْشِ المصبوغ بالأسود، بينما كان باطنها بلون الخَيْش الطبيعي. أحسست ببرد اليقين قد اشتمل عليّ، وعلمت حالي حتى مماتي، وموقعي من رسول الله ﷺ. ثم أَكَبَّ الشيخ ظافر على يدي يُبايعني مبايعةً لا يُدرِك معناها إلّا من تحقَّقَ بهذا المقام. وحذوت نعلي حذو نعل رسول الله، فبدا لي الطريق بنورٍ شَعْشَعَانِي.

وكان ما كان ممّا لا يستوجِبُ الكلامَ في هذا الحين والأوان.

كان القرن التاسع عشر قرن ظهور فكرة القوميّة، ولم نكن بمنأى عن هذه الفكرة التي وفَدَتْ علينا من الأمم الأوروبيّة. كنت مُدمنًا على قراءة بعض الكتب مثل كتاب الأمير لمكيافيلّي، وكتب أخرى في الفلسفة السياسيّة، أستعينُ بها على معرفة العقل الأوروبي وتفكير القَادة الأوروبيين، حتى آخذَ العُدَّةَ لمواجهة أطماعهم في دولتنا. ومن المفاجآت السارّة التي نَعِمْتُ بها وصولُ الشيخ جمال الدين الأفغاني إلى الآستانة، فاجتمعتُ به مُؤَمِّلاً الاستعانةَ في نشر فكرة الجامعة الإسلاميّة.

أرسلتُ في طلبه فزارني في قصر يلدز. كنتُ أتجوَّلُ في مُنتزه القصر قربَ الحوض المائي الذي أمرت بأن ينحت بأحرف «حميد»، أراقبُ أولادي وبناتي يلعبون ويركبون في القوارب التي تُقِلُّهُم من موضع إلى آخر يقطعون فيها مسافة من الحاء إلى الميم ثم إلى الياء فالدال. لم أمنَع خاطرًا راودني من أنّ السباحة في هذا الحوض تشبه السباحة بذكر المحامد. أخرجني من تأمُّلاتي أحدُ الضُبَّاط من الألويّة الحميديّة التي كانت مُكلَّفة بحراسة قصر

يلدز، فأخبرني بوصول الشيخ جمال الدين الأفغاني. مشيتُ على طول الحوض الملاصق للحَريم السلطاني، ثم مررتُ من المَمَرِّ الذي يفصل الحراملك عن غيره من الدوائر الأخرى. أقفلَ الحُرّاسُ بابَ الحريم الحديدي بعد مروري. جُزْتُ أمام المسرح السلطاني الذي كنت أَحْضُرُ فيه العروض المسرحيّة والغنائيّة، ثم مشيت على طول دائرتي الخاصّة وورشة نجارتي على اليسار حتى خرجت من الباب الكبير وأصبحت في ساحة المراسم أمام المابين الكبير. كان الأفغاني ينتظر عند سُلَّم الأدراج. وكان المابين الكبير مبنيًّا من الرخام الأبيض، وتخترِق واجهتَه نوافذُ خشبيّة مصبوغة باللون الأزرق. ويتكوَّن من ثلاثة طوابق، طابق سفلي، وطابق أرضي والطابق العلوي. تقدَّمتُ نحو الشيخ وسلَّمت عليه، فَرَدَّ التحيّة، ثم دعوتُه للدخول. صعدت الأدراجَ من جهة اليمين، فيما صعد الأفغاني من جهة اليسار، فالتقينا عند عتبة المابين. وصلنا إلى بهو كبير في وسطه ثُرَيّا عظيمة. وفي جوف البهو قاعة، وعن اليمين والشمال قاعات أخرى نُشِرَتْ في أطرافها مناضدُ تحمل مرايا عظيمة، فتتركُ في نفس الداخل انطباعًا مائيًّا باللّاتناهي. تقدَّمتُ جهةَ اليسار حتى دخلتُ قاعة الاستقبال التي كانت مزدانةً بنافورة من الرخام الأبيض. جلست في صدر المجلس، وطلبت من ضيفي الجلوس عن يساري، ثم أمرت القهوجي باشي بإحضار القهوة. كنت أُحِبُّ القهوةَ العربيّة، وأشربُ منها كثيرًا. بعد أن استوى بنا المجلس الخاصّ، سألتُ الشيخ عن أحواله وصِحَّتِهِ فحدَّثني حديثًا ممتعًا عن واقع العالم الإسلامي، وعن عوائقِ النهوض به، المتمثّلة في التَّخَلُّف والجهل والجمود والخرافة والاستعمار. أردتُ أن أعرفَ رأيَه في دولة

الخلافة، فقلت له: ما رأيكَ في الدولة العثمانيّة؟

فقال: إنّ الدولة العثمانيّة قد بلغَتْ من المجد ذُرَاه، ووقفَتْ سدًّا مَنيعًا في وجه الأطماع الاستعماريّة للدول الصليبيّة قرونًا عديدة، وفتحَتْ بلدانًا جديدة ضمَّتها لدولة الخلافة. وهي قوّة عسكريّة أَقَضَّتْ مَضاجِعَ أعدائها ومنعتهُم من غزو دول الشرق المسلم، لكن هذه القوّة العسكريّة أصبحَت اليومَ في تراجع، وقد استغلَّ أعداؤها الفرصةَ فنعتوها بالرجل المريض وبدأوا يتربَّصون بها من كلّ جانب.

فقلت له: وكيف النهوضُ من هذا التَّخلُّف الذي أصابنا؟

فقال الأفغاني: التجديد والإصلاح يا مولاي السلطان هما مفتاح معركة النهضة، وصحوة العالم الإسلامي.

فسألته: وهل تنصح بأن نقلِّدَ الغربَ في مدنيَّته حتى نكتسب أسباب التقدّم؟

فأجاب: أرى أن نأخذ بالأسباب المادّيّة والتقنيّة التي أَهَّلَتِ الأممَ الغربيّة للتفوُّق على الشرق المسلم، في مقابل أن نحافظَ على وحدتنا وأصالتنا وديننا. وعلينا أن نبدأ بإصلاح الدولة في هياكلها ونُظُمِهَا وإدارتها، وأن نضعَ دستورًا للبلاد ومجالسَ انتخابيّة تمثِّلُ الأُمّة.

فقلت معترضًا: لقد حاولنا أن نجعل لهذه البلاد دستورًا ومجلسًا نيابيًّا إلّا أنّك تعلم أنّ الأمّة مكوّنة من عدّة شعوب وعرقيّات وأديان، ولا شكّ أنّ الاستعمار سيستغلُّ جوَّ الحرِّيّة الذي يُتيحُه هذا المجلس لاستقطاب بعض العناصر، ونشرِ فكرة القوميّة

العرقيّة على حساب الجامعة العثمانيّة التي تجمع بين جميع هذه الشعوب.

فقال الأفغاني: أعرفُ أنّ هذا صحيح، لكنّنا يجب أن نعمل في هذا الاتّجاه، فنأخذَ بأسباب المدنيّة والعلوم والصنائع.

فقلت: أنا مُتَّفِقٌ معك في الأخذ بأسباب المدنيّة، وقد بدأنا ولله الحمد في بناء المدارس والكلّيّات سواء العسكريّة أو الطبّيّة أو غيرها. أمّا فكرة المجلس والدستور، فرغم أنّي مقتنع بها إلّا أنّ الوقت لم يحن بعد لها. وقد مررنا بتجربة كادت أن تعصف بالدولة لولا أنّي تدخَّلت بعون من الله في إيقاف هذا النزيف الذي كاد يقضي على الخلافة، وتسبَّب لنا في الحرب مع روسيا القيصريّة. ومنذ ذلك الوقت، ونحن ننعم بالأمن والرخاء. وأنت تعلم أنّ فكرة القوميّة اليوم آخذة في النموّ بسبب تأثير الأفكار الغربيّة، فلا أريد أن يتحوَّل المجلس النيابي إلى حلبة للصراع بين نوّاب الأمّة حول مسائل عرقيّة. إنّني أخشى على الدولة من وُصول مثل هذه الأفكار الهدّامة التي تُناقِضُ فكرةَ الجامعة الإسلاميّة التي نعمل من أجلها ونادي بها، وأدعوك لمساعدتنا في نشرها.

فقال الأفغاني: نعم سيّدي السلطان، لقد زرت باريس ووقفت على حقيقة الفكر الأوروبي، والقوميّة اليوم فكرة جذّابة نشأَتْ لـمّا تحقَّقِت الوحدة الإيطاليّة ثم الوحدة الألمانيّة، فَعَمِلَتْ كثير من الشعوب على التَّحَرُّر من رِبْقَةِ الدُّوَل التي تحكُمُها حتى ترسُمَ لها طريقًا مستقلًّا.

فقلت: لقد قرأتُ بعض كتب الفلسفة السياسيّة عند الغربيّين، وأرغبُ في أن تحدِّثني عن فكرة القوميّة لدى الغربيّين.

فقال: لقد التقيتُ مع بعض مفكّري الغرب وسمعتُ منهم وقرأت لهم، وناظرتُ بعضهم مثل المستشرق إرنست رينان الذي ترك شهادة في حقّي لمّا قال «كنت أتمثَّلُ أمامي عندما كنتُ أخاطبه ابنَ سينا أو ابنَ رشد، أو واحدًا من أساطين الحكمة الشرقيّين».
كما اطَّلَعْتُ على ما كتبه الفيلسوف الألماني اليهودي الأصل مُوزِزْ هِيسْ الذي كان معجبًا بالوحدة الإيطاليّة التي اتَّخَذَتْ لها اسمَ النهضة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي عمل بمقتضاها ملوكُ إقليم السَّافْوَا على توحيد شبه الجزيرة الإيطاليّة بضمّ إقليم لومبارديا والبندقيّة، ومملكة الصقليّتين، ومودينا وبارما وتوسكانيا وسردينيا وغيرها. وقبل هذا الوقت لم تكن إيطاليا سوى تسمية جغرافيّة بحسب تعبير ميترنيخ. وبفضل النهضة الإيطاليّة تَمَّ تحويل هذه التسمية الجغرافيّة إلى واقع سياسي. وهو أمر له أهمِّيّة كبرى في الفكر الأوروبي. وقد ترتَّبَ عن هذا التحوّل اتّخاذُ روما عاصمة لمملكة إيطاليا.

فقلت: وما علاقة الوحدة الإيطاليّة مع المفكّر اليهودي التي حدَّثتني عنه؟

فقال: لم يكن توحيد إيطاليا حدثًا منعزلاً، بل ترتَّبَ عنه دعوة كثير من القوميّات إلى الاستقلال والتَّوحد. ولا شكّ أنّ مثل هذه التحوّلات مهمّة لكي يسايرها الفكر الفلسفي. وقد كان هيس يسعى إلى وحدة اشتراكيّة في ألمانيا.

فقلت: وما علاقة ذلك بنا؟

فقال: كلّ العلاقة يا مولاي. إنّ ازدهار القوميّات منذر بوصولها إلينا. وسوف تعتمد النخب الفكريّة في الدولة العثمانيّة

على كتابات هؤلاء الفلاسفة وغيرهم من المفكّرين السياسيّين للمطالبة بالاستقلال، ممّا سيهدّدُ الدولة بالانفجار.

تفكَّرْتُ مَلِيًّا ثم قلت: لكنّي أرى أنّ الخطورة ربّما تكونُ من جهة أكثرَ مكرًا، حيث ستعمَد الأمم الاستعماريّة الأوروبيّة التي هي اليوم إمبراطوريّات، بفضل استيلائها على أراضي دول وشعوب أخرى، من استعمال هذا السلاح ضدَّنَا لإضعافنا من خلال استقطاب هذه العرقيّات المكوّنة للدولة العثمانيّة.

فقال الأفغاني: صدقتَ يا سيّدي، لهذا من اللازم أن نستعِدَّ للأمر ونُواجهَ هذه الأطماع بالإصلاح. وهناك خطر آخر بدأ يظهر في أوروبا، والمتمثّل في الصهيونيّة.

فقلت: إنّ اليهود شعب ضعيف. وقد رضي أن يبقى على هامش التاريخ، وليست له أطماع سياسيّة.

فقال: لا أعتقد ذلك يا سيّدي، إنّ ظهورَ القوميّات في أوروبا قد تسبَّبَ في اضطهاد اليهود في روسيا وبولونيا وألمانيا وغيرها. ولهذا فقد ظهرَتْ نخبةٌ من هؤلاء اليهود تدعو إلى تأسيس وطن قومي لليهود. فقد ركبتهم لوثةُ القوميّة فطفِقُوا يستعِدُّونَ للجلاء عن أوروبا حيث يتعرَّضُونَ للاضطهاد والعنصريّة إلى بلاد المسلمين التي عاشوا فيها في ظلّ سماحة الإسلام. إنّ هؤلاء القوميّين اليهود أصبحوا مثل الغربيّين، ولا علاقة لهم بنظرائهم من اليهود الشرقيّين الذين يعيشون بيننا. والمفكّر الألماني اليهودي الذي تحدَّثْتُ عنه سابقًا هو أحد أنصار القوميّة الصهيونيّة الاشتراكيّة. وهو صديق وأستاذ لرائِدَيْ الفكر الاشتراكي الأوروبي الذي يتزعَّمُهُ اليوم كارل ماركس وفريدريك أنجلز؛ وهما من عُتَاةِ الملاحدة، ويدعون إلى

الصراع الطبقي. في حين أنّ صاحبَهما هيس يعتبر أنّ الصراع بين العرقيّات والقوميّات كان محرّكًا للتاريخ فيما مضى، ولم يَعُدْ له أهمّيّة اليوم. وأنّ المحرّك الحقيقي للتاريخ اليوم هو الحركة الاشتراكيّة العالميّة التي تستند إلى قوّة الاقتصاد والطبقة العاملة. وخطورة هذا الفكر كامنة من جهة في مشروعه السياسي لاستقدام اليهود إلى فلسطين وتجميعهم فيها، كما أنّه يتوسَّلُ بالعلمانيّة والإلحاد في الوصول إلى مبتغاه. وهذا الرجل يقول «إنّ الدين أفيون الشعوب»، وقد تبعه في قوله صاحباه أنجلز وماركس.

فقلت: لحدّ الآن لم أُدرك خطورة الأمر، إذ إنّ اليهود لا قوّة لهم اليوم ولا سلطان يحكمهم ويجمعهم، فكيف نخشى على أنفسنا منهم؟

فقال الأفغاني: إنّ الأممَ التي اضطهَدَتْهُم هي التي تُيَسِّرُ لهم اليوم خيارَ الرحيل وتأسيسَ دولة في فلسطين، وتدعمُهم بالمال لتحقيق مشروع الدولة اليهوديّة. وقد كان هيس أحد روّاد فكرة الوطن القومي لليهود، لما عاين ظهورَ القوميّات الأوروبيّة التي اضطهدت اليهود وأقرَّتْ مُعاداة الساميّة. وقد أصيبت هذه النخب اليهوديّة بخيبة أمل كبيرة في أوروبا، فبدأَتْ تقول برفض الاندماج في المجتمعات الغربيّة، واستبدل هيس الاسم الذي كان يُسمّى به من موريتز إلى اسمه العبري موزز أو موسى.

تفكَّرتُ قليلاً وأدركتُ الخطورة، ثم قلت: وماذا تقترح لمواجهة هذا الخطر الجديد؟

فقال: لحدّ الآن كنّا نُصارع الأمم الاستعماريّة التي تريد أن تنهبَ خيراتنا، وتشجّعَ على انفصال الشعوب المكوّنة لدولة

الخلافة. أَمَا وَأَنَّ الصراع انتقلَ إلى قلب العالم الإسلامي في أرض فلسطين حيث بيت المقدس الشريف، ومسرى النبي ومعراجه، فإنّ الخطورة أكبر لأنّ الوحدة الإسلاميّة المبنيّة على العقيدة سوف تصاب في مقتل. وإنّي أنصح يا سيّدي بأن تأمرَ الوُلاة في فلسطين وبيت المقدس حتى لا يُسَلِّمُوا تصاريحَ بالسكنى والإقامة لليهود الوافدين من أوروبا وغيرها. إذ كلّما زاد عددهم، زاد خطرهم. إنّ الصهيونيّة مع هيس بقيت صهيونيّة اجتماعيّة اشتراكيّة، بينما أتوقَّعُ أن تتحوَّل من بعده إلى صهيونيّة سياسيّة. وهذا ما وقفتُ عليه في باريس من خلال قراءاتي ومتابعاتي لما ينشر من آراء حول الموضوع. وقد علمتُ أنّ روسيا القيصريّة قد تبنَّتْ فعلاً فكرة الصهيونيّة السياسيّة للتخَلُّص من اليهود الذين يقطنونها بتهجيرهم إلى فلسطين والتخلُّص من مشكلتهم وتصديرها للدولة العثمانيّة.

فقلت: لقد وصلتني تقارير سرِّيّة عن هذا الموضوع، وأخبرني رجالي عن تأسيس جمعيّة عشّاق صهيون في مدينة أوديسا الروسيّة، التي بدأت بجمع الأموال من أغنياء اليهود لتحقيق المشروع الذي تحدَّثْتَ عنه، وتشجيع الهجرة إلى فلسطين. وقد كنت أصدرتُ مجموعة من الفرمانات لمنع هذه الهجرة لكنّي لم أكن أقدِّرُ الأسباب الحقيقيّة وراءها كما أوضحتها لي الآن، وإنّما كنت أفعل ذلك حتى لا أسمح للأمم الغربيّة بالتدخُّل في شؤوننا بالاعتماد على اليهود، وكذلك استجابة للشكايات التي كانت تصل من السكّان العرب حول تزايد هذه الهجرة.

وفي هذه الأثناء استأذن علينا الشيخ ظافر المدني، فقمت لاستقباله وقام جمال الدين. رحَّبت بالشيخ، فتقدَّم الأفغاني للسلام

عليه، وتأدّب معه غاية الأدب. دعوت الشيخ ظافر للجلوس عن يميني، وأمرت القهوجي باشي كي يَصُبَّ له القهوة. ثم جرى حديث وُدِّي بين الرجلين، وانجرَّ الكلام إلى قضيّة الجامعة الإسلاميّة.

بدأ الأفغاني بالقول: إنّني أُصَفِّقُ بحرارة لفكرة الجامعة الإسلاميّة، وهي أمر ما فتئتُ أدعو إليه المسلمين. وإنّي مبتهج اليوم أنَّ الله قد قَيَّضَ لهذه الدعوة يدَ الخليفة.

فأجابه الشيخ ظافر: إنّ أيَّ مسلم يا سيّدي لا يمكن إلّا أن يشعرَ بهذا الانتماء الذي وضعنا له اسمَ «الجامعة الإسلاميّة». لكن ماذا يعني لك بالذات؟

فأجاب الأفغاني: بكلّ بساطة، الجامعة الإسلاميّة تعني أنّ المسلم له انتماء إسلامي يحدِّد هويّته، ويحدِّد هويّةَ الحُكم في بلده.

فقلت: وهل تعني بالبلد الوطن؟

فقال الأفغاني: البلد أو الوطن أو غيرها من المفردات لا تعني أنّي أقف بهما عند مكان الولادة أو حدود الإقليم اللغوي أو العرقي، بل إنّه أوسع من ذلك، إنّه عالم الإسلام الذي يشمل جميع القوميّات والأقاليم التي يعيش فيها المسلمون كأغلبيّة.

ثم سأله الشيخ ظافر: وما هو نوع العلاقات التي يجب أن تقوم بين الأقاليم والقوميّات الإسلاميّة؟

فأجاب الأفغاني: إنّ هذه العلاقات لا تقف عند مجرّد حسن الجوار أو التنسيق في القضايا الأمنيّة والاقتصاديّة. إنّها تتجاوز

ذلك إلى تحقيق اندماج ثقافي وحضاري بينها، يميّز هذا المجموع الحضاري عن غيره ويَسِمُهُ بطابع خاصّ يجعل المنتمين إليه يشعرون بما يجمعهم من جهة، وبما يميّزهم عن غيرهم من جهة ثانية.

فقلت: وما هي العلاقة التي تحكم الديني والدنيوي في هذا المجموع الحضاري؟

قال الأفغاني: هذا سؤال وجيه يا سيّدي، فالأمم الأوروبيّة تقول بفصل الدين عن الدولة، انطلاقًا من تجربتها التاريخيّة. واختيارُها يمكن تفهُّمُه والدِّفَاعُ عنه إلى حدٍّ ما نتيجةً للدور السلبي للكهنوت والسلطة الدينيّة في قمع الحرِّيّات والمعرفة في تلك البلاد. أمّا الإسلام فإنّه وإن كان يرفض وجود سلطة دينيّة بالمعنى الكهنوتي الغربي في يد الحكّام، فإنّه دين ودولة في الآن ذاته، وهو لم يغفل عن أهمّيّة الحياة المدنيّة وتنظيم المجتمع وسياسة الدولة وعمارة الأرض، بل اعتنى بذلك غاية العناية، ووضع لها مقاصدَ وغايات عامّة، لكنّه ترك للأمّة أن تختار الطريق الصحيح من طريق الابتكار والاجتهاد والإبداع بإعمال العقل والتجربة للوصول إلى تلك الغايات والأهداف، ولم يتدخَّل في فروعِها وحيثِيَّاتها، واكتفى برسم الإطار العامّ الذي ينبغي أن تُحَقِّقَه من المصالح والغايات. ولهذا ظهرت تجارب مختلفة في البلاد الإسلاميّة حول كيفيّة الوصول إلى تلك المطالب العليا بحسب ما يقتضيه الزمان والمكان.

فقلت مرّة أخرى: إنّ مفرداتِ الجامعة الإسلاميّة كما حدَّدتَها تعني ثلاثة أشياء هي أنّها ترفض الإقليميّة أو القوميّة، وترفض العَلْمَانيّة، وترفض التغريب. فهل هذا هو ما تقصد من تعريفك لها؟

فقال الأفغاني: لقد لخَّصْتَ يا سيّدي هذه الفكرة الرائعة بأجمل وأكمل صورة. فإنّ الجامعة الإسلاميّة ترفضُ الإقليميّة والوقوف عند حدود الكيانات المصطنعة باسم الوطنيّة أو القوميّة. كما تناقض الجامعة الإسلاميّة فكرة العلمانيّة التي تفصل الدين عن الدولة، فتقطع الأمّة عن تراثها الحضاري. وهي كذلك ترفض التغريب الذي يجعل من الأمّة تابعًا لدوائر حضاريّة أخرى.

فقلت مرّة أخرى: إنّ الجامعة الإسلاميّة كما بيَّنْتَ، والتي تلتقي تمامًا مع التصوُّر الذي أدعو إليه، ستصطدم عاجلاً أم آجلاً بأعدائها، وهم قطعًا دعاة القوميّة، ودعاة العَلْمَانيّة، ودُعاة التغريب، فماذا أعددتَ لمواجهة هؤلاء والحدِّ من خطرهم؟

فقال الأفغاني: الآن بدأنا نتحدَّثُ عن السياسة بعد أن رسمنا أوّلاً الإطار الفكري للجامعة الإسلاميّة. وإنّي أعتقد أنّ العمل يجب أن ينصَبَّ في عدّة اتّجاهات. يجب أوّلاً أن نُطَمْئِنَ هؤلاء أنّ الجامعة الإسلاميّة لا تعني إلغاء فكرة القوميّة أو الوطنيّة أو الإقليميّة، بل هي تعمل على بعثها، لكنّها لا تقف عند حدودها الضيّقة سواء في الاجتماع أو السياسة أو الفكر أو الاقتصاد. سيقوم أقوام ينادون طبعًا بالقوميّة العربيّة أو التركيّة أو غيرهما. كما سيقوم آخرون للدعوة إلى وطنيّة تكاد تتحوّل إلى وثنيّة ضيّقة مصريّة أو سوريّة أو غير ذلك. سيعيب علينا هؤلاء أنّنا نسبَح في السحاب وأنّنا نصادم الواقع. إنّ هؤلاء أعداءٌ فيما بينهم لأنّ الذي يتحكَّمُ فيهم هو منطق القبيلة والعشيرة، ولأنّ المزايدةَ على الخُصوصيّة سيؤول في النهاية إلى التَّطَرُّف والاستبداد. فالوطني المصري مثلاً يرفض عروبة مصر بالقَدْر نفسه الذي يَرفُضُ فيها إسلاميَّتَها.

والجامعة الإسلاميّة لا تعرف هذه الأمراض، فهي الدائرةُ الأوسَع التي يجد فيها الوطني نفسه، مثلما يجد فيها القومي نفسه.

هؤلاء أعداء الداخل الذين يجب أن نَضُمَّهُمْ إلى هذا المشروع الحضاري، لكن هناك أعداء أشدُّ ضَراوة من هؤلاء وهم أعداء الخارج، وفي مقدّمتهم الأمم الاستعماريّة التي ستلجأ إلى كلّ الوسائل الممكنة لتعطيل الفكرة ومحاربتها، تارة بوسمها بالتعَصُّب، وتارة بتشجيع الوطنيّين والقوميّين والعَلْمَانيّين والتغريبيّين. وتارة أخرى بالتشكيك في الرمز الجامع للمسلمين وهو الخلافة الإسلاميّة. ولعلّ أوّل خطوة ستخطوها، وقد خَطتها بالفعل هو إيعازُها لبعض الهَمَلِ من أشباه العلماء بفتح النقاش حول الخلافة، والتشكيك في أحقّيّة آل عثمان فيها لانتفاء شرط القرشيّة.

فقال الشيخ ظافر: هذا ممّا توقَّعناه، لكنّك تعلم أنّنا اعتمدنا في نشر فكرة الجامعة الإسلاميّة على عنصرين أساسيين، العلماء والصلحاء، أي أنّنا حاولنا أن نَضُمَّ جميع المؤسّسات العلميّة والدينيّة الوازنة في العالم الإسلامي للتوعية بأهمّيّة الجامعة الإسلاميّة في مواجهة الاستعمار، وتحقيق الوحدة الإسلاميّة. كما اعتمدنا في تنفيذ فكرة الجامعة الإسلاميّة في المجتمعات الإسلاميّة على مدارس التزكية الروحيّة واستعمال المريدين دعاةً لنشرها في تلك المجتمعات.

فقال الأفغاني: فكرةٌ سديدة، لكنّي سأُنَبِّهُ على أنّ المؤسّسات العلميّة والزوايا نفسها تحتاج إلى إصلاح. فالأزهر الشريف والقرويّين والزيتونة، إضافة إلى الحوزات العلميّة عند الشيعة تحتاج

إلى الإصلاح لِمَا عَشَّشَ فيها من جُمُود. لقد قامت قيامة علماء الأزهر لمّا بدأ صاحبي الشيخ محمّد عبده بتدريس بعض الكتب مثل مقدّمة ابن خلدون، فثارت ثائرة الأزهريّين الجامدين عليه. أمّا الزوايا الصوفيّة، فهي وإن قامت قديمًا بأدوار هامّة في تاريخ الأمّة للتربية والجهاد وغير ذلك، فبعض منها قد استهدفه الاستعمار وأغدق عليه الأموال حتى يَكْسِبَ صمتَه، فيما شجَّعَ على ظهور بعض المظاهر الخُرافيّة. وهناك ما هو أخطر من ذلك، فإنّ إنجلترا مثلاً قد مَكَّنَتْ لفرقة ضَالَّةٍ مُضِلَّةٍ هي القاديانيّة المارقة من الدين الإسلامي، حتى سمعنا أنّ مؤسّسها يدعو إلى مُهادنة الاستعمار ويُنافح عن وجوده في بلاد الهند. أمّا عقيدتُه فهي أبعدُ ما تكون عن نصاعة الإسلام.

فقال الشيخ ظافر: نحن على علم بما يخطِّطُ له الاستعمار من استعمال بعض المغفَّلين من المسلمين لضرب بعضهم ببعض.

ثم قلت: لقد وصلتنا تقارير سرِّيّة عن الهدف من تشجيع بعض الفرق الضالّة مثل القاديانيّة في الهند لزرع الشكّ في نفوس عامّة المسلمين حول فكرة الجامعة الإسلاميّة، وإبعادهم عن الانضواء والعمل ضمن الطرق الصوفيّة المجاهدة الحاملة لهذه الفكرة في العالم الإسلامي، مثل الدرقاويّة والشاذليّة والمدينيّة والسنوسيّة وغيرها.

فقال الأفغاني: هذا تمامًا ما كنت أشيرُ إليه. إنّ الأممَ الغربيّة قد رسَّخَتْ في أذهان مجموعة من المتغرِّبين أنّ طريق نهضة المسلمين هو في استنساخ نهج الغربيّين، وذلك بالقطع مع تراث الأمّة الحضاري ودينها العالمي. وتراهم ينعتون أفكارنا ومشروعنا

الحضاري بأنّه تقليدي، وما فهم هؤلاء المتغربون أنّهم مُقَلِّدَةٌ لأسيادهم، وهم يدافعون عن التقليد الأعمى لغيرهم.

ثم قال الشيخ ظافر: إنّنا بدأنا العمل في مشروع الجامعة الإسلاميّة، ونرجو أن تنضَمَّ إلينا.

فقال الأفغاني: إنّني أعمل على ذلك منذ مُدَّة.

فقلت له: بل نريد منك التزامًا بأن تكتب عن الموضوع في الصحف، وتخاطب رجالات الأمّة من أجل الانضواء في هذا المشروع. وأطلب منك على وجه التحديد أن توظِّفَ علاقاتك مع شاه إيران لإقناعه بعدم جدوى إحياء المعارك المذهبيّة الداخليّة، وتوجيه الجهد لإنجاح المشروع والتقريب بين السُّنّة والشيعة..

فقال الأفغاني: سيكون ذلك من دواعي سروري وغبطتي.

ثم قلت له: بقي أمر آخر لا بُدَّ من الحَسْمِ فيه.

فقال الأفغاني: وما هو يا سيّدي؟

فأجبت: إنّ هناك فرقة تدعى الماسونيّة، ولا شكّ أنّك تعرف عنها الشيء الكثير، قد دخلتْ بلادنا وسَعَتْ في تخريب عقول الناس وصرفهم عن دينهم والتزيين لهم في أفكار برّاقة عن الحرّيّة والتضامن والأخوّة الإنسانيّة وغير ذلك. وقد وَهِمَ كثير من الهَمَل في حقيقة هذه الفرقة فانضمُّوا إليها. ولا يخفى عليك أنّ المحافل الماسونيّة قد كثرت في البلاد الإسلاميّة، وصارت الدعوة إليها بالعلَن. وهي دعوات تدعمُها الأمم الغربيّة، وبالخصوص إنجلترا وفرنسا، وتحرِّضُ على حماية المنضوين تحتها. وإنّي أخشى على الدولة من هذه الفرقة أكثر من خشيتي عليها من الفرق الأخرى.

وقد رأيت بأُمّ عيني كيف عبثَتْ واستقطبَتْ كثيرًا من رجالات الدولة العثمانيّة.

فقال الأفغاني: لقد كنتُ من الذين ضلَّلَتْهُم الماسونيّة، واعتقدتُ أنّنا يمكن أن نستعينَ بهم في جَلاء الاستعمار عن بلادنا، بالتعاون مع أهل الإنصاف من الماسون الذين كانوا يدَّعون أنّهم يؤمنون بقيم الأخوّة الإنسانيّة والعدل والتضامن وما إلى ذلك، لكنّي اكتشفت أنّهم يعملون وفق مخطّطات أخرى فأوقفتُ علاقتي بهم، وأخذتُ الحيطةَ منهم.

فقلت له: من رأيي أن تستمِرَّ في إبقاء علاقة وُدّيّة مع هؤلاء الماسون لاكتشاف مخطّطاتهم. كما أنّ إنجاح فكرة الجامعة مَنوطٌ بعدم تكثير الأعداء من كلّ جانب، وعدم فتح كلّ الجبهات. فإذا استطعنا أن نضرب بعض هؤلاء ببعض فَعَلْنَا، وكان في ذلك غُنْيَةٌ عن مواجهة كلّ فيالق الهدم والفساد مجتمعة.

فقال الأفغاني: إنّ البرنامج العامّ لتحقيق مشروع الجامعة الإسلاميّة يجب أن يَتَّسِمَ أوّلاً بفعاليّة أكبر في مقاومة الاستعمار. وثانيًا في إصلاح الدولة ونظام الحكم، والعمل بالدستور، وهذا من شأنه أن يُلْقِمَ حجرًا تلك الأمم التي تَنعتُ الخلافةَ العليّة بالاستبداد والتعصّب وانعدام الحرِّيّة. وثالثًا بتطهير أجهزة الدولة من كلّ الخانعين والخونة والعاجزين عن النهوض بالأمّة. ورابعًا بالانفتاح على مكامن القوّة في الأقاليم الإسلاميّة، والابتعاد عن المركزيّة التي تقتل كلّ عناصر الإبداع والنموّ في تلك الأقاليم. أرجو أن نؤسّس في دولة الخلافة ما يشبه كومنويلث الممالك الإسلاميّة. وخامسًا، باعتماد العربيّة لغة حضاريّة للأمّة، فلم تقم

للمسلمين قائمة إلّا حينما كانت لغة القرآن هي لغة العلم والصنائع والفكر. ولا قيام للجامعة الإسلاميّة اليوم بدون الجامعة اللغويّة.

فقلت: نحن مُتَّفِقُونَ على هذه المبادئ العامّة، وهي التي توجِّهُ سياستَنا حول الجامعة الإسلاميّة، ولم نَغْفل ولو لحظة واحدة عن سعي الأمم الأوروبيّة لإضعافنا وزرع الفتنة بين الممالك الإسلاميّة ليسهُلَ عليها ازدرادُها على انفراد.

فقال الأفغاني: أتأذن يا مولاي في تقديم لائحة من تصوّراتي لتحسين حالة المملكة؟ والتحوُّط بِصَوْنِهَا من مطامع الأعداء؟

فقلت: بل قل لي ما تشاء بكلّ حرِّيّة وصراحة، فأنا لك من السامعين.

فقال الأفغاني: أيعتقد جلالة السلطان أنّ مصرَ لو بقيَتْ ولايةً، تُرْسِلُ إليها الوُلاة من الآستانة... لجمع الأموال من غير وجه حقّ، وتوزيعها على رجال الدولة هنا على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتكم، هل هو خير لمصر وأهلِها وللسلطنة؟ أم جعلها خديويّة، كما هي قبل الإنجليز؟

تفكَّرْتُ مليًّا، وحوَّلتُ وجهي نحو النافذة، وساءني ما أسمع حتى وددت عدمَ الخوض في هذا الحديث. ثم التفَتُّ بغتة، وتوجَّهتُ بكلِّيّتي إلى الأفغاني، وقلت له: لو قلنا إنّ وجودها خديويّة أحسن من بقائها ولاية، ثم ماذا؟

نظر الأفغاني إلى سبحتي الثلاثينيّة التي كنت ألهو بها بين أصابعي ثم قال بمكر خفي: يا مولاي، إنّ السلطنة العثمانيّة تتألّف اليوم من ثلاثين ولاية، فتبدأ فتجعلها عشر خديويّات.

أدركت إشارته إلى المقابلة الخفيّة بين الولايات العثمانيّة التي كنت أحكمها كما أحكم السبحة التي بين أصابعي، فتقطّب وجهي لما أسمع من الأفغاني، وعلتني كآبة وحزن وامتعاض ممّا ذكَرَه. وكأنّه أحسَّ بذلك فسارع إلى محاولة التخفيف عنّي فقال: يا مولاي، وعزّة الحقّ، وبولائي لأمير المؤمنين ونصحي للمسلمين، إنَّ ما ساقني إلى ما قلته إلّا الإخلاص والحرص على ملكك، والغيرة على الدولة والممالك الإسلاميّة الشرقيّة، التي ليس لجمع شتاتها وتوحيد كلمتها إلّا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة، وجلالتُك ترى أنّ أجزاء السلطنة أخذت تتفكَّك الجزء بعد الآخر، فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام أوثقَ وأشَدَّ وأَحْكَمَ، وما وجدتُ ذلك السلك إلّا على الصورة التي قدَّمتها بها.

لم أعد أحتمل ما ذكره الأفغاني، فوضعت السبحة على منضدة صغيرة، ثم رفعت رأسي وأخذت لُفافة من التبغ فأشعلتها وأسرعت في تدخينها، وأطلقت دوائرها في الهواء كما لو أنّي أريد أن أُفهِمَ الأفغاني عدمَ موافقتي على هذا المشروع الذي اقترحه، ثم قلت له: ماذا تركتَ، يا حضرةَ السيّد للسلطان؟ وما أبقيتَ لتخت[1] آل عثمان؟

فأسرع بالقول ليدفع عن نفسه هذه التهمة الخطيرة: يبقى مولاي جلالة السلطان، ملكَ أولئك الملوك، وينضمُّ إلى العرش العثماني عشرةُ عروش، غير عرش مصر، ثم متى نهضَتْ هذه المقاطعات والخديويّات، وأخذت نصيبَها من الرُّقِيِّ والعُمران..

---

(١) عرش وعاصمة آل عثمان.

لا شكّ أنّ غيرَها تسرعُ لمقام السلطنة العظمى للاتّحاد معها، إذ هي في أمسّ الحاجة لشدّ الأَزْر، ولِصَوْنِ كِيانها من مطامع الغرب الموجَّهة نحو عموم دول الشرق. ثم ما أسرعَ الأفغان للانتظام في ذلك السلك، سِلْكِ اجتماع كلمة دول الشرق الإسلاميّة تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى. ثم، ومتى تمّ ذلك، هل يتقاعد أهلُ الهند عن نصرة الخليفة الأعظم واللحاق لشدِّ سَاعِدِ إخوانهم ليدفعوا غارةَ الغرب عن الدول الإسلاميّة في الشرق، وعن هندهم أيضًا؟ أَوْ ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلّص من رِبْقَةِ الاستعمار والمستعمرين، ويرجع الشرق للشرقيّين؟

نظرت من خلال النافذة وأرسلت دوائر الدخان على الزجاج فأعتم بسحابة ضبابيّة، فَثَمَّ لَمَعَ في ذهني نور عجيب، فقلت له: ما تقوله صعب التنفيذ في يومنا، لكنّي أرى أنّ مشروع الجامعة الإسلاميّة يجب أن يتجسَّدَ في شيء حِسّي يُقنِعُ عامَّةَ الناس وخاصَّتهم بالانضواء تحته.

فقال الأفغاني: وما هذا الشيء العملي الذي يمكن أن يجسِّدَ فكرةَ الجامعة الإسلاميّة؟

فقلت: لقد قلَّبتُ الأمر كثيرًا، وألهمني الله إلى أنّ دولةَ الخلافة مترامية الأطراف، والشعوبُ الإسلاميّة لا تعرف بعضها ولا تسمح لها العوائق المكانيّة من الاتّصال، فَقَرَّ قراري على أنّ الطريقَ إلى تعزيز التعارف بين الشعوب الإسلاميّة، وتقويةِ التعاون بينها كما ذكرت، يكمُن في تقليص المسافات التي تمنَع من وصل الأقاليم الإسلاميّة بعضها بالبعض الآخر. وقد استقرأتُ أنّ أفضلَ ما يمكن أن نقوم به هو إنشاء خطّ سِكَّةٍ حديدي ينطلق من استانبول

ليصل إلى بلاد الحرمين الشريفين.

صاح الأفغاني مُكَبِّرًا ثم قال: ما أعظمها من فكرة يا سيّدي، ولو اجتمع علماء الأمّة على أن يفكّروا فيما يمكن أن يوحِّد المسلمين لم يجدوا أفضل ممّا ذكرت يا مولاي، لكن كيف سيُمَوَّلُ هذا المشروع ومن سيساعدنا في بنائه من الأمم الغربيّة، وكلُّها تُناوِئُ الخلافةَ العداءَ؟

فقلت: أمّا عن تمويله، فسنعلن اكتتابًا عامًّا بأنّ المشروع وقفي، وسأبدأ شخصيًّا بوضع أوّل وأكبر مساهمة في صندوق هذا المشروع، ولا أعتقد أنّ أحدًا من ملوك المسلمين وقادتهم سيتخلَّف عن هذا العمل الحضاري الخيري. ومن موَّل شيئًا كان حريصًا على سلامته واستمراره، وهذا سيمنع أطماع الأمم الغربيّة عن مواصلة الاستعمار. أمّا جوابي عن سؤالك الثاني حول من سيساعدنا في البناء، فبعد أن قلَّبتُ جميع الاحتمالات، لم أر خيرًا من ألمانيا في مساعدتنا، وذلك لعدّة أسباب، منها العداوة والتنافس الشديد بينها وبين إنجلترا وفرنسا، وثانيًا لأنّ لي علاقة مميّزة وصداقة قويّة مع الإمبراطور ولهلم منذ أن كُنّا وَلِيَّيْ عهد.

فقال الأفغاني: يا سيّدي، إنّك «لو وُزِنْتَ مع أربعة من نوابغ العصر لرجّحتَهم ذكاء ودَهاء وسياسة... ولا عجب أنّك تُذَلِّلُ ما يُقامُ لملكك من الصعاب من الدول الغربيّة، فقد أعددتَ لكلّ هُوَّة تطرأ على الملك مَخرجًا وسُلَّمًا. وأعظم ما يدهشني فيك يا سيّدي، ما أعددته من خَفِيِّ الوسائل، وأَمْضَى العوامل، كي لا تَتَّفِقَ أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانيّة. ولو فَعَلَتْ، لأدَّى ذلك إلى خراب الممالك الأوروبيّة بأسرها. ولكلّ هذه

الأسباب، فأنا أَمُدُّ يدي لأبايعك بالخلافة والملك».

سحبتُ نفسًا من اللفافة التبغيّة وأرسلتها مرّة أخرى، ثم احتسيتُ جرعَة من القهوة العربيّة أُقْهِي بها ذهني وأُصَفِّيهِ من هذه المنازلة الفكريّة مع أحد أكبر العقول في بلاد الإسلام ممّن يُدَّخَرُون لِمُدْلَهِمَّات الأمور، ثم قلت له: اِمْضِ لما اتَّفقنا عليه، وسنمضي لما حدَّثناك عنه، فاحْفَظِ الأسرار، ولا تنس أن تَضُمَّ صاحبك محمّد عبده إلى هذا المشروع الحضاري، فقد وصلتنا تقارير غير مرضية عنه بطعنه في الأتراك، واستسهاله للغَضِّ منهم والتجريح فيهم، ولعلّها دعوة جاهليّة تلك التي تُعْلِي عِرقًا على عِرق في دائرة الإسلام!

فقال الأفغاني منافحًا عن صاحبه: إنّه ليس كذلك يا مولاي، وإنّما لَمَّا كَثُرَ الجَوْرُ من الوُلاة جرى لسانه بما يجري على لسان العامّة، لكنّه مِن خير ما يُدَّخَرُ لفكرة الجامعة الإسلاميّة.

ثم توجّه الأفغاني للشيخ ظافر المدني قائلاً: وبعد مبايعتي لأمير المؤمنين، فإنّ لي طلبًا في أن تتفضَّل عليّ يا شيخنا بالإذن في أخذ طريق الإرادة.

فقال الشيخ ظافر: أنتَ مَنْ يُرجى للأخذ عنه، لكن لا بأس، ابسُطْ يدَك.

فبسطَها، فَلَقَّنَه الشيخ ظافر الوِرْد الدرقاوي الشاذلي.

اجتمع في هذا المجلس العالِم الحقّاني، والخليفة السلطاني، والشيخ الربّاني؛ أو لِنقل بلسان أرباب الحقائق، الخليفة الوارث، وإمام اليسار، وإمام اليمين. وتلك هي مزيّة هذا اللقاء وعنوان هذا

البساط. فليجتمع الماسون في محافلهم، وليُقرِّروا في شؤون الدول والعباد، ولْيَخُطُّوا بأدواتهم حدودَ تلك الدول، ويرسموا ولاءاتها ودوائرها.. لكنَّ أهل الله حينما يجتمعون، فإنّ سيف السرّ الإلٰهي سيقمع أهل الشرك والضلال بشرط حصول صدق التوجّه والإخلاص، والمتابعة لنموذج الكمال.

* * *

استمَرَّ شَدُّ الحبل بيني وبين الأمم الغربيّة في عدَّة مواطن ومناسبات، فمرّة يُخرجون ورقة الأرمن، ومرّة أخرى ورقة اليونانيّين، وثالثة يشجّعون القوميّة ويحتلُّون مصر، وهكذا كانت الحرب سنجالاً بيننا وبينهم مرّة بالعِيان، ومرّة بالبَيان.

كانت الدول الغربيّة، وخاصّة إنجلترا ماضية في مخطّطاتها لتحطيم الخلافة الإسلاميّة لأنّها تهدّد وجودَها كإمبراطوريّة عظمى، فكثير من البلدان التي تستعمرها هي في بلاد المسلمين. وكانت تدرك أهمِّيّة الخلافة ورمزيَّتَها في عموم العالم الإسلامي، فدعوةٌ واحدة من الخليفة إلى الأمّة بجهاد المستعمر كانت ستَضُرُّ بمصالح إنجلترا وتقضي عليها. لهذا سعت بكلّ الوسائل الممكنة في تحطيم هذا السلاح الفتّاك، وعملت على منع حصول أيّ تقارب بين مركز الخلافة وسائر العالم الإسلامي. ولهذا كانت فكرة الجامعة الإسلاميّة محطَّ أنظارها وهدفَ اِنتقاداتها المستمرّة. كانت تعمل في اتّجاهات متعدّدة، تُغذِّي النَّعَرات الطائفيّة والقوميّة داخل العالم الإسلامي، تُشَجِّعُ حركات التمَرُّد، تقتطع أجزاء أخرى، تُرهِقُ كاهل الدولة بتعجيل سَدَادِ الديون السابقة على عهدي.

لكنّ القضيّة الكبرى، كانت استيلاء الإنجليز على مصر، بعد

أخطاء الخديوي إسماعيل الذي اقترض أموالاً طائلة وأدَّى بالبلاد إلى حالة الإفلاس، فاستغلّت إنجلترا وفرنسا الوضع لمطالبته بسداد ديونهما. لم يجد الخديوي بدًّا من تخفيض أعداد الجيش المصري إلى الثلث وسرَّحَ الباقين فقامت عليه ثورة تزعَّمَها أحمد عُرابي، فساندناه للتمرّد على إنجلترا التي كانت وراء تسريح الجنود بضغطها على الخديوي إسماعيل باشا. ومن مَكْرِ إنجلترا الخسيس أنّها أوعزت له بتسريح الجنود العرب والإبقاء على الجنود الأتراك لإشعال نار الفتنة بين الفئتين، فقامت بالفعل فتنة القوميّة بالدعوة إلى عروبة مصر، وأنّ مصر للمصريّين. ورغم أنّ هؤلاء كانوا يناصرون الخلافة، فإنّني ما كنت أسمح بظهور فكرة القوميّة العنصريّة البغيضة التي تخالف تعاليم ديننا السمح. عزلت الخديوي إسماعيل باشا، لكنّني سمحت له بالإقامة في استانبول وحضور المناسبات البروتوكوليّة رغم أخطائه الفظيعة وتشبّثه بالسلطة الذي كان سببًا في تسليم جوهرة عقد الخلافة إلى الاستعمار الإنجليزي.
لكنّ القضيّة المصريّة لم تهدأ بهذا العزل، إذ قام عُرابي بإنهاء خدمات الأجانب في مصر، فاحتجَّتْ فرنسا وإنجلترا على الباب العالي لكنّهما لم تستطيعا التدَخُّل عسكريًّا، وطلبَتا منّا أن نقوم بدور الشرطي لخدمة مصالحهما. طبعًا رفضت هذا المقترح الذي كان سيَجُرُّنَا إلى مشاكل معقّدة، فاستغلَّت إنجلترا الوضع وادَّعَتْ أنّ الأمن قد اختلَّ في البلاد، وأنّ حياة الأوروبيّين والرعايا المسيحيّين في خطر، وأنّها راجعت الباب العالي في استتباب الأمن لكنّه رفض إرسال قوّات لحفظ الأمن، فما كان عليها إلّا أن تتدخّل لحقن دماء الأبرياء بعد أحداث الإسكندريّة التي قُتل فيها الكثير وجرح أربعة قناصل. قصف الأسطول الإنجليزي الإسكندريّة

واحتلّ البلاد، ونُفِيَ عرابي إلى جزيرة سيلان.

طالبتُ بجلاء الإنجليز عن مصر، كما طالب بذلك المصريّون والدول الأخرى، لكن إنجلترا وعدت ولم تبرَّ بوعدها. لم يكن لهذا الاحتلال سند شرعي، بل كان أمرًا واقعًا.

ثم عملت الأمم الغربيّة وإنجلترا على افتعال قضيّة الأرمن من العدم. كان الشعب الأرمني يعيش بسلام في دولة الخلافة، ويحتلّ المواطنون الأرمن أرفع المناصب، وتخصّصوا في التجارة والصياغة والصيرفة، وأغلب العائلات الأرمنيّة الكبيرة كانت تعيش في استانبول. كما كان لبطارقتهم مكانتهم في بروتوكول الدولة. ولم يكن يعانون من أيّ ميز، بل إنّهم كانوا محبوبين لدى عامّة الشعب الذي يسمّيهم «ملت صادقة» أي الشعب المخلص. لكنّ الدول الاستعماريّة عملت على استعمال هذه الورقة ضدّ الخلافة وتحريض الأرمن على الثورة والمطالبة بالأناضول الشرقيّة. وكانت روسيا تتزعّم هذا الفريق نظرًا لأطماعها في تلك المنطقة، حيث كان لها رعايا أرمن أسكنتهم على حدود الأناضول الشرقيّة في إيريڤان، والذي كان قطرًا عثمانيًّا خالصًا في هذا الوقت. كانت معاهدة برلين تلزم الدولة العثمانيّة بإجراء إصلاحات لصالح الأرمن في ستّ ولايات عثمانيّة يسكنها هؤلاء، لكنّي ماطلت في اتّخاذ أيّ خطّة، نظرًا لأنّ أعلى نسبة للأرمن في بعض هذه الولايات لم تكن تتعدّى عشرين في المائة. أقنعت الألمان والمجر والنمسا بموقفي من تطبيق تلك المادّة المجحفة، ولم تستطع الدول الغربيّة الأخرى أن تقوم باتّخاذ موقف عقابي ضدَّنا. لقد كان هدفُ روسيا من وراء قيام إمارة أرمنيّة اقتراب الروس من البصرة وخليج إسكندرون، في

حين أنّ إنجلترا كانت حريصةً هي أيضًا على وجود تلك الإمارة للحيلولة دون وُصول الروس إلى تلك المناطق، والتلاعُب بسياسة الأرمن بما يخدُم مصالحَ إنجلترا. وقد كان نشاطُ النخَبِ الأرمنيّة قويًّا في أوروبا لإقامة دولة مستقلّة لهم.

ثم قامت مجازر في حقِّ المسلمين ارتكبَها المتطرِّفون الأرمن؛ اعتَدَوْا فيها على قرى كاملة يتواجد فيها مسلمون أكراد، فقتلوا النساء والأطفال وعلَّقوهم بالكلاليب، وبَقَرُوا بطونَ النساء الحوامل وأخرجوا ما تحمِلُهُ بطونُهم بحَدِّ رِماحهم، وقطعوا عورَةَ الرجال ودَسُّوها في أفواههنّ، وحشَدوا الناس في الجوامع والتكايا والمدارس الدينيّة وأحرقوها بمن فيها. كان القصدُ هو الإبادة العرقيّة وإجبار من بقي من المسلمين على الهجرة من هذه المناطق. وبعد أن أخذتِ الأمورُ هذا المنحى الإرهابي الخطير، رفعَتْ روسيا يدَها عن الأرمن لمّا عَلِمَتْ بعدم قدرتها على كبح جماحهم، وبقيت إنجلترا تدعم توحيد أرمنستان في الأناضول الشرقيّة وجزء من أراضي روسيا في القوقاز الجنوبي.

لم يكن أرمن الدولة العثمانيّين راضينَ عمّا حصل من المتطرّفين من أبناء جلدتهم المدعومين من الحركة الإرهابيّة «خنجاك» التي تأسَّسَتْ في سويسرا سنة ١٨٨٦. كان الأرمن العثمانيّون يشاركون في الإدارة العثمانيّة بنسبة تفوق نسبتهم العدديّة في الدولة، وكانت إنجلترا تدَّعي حماية الأقلِّيّات في حين أنّها لم تسمح للأغلبيّة المسلمة في الدول التي استعمرتها أن يصل بعض من أفرادها إلى مناصب عليا في الحكم، بينما هي تطالب دولة الخلافة بذلك.

لم يكن من بُدٍّ أمامي سوى إعلان الأحكام العرفيّة وتشكيل أفواج «الخيّالة الحميديّة» لوقف العُدوان الهمَجي على المسلمين الأكراد، والدفاع عن حياة قَروِيِّي الأناضول الشرقيّة. إنّ أعلى نسبة تعداد للسكّان الأرمن في هذه المناطق بلغت حوالى ١٢,٠٠٠ أرمني، في حين كان عدد المسلمين الأكراد ١٥,٠٠٠، فكيف يُعْقَلُ أن يُطالبوا بترحيل هؤلاء وتمكينهم من تلك الأراضي؟

كان ثمنُ إخماد العصيان باهظًا أدّى إلى موت حوالى خمسة آلاف أرمني ومئات الأكراد. وكان من نتائج هذه القلاقل تدخُّل الدول الغربيّة في القضيّة، فطالبتْ بالتطبيق الفوري للمادّة المتعلّقة بالأرمن في معاهدة برلين، لكنّي حاولتُ كسبَ الوقت، فنجحتُ في عدم توقيع ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا على المذكّرة المتعلّقة بتلك المادّة.. ثم نجحتُ في المرحلة الثانية في عزل روسيا وفرنسا. أمّا فرنسا، فقد اشتريتُ موقفَ وزير خارجيّتها، ووشّحته بوسام الامتياز العثماني، وأقنعتُ روسيا بلا جدوى تطبيق تلك المادّة، لما يترتّب عنه من مطالبة الأرمن باقتطاع جزء من القوقاز الجنوبي التابع لروسيا القيصريّة! وهكذا نجحَتْ هذه السياسة في عزل إنجلترا التي كانت رأسَ الحيَّة التي تأتي منها أغلب مشاكل الدولة العثمانيّة. ولكونها فشلت في سياسة المواجهة المباشرة، فقد قامت مخابراتُها السرِّيّة بالقيام بعمليّة يائسة في استانبول.

كان جهاز التحرّيات العثماني يقِظًا، ويأخذ أوامرَه منّي مباشرة، وأضحى قصر يلدز دولة داخل الدولة، مع ما يعنيه هذا من القوّة والضعف في الوقت نفسه. لم أكن أرغبُ في معالجة كلّ

قضايا الدولة مباشرة، لكن لمّا شاهدتُ بأُمّ عيني ما حصل للخلفاء السابقين من مؤامرات سواءٌ بالعزل أو بالقتل، لم أَعُدْ أَثِقُ في لامركزيّة القرارات.

كان من بين رجالي في التحرّيات رجال من جميع القوميّات. كنّا نشُكُّ في بِطْرِيقِ الأرمن، فأرسلتُ بعضًا من الأرمن الموالين للتجَسُّسِ عليه ورَصْدِ حركاته، فجاءني المُخبِر بتوقُّع حصول تفجير في استانبول عمَّا قريب. جنَّدنا طلبةَ المدارس الدينيّة والجيش والأرمن الموالين بنقل جميع الأخبار. ولمّا حانت ساعة الحسم، أُلقيَ القبض على مجموعة من الإرهابيّين الأرمن كانوا يَهمُّون بتفجير المصرف العثماني ومَقَرِّ الباب العالي (رئاسة الوزراء). ضُبِطُوا وهم يحملون بأيديهم القنابل والأسلحة. طوَّقهم الجند بسرعة وعزلوهم، ثم سيقوا إلى مخافر الشرطة لإجراء التحرّيات معهم. اعترفوا بسهولة بجريرتهم وأخبرونا عن ضلوع أزميريليان البطريق الأرمني في تحريضهم على هذا الشَّنَآن الإرهابي. وقد كان هذا البطريق قد غالط الأرمن بالقول إنّ أساطيل الدول العظمى ستهُبُّ لنجدتهم، وأنّها على وشك المرور من مضيق الدردنيل. كادت الأمور أن تخرجَ عن السيطرة رغم تحوُّطنا وشدّة حرصنا في منع الإرهابيّين من ارتكاب جرائمهم، فقد أطلق أرمني رصاصة على الصدر الأعظم خليل رفعت باشا، ولحسن الموافقة فقد أخطأَتْه. أرسلْتُ الشرطة والجيش إلى أحياء الأرمن في استانبول فقُوبلوا بالحجارة والسباب، وحَمَلَ بعض المندسِّين من بينهم السِّلاح في وجه قوّاتنا. لكنّني واجهتُ الأمر بشجاعة وهدوء، وأمرتُ الجيش والشرطة بالانسحاب من أحياء الأرمن حتى لا

نتسبَّب في قتل أحد من المدنيّين، لكن عُمّالَ ميناء استانبول المنضوين في جماعات عمّاليّة منظّمة هاجموا تلك الأحياء وأغاروا على الأرمن بعصيِّهم.

استغلّت فرنسا انشغالنا لإخماد الحرائق الكثيرة التي يشعلها أعداؤنا في أجزاء الإمبراطوريّة، فسارعَتْ إلى احتلال تونس ووضعتها تحت حمايتها.

* * *

وممّا زاد من حزني في ضوء هذه الأحداث المتتالية، فقدان الشيخ جمال الدين الذي كان يلازمنا ولا يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته، ويعمل على تذليل الصعاب والتقريب بين المذاهب الإسلاميّة. كنت شكّاكًا وتلك كانت آفتي ومزيَّتي في الآن نفسه، واتَّفَقَ أن حضر الخديوي عبّاس حلمي الثاني إلى الآستانة، فكلَّفت أحد رجالي بمراقبة تحرّكاته ونقل أخباره إليّ ممّا هو شأن كلّ دولة متمدِّنَة تريد المحافظة على أمن مواطنيها وضيوفها وسلامة أراضيها. كانت الآستانة تَعُجُّ بالعلماء والمفكّرين والقادة. واتَّفَقَ أن أخبرني المخبر بأنّ عبّاس حلمي الثاني اجتمع مع الأفغاني وعبد الله النديم الأديب الشاعر والصحفي المصري المبرز، فغاضني الأمر بعدما أكَّدَ لي المخبر أنّهم اجتمعوا في الكاغد خانة (مصنع للورق) في قصر يلدز وبايعوا عبّاس حلمي تحت شجرة معلومة. لم أُصَدِّقْ هذه الرواية لكن قلبي بقي فيه من أثرها شيء، وكلَّمْتُ الأفغاني مشيرًا لهذا اللقاء، فأخبرني بأنّه لقاء وُدّي ممّا يحصلُ حينما يلتقي قائد سياسي وقائد فكري.

وبعد هذا الحدث، أصبح الأفغاني مستريبًا من الحراسة

المشدّدة عليه، فسارع إلى طلب العون من سفارة الإنجليز بإخراجه من استانبول. ولمّا أخبرني رجالي بذلك أرسلت له رجلاً من خاصّتي ليُطيِّب خاطرَه ويُقنعَه بالعُدول عن طلب الحماية الأجنبيّة ومغادرة الآستانة. والحقّ أنّه عدل عن السفر واعتذر لمستشار السفارة الإنجليزيّة الذي كان قد سارع إلى وضع سفينة رهن إشارته ليفسد العلاقة بيني وبينه، ممّا دأَبَتْ عليه إنجلترا دائمًا لتحقيق مصالحها الخاصّة.

كانت حالة الأفغاني تسوء بسبب إدمانه على التدخين، فأصابه داء السرطان في فمه. أمرتُ أمهر أطبّائي وكبير الجرّاحين للعناية به وإجراء عمليّة جراحيّة له إلّا أنّها لم تُكَلَّلْ بالنجاح. بقي أيّامًا على حالته حتى فاضت روحُه، فحزنتُ عليه حزنًا شديدًا إذ فقدنا فيه عقلاً كبيرًا ورجلاً مِمَّنْ يُعتمَد عليهم في المُلِمَّات العظمى التي كانت تمرُّ فيها البلاد الإسلاميّة، رحمة الله عليه. مات صبيحة يوم الثلاثاء تاسع مارس سنة ألف وثمانمائة وسبع وتسعين، ودُفن في مقبرة المشايخ بحيّ بشكطاش. لم أحضر جنازةَ دفنه لانشغالي بالحرب التي كان اليونانيّون يستعدُّون لِشَنِّهَا علينا.

* * *

لم يتوقَّف اليونانيّون عن المطالبة بتنفيذ معاهدة برلين فيما يخُصُّ بعض الولايات العثمانيّة التي يقطنونها. ازدادت شهيَّتُهم وتكاثرت طلباتهم كلّما أُطعِمُوا، فطالبوا باستقلال جزيرة كريت، وأدخلت الحكومة اليونانيّة إليها العصابات الإرهابيّة لترويع المسلمين، وندَّدوا في صحافتهم والصحافة الغربيّة باستمرار الظلم التركي في أوروبا. طبعًا، كانت الأمم الأوروبيّة المسيحيّة تساند

اليونان المسيحيّة ضدّ الخلافة الإسلاميّة في أيٍّ موقف من المواقف، وتتمحّل في التبريرات الواهية. قام الباب العالي بإخراج الرعايا اليونانيّين من الأراضي العثمانيّة، فأعلنت اليونان النَّفِيرَ العامّ ضدّ الدولة العثمانيّة. وبَدَأَتِ الحرب.

خلال هذه الحرب كنت أقضي أغلبَ وقتي في مكتبي أستلم التقارير حول ما يجري في الدولة وأتّخذ القرارات اللازمة، وأهملت أهلي فكنت لا آوي إلى فراشي إلّا في ساعة متأخّرة من الليل. أمّا النظام اليومي الذي كنت أَتَّبِعُهُ، فكان مضطربًا، فغالبًا ما كنت أتناول طعامي واقفًا ثم أخرج إلى السلاملك يوم الجمعة، أو أجلس في مكتبي وأستدعي كتبَةَ الشُّفْرَة ليرسلوا التعليمات إلى رجالنا في أقاليم الدولة، وأملي عليهم البرقيّات التي أرسلها إلى زعماء العالم. كانت غرفتي قيادة عامّة للجيش. وقد وضعتُ فيها خريطة عسكريّة لأتداول مع كبار الضبّاط والباشوات في الاستراتيجيّة الحربيّة. وكلّما بلغني نبأٌ عن انتصاراتنا سجدتُ لله ودعوتُ ضارعًا باستمرار النصر لنا.

ثم كنت أعمَد إلى إرسال الجرائد والصحف التي تنقُل أخبار الحرب وهزيمة اليونانيّين وانتصاراتنا عليهم إلى الحريم، فيهلِّلُونَ بِدَوْرِهِمْ ويَصيحون بالبشرى. ثم كنتُ أُكلِّفُ الخزندار الثانية مرّتين أو ثلاث مرّات في اليوم لكي يساعدوا جنودنا الجرحى بتوفير الملابس، والدعاء لنا بالنصر وقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء. أمّا حديقة السراي، فقد أمرتُ أن يُرْفَعَ فيها الأذانُ خمسَ مرّات في اليوم مع قراءة سورة الفتح مرّة في صلاة الصبح، وأخرى في صلاة المغرب، كما أوصاني بذلك الشيخ ظافر. كان الحريم أشبهَ بمعملٍ

للحياكة، فقد نُصِبَتِ الموائد الكبيرة ووُضعتْ عليها ماكينات الخياطة من نوع سينجر الألمانيّة الصنع، وحيكَتْ للجنود الجرحى ملابس للنوم، وأُعِدَّتْ لهم الضِّمّادات. فكانت حركة العربات التي تدخل القصر محمَّلة بالشَّاش ثم تعود محمَّلة بها بعد حياكتها منظرًا عجيبًا لم يتوقَّفْ طيلة الحرب. كانت زوجاتي وبناتي وأطفالي يشاركون في هذه المعركة بما يستطيعون.

اشترينا كثيرًا من آلات الخياطة الألمانيّة سنجر بواسطة أحد البلجيكيّين يدعى إدوارد جورس. وقد كنّا طلبنا من هذا البلجيكي أن يزوّد القصر بمجموعة من هذه الآلات لصنع ملابس للجنود الذين أصيبوا بجروح خلال الحرب. كان جورس ماهرًا في إصلاح آلات الخياطة، وضبط حركاتها الميكانيكيّة. وقد كان كثير الدخول إلى القصر ليصلح الآلات أو يأتي بأخرى جديدة. وقد عرض عليّ آلة سنجر رفيعة لها صندوق خشبي جميل. بالغ في نصحي لشراء هذه الآلة وحسَّن لي مزاياها لصنع ملابس الخليفة الرسميّة، وأصرَّ على أنّ جمالها يستدعي وضعها في دائرة السلطان كتحفة فنِّيّة تُعْرَض إلى جانب التحف الفنِّيّة الأخرى. وافقت على رأيه ووضعنا تلك الآلة في قاعة من قاعات الدائرة الهمايونيّة. ثم أمرتُ بوضعها في ورشة النجارة حتى أنقشَ على صندوقها الخشبي علامةَ السلطان، وتزيينها بآيات قرآنيّة بما يجعلها إسلاميّة عثمانيّة.

لقد مرَّ علينا زمن كنّا سادةَ العالم، وكان اسم الخليفة لوحده كافيًا في إدخال الرعب على قلوب أقوى أعدائنا. . واليوم صاروا يتندَّرُونَ بنا ويَنعَتونَ دولتَنا العليّة بالرجل المريض حتى يَغْرِسُوا الوهَن في أبناء الأمّة، فلا تقوى على النهوض. وقد قيَّض الله لنا هذه

الحرب التي شنَّها علينا اليونان بالوكالة عن الأمم المسيحيّة الغربيّة، فنصرَنا الله عليهم وجَبر قلوبنا بطعم النَّصر بعد طول كَسَاد. كنت أشتاق إلى ابنتي عائشة التي كانت في التاسعة من عمرها، كانت حريصة على المساعدة في تركيب الأزرار ولفِّ الضمادات وبعض الأعمال الأخرى. كانت القلفاوات يخبرنني بذلك. وتحوَّلت ساحة يلدز إلى مستشفى يأتي إليه الجنود الجرحى فيلقون من الرعاية ما هم له أهل، وتُجرى لبعضهم عمليّات جراحيّة يقوم بها جرّاحو القصر. كنت أزورهم بين الفينة والأخرى لأطمئنّ على أحوالهم. وعهدت إلى صهر شيخ الإسلام، الدكتور الجرّاح جميل بك بالإشراف على مستشفى يلدز. لم أعد أذهب إلى ورشة النجارة التي أقمتُها في القصر، وحوَّلتها إلى مستشفى بعدما وضعنا فيها الأَسِرَّة. وحينما أجد حرارة بعض الجنود الجرحى مرتفعة أطلب له ماء مثلّجًا وأضع فوطة مُبَلَّلَةً على جبهته بيدي لإنزال الحُمَّى. كانت هذه المواقف تبعث روحًا جديدة في الجنود ورجالات الدولة.

انهزم اليونان وسقطت الحكومة في أثينا، وصرنا على بعد مائة وخمسين كلم من العاصمة اليونانيّة، ولم يعد هناك جيش يحميها.. صارت الطريق مفتوحة والوصول إليها بأدنى مجهود! فطلبت الحكومة الجديدة من الدول العظمى الصُّلْح. ورغم انتصارنا فإنّ الدول الغربيّة المسيحيّة قد وقفت بجانب اليونان وضمَّنوا معاهدة الصلح موادَّ ظالمة بحقِّنا، وهدَّدوا بالحرب إن لم نوافق على توقيع المعاهدة. كان واضحًا التَّحَيُّز المسيحي السافر ضدّ دولة الخلافة الإسلاميّة. لم تبتعد أوروبا عن التعَصُّب الديني رغم الشعارات البرّاقة التي تدَّعيها حول حقوق الإنسان والحرِّيّات.

كان يهمُّها مصالحها الإمبرياليّة على حسابنا. وقَّعتُ المعاهدة بأقلّ قدر ممكن من الخسائر لفائدتنا، وحصلنا على تعويض مالي.

ازدانت استانبول بالأعلام والأضواء، وخرج الناس فرحين مستبشرين بالنصر، وجاءت الهدايا من كلّ مكان. أمّا قصر يلدز، فكان مدينة تنبض بالحياة والحركة. ذات صباح استأذَنَتْ عليّ ابنتي عائشة، وكانت تحمل شيئًا في يدها، لم تتكلَّم حتى قدَّمَتْهُ لي. فتحتُ الثوب الملفوف، فألفيت هديّة عَمِلَتْ على صنعها بيديها الصغيرتين. ثم قالت لي: هذه هديّتي لك يا أفندينا بمناسبة النصر، ثم قبَّلتني.

سررت بهذه الهديّة وبشعور ابنتي وغيرتها، ثم سألتها: ومن ساعدك على اختيار الثوب وتطريز هذه الزهور الجميلة؟

فأجابت: لقد عملتُ عليها بمساعدة معلّمتي كوثر هانم. أمّا هذا القماش من الأطلس الأزرق فقد اخترتُه بنفسي. كما صنعتُ لك يا أفندينا العزيز هذه السّجادة.

أخذتُها على ركبتي وقبَّلتُها على وجنتيها، ثم قلت لها: أحسنتِ صنعًا بنيّتي الجميلة. ثم وضعتُها على الأرض وطلبتُ منها أن تنتظرَ ريثما أعود. خرجتُ من الغرفة وعُدْتُ أحمِلُ علبةً في يدي، فعانقتُها وقلت لها: إنّني أُقدِّم لك ميداليّة الصنايع. ثم علَّقْتُها على صدرها.

فرحَتْ عائشة أيّما فَرَح بالميداليّة واعتبرَتها توشيحًا من القائد الأعلى للدولة على مُشاركتها في هذه الحرب. قلَّبَتْها فوجدَت اسمَها منقوشًا على ظهر الميداليّة.

* * *

كانت قد وصلَتْني بعض التقارير السرِّيّة من رجالي عن اجتماعات سرِّيّة كان يعقِدها أحد الحاخامات في استانبول مع بعض زُوَّاره من اليهود الذين يأتون من مختلف الأقاليم والمناطق والدول. وبلغَنا أنّه التقَى بالصحفي ورجل القانون اليهودي النمساوي تيودور هرتزل. وعلى إثر لقاءاته به بدأ هذا الحاخام يلتقي ببعض نظرائه الحاخامات الوافدين من مناطق أخرى. وممّا زاد من شكوكي حول يهود الدونمة أنّ مُخبِرنا الذي كان طالبًا يهوديًّا، يخدم لدى هذا الحاخام في استانبول ويدرسُ عليه. وقد ذكر لرجال التحرّيات أنّ عددًا من كبار الحاخامات لم يكن ينقصُ أو يزيدُ عن اثني عشر رجلاً، كانوا يدخلون الكنيس ويقفلون عليهم بشدّة. ثم يمكثون مدّة من الزمن في الكنيس، وبعد ذلك يخرجون واحدًا في إثر الآخر. وبمجرّد وداع الحاخام لنُظرائه يُسرِعُ إلى خزانته فيُخفي محفظةً كانت لا تُفارقه في صندوق مُتَوَارٍ خلف الكتب الكبيرة.

طلب رجالي من المُخبِر أن يحصلَ على مفتاح ذلك الصندوق، فذكر لهم أنّ الحاخام كان يضعه في عنقه وليس من

اليسير الوصول إليه إلّا عندما يدخل الحمّام، لكنّه كان يجهَلُ المكان الذي يُخفيه فيه بعد تجرُّده من ثيابه قبل دخول الحمّام.

أمرتُ بتشديد الحراسة عليهم، فبلغني أنّ الحاخامات يعتزمون السفر إلى أوروبا، وعلمتُ من التقارير السرّيّة أنّهم سيتوجَّهون قريبًا إلى سويسرا. زادت شكوكُنا لمّا أخبَرَنا الطالب أنّ الحاخام أرسله لحجز ثلاث عشرة تذكرة سفر بالباخرة إلى أحد موانئ إيطاليا، ومنها سيستقِلُّون القطارَ إلى مدينة بال في سويسرا. فلمّا سأله عن الغرض من هذا السفر ذكر له أنّه يعتزمُ اللقاءَ بنُظرائه والتعرّف على أحوال اليهود في تلك البلاد، عدا عن السياحة والاستجمام في تلك المدينة الجميلة، بالابتعاد عن صيف استانبول الحارّ. وصلَتْ تقارير أخرى من سائر الولايات والأقاليم تُؤكِّد سفرَ بعض كُبراء اليهود إلى أوروبا، وبالذات إلى سويسرا.

كان الطالب الذي يخبرنا جاسوسًا استعمَلناه بعدما ضبطناه يفعلُ الفاحشةَ ببنت الحاخام، فعرضَتْ عليه شرطة التحرّيات العملَ لديها مُقابل الصمت عن جريمته التي كانت ستكون لها عواقب وخيمة عليه مع الحاخام وداخل طائفته اليهوديّة. ولترضيته كانوا يدفعون له راتبًا شهريًّا، وطلبوا منه سرقة المفتاح من الحاخام أثناء دخوله الحمّام، واتّفقوا معه على خطّة سرّيّة.

فلمّا كان اليوم الموعود الذي يدخل فيه الحاخام للطهارة في حمّام خاصّ يدعونه «ميكفي» (Mikvé)، وهو حوض كان يدخله بعد مجامعة إحدى زوجاته أو قبل المناسبات الدينيّة اليهوديّة. كان اليهود الشرقيّون على خلاف اليهود الأشكناز يتزوَّجون أكثر من امرأة واحدة!

ترصَّد الطالب بالحاخام حتى نزع ثيابه ثم أخذ المفتاح ووضعه في كيس أودعه في صندوق خاصّ بأغراضه. دخل الحاخام الحوض الذي كان يشبه القبو، وبدأ أذكاره. فلمّا تأكّد الطالب من انشغاله فتح الصندوق وأخرج الكيس، ثم أخذ المفتاح. كان مفتاحًا قديمًا. أخرج من بين ثيابه لوحًا مسطّحًا يشبه مجلّدًا من قطعتين. وُضِعَتْ على سطح القطعة السفليّة من اللوح عجينة ليّنة، فسارع الطالب إلى وضع المفتاح على هذا السطح الليّن، ثم حَرِصَ على كبسه بالقطعة العلويّة من اللوح حتى غاص المفتاح في المادّة اللينة، فانتقش شكله على العجين حذوًا بحذوٍ. وبحرص مضاعف، عَمِلَ الطالب على إخراجه من جسم العجين. ثم عاد فكرَّر العمليّة على الوجه الثاني للمفتاح، وكذلك لجزئه السفلي. وبهذه الطريقة استطاع أن يحصل على نقش تامّ للمفتاح. لفَّ الطالب اللوح بسرعة بين ثيابه، ثم مسح المفتاح جيّدًا حتى لم يبق عليه أثر من نُثَارات العجين الليّن وأعاده إلى مكانه في الكيس ثم الصندوق. خرج الطالب بسرعة من دار الحاخام وقصد محلًّا لأحد صُنَّاع المفاتيح في سوق استانبول، فأخذ أحد رجال التحرّيات منه اللوح المسطّح، وناوله للصانع المفاتيحي بعدما أمره بصنع شكل المفتاح المنقوش على العجين نفسه. رجع الطالب بسرعة إلى دار الحاخام.

وفي اليوم الموالي قام الصانع المفاتيحي الماهر بإنجاز المطلوب، فتمّ تسليم نسخة المفتاح للطالب بعد مواعدة سَلَفَتْ مع رجل التحرّيات. ترصَّد الطالب بالحاخام حتى أخلد للنوم فدخل المكتبة وفتح الصندوق وأخرج بضعة أوراق كانت مخبَّأة بعناية.

أعاد إقفال الصندوق وإرجاع الكتب إلى موضعها، ثم خرج مسرعًا فلقيه أحد رجالنا الذي كان بانتظاره وأخذ منه الأوراق. قام الرجال باستنساخ الأوراق في مطبعة يلدز (كاغد خانة) طوال الليل، ثم أعادوها في الصباح الباكر إلى الطالب الذي كان خائفًا يرتجف. أسرع إلى بيت الحاخام الذي كان قد نهض من نومه وناداه كعادته، فلم يجبه. تسلَّل الطالب إلى المكتبة بسرعة فائقة وأعاد الأوراق إلى الصندوق السرّي وسط الخزانة، ثم أقفل بسرعة وأعاد الكتب إلى مكانها. وفي هذه الأثناء دخل الحاخام إلى خزانته فوجد الطالب يتفحَّص أحد الكتب. عاتب الحاخام الطالب وسأله عن سرّ غيابه، لكنّ المخبر سارع إلى إخباره بأنّه أمضى ليلته في قراءة المجلّد السادس من كتاب المِشْنَاه المتعلّق بقواعد الطهارة وطقوسها. تعجَّب الحاخام ونظر إلى الطالب نظرة مريبة، وسأله سؤالاً مباشرًا: ولِمَ تبحث عن معرفة قواعد الطهارة، هل أصبتَ امرأة أو ارتكبت خطيئة؟

سارع الطالب بالنفي واحمرَّتْ وجنتاه، وداخله الشكّ وظنّ أنّ أستاذه ربّما يكون قد علم بعلاقته بابنته. لاحظ الحاخام ارتباك الطالب فقال له مُطَمْئِنًا: بعد عودتنا من السفر سأحرص على تزويجك حتى لا تفكّر في أشياء من هذا القبيل.

احتار الطالب في كيفيّة التعبير عن فرحته، فهل يفرح بالسفر أم يفرح بالزواج، ولم يكن يتوقَّع أيًّا منهما، ولهذا بدت الدهشة عليه، فسارع الحاخام إلى طمأنته مرّة أخرى وتأكيد قوله، لكنّه أضاف قائلاً: إنّ أمرَ سفرنا خاصّ، ولهذا أطلب منك أن لا تخبر به أحدًا.

أجاب الطالب: حاضر يا سيّدي.

ثم قال الحاخام: والآن سأتركك تستعدّ لتجهيز نفسك للسفر، فلستُ بحاجة إليك هذا اليوم، فأنت حُرّ. وغدًا تأتيني بعربة في الساعة الثامنة صباحًا حتى نتوجّه إلى المرسى.

خرج الطالب فاعترض طريقه رجال التحرّيات وأخذوه إلى دائرتهم، وبعدما سألوه عمّا دار بينه وبين الحاخام، أمروه أن ينقل إليهم كلّ تفاصيل الرحلة إلى سويسرا. ووعدهم بذلك.

أمّا الأوراق التي اختلسها الطالب، فقد عهدوا بها إلى مترجم يعمل في قسم التحرّيات لينقل فحواها من العبريّة إلى التركيّة. فلمّا تمّت الترجمة أحضروا لي نسخة منها.

أمضيت تلك الليلة في قراءة تلك الوثائق وذهلت بما قرأت، فقد كانت تتضمَّنُ خطّة سرّيّة أعدَّها اثنا عشر حاخامًا يزعمون أنّهم من ورثة أسباط بني إسرائيل من نسل دواد. وهنا أدركت أنّ الاجتماعات السرّيّة التي كانت تعقد في بيت الحاخام هي لهؤلاء، وهم من حرَّروا هذه الوثيقة. كانت الوثيقة مشروعًا سيتمّ عرضه واعتماده من قادة يهود العالم في مؤتمر يهيّئون له في سويسرا لإقامة مملكة صهيون العالميّة تحت سيادة ملك من اليهود من نسل داود. كان جزء من الوثيقة يخصُّنا فقط، وجزء كبير يَخُصُّ روسيا والدول الغربيّة وباقي الدول الأخرى، وكيفيّة الوصول إلى الإمساك بزمام السياسة العالميّة من خلال التحَكُّم في الاقتصاد والمال والبنوك. أمّا على المستوى الفكري، فالوثيقة تدعو إلى تشجيع الحركات الفوضويّة والشيوعيّة والإباحيّة والعلمانيّة، وتقويض الإيمان والأديان سوى من الدين اليهودي الذي لا يستحقّه إلّا من

كان من أصول يهوديّة.. ودعوة أتباع باقي الأديان إلى اعتناق دين عالمي هو الماسونيّة يقوم على مبادئ الحرّيّة والمساواة والتضامن. تعجَّبت من الضغينة والاحتقار في هذه الوثائق السرّيّة لمن تسمّيهم الأمميّين أو «الغُويِيم». ومن الأمور الخطيرة التي تخصُّنا كانت قضيّة إيجاد وطن قومي لليهود. وقد وضعوا ثلاثة احتمالات، إمّا في كينيا، أو في الأرجنيتين، أو في فلسطين، لكن هذا الاحتمال الثالث كان مشروطًا بأمور، منها عرض رشوة كبيرة على السلطان لشراء أرض فلسطين وبيعها لليهود المهاجرين. وفي حال رفض السلطان لهذا العرض توصي الوثيقة بالعمل على إسقاط الخلافة بكلّ الوسائل الممكنة، وتشجيع القوميّين الأتراك، ونشر الفكر الماسوني داخل المؤسّسة العسكريّة والنخب الفكريّة من أجل توجيه الرأي العامّ التركي لقبول فكرة إنشاء وطن لليهود.

كاد يُغْشَى عليّ من هول ما أقرأ، ومن خطورة المخطّط الذي كان يعمل عليه هؤلاء!

لم أنم تلك الليلة، وطفقت أتقلَّب في فراشي أُفَكِّرُ في كيفيّة وضع حدّ لهذه المخاطر التي تريد أن تعصِفَ بدولة الخلافة واقتطاع أرض فلسطين منها، واستعباد المسلمين لغيرهم واستغلال خيراتهم، وتخريب بيوتهم بأيدي بعضهم.

وفي الصباح استدعيت بعض خاصّتي وتباحثنا في الموضوع، وفي السبُلِ الكفيلة لوقف هذه المؤامرة على دولة الخلافة. نصحني بعض رجالي بإيقاف المتآمرين فورًا، وركنت إلى فكرتهم؛ لكن بعد التحَرِّي علمنا أنّ السفينة الأجنبيّة التي تُقِلُّ زعماء اليهود قد خرجت من استانبول، وأنّ المتآمرين الاثني عشر كانوا قد غادروا البلاد.

راجعت الأمر مع رجالي، وارتأينا أن ننتظر ما تأتينا به التقارير والأخبار عن المؤتمر الذي يزمعون عقده في سويسرا.

بعد الظهر استدعيت الشيخ ظافر لأعرض عليه الأمر. رحَّبت به وقدَّمت له القهوة على العادة في استقبال الضيوف، ثم خرجنا نتنزّه في حديقة القصر حتى يصفو خاطري قليلاً برفقته. أطلعته على الأمر، وقلت له: لقد وصلتنا أخبار أنّ اليهود بتعاون مع الحركة الماسونيّة ينوون إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وقد حصلنا على وثيقة سرّيّة تشرح الخطوط العامّة للتحكّم في السياسة العالميّة تحت قيادة ملك من نسل داوود.

فقال الشيخ: سُحْقًا لهم، هل وصل بهم الأمر إلى نكران الجميل بعد أن عاشوا بيننا مُكَرَّمِين مُعزَّزين، لمّا لَفَظَتْهُم الأمم الغربيّة، فلم يجدوا غير بلاد المسلمين ليعمّروها ويسكنوها. هل تناسوا لمّا اضطَهَدَتْهُمْ الكنيسة فلم يجدوا ملجأ آمنًا إلّا بيننا؟

فقلت: لقد كنت دائمًا أَشُكُّ في ولاء يهود الدُّونَمَة، ولم أُصدِّق أنّهم أسلَموا إلّا ما كان من القِلَّة القليلة الصادقة. أمّا أغلبيّتهم فقد بَقُوا على مِلَّتِهِم فيما يخدَعون الناس بدُخولهم في الإسلام. لكنّي لم أستدعِك لهذا ولا لكي نتحدَّثَ عن النَّوايا القلبيّة، بل لكي أعرف منك ما يجب أن نقوم به حتى نَصُدَّ هذا الخطر.

فقال الشيخ: طبعًا لم آتِ للاستنكار، ولكنّي أريد أن أعرف أوّلاً ماذا تقول تلك الوثيقة السرّيّة التي وصلت إلى حضرتكم؟

فقلت: إنّها تتحدّث بلغة مجازيّة عن حيّة عظيمة ستلتهم مُلْكَ

جميع ملوك الدنيا، وهي تُقِرُّ بأنّ الحقَّ للقوّة وأنّ الحرّيّةَ مجرَّدُ فكرة، ولكنّ الحرّيّة الحقيقيّة هي امتلاك الذهب، وأنّ الحكومة الحقيقيّة هي التي تمتلك هذا الذهب، وأنّ الغاية تبرّر الوسيلة، ولهذا فهي تدعو إلى الإفساد بالمال ونشر الانحلال الخلقي والإرهاب وشراء الذمَم بالرشوة أو النساء أو الترغيب أو الترهيب للوصول إلى تلك الغاية التي يعملون لأجلها، وهي إقامة مملكة صهيون على الأرض التي ستحكم شعوب العالم، وسيكون مقرُّها في القدس الشريف على حدِّ زعمهم.

أخذ الشيخ يحوقل ويكرّر الحوقلة ويضرب يدًا بيد، ويهُزُّ رأسه غير مُصَدِّقٍ لما يسمَع، ثم قال: تلك ألاعيبُهم منذ البداية، ألم يعاهدوا الرسول ﷺ، وكتب معهم أطول معاهدة في تاريخ الدولة الإسلاميّة الناشئة فور وصوله إلى المدينة المنوّرة، لكنّهم نكثوا العهود وتحالفوا مع مشركي العرب من أجل إفناء الجميع. وقد وصف الحقّ بعض أهل المدينة بالنفاق ولم يصف أهل مكّة المشركين بذلك إلّا بسبب يهود المدينة المنافقين ومن والاهم من منافقي العرب. وقد صدق فيهم قول الله تعالى لما أخبرنا ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

تعجَّبت كما لو أنّي لم أسمع هذه الآية من قبل، فقلت: وما هو الإفساد الأوّل والثاني لبني إسرائيل؟

فقال الشيخ: لقد وضَّحه المولى في السورة نفسها بقوله بعد ذلك ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً﴾. فقد أخبرنا الحقّ أنّ الإفساد الأوّل كان فيما مضى قبل بعثة رسول الله ﷺ، لمّا بعث

عليهم رجالاً أشدّاء دمَّروهم وتخلَّلوا ديارهم، وهذا كان وعدًا من الله مفعولاً لما تجبّروا وأفسدوا في الأرض وأكَلُوا المال الحرام وحرَّفوا كتابَ الله من بعدما عقَلوه، وقذَفوا أنبياءهم بما لا يكاد يقوله إنسان في أَكْفَرِ الكَفَرَة وأَفْجَرِ الفَجَرَة، وقتلوهم مثل سيّدنا يحيى وسيّدنا زكريّا وأنبياء كثيرين آخرين، وكادوا يقتلون عيسى عليه السلام لولا أن رفعه الله إليه. وبعد ذلك تشتّتوا وتَقَطَّعُوا في الأرض أُمَمًا، فلا تجد بلادًا أو شعبًا إلّا وقد حلَّ فيه اليهود.

أمّا عن الفساد الثاني بمقتضى قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

فقاطعتُه مصعوقًا وكأنّي أسمع الآية لأوّل مرّة: أَوَ داخلون إلى المسجد الأقصى؟

فقال: ذلك كلامُ رَبِّنا، ونحن نؤمن به، وسنحاربهم عليه كما لم نحارب على شيء سواه، لكن وقتَ ذلك الدخول إلى المسجد لا يعلمه إلّا الله. ولو حصل فهو بشارةٌ لنا، وإنذارٌ لهم رغْمَ ما في صورةِ الدُّخُولِ من ظَفرِهِمْ وخِزْيِنا، لكنَّ أَمْرَ الله قد يأخذ صورةً على غير ما تتوقّعه الأنفس حتى تقومَ الحُجَّةُ الدَّامغة.

فقلت: والله لن أرضى أن أُسَلِّمَهُمْ شبرًا من فلسطين وبيت المقدس الشريف حتى أُهْلَكَ دُونَهُ. ولو يُعْمَل في جسمي بالمِبْضَعِ خيرٌ لي من أُسَلِّمَ حجرًا من أحجار المسجد الأقصى لهؤلاء.

فقال الشيخ: لا أهمِّيّةَ للبناء الذي بُنِيَ عليه المسجد الأقصى ولا لأحجاره رغم ما يكتَسيه ذلك من قيمة روحيّة وحضاريّة عالية،

لكن من منطق الحقّ والعقيدة، فأرض فلسطين وبيت المقدس للمسلمين، أمّا البناء، فيمكن أن تأتي عليه العوادي ويتهدَّم ثم يُعاد بناؤه، لكنّ الأرض تبقى ويرثها عباد الله الصالحون. فمهما علا البناء فوق الأرض يزول وتبقى الأرض المقدّسة للأمّة الخاتمة التي جاءت للعالمين بدون عصبيّة عرقيّة. ومهما نزل ذلك البناء تحت الأرض يبقى أيضًا لهذه الأمّة. لقد بنى عبد الملك بن مروان الأقصى، فأصبح أثرًا من الآثار الإسلاميّة الكبرى لكن قيمتَه تتجاوز هذا إلى قيمته في قلوب أمّة الإيمان. ولا شكّ أنّ قلب الخلافة الإسلاميّة قائم على ثلاثة أركان هي بيت المقدس، ومكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة. وهذه مدائن الرسالة الخاتمة المتعامدة. أمّا مدائن الخلافة فهي كثيرة في تاريخ الإسلام، لأنّ رحمة الله لا تنقطع عن الأرض بانتقال الرسول الخاتم إلى الرفيق الأعلى. فبالإضافة إلى المدينة المنوّرة التي كان يحكم منها الخلفاء الراشدون، انتقلت بعد ذلك إلى دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة ومراكش وفاس وتونس واستانبول.

فتح كلامُه شهيَّتي للسؤال فقلت له: لقد تعاقبَتْ على المسلمين عدّة دول منذ الخلافة الراشدة، فكم ستدوم قبل أن يرفعها الله؟

تفكَّر الشيخ برهة، ثم رفع رأسه وقال: قال الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه «لا تقوم الساعة حتى يكون في أمّتي اثنا عشر خليفة».

سكت الشيخ وكأنّه يحاول أن يجد تأويلاً صحيحًا لهذا الحديث، فعاجلته بالسؤال قائلاً: لكن عدد الخلفاء الذين حكموا

المسلمين أكبر من هذا العدد المذكور في الحديث. فالخلفاء الراشدون أربعة، إضافة إلى خلافة الحسن بن عليّ، القصيرة زمنيًّا قبل أن يتنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان، وخلفاء بني أميّة أربعة عشر، وخلفاء بني العبّاس أربعة وخمسون، أمّا آل عثمان فقد وصل عدد سلاطينهم حتى اليوم خمسًا وثلاثين. ومجموع الخلفاء الذين حكموا المسلمين يبلغ لحدّ الآن ثمانية ومائة.

ثم هناك أُمَوِيُّو الأندلس، وعدد خلفائهم ستّة عشر، والفاطميّون في مصر أربعة عشر بغض النظر عن صحّة خلافتهم وما نعرفه عنهم من مخالفات ومنكرات. والموحّدون مع الحفصيّين في الغرب الإسلامي ستّة وثلاثون، والمرينيّون ثلاثة وعشرون. ومجموع هؤلاء واحدٌ وتسعون خليفة.

تنهَّد الشيخ وقال: صدقت يا مولاي، لكن كلام الصادق المصدوق كان يقصد الخلفاء المتحقّقين بسرّ الخلافة على تمامه وكماله، وهؤلاء هم خلفاؤه على الحقيقة. أمّا الآخرون، فقد نالوا من الخلافة بعض أسرارها. وأنت يا مولاي إذا أمعنتَ النظر وجدتَ أنّ عدد الخلفاء في بلاد المغرب ومصر وصل إلى ثلاثة عشر ومائة (١١٣) باحتساب مدّة انتقال خلافة بني العبّاس من بغداد إلى القاهرة، وعدد الخلفاء في القاهرة اثنان وعشرون (٢٢). فالخلافة عند أهل المغارب، أهل الأسرار، قرآنيّة على عدد منازل أو سُور القرآن. أمّا عند أهل المشارق، أهل الأنوار، فهي قد وصلت إلى مجموع واحد وخمسين خليفة (٤ + ١ + ١٤ + ٣٢ = ٥١). الخلافة الراشدة (٤) ثم خلافة الحسن بن عليّ (١)، ثم خلافة بني أميّة (١٤)، ثم خلافة بني العبّاس في بغداد (٣٢)، وبعد ذلك انتقلوا إلى

القاهرة. وهي خلافة الحفظ (٥) حينما يسري فيها سِرُّ الواحد (١)، وأنت إذا أضفتَ لهذا العدد (٥١)، صورته في المرآة (١٥) صار المجموع (٦٦) على عدد الاسم المفرد «الله». فالخلفاء على الحقيقة لا يحكمون إلّا بسرّ تلك الفردانيّة. ولا عبرة هنا بمن كان منهم مخالفًا لبعض أحكام الشريعة، فالأمر يتعلّق بالنظام العامّ الذي يحكُمُهم لا من حيث أشخاصُهم، ولكن من حيث المقام الذي يشغلونه، والمبدأ العامّ الذي ينتظمهم، والوظيفة الشرعيّة التي يقومون بها والتي تتجاوز أشخاصَهم التاريخيّين. ولهذا فالخلافة محفوظة بالاسم (الله). أمّا خلافة بني عثمان فهي وسط بين أهل الأنوار وأهل الأسرار، فلا هي مشرقيّة خالصة، ولا هي مغربيّة خالصة، وقد استَوَتْ إسلامبول أو استانبول عاصمة آل عثمان بين قارّتين، قارّة آسيا الشرقيّة وقارّة أوروبا الغربيّة. أمّا عدد خلفائهم ابتداء من سليم الأوّل فلعلّه يكون، والعلم لله، ثمانية وعشرين أو تسعًا وعشرين، وأنت يا مولاي الخليفة السادس والعشرون. وهذه الخلافة العثمانيّة سِرُّها من نفَس الرحمن الساري في عدد حروف اللسان العربي البالغة ثمانية وعشرين أو تسعة وعشرين حرفًا باحتساب لام ألف (لا). والعدد الكلّي لجميع الخلفاء مائة واثنان وتسعون خليفة، وهو مجموع الأسماء الإلٰهيّة المائة (١٠٠)، وحقيقة اسم **محمّد** (٩٢). لأنّ الخلفاء لا يحكمون إلّا لقيام آثار تلك الأسماء بهم. كما أنّهم خلفاء للنبي عليه الصلاة والسلام، فلا شكّ أنّ لهم حظًّا من الأسماء الحسنى المائة، وحظًّا من وراثة المصطفى عليه الصلاة والسلام من حيث اسمه محمّد (٩٢).

فقلت: هل أفهم من كلامك أنّنا في الشوط الأخير من

الخلافة ولن يأتي بعدي سوى ثلاثة خلفاء يُكملون دورة الخلافة؟

فقال الشيخ: هذا ما أشهدنيه الحقّ في رؤيا صالحة، وأخبرني بمدّة الخلافة وأعداد الخلفاء رجل من رجال الغيب، لكن اسمح لي يا مولاي أن أُذَكِّرَكَ بأنّ الخلافة من حيث إنّها قلبُ العالم وقلبُ هذه الأمّة المحمّديّة، ستكون على عدد اسمه ﷺ **«ياسين»**، مائة وواحدًا وثلاثين خليفة.

فقلت: ولماذا ذلك، وكيف ذلك؟

فقال الشيخ: لأنّ الخلفاء ورثة مقام ياسين (١٣١) ينزلون بدرجة واحدة عن **قلب** (١٣٢) **محمّد** (١٣٢) عليه الصلاة والسلام، وهذه الدرجة هي درجة النبوّة والرسالة في مقابل الخلافة، لكنّهم حين يتولّون الخلافة فإنّهم يستمِدُّونها وراثةً من **قلبه** الذي تشعَّبَتْ منه أجزاءُ الإسلام (١٣٢)، وأجزاء الإيمان (١٠٢) وأجزاء الإحسان (١٢٠). ومجموع هذه الثلاثة (٣٥٤)، وهي أيّام العام القمري الذي جاء به الشرع المحمّدي. فأيّام المؤمنين على الحقيقة هي أجزاء الإسلام والإيمان والإحسان التي يعمُرونَها بالقُربات على طول السنة الهجريّة القمريّة.

أمّا عن السؤال الآخر حول الكيفيّة، فكانت الخلافة وفق الترتيب التالي: ٤ + ١ + ١٤ + ٥٤ + ١٦ + ١٣ = ١٠٢. فإذا أضفنا لهم ٢٩ صار العدد الكلّي ١٣١، وهو عدد كلمة «ياسين».

فقلت: وكيف احتسبت هذا الترتيب؟

فقال: الخلفاء الراشدون أربعة، إضافة إلى خلافة الحسن بن عليّ (١)، ثم خلفاء بني أميّة (١٤)، وآل العبّاس (٥٤) اثنان

وثلاثون في بغداد (٣٢)، واثنان وعشرون في القاهرة (٢٢).

وأمويّو الأندلس (١٦)، والموحّدون في الغرب الإسلامي (١٣)، فالمجموع ١٠٢، يضاف إليهم ٢٩ خليفة، وهو العدد الذي سيكون في دولة آل عثمان بإذن الله، لأنّ الخلافة لم تبتدئ فيهم إلّا بعد دخول سليم الأوّل إلى مصر لمّا تنازل له محمّد الثالث المتوكّل على الله آخر خلفاء بني العبّاس عن الخلافة التي كانت قد انتقلت إلى القاهرة قبل قرنين ونصف القرن، أي إثر سقوط بغداد وتدميرها من قِبل المغول. والسلطان سليم الأوّل هو تاسع بني عثمان، وأوّل خلفائهم.

ولم أحتسب خلفاء الحفصيّين والمرينيّين لأنّ خلافتهم كانت محدودة. ونحن إذا تمعَّنَّا جيِّدًا في استمداد الخلفاء من حقيقة **ياسين** (١٣١) سواء منهم أهل الأنوار المشارقة، فَسَنُلْفِي أنّ عدَدَهُم بلغ واحدًا وخمسين. أو أهل الأسرار المغاربة، فسنلفي أنّ عددهم بلغ أيضًا واحدًا وخمسين. ثم إذا أضفنا لهم تسعًا وعشرين لخلفاء الدولة العليّة العثمانيّة (٢٩)، فيكون مجموع درجات الخلافة قبل أن ترفع على عدد أجزاء حقيقة ياسين التي استمَدُّوا منها.

فقلت: ولماذا كان الاستمداد من حقيقة **ياسين** بالأساس؟

فقال الشيخ البصير بأمور الولاية والمتحقّق بمراتب الخلافة الباطنة: الخلافة كما ذكرتُ لك يا مولاي لها صور متعدّدة، فمنها الظاهر ومنها الباطن، وكلّها تستمِدُّ من حقيقة الألوهيّة وحقيقة النبوّة، وقد تمَّ تخصيصُ الوراثة من حقيقة **ياسين** لارتباطه بحقيقة القلب أوّلاً، فياسين قلب القرآن، والخلافة تستمِدُّ من القرآن، وقلب القرآن سورة ياسين، وقلب ياسين قوله تعالى ﴿سَلامٌ قَوْلاً

مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾. فالخلافة لا تستقيم إلّا من استمدادها من اسمه تعالى **الرب الرّحيم**، ومحلّ الرحمة في الإنسان القلب. فلا يَخْلُفُ الخليفةُ ولا يَحْكُمُ إلّا إذا تحقّق بمعنى الرحمة الإلٰهيّة المحمّديّة. ثم إنّ ياسين لها علاقة بالحكم والحكمة وفق حكم سُنَّة الرسول، ولهذا استهلَّ المولى هذه السورة بقوله ﴿يس والقُرْآنِ الحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾، فوصفه بنعت «الحكيم» بينما سمَّاه في غير ذلك من المنازل القرآنيّة قرآنًا مجيدًا وعظيمًا. وتخصيصه **بالحكيم** إشارة واضحة إلى أنّ الحكمة ثمرة الحكم التي يجب أن يتحلَّى بها كلّ حاكم في حكمه للناس. كما أكَّدَ على رسالته لأنّ الخلفاء يرثون الرسول في الحكم.

فقلت: يا شيخ ظافر، إنّك تنعِيني لنفسي وتنعي الخلافة للأمّة بقولك إنّنا على مَشارف رفعها من العالم.

فقال الشيخ ظافر: حقٌّ ما تقول يا مولاي، ولكن ألا ترضى أن تكون قائمًا بحقيقة ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمُ أَنِ **الحَمْدُ** للهِ رَبِّ العَالمِينَ﴾؟

فقلت: بلى!

فقال الشيخ: فأنت عبد **الحميد**، وستنتهي الخلافة الحقيقيّة عند **الحمد**. وسيبقى **المجد**[1] لله في آخر رَمق لها ﴿إِنَّهُ **حَمِيدٌ مَجيدٌ**﴾.

فقلت: الحمد لله ربّ العالمين. وماذا سيكون بعد الخلافة يا شيخ ظافر؟

---

(١) الخليفة **عبد المجيد الثاني** هو آخر الخلفاء العثمانيّين.

فقال: لا تستعجل ذلك اليوم يا مولاي. لكن زمانَه قد أَظَلَّنَا، مصداقًا لقول الله تعالى ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. لقد قال المصطفى ﷺ «تكونُ النبوّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعَها، ثم تكونُ خلافة على منهاج النبوّة، فتكونُ ما شاء الله أن تكونَ، ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعَها، ثم تكونُ ملكًا عَاضًّا، فيكونُ ما شاء الله أن يكونَ، ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعَها، ثم تكون مُلْكًا جَبْرِيَّة، فتكونُ ما شاء الله أن تكونَ، ثم يرفعُها إذا شاء أن يرفعَها، ثم تكونُ خلافة على منهاج النبوّة». حينها سيخلعُ العثمانيّون قميصَ عثمان، **وسيأتي** عليهم زمانُ **الترك**.

فقلت: هل سيعود الترك إلى الحكم بعد العثمانيّين؟

فقال الشيخ: بل سيأتي **تَرك** الخلافة حينما سيحكُمُ **التُّرك** القوميّون الطُّورانيّون.

فقلت: ومن سيكونُ زعيمُهم؟

فقال الشيخ: سيكون اسمُه حاملاً لحقيقة إتيان الترك، وهو **أبُ الأتراك**.

فقلت: وهذا يسمّى في لغة الترك، **أتاتورك**.

فقال الشيخ: تلك حقيقتُه وذلك اسمه. ولن يكونَ إلّا ما أراد الله.

ثم سألته: أليس لسلاطين الدولة العثمانيّة السابقين على قيام الخلافة بها، حظٌّ في الخلافة من سِرِّ ياسين؟

فقال الشيخ: لقد ذكرتُ لك يا مولاي أنّ الخلافة رحمة من الله لاستمدادها من الربّ الرحيم في قَلْبِ قَلْبِ القرآن ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً

مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾. ولهذا ففضل الخلافة يعُمُّ على الدولة العثمانيّة كلِّها منذ بدايَتها إلى نهايتها. ولو أمعَنَّا النظر لرأينا أنّ حكم آل عثمان ابتدأ مع عثمان الأوّل بن أرطغرل الذي أعطى لهذه الدولة العليّة العثمانيّة اسمَها، فكيف لا ينسحب على المجموع فضلُ الخلافة؟ وحكمُ الاسم في كلّ شيء ثابت لا يُنكره الشرع. وقد وُلد السلطان عثمان في سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، ولن تُلغى الخلافة العثمانيّة حتى تستوفي مدّة ستمائة وستّة وستّين عامًا ابتداء من سنة ولادة مؤسّس الدولة السلطان عثمان بن أرطغرل. ومجموع هذه المدّة هي المرتبة الوسطى للاسم المفرد (الله) لحقيقة أنّ هذه الأمّة وَسَطٌ بين الأمم، ثم تكون الغلبة في دول الغرب لدورة ولاية الشيطان، والظلّ الظلماني الدجّالي المسيخ الحامل لحقيقة تلك المرتبة الوسطى أيضًا. كما أنّها مرتبة وسطى بالنظر إلى الخلافة الراشدة في البداية، والخلافة على منهاج النبوّة التي ستختَم بها دورة الخلافة من العالم. وعدد علوم الخلافة ٦٦ (الله) كما بيَّنها ترجمان المعارف القرآنيّة، الشيخ الأكبر رضوان الله عليه في منزل سورة النحل من الفتوحات المكّيّة. فهذه حقيقة الخلافة، والقائمون بها لاهجون بذكر الله.

ستكون مدّة الخلافة العثمانيّة يا مولاي من سريان حقيقة الياء (١٠) في حقيقة السّين (٦٠) من «يـ س"، فيكون المجموع ١٠ × ٦٠ = ٦٠٠ عام. ولمّا كانت قائمة بسرّ الاسم المفرد «الله» (٦٦)، فتنسحب بركته منذ ولادة أوّل سلطان، وستكون مدّتها ٦٦٦. وأنت يا مولاي تسكن قصر يلدز الذي معناه في اللسان التركي «النجم»، لكن حقيقته الباطنة هي أنّه تحت قبضة الاسم «الله"، فعدد «يلدز»

(٥١)، ومرآته (١٥)، ومجموعهما (٦٦). فالخليفة العثماني يسكن في حَرَم الاسم، وبه يستمدُّ الشرعيّة والهداية ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، فهذا سرٌّ من أسرار الخلافة. وسوف يُطلِعُك المَولى على سرّ خلافتك ومُدَّتها وسِرٍّ استمدادها من حضرة الاسم المفرد. ثم إنّ عدد «**عثمان**» ٦٦١ فإذا أضفنا له ٥ وهو عدد أحرفه «**ع ث م ا ن**»، صار المجموع ٦٦٦. فهذا سرّ الخلافة العثمانيّة من سرّ سيّدنا عثمان رضي الله عنه، والذي أخَذَ اسمَه أوَّلُ سلطان في هذه الدولة العليّة. وهذا رَدٌّ على كلٍّ من أنكرَ خلافة آل عثمان.

فقلت: وكيف ذلك؟

فقال الشيخ: أنت تعلم أكثر منّي أنّ الإنجليز والفرنسيّين روَّجوا لفكرة التشكيك في خلافة آل عثمان من خلال دفع بعض المتفقّهين إلى الحديث عن شَرط القرشيّة في الخلافة. والأمر كان لقريش في البداية بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام «يا معشر قريش إنّكم أهلُ الأمر ما لم تُحْدِثُوا، فإذا غيّرتُم بعثَ الله عليكم مَنْ يَلْحَاكُم كما يلحَى القضيب». وفي الحديث غُنية عن البيان. وعدد قريش على مدّة الخلافة العثمانيّة كما بيَّنت لك. فقريش هي القبيلة المحمّديّة صاحبة دولة الذكر وحاملة لواء الخلافة والإمامة إلى يوم القيامة، لكن قد تنتقل الخلافة إلى غيرهم لسرّ يعلمه الله.

فقلت: لقد ذكرتَ أنّ مدّة حكم آل عثمان منذ ولادة أوّل سلطان في الدولة عثمان أرطغرل سنة ١٢٥٨ م، ستستمرّ مدّة ٦٦٦ سنة، فهل هذا يعني أنّ نهايتها ستكون سنة ١٩٢٤ م؟

فقال الشيخ: العلم لله، لكن ذلك ما أخبرني به رجل الغيب الذي رأيته في الرؤيا المناميّة.

فقلت: لكن، دعني أقول لك بأنّ تلك المدّة المذكورة (٦٦٦) تعني لدى اليونانيّين والمسيحيّين بصفة عامّة إشارة إلى الدجّال أو الدابّة، ممّا هو مذكور في مرائي يوحَنّا من الإنجيل. وقد تمحَّلوا عبر التاريخ في وَصْم بعض الناس بها. وقد تجرَّأ إنوسنت الثالث حَبْرُ رومية الأعظم الَذي دعا إلى شنّ الحروب الصليبيّة واحتلال بيت المقدس، فأقنعهم بأنّ اسم **محمّد** بلغتهم Maometis يدلّ على الدجال بحساب الجُمَّل عندهم، ولا زالوا يردِّدون هذه التفاهات إلى اليوم كما وقفتُ عليها في بعض مكتوباتهم، ولا يدركون أنّهم بهذا القول يؤكّدون هيمنة نبيّ الإسلام وأحقِّيَّته على خُرافاتهم وضَلالهم.

فقال الشيخ: العدد ٦٦٦ هو عدد نوراني، وإليك مثالاً واحدًا. إنّ الجهات التي تحكم الموجودات ستّ هي: يمين شمال، أمام خلف، فوق أسفل. فهذه هي المحدّدة لهويّة كلّ مخلوق لأنّها هي معروفُه الذي لا يخرُج عنه، فكيف يصبحُ هذا المعروف الذي لا ينفَكُّ عنه أحدٌ من المخلوقات هو عين النَّكرة والمنكر حينما نقول إنّه هو الدجّال؟ فالستّة أوّلُ عدد تامّ، وله الإحاطة المكانيّة كما رأينا، كما أنّ له الإحاطة الزمانيّة، لأنّ الخَلْقَ تَمَّ في ستّة أيّام. هذا في الوحدات، فإذا انتقلنا إلى العشرات، وجدنا أنّ عدد كلمة «الله» بحساب الجمل ٦٦، ولهذا كان عدد حروف سورة الإخلاص هو نفس هذا العدد لدلالة تلك السورة على التوحيد الحقيقي. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ فحيثما وجَّه الإنسان وجهه إلى أيّ جهة من الجهات الستّ، أو أيّ قبلة وجد الله معه في قبلته ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾. ولهذا تَثَنَّتِ

الجهات الستُّ وسَرَتْ في العشرات للدلالة على حقيقة الهويّة العارية عن كلّ مخلوق (هويّة الحقّ)، والدلالة على حقيقة الهويّة السارية في كلّ مخلوق (هويّة الخلق) في الآية ﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾. ثم إذا ارتفعنا بهذا العدد إلى مرتبة المئات أعطانا ٦٦٦، وهو العدد الشمسي القطبي، ومحلُّه السماء الرابعة، فعدد **إدريس** الذي رفعه الله مقامًا عَلِيًّا ٥١٥، وعدد **عيسى** عليه السلام (بإشباع الألف حركتين) الذي رفعه الله إليه ١٥١، ومجموعهما ٦٦٦. والمسيح ابن مريم هو الذي سيقتل المسيخ الدجّال الذي ذكَرَتْ نصوصُهم أنّ عددَه ٦٦٦. وإدريس وعيسى كلاهما طبيب للأجسام والأرواح، مُدَاوٍ للكُلوم. فكلّ حقيقة نوارنيّة لها ظِلُّها الظلماني. وكلاهما يستمِدُّ من حقيقة «**يس**» لهذا ورد هذا الاسم في قلبِ «ع **يس** ى»، بينما ختم حقيقة اسم «**إدر ـ يس**». ثم إذا واصلنا المسير، نحو مرتبة الألوف، ألفينا أنّ بعض علماء المسلمين قد أوصل عدد آي القرآن إلى ٦٦٦٦ آية. فها أنت ترى يا مولاي هيمنة هذا الدين ونصاعَتَه على التدجيل. والحرب التي يشُنُّها الدجاجِلة على اختلافهم لتقويض الخلافة ستكون بين النور والظلمة. إنّ علومَ الخلافة كما ذكرتُ لك هي من سِرِّ التخَلُّق بحقيقة الاسم المفرد «الله» (٦٦)، والمتّبعة لنموذج الكمال «محمّد» (٩٢)، ومجموعهما ١٣٢، وهو عدد كلمة «إسلام»، وكلمة «قلب» وهي الخلافة الراشدة في الأمّة التي تحكم بِسْمِ الله. وانظر يا سيّدي إلى كلمة «بسم» تجد أنّك إذا وضعت عددَ كلّ حرف فوقَه أعطتك ٤٣٢، وهذا العدد مع صورته ٢٣٤ مجموعهما يعادل العدد ٦٦٦، للدلالة على أنّ الخلافة تكون في الظاهر والباطن بسرّ التخلّق باسم الله. فالخليفة هو حقًّا من تخلّق بالاسم «الله»، حينها يصبح على قلب

محمّد. وهذا البيان كاف ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وإلّا فنحن في بحر لا ساحل له من عظمة الله وجلاله.

فقلت: إذا كانت هذه مدّة الخلافة العثمانيّة، فكم هي مدّة الخلافة بصفة عامّة، وما هو المعتبر في انطلاقها؟ أفدني أفادك الله.

فقال الشيخ: لقد أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام أنّ الخلافة الراشدة التي على منهاج النبوّة ستكون ثلاثين سنة، لما قال «الخلافة في أمّتي ثلاثون سنة»، يقصد الخلافة التي على منهاج النبوّة، خلافة أبي بكر سنتين، وعُمَر عَشْرًا، وعثمان اثنتي عشر، وعليًا سِتًّا رضي الله عنهم أجمعين. أمّا المُلك العَاضُّ أو العَضُوضُ الذي يأتي في إثر بعضه، فهو الذي شهدته الأُمّة من انتهاء الخلافة الراشدة إلى يومنا هذا، وسيأتي بعد ذلك حكم جبري استبدادي، فيستمِرُّ مُدَّة إلى أن يرفعه الله، ثم تعود الخلافة على منهاج النبوّة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

ثم إنّ حساب الأدوار الزمانيّة والحضاريّة للأمّة يُعْتَبَرُ فيه أحد أربعة أو خمسة أشياء: مولده ﷺ، أو بعثته بعد مرور أربعين سنة (٤٠)، أو هجرته بعد نحو خمسين سنة (٥٠)، أو وفاته بعد نحو ستّين سنة (٦٠)، أو نهاية الخلافة الراشدة بعد نحو أربعين سنة من هجرته (٤٠). وقد قال النبي ﷺ «إن صَلُحَتْ أُمّتي فلها يوم، وإن فَسَدَتْ فلها نصف يوم»، والغالب أنّه يوم من أيّام الربّ، وهو ألف سنة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. ويتوافق مرور ألف عام على الخلافة تقريبًا بعد فتح القسطنطينيّة. وقد بلغت أَوْجَهَا مع الخليفة سليمان القانوني. وبعد ذلك انتهت دورة هيمنة

الخلافة الإسلاميّة حوالى ١٠٧٠ أو ١٠٨٠ سنة من مولده ﷺ. ويمكن استخراج هذه المدّة من قوله تعالى في سورة يس ﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم﴾. فوجه الدلالة في كلمة «لمستقرّ» وعددها ١٠٧٠، لأنّ مستقرّ جريان شمس الخلافة بدءًا من إحدى نقط انطلاقها كما حدَّدْتُهَا لك سابقًا يقف عند بلوغ الخلافة ذلك الحدّ. وهذه المدّة هي من سريان ٣ × ٣٦٠، وهو عدد دورات الخلافة الثلاث: مشرقيّة، ومغربيّة، وممتزجة بينهما. وانطلقت حضارة الدجّال بعُتُوٍّ متزايد حتى دخل الاستعمار بلاد المسلمين. وستستمرّ سطوة هذا التدجيل الظلماني حتى يدخلوا المسجد الأقصى الذي ذكره الله في سورة الإسراء حيث عرَج نبيُّنا من بيت المقدس إلى قاب قوسين أو أدنى ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾. وسيكون لديوان أولياء الشيطان الباطني المحارب لديوان أولياء الرحمٰن مساقط خارجيّة ستعمل على زرع كيان غريب في قلب الأمّة في القدس الشريف.

فقلت: ما معنى قوله تعالى ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾؟

فقال الشيخ: التتبير التدمير، أي سيعود ما بنوا من البنيان العالي تبرًا وترابًا. والتبر فتات الذهب أو الفضّة قبل صياغتهما، فهي دلالة على أنّ ما بنوه غصبًا من البنيان العالي **بالذهب والفضّة سيَذهب وسيُفضي** إلى التراب.

فقلت: ها قد رجعنا إلى بداية حديثنا الذي انطلقنا منه بعد هذه السباحة في مراتب الخلافة وتسلسلها عبر التاريخ، وبداياتها ثم ارتفاعها، كما رفع الله إليه المسيح عليه السلام. وإنّ أوّلَ خطّة

أتّخذها هي أن أجعل سنجق القدس مستقلًّا عمّا سواه حتى نتمكّن من منع هجرة اليهود إلى فلسطين والإقامة فيها. وهناك إجراءات أخرى سرِّيّة سنقوم بها. وأرجو أن تكتب إلى جميع التكايا بالاحتراس من هؤلاء، وَتَتَبُّعِ أخبارهم والحيطة ممّا يُخَطِّطُونَ له.

أومأ الشيخ رأسه بالإيجاب، لكنّه كان منشغلاً بإبعاد بعوضة تَحوم في الأجواء قد أزعجته، فقال: لقد تكاثر البعوض يا مولاي هذه الأيّام في التكيّة، ولا ندري كيف نُعالج هذه الآفة؟

تفكَّرْتُ في قوله عن البعوض، ولم أستطع أن أمنعَ المماثلة بين البعوض الذي يريد أن يَفْتِكَ بالخلافة وأرض المسلمين، فقلت: سأُرسِل لك بَيْضَ النَّعام لتضعه في التكيّة فإنّه يَطْرُدُ البعوض عند إضاءة المصابيح ليلاً.

فقال الشيخ: بورك فيك يا مولاي، واسمح لي أن أستأذن منك الآن.

أذِنتُ له فخرج متباطئًا يَجُرُّ خطواته في وقار. ركب العربة التي أَقلَّتْهُ إلى التكيّة.

* * *

أرسل لنا الطالب تقريرًا أوّليًّا في البداية عن مؤتمر بازل في سويسرا، الذي حضرته وفود كثيرة بلغ عددها ٦٦٦ مشاركًا، لكنّ الطالب توقَّف عن إرسال تقارير دوريّة واختفى أثرُه. كما أنّ أستاذَه الحاخام لم يَعُدْ من بازل، ولا شكّ أنّ أحدًا من أبناء جِلدتهم المندَسِّينَ بيننا أبلغَهُم بأنّهم سوف يُعْتَقَلُونَ فَوْرَ دخول أراضي الدولة. كان سفيرُنا في برلين قد أرسل موظّفًا ليُتابع جلسات

الصهاينة، وأرسل السفير تقريرًا إلى الباب العالي قال فيه «إنّ اليهود يخطّطون لإقامة دولة كبيرة لهم في فلسطين». كان هذا مؤشّرًا كافيًا على خطورة الوضع، وصدق ما ذكره لي الشيخ عن الموضوع. وقد تبنَّى المؤتمرون بأغلبيّة كبيرة الدعوة إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكتبَتِ الصحف الغربيّة عن الموضوع ورحَّبَتْ بالفكرة. علمنا أنّ تيودور هرتزل اليهودي النمساوي هو الذي كان يُنَسِّقُ بين جميع هذه الوفود المشاركة في المؤتمر. وكان قد وصل إلى استانبول لمقابلتي قبل سنة، وتوسَّط له مجموعة من الناس لكنّي رفضتُ مقابلَته وأخبرتُ الوُسَطاء بأنّ أرض فلسطين ليست للبيع. وقد اقترح مُقابِل إنشاء دولة يهوديّة في فلسطين تكونُ تابعة للدولة العثمانيّة تسديدَ جميع ديوننا، وتعويضًا ماليًّا بعشرين مليون ليرة ذهبيّة، كما اقترح أن يَبْذُلَ أقصى جُهده لإنهاء الإرهاب الأرمني، وتدخُّلات الدول الغربيّة في سياسة الدولة العثمانيّة. لمّا سمعتُ هذه المقترحات عَلِمْتُ قوّةَ الصهيونيّة بحيث كان بإمكانها وقفُ الإرهاب الأرمني وتدخّلات الدول الغربيّة في شؤوننا، ممّا يعني أنّ الحركة الصهيونيّة هي التي كانت تقف وراء ذلك الإرهاب وذلك التدخُّل المستمِرّ من قِبَلِ الدول الغربيّة في شؤوننا.

كانت الوثيقة السرّيّة التي وقعَتْ بين أيدينا هي موضوع المؤتمر، لكنّها لم تُوَزَّعْ بل انشغل المؤتمرون بجدول أعمال يتضمَّنُ النقاط المفصَّلة في الوثيقة من دون الإفصاح عن الخطوات العمليّة السرّيّة لتنفيذها، والتي كنّا قد وقفنا على خطورتها في الوثيقة المذكورة.

وبعد أن فشلَتْ محاولاتهم في الضغط من خلال الرسائل،

كلَّفوا سفراء الدول الغربيّة بالتوسُّط للسماح باستقبال ذلك الصحفي، فكان الجواب مماثلاً. وتوسَّل هرتزل مرّة أخرى بالإمبراطور الألماني للتوسّط، وطلب وضع الشركات اليهوديّة في تركيا تحت الحماية الألمانيّة، لكنّ الإمبراطور لم يفتح الموضوع معي للعلاقات المتميّزة بين بلدينا.

ثم انتقل الأمر إلى التهديد بطريقة غير مباشرة، ففي سنة تسعة وتسعين وثمانمائة وألف، قمتُ من النوم مذعورًا بعد أن أخبرني خاصّتي باندلاع حريق في القصر. سألت عن أهلي وأولادي فطمأنوني. كانت القلفاوات تهتمّ بالصغار وتساعدهُم على الخروج من دائرة الحريم. رأيت ابنتي عائشة تبكي رفقة إحدى القلفاوات فحمدت الله على سلامتها، ثم هدَّأتُ من روعها. أحاط بالقصر دخان كثيف ولم نَعُدْ نرى شيئًا، وكثر اللَّغَط والهرَج والصياح والبكاء. وشَمَّرَتِ النساء عن سيقانهنّ وأمسكْنَ بدِلاءِ الماء لإطفاء النيران التي اشتعلَت في دائرتي. لم يكن أحد يعرف شيئًا عمَّا جرى. وكان رجالي قد اقتادوني إلى مكان آمن في الدائرة الصغرى، فأمرتُ بحضور الأميرات والزوجات إلى هناك. وقفَتِ القلفاوات تحرُس الحريم حتى لا يتسلَّلَ أحد إليه، بينما كان الحرّاس يطوفون في الخارج. وقد شَبَّ الحريق في وسط السراي، ولو تمكَّنَ من التقدُّم لذهب بكلّ شيء وتحوَّل إلى رماد. حَزِنْتُ على آلة الخياطة سِنْجِر التي الْتَهَمَتْهَا النيران بعد أن شارفتُ على إنهاء العمل عليها وتزيينها بما يليق بالخلافة.

كانت المياه متوافرة، فاستطاع رجال الإطفاء السيطرَة على الحريق وإخماده. وبعد ذلك بدأتِ التحرّيات في معرفة السبب،

فعلمتُ أنّ النيران انطلَقَتْ من المخزن المخصَّص لتخزين الأخشاب اللازمة لورشة النجارة التي أعملُ بها في أوقات فراغي. وأَفْضَتِ اللجنة المكلّفة بالتقرير أنّ سببَ الحريق إجرامي، وأنّ عناصرَ متعدّدة تُظهِرُ بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ أحدًا من داخل القصر هو الذي أشعل النيران ووضع الوَقود لكي تلتهم الخشبَ بسرعة. كان من المستحيل أن يتسلّل أحد إلى السراي للقيام بهذه الجريمة نظرًا لارتفاع جدران القصر الخارجيّة. عهدت إلى راغب باشا وعزّت باشا برئاسة فريق التحرّي لإجراء التحقيقات، فَبَدَآ باستدعاء القلفاوات والآغوات لاستجوابهم وإجراء التحقيقات المشدّدة معهم.

الشيءُ المقلق هو أنّي لم أَعُدْ أَثِقُ حتى في الناس الذين يشتغلون معي، وهذا سبّبَ لي حُزْنًا وأرَقًا. لم تُفْضِ التحقيقات إلى كشف الفاعل أو الفاعلة. حاولتُ أن أتذكَّرَ ما حصل في آخر مرّة دخلتُ فيها ورشة النجارة، فقد دخلَتْ إحدى القلفاوات واقتربَتْ من آلة الخياطة سِنجر تتأمَّلُ في جمال نقوشها، ثم أقفلَتْ عليَّ الورشة. استغربتُ من سلوكها وناديتُ عليها فأخبرتني أنّها لم تكن تَعْلَمُ بوجودي في الورشة. نَسِيتُ الحادثة إلى أن تذكَّرتُهَا الآن. فكَّرْتُ في كيفيّة انتزاع اعترافها بالطرق السلميّة، فدخلتُ الدائرة، وجلستُ لتناول الطعام كالعادة مع زوجتي مشفقة قادين أفندي. كانت القلفة «سِرّ الجمال» تقوم على خدمتنا، وبجانبها القلفة «فَلَك سُو»، بينما تقف الخزندارات عند الباب. رفعتُ رغيفَ الخبز وقبّلته ثم قلتُ لجهة زوجتي: وحقِّ هذه النعمة إنّني لن أعاقبَ من فعلَتْ ذلك أيًّا كانت، بل على العكس سوف أُعْفِيهَا من الخدمة، وأُرسِلُهَا على أحسن ما يكون، وكلّ ما أَطلبه أن أَعرفَ من تكون.

فقالت زوجتي: أفندينا، إن شاء الله تعترف، وهذا ما أتمنّاه على الله.

وعندئذ ردّدَتْ كلّ الحاضرات: آمين.

طلبتُ من عزّت باشا أن يستدعوا تلك القلفة لإجراء التحقيق معها. قام المحقّق بالتحرّي معها في الموضع الذي شبَّت فيه النيران، وكنت حاضرًا أثناء التحرّي أتفقّدُ أدوات النجارة وبقايا آلة الخياطة سنجر. فلمّا بدأ بسؤالها تملّكها الخوف والرَّعشة، وانكفَأَتْ على قدميَّ تُقَبِّلُهُمَا، ثم اعترفَتْ بأنّها هي التي أشعلَتِ النار قربَ آلة الخياطة.

فقلت لها: ماذا كانت حاجتُك حتى تفعلي ذلك؟

فقالت: إنّما فعلتُ ذلك لرغبتي في الاستعفاء من الخدمة.

فقلت لها: حسن، لو أنّك طلبتِ هذا بصورة أحسن، هل كنتُ سأمتنع؟

لم تجبْ على سؤالي، وأخذَتْ في البكاء والنحيب. تعجَّب جميع أهل القصر من فعلة امرأة تُعِدُّ للسلطان طعامَه.

لم أقتنع بجواب هذه القلفة لأنّ الجواري الخادمات كنّ يأتين للخدمة مدّة ثلاث سنوات، ومن لم تكن تريد الاستمرار بعد مرور هذه المدّة كانت تغادر بكلّ سهولة.

وكانت هذه الخادمة قد تقدَّمت سابقًا بطلب لتشغيل أخيها سائسًا في الإصطبل، لكنّه هرب قبيل الحريق بقليل، ولم نعثر له على أثر.

لقد كانت هذه العمليّة مُدَبَّرَةً بليل، فأعداءُ الخلافة كانوا

يتوسَّلون بكلّ الطرق اغتيال الخليفة الذي وقف في وجههم. وما هذا السَّائس وأختُه إلّا ضحايا لمن أوعزَ إليهم بالجريمة بدون أن يعلَموا خيوطَها الحقيقيّة.

خطرَتْ ببالي فكرة أن أتفقَّدَ آلةَ الخياطة سنجر، دخلتُ ورشة النجارة، وبينما كنت أُعالج بقايا الآلة دحرجتُها أرضًا فبدا لي تحت مسّاحة الآلة صندوق حديدي صغير مُتَوَارٍ عن الأنظار. حاولتُ فتحَه، فلم أُفلِح فطلبتُ من رجالي القيام بذلك بحيطة وحذر. ولمّا فتحوا الصندوق وجدوا قنبلةً يدويّة مع جهاز توقيتٍ مُعَطَّل. أُسْقِطَ في يدي بعدما أخبرني الرجال أنّ القنبلةَ لم تَنْفَجِرْ لخَلَلٍ في الجهاز، وأنّه من الألطاف الخفيّة أنَّ النارَ لم تصِلْ إلى الصندوق الحديدي الصغير حينما سارع رجال الإطفاء إلى إخماد الحريق في دائرة السلطان أوّلاً، ولو كانوا تخلَّفوا قليلاً لانفجرَتِ القنبلة وسبَّبتْ خسائرَ كبيرة، وأودَتْ بحياة السلطان. بعد التفكير في مُلابسات العمليّة، علمتُ أنّ البلجيكي إدوارد جوريس هو الذي وضَعَ القنبلة، وكان صديقًا للسائس شقيق القلفة التي أشعَلَتِ النار، فالعمليّة معقّدة ومُدبَّرة بين هؤلاء. وقد كان الرأسَ المدبِّرَ هذا البلجيكي، لكن من كان وراءَه؟ هل هي فرنسا أم إنجلترا أم الصهيونيّة أم الماسونيّة؟

لم تكن القلفة تعرِفُ هذه الخيوط، وإنّما طُلِبَ منها أن تُشعِلَ النار مُقابلَ مبلغ مالي، فأشعَلَتْهَا. لم أُعاقِبها وفاءً بوعدي، بل أرسلتها إلى مكّة المكرّمة للحجّ.

ثم عاد هرتزل يُلِحُّ مرّة أخرى في مُقابلتي مستخدمًا نفوذَ اليهود على الغربيّين في ذلك، فوافقتُ أن أستقبلَه. لم يَأْتِ مُنْفَرِدًا بل جاء

معه عمانويل قَراصُو المحامي، أحد أعضاء مجلس «المبعوثان» المعطَّل، وهو من يهود سالونيك. كان هذا الرجل عميلاً يُرسل لنا التقارير السرّيّة حول المقاهي والنوادي العامّة التي كانت تُقْرَأُ فيها الصحُف المناوئة للسلطان والدولة. جاء الوفد إلى قصر يلدز، وتكلَّم هرتزل فعرَضَ عليَّ المقترحات نفسها التي كان قد عرضها من قبل. ثم تكلَّم قراصو واقترح أن نَبيعَهُم مزرعةَ الخيول السلطانيّة الموجودة في القدس حتى يتسنّى لهم إقامةَ دولة يهوديّة في فلسطين تكونُ تابعة لدولة الخلافة العثمانيّة. فلمّا استمعتُ إليه قلت له بأنّ أحد رجالي سيُبْلِغُهُ جوابي لاحقًا.

كان هذا الرجل ينافِحُ بقوّة عن أبناء جلدته، ورأيتُ عزمَه وتصميمَه على الحصول على ما يريد، وكان مستعِدًّا لكلّ شيء في سبيل هذا الهدف. ولمّا كان يَهُمُّ بالخروج، همستُ في أذن تحسين باشا، رئيس الكَتَبَة في يلدز فقلت له: «سوف ترى بعَيْنَيْ رأسِك أنّ هذا الرجل سوف يُطِيحُ بي، وإذا فشلَ في ذلك، فلن يستطيعَ أحدٌ الإطاحةَ بي». إنّ أكبرَ خطرٍ يتهدَّدُنا هو اليهود، أمّا الأرمنُ والأرناؤوط والرومُ فأمرهُم بسيط، ولا يستطيعونَ قهرَنا بالقوّة والسلاح، لكن هؤلاء أثرياء وأذكياء، وإنّ الصراعَ معهم ليس شيئًا هَيِّنًا. إنّ المالَ في حوزتهم، والصحافةَ الأوروبيّة بين أيديهم، والشركاتِ التجاريّة العالميّة يسيطرون عليها، فكيف لا أخشى على بلادنا منهم؟

ثم عاد هرتزل في السنة الموالية بعدما طوَّف في شرق البلاد وغربها، والتقى بأثرياء اليهود في العالم وجمَعَ الأموالَ الطائلة من أجل مشروعه، لكنّي لم ألْتَقِ به، وأمرتُ أحد الباشوات أن يُبْلِغَهُ

بأنّ الدولة العثمانيّة مستعِدَّة لتوطين اليهود في إحدى ولاياتها عدا فلسطين. ثم عاد مرّة ثالثة، وأصرَّ على لقائي فرفضتُ، لكنّي كتبتُ له خطّيًا رسالةً ذكرتُ له فيها أنّ الدولة العثمانيّة مستعدَّة لمنح المواطنة العثمانيّة الكاملة لليهود وتوطينهم في ولايات متفرِّقَة من الدولة. لكنّه رفض هذا المقترح وأصرَّ على فلسطين. كنت أُدركَ القوّة المتعاظمة لليهود في الدُّوَل الغربيّة، ولم يكن ممكِنًا أبدًا أن أُسَلِّمَ أرضًا مسلمة إليهم، لأنّهم سيتحوَّلون في فترة قصيرة إلى وَرَمٍ يَنْهَشُ خاصِرةَ الإمبراطوريّة برُمَّتِهَا، وسنكون قد وقَّعنا بأيدينا على صَكِّ إعدامنا.

ثم استدعيتُ الحاخامَ الأكبر لليهود في الدولة إلى قصر يلدز، وقلتُ له: «لقد كنتُ أُقَدِّرُ صداقتَك حقَّ قَدْرِها حتى الأيّام الأخيرة، ولكنّك بدأتَ تنأى بعيدًا عن صداقتنا منذ مجيء هرتزل إلى البلاد، وأنت تعلمُ علمَ اليقين بأنّني لا أستطيع التنازُلَ عن شبر واحد من تراب أمَّتِنَا، فكيف يتَسنَّى لك إحضار شخص ما ليعرضَ علينا هذا الاقتراح؟ وعليك أن تُفَكِّرَ مَلِيًّا في فَداحَة المصائب التي ستَحُلُّ على رأسي لو أنّني قَبِلْتُ واحدًا في المائة ممّا عرضَه عليّ هرتزل».

فقال الحاخام الأكبر: أرجو عفوَك يا صاحبَ الرفْعَة والشوكة.

ثم أخذ، وهو الذي نيَّفَ على السبعين، في البكاء والانتحاب، وخرَّ على قدمي مُقَبِّلاً إيّاها طالبًا العفوَ والمغفرة، ثم قال: «لا علاقةَ لي بهذا العمل المُشين مِنْ قَريب أو بعيد».

فسألته: ومن له علاقة بهذا من أبناء الطائفة؟

فأجاب الحاخام: لعلّ عمانويل قراصو أحد هؤلاء يا مولاي،

لكنه يحبُّكُم كثيرًا ويخدُمُكم.

أطرقتُ مفكّرًا واتَّضَحَ لي أنّ بعض اليهود المتعلِّمين قد أصبحوا من رجالات هرتزل، وقراصو الذي كان عميلاً لنا أصبح واحدًا من هؤلاء.

لم يكن لهذا الحاخام الشرقي الفكر القومي نفسه لتيودور هرتزل ومن على شاكلته، ولهذا كنتُ أعلمُ أنّهم سيؤَلِّبُونَ عليّ كلّ القوميّات الأخرى من الأرمن والبلغار والأرناؤوط، ثم سيندسُّون مع أعضاء تركيا الفتاة، وسيوجِّهون معارضتَهم للإطاحة بالسلطان. كان هذا السيناريو واضحًا تمامًا، لكنّي لن أقبلَ ولن أُساوِمَ على ذَرَّةٍ من ذرّات أرضِنا المقدَّسة.

ساءت علاقتُنا مع عمانويل قراصو الذي سافر إلى إيطاليا وأرسل لي من هناكَ رسالةَ تهديدٍ، يخبرني فيها بأن موقفي المعادي لإنشاء وطن قومي لليهود سيكونُ سببًا في إبعادي عن السلطة. وقد وصلني قبل ذلك بأيّام تقريرٌ سرّي عن حفل تتويج هرتزل لقراصو أستاذًا أعظم للماسونيّة في محفل مَقدونيا ريزُوتا بسالونيك، ومنحه الدرجة الثالثة والثلاثين. وقد قال له: أرجو أن تعملَ على إسقاط السلطان الأحمر قبل أن يُكمِلَ ثلاثًا وثلاثين سنة في حكم الدولة العثمانيّة. وقد أورد التقرير أنّ قراصو ضحك ضحكة المنتصر، ووعد بالوفاء بهذا الأمر.

كان هذا المحامي اليهودي يحتمي من بطشي بجنسيّته الإيطاليّة. وهو الذي أفسدَ الضبّاط العثمانيّين لأنّه أدخل الماسونيّة إلى الكلّيّة الحربيّة في سالونيك.

* * *

زاد من حُزني موتُ أخي مراد في قصر شِيرَغَان، وبعد مُدَّة توفي الشيخ محمّد ظافر المدني، فأحسستُ بفراغ روحي كبير. كنتُ أَجِدُ عند هذا الرجل السَّنَدَ والدعْمَ المعنوي والتوجيه الصحيح لما يجب أن أفعلَه. أقمنا للشيخ جنازة تليق به، وأمرتُ ببناء قبَّة بجانب التكيّة من الجهة الغربيّة لتُقام على قبره. تَمَّ الأمر في مدّة يسيرة. بدأتُ أُحِسُّ بالتَّعب، ولم أَعُدْ بالحَماس نفسه الذي كان يطبعني من قبل.

كنتُ أدركُ أنّ أعداءَنا سيواصلون اعتداءاتهم على رمز وحدة المسلمين للانقضاض نهائيًّا على العالم الإسلامي واقتسام خيراته، لكنّي عملتُ كلَّ ما في وُسعي لمعاكسة مخطّطاتهم وخلق المتاعب لهم. وقد كنت أتوصَّل بالمراسلات والتقارير السرّيّة التي يبعثها سفراء الأمم الغربيّة إلى بلدانهم ويشتكون فيها لرؤسائهم من الصعوبات التي يواجهونها في تنفيذ مخطّطات بلدانهم بسبب سياسة خليفة المسلمين.

ومن التقارير السرّيّة التي وصلتنا من بعض المخبرين، تقرير تحدَّث عن لقاء سرّي حصل في السويد. ثم تقرير آخر عن اجتماع في مدينة صوفيا. زادت تخوُّفاتنا لمّا علمنا أنّ المشاركين في اجتماع السويد هم أنفسُهم الذين شاركوا في اجتماع صوفيا. لم نكن نملِك أدلَّة أخرى كافية عن فحوى الاجتماع، لكنّنا أوعزنا إلى رجالنا بمراقبة المشاركين في هذين الاجتماعين. ثم حصلنا على تقرير آخر جرّاء التحرّيات والمتابعة للأفراد المجتمعين، فعلمنا أنّهم اجتمعوا مؤخّرًا في بيت مستأجر بمنطقة باي أغلو باستانبول. وقد تمّ تضليل شرطتنا السرّيّة بإرسال رسائل عبر البعثات الأجنبيّة

في استانبول حول الاجتماع في مكان آخر، وسُرِّبَتْ من خلالها معلومات خاطئة. وكان ضمن المجتمعين إدوارد جوريس الإرهابي البلجيكي المبحوث عنه. ولسوء الحظّ، فإنّنا توصَّلنا بالمعلومة الصحيحة بعد أن انفَضَّ الاجتماع واختفى المجتمعون.

كنت أقضي جُلَّ أوقاتي في قصر يلدز، إمّا في مكتبي أو مع أهلي أو في الورشة، ويوم الجمعة أذهب للصلاة في الجامع الحميدي، وبعد الصلاة مباشرة يقام حفل السلاملك بشكل مضبوط ووفق توقيت صارم لم يتغَيَّر طوالَ سنين متعدّدة. وبمجرَّد دخولي إلى الجامع تقام الصلاة. وبعد انتهاء الفريضة بدقيقتين تتحرَّك عربتي من موقفها لتصل في الوقت المحدّد الذي أَخْرُجُ فيه من باب الجامع، فأركبُها قاصدًا قصرَ يلدز مُحَيِّيًا تشكيلةً من فِرَقِ ألويَةِ الجيش العثماني، ورجالات الدولة والأمراء والأميرات وعامّة الناس.

كما كنت أُحِبُّ المسرحَ الغنائي، فدعوت بعض كبار الممثّلين والممثّلات إلى قصر يلدز لأداء عروضهم. ومن بين هؤلاء المغنّية المشهورة سارة برنار. لقد أخبرني الحاجب السلطاني أنّ هذه الفنّانة اليهوديّة قد حرصت على حضور مراسم السلاملك يوم الجمعة حيث تجتمع الحشود لمشاهدة الموكب السلطاني البهي والموسيقى العسكريّة التي تصدَحُ. كانت تقف في الجهة المرتفعة المشرفة على الجامع الحميدي. وقد طلبَتْ كرسيًّا للجلوس فامتنع الرجال عن تلبية طلبها، لأنّ الجلوس في حفل السلاملك مُخِلٌّ بالأدب المتوجِّب على رمز المسلمين، إذ يلزَمُ الوُقوفُ للتحيَّة. غَضِبَتْ من امتناعِهم فغادَرَتْ ولم تحضُرْ مَراسم السلاملك. وقد

بقيَتْ عدَّةَ أيّام في استانبول قدَّمَتْ مع فرقَتِهَا عُروضًا في مسرح يلدز من أعمال فِرْدِي الشهيرة: لاتْرَافْيَاتَا، أُوبرا عَايْدَة. كنتُ أجلسُ على كرسي فخم وسط الصالون الفسيح للمسرح يحيط بي ضابطان. ومن خلفي زوجاتي وأولادي. كانت سارة برنار فنّانة كبيرة، وعروضُها ممتعة. وقد كنت أعزِف بعض هذه القِطع التي تؤدّيها برنار اليوم لمّا تعلّمتُها في صغري. كما كان القصر يعرف زيارة فنّانين آخرين ورسّامين كبارًا. وقد اقتنيتُ بعض لوحاتهم. تلك بعض من المُتَعِ التي كنت أَهُفُّ إليها للتخفيف من جَسامة الأتعاب والمسؤوليّاتَ التي كانت تُطَوِّقُنِي ليلَ نهار.

تزوَّجتُ من عدّة نساء، لكنّي كنت أَميل دومًا إلى زوجتي مشفقة أمّ ابنتي المحبوبة عائشة. كنت أنا شخصيًّا من أطلقَ عليها اسم مشفقة لمّا قدَّمتُ لها أوّل هديّة كانت نسخة ثمينة من المصحف الشريف. فلمّا قدَّمتُه قلت لها: سأفتحُه، وسأسمِّيك بأوّل اسم تقع عليه عيني، ولننظر ماذا قسَمَ الله لك. فلمّا فتحتُ المصحف تَرَكَّزَ نظري على كلمة «مُشْفِقُون» من الآية ٢٨ من سورة الأنبياء، قلت لها على الفور: سوف تكونين امرأة مشفقة خَيِّرة بإذن الله.

سَرَّ مشفقة أن أُسمّيها بهذا الاسم فتشجَّعَتْ وسألتني: ما خصائص المشفقين من الرجال والنساء؟

فقلت: لعلّي لستُ أهلاً لمعرفة أحوالهم. ثم قام بي حال إثر ذلك فقلت: إنّهم صنف من الأولياء، ولهم حنان وعطف. فإذا أبصروا مخالفةً من أحد ارتعَدَتْ فرائِصُهُمْ إشفاقًا عليه أن ينزلَ به أمر من السماء.

فقالت مشفقة: صدقتَ يا أفندينا، فوالله إنّي لكذلك، إذ كلّما رأيتُ معصيةً من أحد أشفقتُ عليه.

فقلت لها: من كان بهذه الصفة يا مشفقة كان محفوظًا في أفعاله.

ثم أمرتُ بأن ينقشَ لها خاتم في الحال عليه اسم «مشفقة باش إقبال». كانت هذه الزوجة مشفقةً إلى أقصى حدّ، وقد شاركتني كلَّ لحظات حياتي بحُلْوها ومُرِّهَا. كانت تسكنُ المابين الصغير في قصر يلدز، ثم لمّا بنيتُ الجَوْسَقَ الجديد، تحوَّلتُ إليه مع زوجتي مشفقة، بينما تركتُ المابين الصغير لسكنى ولدي وحيد الدين.

كان لديّ قِطٌّ مُرقَّط ضخم يحبُّ أن يجثو أمام مدفأة القاشاني الأزرق في دائرة سكناي. وكان يعجبني وقارُه وصمتُه وهمَّتُه، وقد أطلقتُ عليه اسم «آغا أفندي». وحينما كان أطفالي يلعبونَ بقِطَعِ الدُّومينو قربَ المدفأة في أيّام الشتاء الباردة، يدخلُ بينهم ويلعبُ معهم ثم يَقْلِبُ قطعَهُم، فيضحكون من حركاته، بينما كان هو يزهو بفعلته. كما كانت لي قطّة بيضاء رائعة الجمال اسمها «بَامُوق» لا تأنس إلّا بي. وكان لدينا ببَّغاء عجيب أهديتُه إلى ابنتي عائشة ليؤنِسَهَا ويُسلِّيها. وكان هذا البَّبغاء يطوفُ القصرَ غاديًا رائحًا، ويمشي بظَرفٍ عجيب، ثم يضَعُ رجلَه على ركبتي وينتظر أن أَحُكَّهَا له. وحينما كان الخدمُ يضعونه في القفص، أسمَعُ صياحَه «أميرة عائشة، حياتي»، فتأتي الأميرة ابنتي لتطلقَ سراحَه. وكنّا نُسمِّيه «دَادِي قُلفَة». كما كان لي كلب أَلِفْتُهُ اسمه «شيري». وقد كان منتزه القصر يَعُجُّ بكثير من الحيوانات التي كان يُهديها لنا ملوك العالم وأمراؤه.

وفي إحدى ليالي الجمعة رأيتُ حلمًا مزعجًا عبارة عن حَيَّة كبيرة تريدُ أن تنقَضَّ على يلدز وتلتهمَه بالكامل، كانت حيَّة سوداءَ بثلاثة قرون. كلُّ قرن يشبه هرَمًا. وفي قلب الهرم الأوسط عين مُحَدِّقَة، بينما كانت العينان في الهرمين الآخرين طافيتين كما هو الحال عند العُميان. وكان لكلّ عين ذيل طويل حتى تبدو تلك الأعين في شكل حرف الواو، أو شكل رقم ستّة. ثم رأيت شيخًا فوق جبل يُقال له جبل قاف يُسلِّطُ على الحيّة السوداء حيَّة نورانيّة مبيّنة تلقَّفَتْها وأحرقَتْها بالنور.

وفي الصباح استيقظتُ مُرتعِبًا من هذا الحلم، فأمرتُ أهل بيتي بعدم الذهاب لحفل السلاملك بعد الصلاة في الجامع الحميدي كما يقتضي البروتوكول العثماني، لكنّ ابنتي عائشة أَصَرَّتْ على الذهاب فأَذِنْتُ لها بمفردها. وأمرتُ الحريم بالتمتّع بذلك اليوم في منتزه يلدز. كان الوقتُ صيفًا من سنة خمس وتسعمائة وألف، خرجتُ كعادتي للصلاة في موكب كبير بعدما أعدَّ لي الأثوابجي اللباسَ الرسمي والنَّياشين التي أُعلِّقها. وفي الطريق اِصطَفَّ الناس لتحيّة السلطان، فكنت أَرُدُّ على تحيّاتهم بتحيّة مضاعفة، ورأيتُ بعض الغربيّين يقفون قربَ عربة بألبسة فخمة، فاستغربتُ حضورَهم. وكنت قد لاحظتُ وجودَهم في الجمعتين السابقتين. لم أرتَحْ لهيئاتهم، بيد أنّ سيّدة كانت بالقرب من أحدهم، ابتسمَتْ لي ابتسامة ماكرة، فلم أَرُدَّ عليها لإنكاري تلك الطريقةَ المُريبة.

بعد انتهاء الصلاة توجَّهتُ نحو باب المسجد، فانطلقَتِ الموسيقى العسكريّة تعزِفُ نَفِيرَ التحِيَّة، ويهتِفُ العساكر، إلّا أنّ

شيخ الإسلام جمال الدين اعترضَ طريقي داخل الجامع تحت القُبَّة الزرقاء الزاهية بالنجوم التي تُزيِّنُها كأنّها جبل قاف. رفعتُ نظري إلى القبّة فلمحتُ نكتةً سوداء عالقة بحائط القبّة قد أفسدَتْ جمالها. أَشَحْتُ بنظري عن تلك الجهة، واستقبلتُ الشيخَ باسمًا، فرأيتُ هيبةً نورانيّة لم أعهَدْهَا عنده من قبل. تلبَّثْتُ في الحديث إليه مع أنّ الأمر لم يكن معتادًا أن أتوقَّفَ للحديث مع أيٍّ كان مُراعاةً لِدِقَّة ترتيب التشريفات التي كنت أحرِصُ على الالتزام بها في أدنى تفاصيلها، لكن موقعَ شيخ الإسلام وحرمَتَه اقتضى منّي الوقوفَ معه لبضع دقائق، على خلاف العادة، فكلَّمني في أمر خاصّ ثم ودَّعتُه. وبينما كنت أَهُمُّ بالتوجّه نحو باب الجامع دوَّى انفجار قوي. لم أجزَعْ وتقدَّمْتُ نحو الباب للوقوف على ما حصل، فرأيتُ أنّ الانفجارَ من جهة برج الساعة قد هزَّ أركانَ المكان. وتناثرَتْ قِطَعُ الحَجَر والخشب في ساحة الجامع، وارتفعَتْ سحابةٌ من الدُّخان والرَّماد كانت تسقُطُ على رؤوسنا، واستحالَ ثوبي الرسمي مُغْبَرًّا من تَنَاثُر الأتربة وقِطَع الخشب المهشَّمة. وقفتُ على الدرجة الثالثة من سُلَّم المسجد، وصِحْتُ في الحاضرين: لا تخافوا، لا تخافوا. ثم نزلتُ السلّمَ بخطوات مُتَّئِدَةٍ رزينة غير خائِفٍ ولا وَجِل، وأمرتُ الجميعَ قائلاً: فَلْيَبْقَ كلُّ واحد في مكانه. وتعالَتْ الأصواتُ من الجند والحاضرين: عاش السلطان، عاش السلطان. تقدَّمتُ الصفوفَ المبعثرةَ وشَحَذتُ هِمَمَ الرجال بثباتي في هذه المُلِمَّةِ الخطيرة.

استفاقَ الحرسُ والحاضرونَ من هَوْلِ الصدمة وبدأوا يَرُصُّون صفوفَهم بانتظام. ثم تقدَّمتُ نحو الحَنْطُور أو العربة الخاصّة

وركبتُها، بعد أن أوصيتُهم قائلاً: لا تنزعِجوا حتى لا يتأذّى أحدٌ من الزِّحام. ثم هرَعَ إلى داخل العربة ابني برهان الدين أفندي. أخذتُ اللجامَ وشرعتُ في صعود الطريق المؤدّي إلى القصر، ورأيتُ عند بُرْجِ الساعَةِ حفرةً عظيمة أحدثَها الانفجار. كان أعضاءُ السلك الدبلوماسي والعسكري المعتَمَدِ ببلادنا مندهشًا من صدمة ما حصل. بينما كنت رابطَ الجأش كقائد وسط ميدانِ المعركة يعطي الأوامرَ ويقوّي العزائمَ وينفُثُ في رجاله روحَ الصبر والنظام. كانت أشلاءُ الجِياد والجنود متناثرةً في ساحة الجامع، وتحطَّمَتْ عدّةُ عربات، ومات من كان بها من السائقين والحُذاة. وسقطَتْ في عربتي أحجارٌ وأتربة وقِطع خشبيّة وحديديّة، فوضعتُ بعضها في جيبي. لمحتُ جثّةَ ضابط نظامي اخترقَتْ جسدَه شَظِيَّةُ قنبلة فَأَرْدَتْهُ قتيلاً، وآخرَ يَسْبَحُ في دمائه، فأمرتُ أحدَ الجنود بوضع غِطاء على جسده. رفع بعضُ الفُرسان سيوفَهم إثرَ الانفجار فأمرتُهم بإغمادِها. وفي هذه الأثناء أَطَلَّ بعض السفراء من دار الضيافة مردِّدينَ بالفرنسيّة «عاش السلطان، عاش.» كما ردَّد كثير من أهالي ڤيينا الذين أَتَوْا للتَّفَرُّج العبارة نفسها وصفّقوا بعد مُرور العربة أمامَهم. أَجَلْتُ نظري في المكان الذي كان يقِفُ فيه الأجانبُ الذين رأيتُهُم قبل دخولي الجامع، فلم أَرَهُمْ بين الأحياء ولا الأموات، فزاد شكِّي، وقَوِيَتْ رِيبَتِي في أنَّ لهمْ ضِلْعًا فيما حصَل. قصدتُ المابين الهمَايُونِي بسكينة ووداعةٍ وهدوء، ثم أرسلتُ أحدَ المرافقين إلى دائرة الحريم لطمأنة الأهل، وإخبارِهم بتشريفي هناك بعد قليل حتى أفرغَ من لقاء السفير النمساوي والوفود الأجنبيّة الأخرى التي حضرَتْ لتقديم التهنئة بالنجاة. أذنتُ لهم فقال لي السفير بعد أن قدَّم التهنئة باسم بلده: ألم تَخَفْ يا مَلاذَ الشَّوكة والرِّفعة؟

فأجبته: نحن مسلمون نؤمن بالقَضاء والقَدَر.

ثم استأذنتُ منهم لأطمَئِنَّ على أهلي.

وفعلاً وصلتُ إلى دائرة الحريم، فقبَّل الجميعُ يدي وقالوا: «حمدًا لله على سلامتك يا أفندينا». شكرتُهُمْ ثم قلت: نحمد الله، فقد أنقذنا من هذا أيضًا، ونجونا بلُطفه».

ثم التفَتُّ إلى ابنتي عائشة قائلاً: لم يخرُجْ اليوم إلى موكب السلاملك أميرةٌ من الأميرات سِوَاك، أخبريني كيف شَهِدْتِ الحادث، هيَّا احْكِي.

فقالت: «أفندينا، لقد عاد إليّ الوعي فورَ أن رأيتكم، إنّني معجبة بثبات جأشِكم».

فقلت: «إنّني متوكِّلٌ على الله، ولا يملأ قلبي إلّا الخوفُ منه، ولا أشعرُ بالخوف من شيء سواه. قبل أن تقعَ حادثة أشعرُ بالاضطراب لأجل دفعها، أمّا إذا شعرتُ أنّي وسط الخطر فإنّني لا أتوانى حتى عن أن أرمي بنفسي إلى النار إذا دَعَتِ الضرورة. لقد حفظنا الله. وقد أمرتُ بالتحقيق لمعرفة ما إذا كانت هناك خسائر بين أبنائي العساكر والأهالي».

ثم وضعت يدي في جيبي وأخرجتُ قطَعًا من الحديد والحجارة عرضتُها عليهم ثم احتفظتُ بها حتى أضعَها في متحفي للذكرى. ثم ودَّعتُهم ودَعَوا لي وعادوا إلى غُرفِهم.

وفي اليوم الموالي جاءتني التقارير بأنّ عددَ القتلى والجرحى بلغ ثمانين نفَرًا. أعطيتُ الأوامرَ بالاعتناء بالضحايا وأُسَرِهم ومُواساتهم. تقاطرَتِ الوُفودُ إلى السراي لتقديم التهاني بالسلامة،

وتواردَتِ البرقيّات من كلِّ حكّام العالم تستنكر هذا الحدث الإرهابي. وبعد التحقيق تبيَّن أنّ الذين دبَّروا له جماعة من جمعيّة طاشناق الأرمنيّة، الذين طلبوا من الإرهابي البلجيكي إدوارد جوريس المتعاطف معهم أن يضع قنبلة مزوَّدة بجهاز توقيت في سيّارة قربَ منار الساعة في مدخل الجامع الحميدي. قُبِضَ على جوريس مع باقي الجناة، وصدرَتْ بحقِّهم أحكامٌ مُتفاوِتة. لكنّي عفوتُ عن جوريس وسمحتُ له بالعودة إلى بلاده مع أميركي شارك هو أيضًا في المؤامرة. وقد وعد جوريس بأن يكونَ في خدمتنا وتزويدِنا بالتقارير عن تحرُّكات الجماعات المناوئة للخلافة في أوروبا الغربيّة. وقد عَلِمْتُ منه أنّ الأرمن كانوا اليدَ المنفِّذَةَ للعمليّة فيما كانت الماسونيّةُ والصهوينةُ العقلَ المدبِّرَ لها. أخبر جوريس رجالي بتفاصيل العمليّة. كان عدد المشاركين فيها واحدًا وأربعين مجرمًا. وعلمت منه أنّ الحركة الصهيونيّة والماسونيّة في أوروبا هي التي موَّلتِ العمليّةَ لفائدة الأرمن. ومن بين الذين نفَّذُوا العمليّةَ الإرهابيّة يهودٌ أرمن، يُناضلون ظاهرًا من أجل استقلال الأرمن في حين أنّهم يعملون لفائدة الحركة الصهيونيّة العالميّة وخيوطِها الماسونيّة. وقد قبضنا على هؤلاء مثل صموئيل قاين وابنه روبينا قاين وغيرهما. صُنِعَتِ السيَّارة في ڤيينا، وقد وضعها صموئيل وابنُه برفقة زوجته صوفيا قرب برج الساعة، وتمَّ تهريبُ أجزائها بتواطؤ جمركيّين من يهود الدونمة. ثم جُمِعَتْ أطرافُها بعد ذلك. ثُبِّتَتِ القنبلة في إطارات السيّارة المطّاطيّة. وقد بلغ وزنُ القنبلة مائة كيلوغرام، هُرِّبَتْ أيضًا من ڤيينا على شكل قضبان من الديناميت المخبَّأ في لُفافات صغيرة، مرَّت بدون مراقبة من الجمرك بدفع الرشوة والتواطؤ.

لقد ألهمني الله بما حصل قبل وقوع الحادث، فأمرتُ أهلي بعدم ضرورة حضور مراسم السلاملك المعتادة يوم الجمعة. ولو كُنَّ حضرنَ لحدث أمر مُريع لا قَدَّرَ الله. لكنَّ لُطْفَ الله بنا قد أبطلَ هذه المؤامرة. لقد كان من المفروض أن تنفجرَ القنبلة المزوَّدة بجهاز توقيت في الوقت الذي تمرُّ العربة السلطانيّة قرب برج الساعة، لأنّ الإرهابيّين تدرَّبوا على العمليّة مرّتين قبل تنفيذها، وضبطوا الوقتَ وفق المراسم المتّبعة، إذ كان يلزمُ أن يستغرقَ الوقتُ دقيقةً وأربعين ثانية مباشرةً بعد وقوفِ العربةِ أمامَ بابِ الجامع ومرورِها من أمام برج الساعة. فلو لم أتأخَّرْ في الحديث مع شيخ الإسلام الذي مُثِّلَ لي في تلك الرؤية الصالحة يمسكُ بحيّة جبل قاف التي التهمَتْ الحيّة السوداء ذات القرون الدجَّاليّة، لكنتُ اليومَ في عِداد الموتى. لقد فهمتُ الآن حقيقةَ تلك الرؤية الصالحة. أمّا أعينُ الحيّة التي تشبه الستّة فهي إشارة إلى رمز التدجيل كما حدَّثني عنه الشيخ ظافر رحمة الله عليه قبل عدّة سنوات.

جاءتني التقارير عن خروج سفينة روسيّة كانت ترسو قرب ضريح خير الدين برباروس في الطريق النازل من يلدز نحو البحر. وكان على متنها مجموعةٌ من الأرمن شاركوا في العمليّة الإرهابيّة. لقد كانت خيوطُ المؤامرة متعدِّدَة، فقد كنت أُشَكِّلُ إزعاجًا كبيرًا للدول الاستعماريّة والحركات الهدَّامة. لقد أخبرني جوريس أنّه يؤمن بالأفكار الفوضويّة، وقد تعاطف مع الأرمن المطالبين بالاستقلال؛ وأخبرني أنّ جماعة تركيا الفتاة في أوروبا الغربيّة كانت تساند هؤلاء الأرمن وتُمِدُّهُم بالمال. لم أستغرِبْ هذا لأنّ

التقارير والمقالات الصحفيّة التي كانت تُصدِرُها الجماعةُ من أوروبا قد عبَّرتْ بصراحة عن استهدافهم لشخصِنا مباشرة. فقد كتب عضوُ جماعة تركيا الفتاة عبد الله جَودَت في أحد مقالاته «سوف نَشُنُّ غارةً على فَساد الإدارة والظلْم والاستبداد والبابِ العالي وشيخِ الإسلام وقصر يلدز، وسنُحَطِّمُ رؤوسَ القهر في هذه الإدارات جميعِها، وواجب علينا أن نتعاون معًا ونُلِمَّ شملَنا ونُكثر عددَنا».

سألت جوريس عن السبب الذي أدَّى به إلى اعتناق مذهب الفوضويّة، فأخبرني بأنّه شُيوعي قرأ لماركس وإنجلز وهِيس، ويؤمِنُ بالثورة لإسقاط الأنظمة بكلّ الوسائل. حينما أخبرني بهذا أدركتُ صِحَّةَ ما ورد في الوثيقة السرّيّة التي استلَّها من الحاخام في استانبول الطالبُ اليهودي، والتي كانت تُشير بوضوح إلى ضرورة نشر مثل هذه المذاهب الهدَّامة كالفوضويّة والإباحيّة والشيوعيّة والإلحاد والعلمانيّة وغيرها والسيطرة عليها، وتوجيهها بما يخدُم أغراضَ الصهيونيّة. فجوريس وأضرابُه ضحايا أيضًا لهذه اليد الخفيَّة التي تعملُ من بعيد وتُرْسِلُ البسطاءَ لتنفيذ هذا المشروع.

كان من بين المشاركين في المؤامرة شخص أميركي آخر، وقد طالب سفيرُ بلجيكا وأميركا بتسليم مُواطِنَيْهِما لمحاكمَتِهِما في بلادهما نظرًا إلى أنهما كان يتمتَّعان بامتيازات تُمْنَحُ للأجانب في الدولة. تَمَّتْ محاكمةُ الضالعين في المؤامرة، ووافَقْتُ على تسليم الرجلين بعد أن أخذتُ تَعهُّدًا منهما على عدم تكرار ما حدث، ورحَّلتُهُما إلى بلادهما بعدما أغدقتُ على جوريس مالاً كثيرًا مقابل مساعدتنا في الكشف عن أعداء الدولة في أوروبا الغربيّة. أمّا

الأميركي فكان عضوًا في محفل ماسوني أميركي، فأدركتُ عداوةَ الماسونيّة للخلافة العثمانيّة في كلّ مكان، وأياديها الخفيّة وراء الحوادث التي تجري هنا وهناك.

عقب هذه الحادثة الخطيرة، أمرتُ بتشديد إجراءات الأمن المفروضة على قصر يلدز، وعملتُ على تقوية جهاز الأمن السرّي لمواجهة أعدائنا. كما شدَّدْنا الرقابةَ على العناصر المخرِّبة التي كانت تنشَطُ بقوّة من خلال سفارات الدول الأجنبيّة في استانبول. وحاكمنا أعضاء من جماعة تركيا الفتاة لضُلوعهم في التخريب. أمّا على المستوى الخارجي، فقد اتَّسَمَتْ سياستُنا بالحِياد وعدم الانحياز والاستقلاليّة والجُنوح إلى السلم. وقد التزَمْتُ بهذه المبادئ منذ أن تسلَّمتُ مقاليدَ السلطنة والخلافة، إلّا مرّة واحدة لما خُضْنَا الحربَ ضدّ اليونان بعد أن أعلنوا النفيرَ ضِدَّنا، فاضطررتُ إلى شَنِّ الحرب وانتصرنا عليهم. لقد ضاعت منّا مصر وتونس وطاسيليا والروملي، لكنّها بقيَتْ في الحقيقة تابعةً للدولة العثمانيّة. لم يكن من الممكن الاحتفاظُ بهذه البلدان إلّا على حساب خسارةِ أجزاءَ كبيرة من الدولة في مناطق أخرى. وقد نجحنا من خلال الجامعة الإسلاميّة في لَجْم الدول الاستعماريّة وفرضنا عليها تَوازنًا للقوّة معنا. وحرصتُ على إثارة المشاكل والمنافسات بين الدول الغربيّة حينما يتعلَّقُ الأمر بالدفاع عن مصالح العالم الإسلامي. فقد وَقَفَتْ فرنسا ضدّ إيطاليا في طرابلس الغرب، والشيء نفسه حصل بين إنجلترا وفرنسا في مصر، وبين إنجلترا وألمانيا، وبين الصرب والجبل الأسود ورومانيا. كان استمرار الصراع بين هذه الدول عاملَ سلم وأمن لنا. ولو اتَّحَدَتْ

جميعُها ضدَّنا فستنتهي الدولة ولن يبقى منها شيء يذكر.

منذ وقوفي على مشروع اليهود بإقامة وطن قومي لهم، لم أَدَّخِرْ وُسْعًا في الاستعلام عن تحرُّكات زعمائهم، والتّجَسُّس على مؤتمراتهم، وإيقاف هجرتهم إلى فلسطين. وأكثر ما كان يُؤَرِّقُني هو قُدْرَةُ اليَهُودِ الفَائِقَة على ضرب الأمم بعضها ببعض. فلمّا أَحَسُّوا بأنّ ألمانيا التي كانت تسانِدُهُمْ في البداية قد اعتذَرَتْ لنا وتبرَّأَتْ من دعوة الحركة الصهيونيّة، ولَّوْا وجهَهُمْ شَطْرَ القُوَّةِ الصَّاعِدَة في أميركا، التي كانت تعتَبِرُ نفسَها بطلةَ الحرِّيّة المدافعة عن المستضعفين من الأرمن واليهود. وقد أصبحَتْ أميركا أرضَ الماسونيّة الأولى بامتياز، ودخل رؤساؤها وساستُها في هذه الحركة التي كان يتحكَّمُ فيها الصهاينة. وكان سفيرُ أميركا في استانبول يهوديًّا يفعل كلّ شيء من أجل الصهيونيّة حتى إنّه لم يتورَّعْ عن دفع رشوة كبيرة من أجل تحقيق مآربِ هذه الحركة. أمّا إنجلترا، فقد كانت تبحَث عن قُوَّة تعتمِدُ عليها في منطقة الشرق الأوسط، فتبنَّتْ الحركة الصهيونيّة لتكون سندًا لها في هذه المنطقة. وأمّا فرنسا، فمنذ أن فَصَلَتِ الدِّينَ عن الدولة، تخلَّتْ عن حماية مَسِيحيّي الشرق، بعدما اختَرَقَتْهُم الماسونيّة، ولم يكن أمامَهم سوى أن يركبوا موجةَ الصهيونيّة إسوةً بالباقين.

وأشدّ ما كان يحزنني هو أنّه على الرّغم من القوانين الصارمة التي أصدرتُها في حقِّ هجرة اليهود إلى فلسطين، فقد تواصلَتْ بسبب فَساد الوُلاة الذين كانوا يَمنحون تراخيصَ بالدخول إلى فلسطين وشراء الأرض بمبالغ ماليّة كبيرة.

أمّا هرتزل، فلمّا اقتنع أنّي كنت عائقًا أمام فكرة إنشاء وطن

قومي لليهود، فقد حوّل سياسة الرشوة والترغيب إلى سياسة الترهيب، ممّا بلغني عن بعض ما كتبه «لقد كانت الصهيونيّة تريدُ تمزيقَ تركيا، فماذا علينا أن نفعل ضدّ هذه الدولة؟ ثم يجيب: لقد جالت بخاطري خطّة واحدة تتمثَّلُ في شَنِّ حملة مُباغتة ضدّ السلطان، ولَنَشْرَعْ في هذا الصدد في تأسيس علاقة مباشرة مع كلّ الأمراء المنفيّين وجماعة تركيا الفتاة».

كنتُ أُدرِكُ مَكْمَنَ الخَطَر، وقد جعلوا من مدينة سلانيك مُنطلقًا لأفكارهم الانقلابيّة، وهي المدينة التي تسكنُها غالبيّة من اليهود، حصلوا في غالبيّتهم على المواطنة الإيطاليّة والإسبانيّة. ومن أهمّ العناصر اليهوديّة التي انخرطَتْ في جماعة تركيا الفتاة، عمانويل قراصو.

لقد استطعنا أن نخترِقَ الجماعة بعد أن أصبح لدينا من بين أعضائها مخبر مهمّ هو الدكتور حسين خُلْقِي، الذي كان يُدَوِّنُ جميعَ التقارير السرِّيّة عن أخبار جماعة تركيا الفتاة، ونشأتها. وكيف أن مؤسِّسَها رجل ألباني يُدعى إبراهيم تمو الأرناؤوطي الذي كان يقضي عطلته الصيفيّة مع مجموعة من أصدقائه في منطقة بريندزي الإيطاليّة. واتَّصل به أحد اليهود لدعوته لزيارة جمعيّة يهوديّة في مدينة نابولي. وبعد الزيارة أُعجِب الأرناؤوطي بتنظيم الجمعيّة وأهدافها فقرَّر إنشاء جمعيّة سرّيّة تُشبِهُها. كان أوَّلُ عمل قامت به الجماعة قد تمَّ بتحريض من الأجانب. ثم اتَّخذوا لهم شُقَّةً صغيرة كانوا يجتمعون فيها في حيّ باي أوغلو في استانبول. لم يكن في هذه الجمعيّة إلّا تركي واحد، وأغلبُ الأعضاء من الأجانب. أمّا رئيس الجمعيّة فكان طبيبًا من مدينة لوفان البلجيكيّة.

وقد أخبرنا المعتقَل أنّ الجماعة كانت في البداية تهدف إلى إحياء البيزنطيّة وتراثها الثقافي ومجدها السياسي. وكان اليهود يضطلعون بمساعدة الجماعة التي كان أغلب أعضائها المؤسّسين من الروم واليونانيّين الناقمين على دولة الخلافة الإسلاميّة. وركَّزت الجماعة على طلّاب المدارس الملكيّة والبحريّة والبيطريّة والطبِّيّة والحربيّة.

وقد كان من لُطْفِ الله بنا أن وقَفْنَا على خطّة سِرِّيَّة لاغتيالي، فقد كلَّفتُ المفتّش العامّ للمدارس العسكريّة بدعوة بعض أعضاء الجمعيّة للعشاء والحديث معه. وفعلاً قام المفتِّش العامّ بدعوة أحد أعضاء الجمعيّة الذين كنّا نَشُكُّ فيهم، وكان مديرًا لإحدى المدارس. وخلال العشاء أَصَرَّ المفتّش العامّ على طلب قنِّينة خمر رَفِيعَةٍ لصديقه. واستمَرَّا في الحديث عن أشياء كثيرة، ثم طلب قنّينة ثانية. وبين الفينة والأخرى كان يَصُبُّ لصاحبه كأسًا مُتْرَعَةً بِدَمِ الكَرْم. فكان عضو الجماعة ويدعى نادر بك يَصُبُّ الكأس في بطنه صَبًّا. ولما دارت الخمرُ برأسه زادتْ ثرثرتُه، فقال لصديقه فجأة:

أتعلَمُ يا إسماعيل باشا ماذا سيحدُث غدًا؟

تظاهر المفتّش العامّ زلفلي إسماعيل بعدم الاكتراث حتى لا يُثيرَ شكوكَ نديمه، لكنّه أجاب: طبعًا لا أعرف، ولن يحدثَ شيء سيُغَيِّرُ حياتَنا.

حينئذ استمرَّ نادر بك في الثرثرة وقال: غدًا سنُنَصِّبُ ولي العهد محمّد رشاد سلطانًا على البلاد.

ازدرَد المفتِّش ريقَه، وأخذ القنّينة مرّة ثانية ثم صَبَّ لنديمه وصَبَّ في كأسه، وتظاهر بالشرب، ثم وضع الكأسَ مرَّة أخرى

على الطاولة، وقال: هِيهْ، لن يتغيَّرَ شيء يا صديقي، سواء كان هذا أو ذاك.

فقال نادر بك: لقد اتَّفَقَ بعض كبار الضبّاط في الكلِّيّة الحربيّة على الإطاحة بالسلطان عبد الحميد وتنصيبِ شقيقه.

أخذ إسماعيلُ الكأسَ مرّة أخرى يُخفِي بها هَوْلَ الصَّدْمَة، ويُفَكِّر في السؤال المناسب، فقال: لا أعتقِدُ بأنّهم سيُطيحون بالسلطان، فَمَعَهُ فلان وفلان وفلان من ضُبّاط المؤسّسة العسكريّة، وهم مُوالون له.

فقال: بل إنّ فلان وفلان وفلان من الضبّاط يُعارضون حكمَه.

ثم أخذ يسرُد أسماءَ الضالعين في المؤامرة،

وأضاف: سَيُجْهِزُونَ على عبد الحميد وسيعتقلونه في قصر يلدز غدًا صباحًا. وسيساعدهم فلان وفلان وفلان من حَرَسِ القصر.

وبعدما كشَف عن تفاصيل الخُطَّة المدبَّرَة للإطاحة بي، اقترح زلفلي إسماعيل أن يصطحب نديمَهُ بعربته إلى داره لعدم قُدرته على الوصول على تلك الحالة من السُكر. وبمجرّد ما أن أوصله إلى بيته، يَمَّمَ بسرعةِ البرق إلى قصر يلدز، وطلب لقائي على الفور. كان الليل قد انتصف، وكنت ما أزالُ مستيقظًا. حاول الحرس مَنْعَ المفتّش العامّ من مقابلتي، لكنّه أصرَّ وطلب من أحد الآغوات أن يستأذنَ له عليَّ لأمر خطير لا يقبل التأخير. أدرك الآغا أهمّيّة الأمر فأسرع نحو دائرتي وأخبرني بالأمر. لبستُ رُوبَ النوم الذي تَفُوحُ منه رائحة عطر كولونيا جان ماري فَارِينَا الذي كنتُ مُولعًا بها.

جلس المفتّش العامّ للعسكر ينتظر حتى وصلتُ إليه، فبادرتُه قائلاً على جهة اللوم: ما الذي يستدعي منك أن توقظني في هذا الوقت من الليل، ولا تنتظر حتى الصباح؟

فقال المفتّش: معذرة مولاي، لكنّ الأمر خطير جدًّا، ولا يحتَمِلُ التأخيرَ إلى الصباح.

فقلت: قُلْ مَا عِنْدَك.

قال المفتّش: لقد أمضيتُ هذا المساء في عَشاء مع نادر بك كما أمرتني. وبعد أن لعبَتْ به كؤوسُ الخمر أخبرني أنّ انقلابًا تُدَبِّرُ له الجماعة في يَوْمِ غَدٍ للإطاحة بكم وتنصيبِ شقيقِكم محمّد رشاد سلطانًا جديدًا.

لم أنزعِجْ من أقواله إذ كنتُ أعلَمُ أنّ أعدائي لن يَفْتُرَ لهم جهدٌ حتى يطيحوا بي. ثم سألته: وهل أَخبرك بلائحة الانقلابيّين؟

فقال المفتّش: نعم سيّدي، وهم فلان وفلان وفلان، مع مجموعة أخرى من أنصارهم في المدرسة العسكريّة.

وبعد أن أخبرني بتفاصيل الخطّة وأسماء المشاركين فيها، شكرته وصرفتُه إلى بيته. ثم ناديتُ على الفور على بعض الضبّاط الأوفياء والحرس الخاصّ، وأخبرتهم بالموضوع، وأنفذتُ أوامري بالقبض على جميع المتآمرين حالاً، بدءًا ببعض الضبّاط الضالعين في الانقلاب من حرّاس القصر. أمّا أخي محمّد رشاد، فقد طلبتُ بتشديد الحراسة عليه، ومنع أيّ زيارة أو خروج من دائرته.

لم أنم تلك الليلة، وبقيتُ ساهرًا أتلَقّى الأخبار حتى جاءتني التقارير عند بداية الإسفار عن انتهاء عمليّة القبض على جميع

المتّهمين، وأُلْقِيَ بهم في غَيابات سجن «طاش قيشلة» قبل محاكمتهم. وفي الأيّام الموالية، قمتُ بتعيينات جديدة، وأبعدتُ آخرينَ إلى مناطق نائية في طرابلس الغرب.

بعد ذلك، لم يَعُدْ للجماعة نشاط في استانبول، ونقلَتْ مَقَرَّها إلى باريس، وأصدرَتْ صحيفة المَشُورَة التي كان يُديرها أحمد رضا. كنت قد طلبتُ من سفيرنا في باريس أن يَرْصُدَ حركات الجماعة. وكانت تأتينا باستمرار التقارير المفصّلة عن لقاءاتهم واجتماعاتهم وتصريحاتهم، والمقالات التي كانوا يكتبونها. لم يكن أحمد رضا يميل إلى الفلسفة الوضعيّة التي ازدهرَتْ في القرن التاسع عشر، ولهذا استبدَلَ اسم الجماعة من تركيا الفتاة فأطلق عليها اسمًا جديدًا هو «الاتّحاد والترقّي» متأثّرًا في ذلك بمبادئه الفلسفيّة الإلحاديّة. اشتدَّتْ قوّة الجماعة إلى الحدِّ الذي كتبوا في أحد أعداد جريدتهم «يتوجَّب قبل كلّ شيء القضاءُ على السلطان واستئصالُ شَأْفَتِهِ، ومن المحتمل أن يَنْجُمَ عن هذا كثير من المتاعب، ولكن علينا الاضطلاع بإقصائه في هذه المرّة. ونعتقدُ أنّ كلَّ شيء بعد ذلك سيعود إلى الانتظام والاتِّسَاق. بل لزامٌ علينا تحطيمُ جُذاذةِ هذه الصخرة».

لمّا قرأتُ هذا التقرير ضحكتُ، وقلتُ لنفسي: رغمَ عدائهم لي فإنّهم قد أنصفوني لعِلْمِهِمْ أنّ الدولة ستُلاقي أهوالاً كثيرة لو قَدَّرَ الله غيابي. والعجيبُ أنّ جميعَ منشوراتهم في أوروبا كانت تُكِيلُ السباب لشخصي وتتّهمني بأَسْوَإِ الاتّهامات، لكن أيّ واحد منهم لم يكن قادرًا على تقديم مقترح بالحكم البديل سوى ما كانوا يردِّدونَه عن إعلان دستور جديد. أَسِفْتُ وَحَزِنْتُ لمثل هؤلاء الذين

أسَّسوا حركة من أجل الهدم لا من أجل البناء. فأقصى مُرادهم إزاحةُ عبد الحميد عن الحكم، لكنّهم لم يقترحوا بديلاً لحُكمنا، وهذا يعني شيئًا واحدًا أنّنا إزاء مراهقين في السياسة، تحالفوا ضدّ إخوانهم المسلمين مع الأمم النصرانيّة ومع الصهيونيّة والماسونيّة من أجل الإطاحة بإحدى أعظم الدول في التاريخ. حاولتُ إقناعَ هؤلاء بالعدول عن مشاريعهم الهدّامة، وأرسلتُ رجالي إليهم لمحاولة ردِّهم عن زَيغِهم في مقابل ترضيتهم. وقد قَبِلَ بعضُهم ورجعوا إلى بلادهم وانخرَطوا في عمل يخدُم البلادَ والعباد، لكن بعضَ رؤوسهم وخاصَّة أحمد رضا بقي على معارضته ومواقفه المتشنِّجَة. أغلبُ من رفضوا كانوا مرتبطين بقوى خارجيّة، ولم يغادروا البلاد إلّا لأنّهم تضرَّروا من بعض الإجراءات التي اتَّخذناها كرفضِ تفويت امتياز التنقيب عن المعادن لإحدى الشركات الإنجليزيّة. وكان أحدُ أصهاري وسيطًا للشركة فدافعَ عن ذلك التفويت فرفضتُ رفضًا قاطعًا لأنّه ليس في مصلحة البلاد. وقد علمتُ أنّه تلقَّى رشوة كبيرة من الشركة الإنجليزيّة عبر السفير الإنجليزي. فلمّا فشل في مسعاه انضمَّ إلى الجماعة وادَّعى أنّه لاجئ سياسي. وقد هرب من استانبول بتواطؤ من الإنجليز، وتَركَ شقيقتي سانحة سلطان بعدما سرق الكثير من المجوهرات والماس، وأخذ معه ولديه. لكنّه لم يحتمل الغربة، فبقي سنوات قليلة ثم توفي في بروكسيل. كانت إنجلترا من أشرس أعدائنا، وكانت تدعَم بقوّة المعارضة وتغذّيها بالمال والدعم السياسي. وكان من أسباب هذا العداء الإنجليزي لنا التوازن السياسي الذي أحْدَثْتُه لِيَقِينَا شرَّ الأُمم الاستعماريّة، وعلى رأس الإجراءات التي غاضَت الإنجليز امتيازات شقِّ خَطِّ سِكَّةِ حديدِ بغداد الذي حصل عليه الألمان.

ثارت ثائرة الإنجليز لهذا القرار الذي يهدِّد مصالحَهم في العمق، فضغطوا علينا بتشجيع المعارضة الخائنة لبلدها. ولِقَطْعِ دابر الأمر، فقد شدَّدنا الأمر على كلّ من كان يتعلَّل بمتابعة دراسته أو العمل في أوروبا لعلْمِنا بترصُّد الإنجليز واستقطابهم لكلّ هؤلاء. لقد كانت إنجلترا منزعجة من سياساتي تجاهها لعلمي بمحاولتها قتلي، وباحتلالها للولايات العربيّة وقبرص. وقد كنت أستدعي جاسوسَها في استانبول لأوصل لساسة إنجلترا بعض الرسائل. ثم أخبرني رجالي عن ترصُّدهم لتقرير مُشَفَّر أرسله هذا الجاسوس المدعو فامبري إلى بلده يقول فيه بالحرف الواحد «إنّ إنجلترا لن يتسَنَّى لها اكتسابُ صداقةِ السلطان وَوُدِّه، ومن ثَمَّ عليها الإطاحةُ به وعزلُه.. فعِنَادُ السلطان وصَلَفُهُ وغرورُه ورغبتُه في الانتقام يحول دون التَّفاهم مع إنجلترا... ولزام علينا حينئذ الإسراعُ من أجل تفتيت الإمبراطوريّة العثمانيّة وتمزيقِ أوصالها. وعلى إنجلترا أن تتدخَّل على الفور لِتَمُدَّ يدَ العون والمساعدة إلى العناصر المناوئة لعبد الحميد... وتهتمّ إنجلترا باقتفاء أثر هؤلاء المعارضين المؤيّدين لها من جماعة تركيا الفتاة. وإنّ تأييد وتعضيد هذه الجماعات الموجودة في الحجاز ومصر وسوريا هو شيء ضروري مهمّ، لأنّه بمثابة بذر بذور سياسة إنجلترا في المستقبل بمنطقة الشرق الأوسط. وإنّه لا شكّ في أنّ هذه الجماعات التي تحظى بتأييد الدبلوماسيّة الإنجليزيّة لن تتوانى في الشروع في تمزيق شمل السيادة العثمانيّة، ولسوف يكون هذا بمثابة الورقة الرابحة في يد الإنجليز إبَّان تلك اللحظة الحرجة».

على إثر التوصُّل بهذا التقرير أصابتني خيبةُ أمل في هذا الرجل

الذي وإن كنت أعلم أنّه جاسوس إنجليزي، ما كان يُضمِر لنا من عداوة، فطردتُه وطلبتُ استبدالَه بسفير إنجليزي جديد. حاولَتْ إنجلترا الاحتجاج لكنّها كانت تعلم أنّنا يمكن أن نكشفَ ألاعيبها أمام العالم، فسارعَتْ إلى تعيين سفير جديد سرعان ما مشى سيرةَ سلَفِه في المؤامرة ضدّ الدولة.

حاولتُ إجهاض هذه المحاولات ووظَّفنا الكثير من المعارضين في مناصبَ تليقُ بهم. وعملتُ على واجهة أخرى، وهي الضغط على الدول الأوروبيّة الأخرى حتى تطردَ المعارضين من أراضيها مُقَابِلَ مَنْحِ امتيازات اقتصاديّة لهم، ولقينا نجاحًا نسبيًّا وتجاوبًا من بعض الدول. ولهذا التجأ أعضاء الجماعة إلى التنقّل بين إنجلترا وجنيف وبرلين والقاهرة وغيرها من الدول دون أن يُقِرَّ لها قرار. ورغم الحرب الشرسة التي كانوا يخوضونها ضدّ الدولة، فإنّ المحاكم العثمانيّة لم تحكم على من تورَّطوا ضدّ مصالح الدولة بالإعدام، وسرعان ما كنت أعفو عنهم مقابل تعهُّدِهِم بعدم العودة إلى ما سلف. وقد نصحني كثير من مستشاريَّ أن أنهج مع أعداء الأمّة والوطن والدولة نهج سياسة قيصر روسيا ضدّ معارضيه الذين أعملَ فيهم القتلَ والتنكيلَ والنَّفْيَ إلى معتقلات التعذيب في سيبيريا، فرفضتُ وفضَّلت العملَ بالحكمة والصفح عن المذنبين واستمالتهم.

بدأَتْ صحّتي بالاعتلال وكان طبيبي الخاصّ الدكتور عاطف حسين يراقب صحّتي عن كثب، ومرّة تجرَّأَ على سؤالي قائلاً: يا صاحب النيَافَةِ والرفعة، إنّي لا أجد سببًا عضويًّا لعِلَّتك، فهل هناك أمر نفسي يثقل كاهلَك، ويمكنُك أن تُخبرني به؟

فقلت له: لقد أدركتَ يا عاطف باشا أنّ علّتي ليست عضويّة بل هي نفسيّة، إنّني متوجِّس من هؤلاء الإنجليز الذين يسعونَ للإطاحة بي. إنّي أعلم أنّي عقبة كأداءُ في وجه الأمم المسيحيّة والصهيونيّة، «وإنّ المساوئ والقبائح تخرج من تحت يد إنجلترا، وأعلم أنّ الفرنسيّين لا يريدون لنا الخير، ولكن كلّ نكباتي ومصائبي كانت بسبب إنجلترا. وقد وَقَعَتْ من قبل واقعةُ السلطان عبد العزيز بتحريض الإنجليز ومدحت باشا وبطانتِه».

فقال الطبيب: وما سرّ عدائهم لنا يا صاحب النيافة والرفعة؟

فقلت: لقد تزايد عداؤهم بعد أن هدَّدتُ مصالحهم مباشرة بتفويت خطّ سكّة حديد بغداد إلى الألمان، ممّا يعني تقويض سياستهم في الشرق الأوسط. أمّا الفرنسيّون فإنّهم سائرون إثر الإنجليز، في مساعدة المعارضين لنا. وهؤلاء المعارضون ينشطون كما تعلم بين إنجلترا وباريس وبروكسيل.

فقال الطبيب: وما دخل بلجيكا في الأمر؟

فقلت: إنّها أحد أكبر المراكز الماسونيّة، ثم إنّ اليهود قد استوطنوها وصاروا يتحكَّمون بالمال والأعمال من خلال استحواذهم على تجارة الماس.

فقال الطبيب: يا صاحب الشوكة والرفعة، إنّي لا أفهم كيف أنّ خطّ سكّة حديد بغداد يدفع بلدًا مثل إنجلترا لإشهار العداوة علينا والتضحية بمصالحهم معنا.

ابتسمتُ ابتسامة ساخرة وقلت للطبيب: إنّك رجل خَيِّر يا عاطف باشا، لكنّ الإنجليز يفكّرون في المستقبل، وهم أدركوا أنّ

الرهان الأكبر مستقبلاً هو البترول الذي تمّ اكتشافُه في منطقة الشرق الأوسط. لقد أصدرتُ قرارًا قبل عدّة سنوات بوضع حقِّ إدارة منابع البترول الموجودة في البصرة بِرُمَّتِهَا على نفقة خزانة الدولة بدون أيّ إشراف أجنبي عليها رغم التكلفة الباهظة. كما منعتُ تفويتَ التنقيب إلى الشركات الإنجليزيّة الرائدة في الصناعات البتروليّة. وهم يعلمون أهمِّيّة البترول الذي هو شريان الحياة والطاقة ومصدر الثروة في المستقبل. وإنّ بناء خطّ سكّة الحديد يقطع أمامهم الفرصة لاستغلال آبار البترول في منطقة الشرق الأوسط. وقد ساعَدَنا الألمان على تحقيق هذه السياسة المستقلّة عن أطماع الإنجليز. ولمّا أدركوا الخطر المهدِّدَ لمصالحهم عملوا على إسقاطي وسيواصلون إلى أن يتمكَّنوا من ذلك، لأنّ أبناء الدولة من المعارضين سُذَّجٌ لا يَهُمُّهُم إلّا مصالِحُهُم الشخصيّة ولا يدركون الأخطارَ التي تُهَدِّدُ دولتَهم ومصالح بلادهم. وحينما سيدركون الحقيقةَ سيكون الوقتُ قد فات، ويندمون على تفريطهم في وحدة بلادهم ومصالحها العليا.

ثم قال الطبيب: هناك شيء لم أفهمه يا سيّدي، وهو أنّ أغلب هؤلاء المعارضين تخرَّجوا من الكلِّيّة الحربيّة، علمًا بأنّ التعليم الذي يتلقّونه ألماني، وهذه الدولة تبدو حليفتنا فكيف ذلك؟

فقلت: صحيح أنّي لمّا أنشأت الكلِّيّة الحربيّة كنت أفكّر في تخلّف الجيش العثماني عن باقي الجيوش الأوروبيّة. ولمّا كان أقوى جيش برّي في وقتنا هو الجيش الألماني، فقد أرسلت في طلب أساتذة ألمان لتدريس طلبتنا، بيد أنّهم لم يكتفوا بذلك بل كانوا يخدمون مصالح بلدهم كما هو شأن الآخرين.

أطرق الطبيب بنظره إلى الأرض، ثم قال: لكن، يا سيّدي عليك أن تكون في صحّة جيّدة حتى تقاوم هؤلاء الأعداء، وأرجو أن لا تُتْعِبَ نفسَك بكثرة الهُموم.

فقلت: لولا أنّي أؤمن بالله إيمانًا راسخًا لما استطعتُ أن أقاومَ كلّ هذا الزمن، وإنّ تِرياقي يا صديقي هو الذِّكْرُ الذي أجد فيه راحة كبيرة. وقد أغفلتُ سبحَتي منذ مدّة، بعد وفاة الشيخ ظافر، وقد ذكَّرْتَني اليومَ بالدواء الذي عليَّ أن أتَّبِعَه. سأعاودُ بإذن الله جلاءَ الهُموم بسيف الذكر القاطع.

فقال الطبيب: إنّ مطلبَ المعارضة اليوم يتمثَّلُ في إعلان دستور للبلاد، فما المانعُ من ذلك؟

فقلت: إنّي لستُ ضدّ الدستور يا صَديقي، وقد كنت أوَّلَ من أدخله للبلاد في بداية حكمي، لكنّي لمّا رأيت الشَّطَطَ في استعماله بحيث كان النوّاب يخدمون مصالح الدول الأجنبيّة بدل خدمة بلدهم، رفعتُ العملَ به، لكنّي اليومَ أفَكِّرُ في إعادته.

فقال الطبيب: ستكون فكرةً سديدة يا مولاي، وستسحبُ من تحت أعدائك بساطَ المعارضة.

فقلت: إنّ السياسيّين لا يُخيفونني، لكنّي مغمومٌ بسبب الجيش وخاصّة تمرُّد الضبّاط الشباب في الجيش الثالث، الذي أصبح بفعل عمل الماسونيّة والصهيونيّة يعمل ضدّ قائده الأعلى وخليفة المسلمين!

* * *

ساءت الأحوال بعد تمرُّد الجيش العثماني في مقدونيا بسبب الدعاية المتواصلة من الصهيونيّة والماسونيّة هناك، بيد أنّ الشعب وغالبيّة الضبّاط كانوا موالين لي. وحتى لا أتسبَّبَ في إضعاف الدولة فقد أعلنتُ الموافقةَ على الدستور لتهدئة المتمرّدين.

لكنّ الإنجليز والألمان كانوا في صراع قوي من أجل كسب رهان تأييد التمَرُّد ضدّي، وانقسمَتِ المعارضة إلى قسمين، إحداها تابعة للإنجليز في سالونيك والثانية في موناستير تابعة للألمان. ولمّا لم يكن ممكنًا الاعتماد على الجيش في استانبول للانقلاب عليّ، فقد عمل الاتّحاديّون على استدعاء فرقة من سالونيك وأنزلوها في قلعة طاش قشلة.

خرج الجند إلى الشوارع يردِّدون هُتافات مُناوئة للسلطان واتّهامه بانتهاك الشريعة. كانت هذه خطّة مدبّرة أقنع بها الانقلابيّون هؤلاء الجند حتى يسهُلَ عزلي. وقرأوا عليهم أمرًا مزوّرًا موقّعًا باسم السلطان واستغفلوا هؤلاء. وفي فاتح أبريل استقال حسين حلمي باشا الصدر الأعظم بعدما كان بإمكانه سَحْقَ التمرّد خلال

ساعتين، ولم ينظر إلّا إلى مصلحته الخاصّة. وكان بإمكان الجيش الخاصّ القضاءَ على هذا التَّمرُّد لكنّي لم أكن أرغب في أن يتقاتل الجيش العثماني.

وأحبطنا هذه المحاولة بكلمة أرسلتها إلى الجند المتجمهرين في ميدان آيا صوفيا فتفرَّقوا، لكنّهم عادوا في اليوم الموالي تحت تأثير الدعاية الاتّحاديّة ومساندة الإنجليز والألمان.

وفي هذه الأثناء زارني السفير الروسي وعرض عليّ إخراجي من استانبول، فرفضتُ رفضًا قاطعًا وفضَّلتُ الموتَ على أرض أجدادي بدل الهرب إلى الخارج. ثم قمت بتشكيل الحكومة الجديدة بعدما عمل كلّ فريق من الاتّحاديّين على الدفع بأحد رجالاتهم إلى الصدارة العظمى، لكنّي رفضت مقترحاتهم لضلوع من اقترحوا في أحداث التمرّد الأخيرة. ثم عيَّنت توفيق باشا صدرًا أعظم وعاد الأمن في استانبول بعدما رجع الجيش إلى ثكناته، لكن جيش العمليّات الموالي لألمانيا رفض الانصياع للأمر. لم يكن من السهل احتلال قصر يلدز لولاء الجيش الذي يحرسه لي والبالغ عدده ثلاثون ألفًا. كانوا مستعدّين للموت من أجل حماية السلطان، لكنّي لم أَرِدْ سفك الدماء أو حدوثَ مواجهة بين مختلف وحدات الجيش. ولـمّا علم الشعب بما يُدَبِّرُ له الانقلابيّون تجمهروا مسلَّحين بأسلحة مختلفة أمام قصر يلدز للدفاع عن الشرعيّة وعن خليفة المسلمين، فأشرفتُ عليهم من نافذة القصر وطلبتُ منهم أن يتفرَّقوا. وجاء الوزراء وطلبوا منّي أن أُواجه الانقلابيّين بالسلاح والقضاء عليهم نهائيًّا، فقلت لهم: «لا يحترق ألف شخص من أجل شخص واحد، ولا يضرب الإخوة بعضهم بعضًا، ولْتُجْمَعْ

أسلحةُ ضاربي البنادق، ولا يُطلِقْ أحد النار، وليفعَلْ هؤلاء ما يُريدون».

أمّا الانقلابيّون من جيش العمليّات فقد طوَّقوا قصر يلدز وقاموا بأعمال القتل والتنكيل بالجند الموالين في منطقة طاش قشلة، ثم أحكموا الخِناقَ على القصر. أمّا الجيش السلطاني المرابط في ثكنات القصر فقد غشيه الغضب، وصاحت الكتيبة الكرديّة: «إنّ أبانا السلطان عبد الحميد قد قضى نحبه». ثم لمّا تحقّقوا من سلامتي طلبوا إليّ إصدار الأمر لهم للمواجهة المسلّحة، لكنّني أبَيْت.

ثم جاءني المشير طاهر باشا قائد سلاح البنادق وارتمى على قدميَّ يستعطفني كي أعطي الأمر بالمواجهة مع الانقلابيّين، وقال: «يا سلطاني إنّهم بدأوا يطوِّقون القصرَ ويحاصرونه فتفضَّلْ وأَصْدِرِ الأمر ولأَكُنْ أنا قائدَ السلاح، ولأسحَقَنَّ هؤلاء القادمين وأسوقَهُمْ أمامي، وأُسَوِّيَنَّ بهم الأرض.

انظر يا سيّدي، فنحن عبيدُك الذين أطعمتَهُم وغذَّيْتَهُم خبزًا حلالاً طيّبًا، وكيف أنّهم سيبذلون كلّ وُسعِهم من أجل التضحيّة والفداء».

فأجبته قائلاً: «أنا لا أريد سفك الدماء أبدًا من أجل النزاع الأخوي. حاشا لله أن يُطلِق أَحَدٌ النار، وما قدَّره الله سيكون».

ثم عاد المشير فكرَّر عليّ الأمر فقلت له: «ألم تَفْهَمْ قَوْلِي يا باشا؟ اِذهبْ على الفَور وافتَحْ الأبواب وعجِّلْ بإلقاء السلاح كلِّه، وليذهَبْ هؤلاء إلى حيث يريدون، واخرُجْ أنت واذهَبْ إلى حيث تريد».

كنت أعلم أنّي لو أردتُ هَزْمَ أعدائي بالجيش السلطاني لفعلتُ بسهولة، لكنّي كنتُ أرفُضُ أن أُوَجِّهَ السلاح إلى صُدور أبنائي العُصاة ببنادق أبنائي الأوفياء.

لم يكن أمام المحاصِرينَ سوى تفريق الجيش السلطاني والمخلِصين من العاملين في يلدز، وقطع الماء والكهرباء والغاز عن القصر، فأمرتُ برفع راية الاستسلام البيضاء، لكنَّ أحدًا لم يُقْدِمْ على ذلك تهيُّبًا من أن تُلْصَقَ به هذه الإهانة طولَ حياته. وأخيرًا قام أحد اليَاوْرَان بهذه المهمّة على كُرْهٍ، إيثارًا منه لإخوانه، فرفع الراية على جَوْسَقِ التعليم خانة، وسلَّمْتُ القصر إلى جيش العمليّات.

* * *

أُعْلِنَتِ الأحكام العُرفيّة، ثم قام أحد أعضاء البرلمان بإعداد مسوَّدةِ فَتْوَى عَزْلِ السلطان ثم عرَضوها على شيخ الإسلام ضياء الدين أفندي وأمين الفتوى حاجي نور، وطلبوا التَّوقيع عليها فوقَّع عليها شيخ الإسلام، بينما رفض المفتي، وتعلَّل لهم بعدم وجود حجَّة قويّة مُقنِعة تُبَيِّنُ سببَ عَزْلِ السلطان عن العرش، فأجابه أعضاء الوفد من الاتّحاديّين: إنّ السلطانَ يقف ضدَّ الشرع الشريف.

فقال لهم المفتي متأثّرًا، بأعلى صوته: «لا تفعلوا هذا يا أبنائي ولا تُنفِّذوه، فإنّ عزلَ السلطان نذيرُ نَحْسٍ وشُؤْمٍ على البلاد فلا تفعلوه».

لكنّهم أصرُّوا على توقيعه فقال لهم: «إنّ شيخ الإسلام ضياء أفندي هو مفتي الأنام، واستصدار الفتوى هو أمر يخصُّه وحدَه».

ولمّا أعيَتْهُم الحيلة قال له أحمد رضا وطلعت بك: أتأذَنُ لنا بعشر دقائق وسنلتقي بأصدقائنا ثم انصرفا. وبعد مُضِيِّ المدّة دخلوا ومعهم البروفسور مصطفى عاصم أفندي عضو البرلمان عن

استانبول وصديق المفتي الشخصي فأسرَّ في أُذُنِ صَدِيقِه قائلاً: إذا أنتَ لم تُوقِّع على هذه الفتوى فإنّ السلطانَ سوف يُقْتَلُ لا مَحَالَةَ وستكون حينئذ شريكًا في قتله. تعالَ ووقِّعْ معي على الفتوى وأَنْقِذْ نَفْسَك».

فقال المفتي: إنّ عزلَ السلطان ليس فألاً حسنًا، وإذا تَوَجَّبَ تغيير السلطنة فأعرِضُوا الأمرَ على السلطان ولْيَعْزِلْ نَفْسَه. حينئذ قام أحد الاتّحاديّين وكتب في الفتوى ما يُفيدُ هذا المقترحَ، ورضي المفتي بالأمر بعدما قال: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لنا ذُنُوبَنا.

تضمَّنَتِ الفتوى كثيرًا من التُّهَم الباطلة بحقّ السلطان منها اتّهامهم له بالحرف «حذَف كثيرًا من المواضيع الدينيّة الواردة في كتب الفقه، ومنَع تداوُلَ هذه الكتب وحرقَها ومزَّقها، وأمعن في الإسراف والتبذير من خزانة الدولة، ونفى الناس بدون سبب إلى أماكن قاصية وحبسهم وقتلهم، وأشاع المفاسد والرذائل بين الخلائق أجمعين».

واجتمع مجلس النوّاب وأقرَّ الفتوى بالإجماع، ثم تداوَلَ في الوفد الذي سيَعْرِضُ قرارَ العزل على السلطان. وتمَّ ذلك بطريقة قريبة يبدو أنّها طُبِخَتْ من قبل. واختيرَ وفد مُكَوَّنٌ من عارف حكمت باشا، وآرام أفندي، وأسعد طوب طاني أفندي، وقراصو أفندي فَأُرسِلوا إلى قصر يلدز.

لم يبق في القصر سوى النساء وبعض الخدم ممّن ربطوا مصيرهم مع مصير أهله. أمّا الباقون من الآغوات والأرناؤوط وحرّاس الليل والبوّابون وحامِلو موائد الطعام والبُستانيّون وآغوات الحريم فقد تَسَلَّلُوا من دون كلمة وداع أو استئذان، فغادروا وتركوا

السَّرَاي في جُنْحِ السُّرَى. غَرِقَ قصر يلدز الذي لم يَعُدْ يَحْمِلُ معنى النجمة في ظلمةٍ ثقيلة جَرَّاء قطع الكهرباء وأجواء الانقلاب، فانطفأ نور تلك النجمة التي بقيت مُتَّقِدَةً مدّةَ ثلاثٍ وثلاثينَ سنَة من سلطنة عبد الحميد. كانت أصوات الرصاص تُسْمَعُ بين الفينة والأخرى فتزيدُ من نَوْبات الأعصاب لأغلب هؤلاء النسوة. ثم بدأت تُسمَع طلقات مدوِّية تُعْلِنَ جلوسَ محمّد رشاد الأخ الأصغر للسلطان على العرش تحت اسم محمّد الخامس، فقال السلطان المعزول لمن حوله: لقد تحقَّق ما أراد الله، والحكم لله وحده.

تجمَّع جميع من بقي في القصر في الصالون المنيف الذي سقَطَتْ نِيَافَتُهُ على هذا الغَدر الشنيع المبَطَّن بالحرِّيّة والدستور. اختلط الكُلُّ بالكلّ، ولم يَعُدْ هناك دائرة فلان أو دائرة فلانة بل اجتمع الجميع في هذا الصعِيدِ الواحد ينهَشُهُم الجوعُ والتَّعَبُ والألم. بعضهم يضربُ الجدران برأسه وتَفِيضُ عُيونُه بدمع حَارٍّ كأنّه لهيبٌ من سَقَر يجري على الخُدود فيَشُقُّهَا أَخَادِيد حتى تبدو مثل صفحةِ سَعْفة ذابلة.

كان عبد الحميد أكثرَ سكّان القصر ثباتًا. لقد انتقل نورُ القصر إلى قلبه، فأصبحَ يَشِعُّ منه شعاعٌ خافت لبقيّة الخائفين والضارعين من أهل يلدز. كان يجلس إلى مِنضدته في القاعة الصغيرة يُطالع بعض الأوراق أو يُداعب سبحتَه التي أضحت مثل ساعة تحصي كم بقي من الزمان لينتقل الأمر. كانت كلُّ حَبَّةٍ مثل حبّة من حبّات الرمل في ساعة رمليّة تندفع نحو فوهة الوسَط الضَّيِّقة لِتُؤْذِنَ بالانتقال من زمان إلى زمان. لقد تعاظمَتْ تلك الحبّات الرمليّة حتى تشكَّلَتْ في سبحة عبد الحميد، بالنظر إلى عظم الزمان وهوْل

الكُروب. حتى حبَّاتُ الرمل لم تعد تقوى على إحصاء تلك الثواني والدقائق المدلهِمَّات، فَتَضَامَّتْ إلى بعضها وتشكَّلَتْ في حبَّات مِسْبَحَةِ السلطان حتى تَقْوَى على إحصاء هذا الزمان الغادر الذي استأسَدَ فيه البَعُوض واستَنْمَرَتْ فيه الزنابير، واستفْحَلَتْ فيه الديَاثَة باسم الحرِّيّة. لم يكن عبد الحميد يُلقي بالاً لصَفِيقِ زُجاج النَّوافد التي ترتَعِشُ لطلقات الرصاص فترتَعش لها قلوب الصغار والنِّساء، بل كان غارقًا في أذكاره أو كتبه يجد فيها السلوان، ويستعين بها على استحضار زمن آخر غير الزمان التافه الذي كان يجري من حوله. لم يكن أحد يجرُؤ أن يدخلَ عليه في تلك القاعة الصغيرة سوى زوجَته مشفقة التي كانت تشفق عليه من حاله وتَرثي لسوء الأحوال وتبدُّل الأيّام. لم يغب عن عبد الحميد أن يقومَ بمهمَّتِهِ إلى آخر رَمَقٍ، فأرسلَ الكثيرَ من وثائق الدولة إلى رئيس الكُتَّاب حتى يحتفِظَ بها في مكان آمِنٍ، وحتى يَحفَظ للأمّة تاريخَها فلا تَعدو عليه أيادي الغِشّ بالتزْوير والتحوير.

ثم لعلّه انتبهَ إلى أهله فقال لزوجته مشفقة: زوجتي، ماذا يأكل الأولاد منذ عدّة أيّام؟

فأجابته مشفقة: لا تنشغِلْ بهذا يا أفندينا، فهم لا يبقون من دون طعام، ويأكلون ما يجدون، وهناك البسكويت وغيره، ولا يبغون شيئًا سوى صحَّتكم.

فقال عبد الحميد: زوجتي، كيف يستطيعُ ساكنو هذا السراي الضخم أن يعيشوا على هذه الأشياء اليَسيرة؟ وما هو ذنبُ هؤلاء النسوة حتى يُحْكَمَ عليهنّ بالجوع؟ وكيف يَدومُ هذا؟ لا بدّ من حَلّ!

ثم نادى على رئيس الكُتّاب جواد بك، وقال له: أيّها الباش كاتب، منذ أسبوع والأولادُ والنساء شيوخًا وأطفالاً يعيشون بلا طعام تقريبًا وما ذنبُ هؤلاء الأبرياء؟ ألا يلزمُهُمْ قليلٌ من الخبز؟ ولماذا لا تبحثُ عن حلٍّ لذلك؟

فأجابه جواد بك غيرَ مكْتَرِثٍ: ماذا عسايَ أن أفعل؟ إنّنا لسنا بحال يجعلُنا نفَكِّرُ فيهم وليأكلوا ما يجدون، ومن أين لي أن أجدَ الطعام؟ لقد ذهب الطبّاخون ولم يبق أحد في السراي، يمكنني أن آتي ببعض الخبز يَغْمِسُوهُ في الماء ويأكلوه.

لم يكن عبد الحميد ينتظر أن يسمَعَ مثل هذا الجواب من أحد رجاله، وشعر بإحباط كبير وحزن شديد، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ بتخلِّي الناس عنه في هذه الأيّام السوداء، ثم قال: هل حُكِمَ على الأولاد بالجوع؟ وهل انعدمَت الإنسانيّة؟ وهل من الصواب أن نضحِّي بألف شخص في سبيل شخص واحد؟ أمعقولٌ هذا؟ لا بدَّ أنّكم تستطيعون العثورَ على حلٍّ لذلك؟

ثم قام تَجُرُّهُ قدماه إلى القاعة الصغيرة ليختلي بنفسه. وبعد ذلك أحضروا بعض الخبز تَلَقَّفَتْهُ القلفاوات كما يُتَلَقَّفُ المَنُّ من السماء واقتَسَمْنَهُ فيما بينهنّ، بينما تناول الصغار البسكويت وشيئًا من القهوة.

كان أغلب الأمراء والأميرات قد غادروا السراي إلى بيوتهم، ولم يبق إلّا نساء السلطان وبناته غير المتزوّجات والأمير عبد الرحيم، والأمير نور الدين أفندي، والأمير عابد أفندي، وكانوا صغارًا ملازمين أمّهاتهم.

جاء الوفد المشؤوم إلى باب القصر فوجدوا غالب بك في انتظارهم، وأخذهم إلى داخل القصر لمقابلة السلطان. ثم أبلغ غالب بك رئيسَ الكُتّاب جواد بك رغبةَ الوفد في رؤية عبد الحميد. دخل الوفد إلى صالون صغير في القصر. ومرَّت دقيقتان ثم ما لبث أن دخل عبد الحميد رفقة ولده عبد الرحيم الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره.

* * *

دخلتُ القاعة رفقةَ ولدي عبد الرحيم، فسلَّموا عليَّ فقمتُ بِرَدِّ التحيّة. تفرَّسْتُ في الوفد المشؤوم. ولم أُصَدِّقْ ما أرى. فهذا أسعد طوب طاني الألباني مدير البوليس الذي أنعمتُ عليه كثيرًا. كان هذا الرجل خائنًا، ولقد اتَّفَقَ مع الصرب حتى يصبحَ ملكًا على منطقة الأرناؤوط. ثم هذا عارف حكمت الذي رقَّيتُه إلى رتبة فريق لكنّه كان رجلاً حَسودًا كَنُودًا. ثم هذا آرام الأرمني الإرهابي الذي قتلَ الأبرياء مع الجماعات الإرهابيّة السرِّيّة الأرمنيّة. لقد جاء مع الوفد ليثأرَ للأرمن من السلطان. وذاك الثَّافِيَةُ عمانويل قراصو اليهودي الماسوني الحَقير الذي باع ليبيا لإيطاليا برشوة كبيرة، جاء لينتقمَ لأبناء جِلْدَتِهِ من خليفة المسلمين على موقفه من فلسطين والقُدْس الشريف. لقد طردتُ قراصو غير ما مَرَّة حين جاء مع هرتزل وتجرَّأَ على رشوتي بخمسة ملايين ليرة ذهبيّة تُدْفَعُ لي شخصيًّا مقابلَ تسليم فلسطين لهم، عدا تسديد الديون المترتِّبَة علينا للأوروبيّين!

غرقتُ في بحر من الحزن لمّا رأيتُ هؤلاء وليس فيهم رجل

تركي أو عربي واحد يبلِّغُونَ خليفةَ المسلمينَ قرارَ عزله. لقد اخترقَتِ الماسونيّةُ والصهيونيّةُ جماعةَ الاتّحاد والتَّرَقِّي إلى درجة لم يعودوا معها يراعون حُرْمَةَ مَنْصِبِ الخلافة. ألم يجدوا غيرَ هؤلاء؟ أما كان أن يأتي شيخُ الإسلام أو شيبةُ السوء لِيُمَثّلَ هذا الدور الأخير، ويقومَ بهذه الفَعْلة الشَّنْعَاء مُراعاةً للحُرُمات قبل أن نلتقي عند ربِّنا، ويسألَهُ سؤالَ العليم الخبير عن جِنايته. أمّا المفتي، فإنّي أعلَمُ من حاله أنّه رجلٌ شريف عفيفٌ لا يُسوِّد صحيفتَه بهذا البُهْتَان الذي رَقَمَتْهُ أيادي البطش والغَدر التي لا تنفَكُّ تَرْتَعُ في مَعاطِن الرَّذيلة. لقد سوَّد الاتّحاديّون تاريخَ دولتنا العظيم بهذه المسرحيّة الساخرة العابثة، فأرسلوا هذا اللَّفِيفَ الحاقد الحقير لِيُمَرِّغَ كرامةَ الأُمَّة في تُراب كراهِيَّتهم. كنتُ أَغلي من داخلي وتنتابني مَوجاتٌ من الغَضَب لأجل بلادي وأمّتي والخلافة على إذلالها بهذا الشَّكل الحقير. لم أَكُنْ أَنْتَصِرُ لنفسي، ولو كنتُ كذلك لسحَقْتُ هذا التمَرُّد في المَهْد، لكنّي كنت مؤمنًا بالله صَبورًا على الشدائد، متقبِّلاً لحكم الله في السَّرّاء والضَّرّاء. وقد كنت أعلمُ أنّ دورةَ الخلافة اليوم قد انتهَتْ عند اسمه تعالى «**حميد مجيد**»، لكنّي لم أستَسِغْ أن يتِمَّ إقصاءُ خليفة المسلمين بفتوى باطلة، ثم يُعْهَدَ إلى ماسوني صهيوني حقير ليبلِّغَ خليفةَ المسلمين قرارَ عزله. أَبَلَغَ الأمرُ باستسهال الإمامة العظمى إلى هذا الحدّ، وإلى هذا المستوى من الدَّنَاءَةِ والخِسَّة؟ إنّ من يفعل ذلك لهو حقًّا في الدَّرَك الأسفل من الوضاعة. وإنّ الله تعالى سينتقم من هؤلاء شَرَّ نقمة عاجلاً وآجلاً.

إنّ لخليفةِ المسلمين حُرمةً كبيرة لا يُدرِكُها إلّا مَنْ أَدركَ قيمةَ الشَّرع المحمّدي، وعَلِمَ مَواطنَ الشَّرَفِ والحُرْمَة فيه. وإنّي أعلم اليومَ قبل غدٍ إخبارًا من المولى، وإيمانًا بعدله، أنّه سينتقم من هؤلاء الذين

دنَّسوا الإمامة العظمى والخلافة الوسطى بِعَقَابِيلِ السُّوء، وأنّه سيُسَلِّط عليهم الذُّلَّ والهَوان. لقد طمعوا في اجتثات الخلافة ليكسروا وحدة المسلمين، لكن هيهاتَ هيهات، إنّ التوحيد قائمٌ في القلوب. ولئن عزَلوا الخليفةَ اليوم، فإنّ الدَّورةَ ستستمرّ لا محالة. سنرى مُلكًا جبريًّا استبداديًّا ثم تأتي دورةُ الخلافة التي على منهاج النبوّة.

ثم تقدَّم أسعد باشا طوب طاني الأرناؤوطي نحوي وقال بحِدَّة وصرامة: لقد عزلَتْكَ الأمّة.

اهتَزَّ كياني هزَّة عظيمة، وبقي جسدي ثابتًا إلّا من رعشة خفيفة، لكنّي عدتُ لرباطة جأشي وفُتوري غير مكترث بما أسمع وكأنّي كنت أعلم النَّبَأَ من قبل، ثم قلت: أعتقدُ أنّكم تريدون القولَ: إنّها خلعتني، حسن، ما هو السبب الذي يستندون إليه؟

فأخرج عارف باشا صورة الفتوى وقال: لقد عزلَتْكَ الأمّة بموجب الفتوى الشريفة، وإنّ أموالَك وروحَك وأولادك وحياة عائلتك في الحفظ والصوْنِ والأمان.

ثم بدأ يقرأ الفتوى حتى وصل إلى موضع تهمةِ «حَرْقِ الكتب الشرعيّة» فقاطعته بصوت مرتفع: أيَّ كُتُبٍ شرعيّة أَحْرَقْت؟ حسبنا الله ونعم الوكيل. ثم أكملَ بُوقُ الدعايةِ الأفَّاك تلاوة الفتوى الزورِيّة والشهادة الزُّنبوريّة. فلمّا انتهى من قراءة هذه الإِضْبَارَة التعْسَاء، سألته قائلاً: من أيِّ جهةٍ صدر هذا القرار؟

فأجاب عارف حكمت: من المجلس الوطني.

تعجَّبت من ذلك وقلت له: أهكذا؟ ومن يترأَّسُ هذا المجلس؟

فأجاب: رئيسُ المجلس هو رئيس الأعيان سعيد باشا.

صِحْتُ بدهشة: سعيد باشا، سعيد باشا... أهكذا؟

ثم قلت: لقد عَمِلْتُ ثلاثًا وثلاثين عامًا من أجل الأمّة والدولة، ومن أجل سلامة البلاد، وخَدَمْتُ قَدْرَ طاقتي. إنّني حاكم يحاكمني الله ورسولُه، ولستم أنتم ولا ذلك المجلس من يحاكمني. إنّني أُسَلِّمُكُم البلادَ بمثل ما وجدتُها عليه، ولم أُفَرِّطْ أبدًا في شبر من أراضيها لأحد، وأترُكُ للمولى عزَّ وجلَّ تقديرَ خدماتي. ثم دعوت على أعدائي: اللَّهمّ اهزم أعدائي.

سمعتُ تأمينَ أهل بيتي من الخلف على دعائي، وتظاهرت عصابة الأربعة بالتأمين بتحريك الشفَاه.

ثم قلت: ماذا عساي أن أفعل! إنّه قدَر الله.

لكن سحابةً من الحزن عَلَتْنِي حتى ظَلَّلَتْ ذلك الصالونَ بقتَامَتِها وأحرجَتْ أعضاءَ الوفد. ثم بدأتُ بصلاة خاصّة ودُعاء خفي. وأردتُ الكلام فخانتني الكلمات وارتعشَ صوتي بالضراعة إلى المولى عزَّ وجلَّ، وتَبَرَّأْتُ من الضلُوع في الفتنة التي أَدَّتْ إلى ما وَقَعَ، وقُلْتُ: اللَّهُمَّ اقْهَرْ كُلَّ مَنْ تسبَّبَ في هذه المفاسد والشُّرور والآثام. لقد قدَّمتُ خدمة جليلة في خِضَمِّ هذه الأحداث للحيلولة دون سَفْكِ الدماء وجاهدتُ، فماذا عساي أن أصنَع؟ اللَّهُمّ احفظْ وطني وأمّتي وادفَعْ عنها الضُّرَّ والبَلاء. لا أملكُ سوى أن أقولَ اللَّهُمَّ شَتِّتْ شملَ من كان ضالعًا في هذه الفتن والمفاسد.

ثم ارتفع صوتي وزاد جهرُه وقلت: اللَّهُمَّ انتقِمْ من الظالمين. وأمَّنَ من كان حاضرًا على دُعائي، فابتسمْتُ ابتسامةً خفيفة من

هؤلاء الذين يُخرِّبُونَ بيوتَهُمْ بأيديهم وأيدي المؤمنين حيث أَمَّنُوا على دعاء إهلاكهم، وهُمْ من أيادي هذه الفتنة.

ثم تتابعَتِ الكلمات في بطء، لكن سرعانَ ما ازدادتْ سرعةُ الصَّبيب اللفظي، فقلتُ بصوت مُنكَسِر حزين: أيمكنُ أن أكون مستَأْمَنًا على حياتي؟

وسرعان ما قام أعضاء الوفد ومنحوني الأمانَ باسم حكومة الاتّحاد والترَقِّي.

أحسستُ براحة وطمأنينة بعد هذا الذي حصل، ثم قلت لأعضاء الوفد: هذا ما أطلبه منكم، وأرجو أن تنقلوني إلى منتجعي الصيفي في قصر جراغان، وسيكون شغلي الشاغل هو الدُّعاء لدولتي وأُمَّتي.

فأجابني قراصو الماسوني: سوف نُجِيبُكَ بعد حين لأنّنا لسنا سلطة تنفيذيّة مختَصَّة تستطيع النظَرَ في هذا القرار.

ثم قدَّمْتُ لهم التحيّة وخرجتُ بخطًى ثابتة وعزيمة قويّة نحو القاعة التي يوجد فيها أهلُ بيتي. انصرفَتِ الهيئةُ وراحوا من حيث أَتَوْا كالريح الخبيثة. وبعد خروجِهم هروَلَ أهلُ القصر نحوي عند مدخل القاعة وتحلَّقوا بي كالسوَارِ حول المِعْصَم يَشُدُّونَ من أَزْرِي ويُقَوُّونَ بنفوسهم نفسي. أخبرتُهم بما تَمَّ، فلم يَجْزَعُوا ولم يَقْلَقُوا بل كان هاجِسُهم أن لا يَفُتُّوا في عَضُدِي، وأنّه مهما كانت الصدمة على قلوبهم، فهي لن ترقَى إلى صدمةِ قلبِ الخلافة في ذات السلطان الخليفة. تلك طبائعُ الناس حين يَعْظُمُ الهولُ تتصاغر الهموم الذاتيّة أمام الهموم الكبرى. وأجهشَ ابني الأمير عبد

الرحيم بالبكاء وسقَط مَغْشِيًّا عليه فلم تُعِرْهُ أمُّه عنايةً لذهولها عمّا حَصَل لي، فأخرجتُها من غيبتها وقلتُ لها: بيوستة قادين، اهتمّي بولدي عبد الرحيم، فانتبهت من غفلتها وسارعَتْ إليه.

ثم دخل أحدُ الآغوات المتبقِّين وبيده زجاجةُ شرابٍ مُقَوٍّ، أرسَلَتْهَا الجماعةُ المارقةُ إلى السلطان إمعانًا منها في إذلالي وإقامة الحُجَّةِ على إدماني، مُتَعَلِّلِينَ بحاجتي إلى هذا الشراب المقوّي لأُغْرِقَ فيه حُزني كما يفعَلُ ذوو النفوس الضعيفة ممّن ابْتُلُوا بهذه الفواحش والخبائث. نظرتُ إلى جانب الآغا نظرةً لم أَحْتَجْ معها إلى الكلام، فسارع يعدو في إثر الوفد ليعيدَ لهم متاعَهم الذي دَأَبُوا عليه بالمُقَارَعة. لقد طهَّرنا الله من هذه القَاذورات، أفَنَسْتَسْلِمُ لهذا بعد هذا العُمْرِ المديد في طاعة الله؟

ثم قلتُ لأهلي: «إنّ جزاءَ ثلاثة وثلاثين عامًا من الخدمة هو أن يبلِّغَني هؤلاء باسم الأمّة قرارَ خلعي، وهُمُ الذين لا أَشُكُّ لحظة في عدائهم للدولة والأمّة. لكن لا بأس، إنّ أمّتي بريئة والذي نَظَّمَ هذا هم أعدائي الشخصيّون، ولكنّه حُكْمُ الله، ولا بُدَّ أن تظهَر الحقيقةُ يومًا ما والمكتوبُ لا فرارَ منه».

ثم أضفتُ: «هيَّا يا أولاد، كفاكُم حزنًا، اذهبوا الآن إلى غُرَفِكُمْ واستريحوا بعض الشيء، وحاوِلُوا أن تَثْبُتُوا مثلي، فربّما يحدُثُ أن يُخْرِجُونَا من هنا غدًا أو بعد غد. هيَّا توقَّفوا عن البكاء؛ إنّ عيونَكُم قد ذَبُلَتْ، وثِقُوا بكَرَمِ الله ورحمته».

ثم قبَّلوا يدي وخرجوا من الحجرة.

وفي المساء بدأ صوتُ العَويل والبُكاء والصِّياح في السراي،

فقد وصل إلى الأسماع أنّهم سيأخذونني إلى سالونيك.

جاءني جواد بك وأخبرني بأنّ وفدًا من ثلاثة أشخاص يريدون إبلاغي بقرار نقلي إلى سلانيك. تَنَهَّدْتُ وقلتُ مخاطبًا نفسي: إنّهم يريدونَ نقلي إلى عُشِّ الشياطين ومَوْطِنِ الصهاينة والماسونيّين، إمعانًا منهم في إذلالي وإشعارًا لي ولغيري بأنّ هؤلاء هم من كان وراء عزلي.

فلمّا أخبروني بذلك قلتُ: سالونيك ما هذا وماذا عسايَ أفعلُ في سلانيك؟ أين أولادي وأُسرتي؟ لقد أمَّنتُموني على حياتي وأنا سأُقيم في قصر جراغان. كيفَ أعددتُم هذا في منتصف الليل؟

أصرَّ الضابط على نقلي إلى سالونيك وأصررتُ على عدم الذهاب إليها، وقلت له: أنا رجل عجوز ومريض وأريدُ قضاء أيّامي الأخيرة في قصر جراغان الذي وُلِدْتُ فيه ومات فيه أخي مراد. وإمّا أن تُخْلُوا سبيلي وتُطلِقُوا سراحي أو لأذهَبَنَّ من فوري إلى أوروبا.

أصرَّتِ اللجنةُ على سلانيك، فقلتُ لهم: أريدُ الموتَ هنا حيث قُبور أجدادي، وإنّ رغبَتَكُم في نقلي إلى سلانيك شيء مُناقض للدستور. كلّا لن أذهبَ إلى سلانيك وافعلوا ما تريدون.

فقال أحدهم: إنّ الجيشَ سيرعاك وسيُحافظ على حياتك، فلا تَضْطَرُّنَا إلى استعمال القوّة.

ثم حاولوا تهدئتي، وتبيَّن لي أنّي لو أصررتُ على موقفي فسيقتلونني. ولم أَكُنْ أريد أن أتركَ أولادي ضحايا لقَهرهم وجَبَرُوتهم وظلمهم، فاشترطتُ أن يرافقني أهلي وأولادي وبناتي.

وبعدما تداولوا في الأمر وافقوا، فذهبتُ إلى أهل بيتي وأخبرتُهُم بالأمر واستشَرْتُهُمْ فأيَّدوا قراري.

ثم دخل علينا جواد بك وأخبرَنا بالخروج فورًا بعد حُضور العربات التي ستنقلُنا. طَلَبَتْ زوجتي مشفقة أن تأخذَ بعض الملابس فمنعها جواد بك نظرًا لأنّ اللجنة أمرَتْ بخروجنا حالاً، لأنّ المدافعَ ستضربُ رؤوسَنا إذا بقينا داخل القصر. أحسستُ بعطش شديد فطلبتُ من الخزندار كلشن، في هذه اللحظات التي أدركتُ فيها أنّي أُوَجّهُ لها آخرَ أمْرٍ في يلدز فقلت: أَسعفيني بكوبِ ماء يا بُنَيَّتِي. خرجَتْ مسرعة وأتَتْ بالكوب، فدعوتُ لها، وكان آخرَ شيء تتقاضاه منّي في السراي هوَ هذا الدعاء.

التفَتُّ إلى أولادي وقلت لهم: هل أنتم مستعدُّون يا أولادي؟ فَلْنَخْرُجْ باسم الله. كان الله في عَوْنِنَا. حسبُنا الله ونعم الوكيل. وفي تلك اللحظة التقطَتْ زوجتي حقيبة كنتُ أحتفِظُ بها للقرآن الكريم، فكان ما نُخرجِهُ من قصر يلدز مُصحفًا. سرَّني أنّني تركتُ مَتاع الدنيا خلفي، وأنّ الله يسَّر لنا في حمل هذا المصحف الذي كنت أُداوِمُ على القراءة فيه. أسرعنا خارجين بدون متاع إلّا من لباسنا الذي يستُرنا. وفي باب القصر قال لي جواد بك: هنا تنتهي مُهِمَّتي يا سيّدي، خفَّفَ الله عنك ما أنتَ فيه، لا بدَّ أنّ زفرةَ قلبي المكلوم سوفَ تَصْعَدُ في السماء.

اغْرَوْرَقَتْ عيناي بالدموع، واستدعى بكائي بكاءَ أفراد أسرتي.

نزلنا السلَّمَ وكان يحيط بالعربة رجال مُرعبون بقلانسَ بيضاء، والظلام دامِسٌ يَلُفُّ القصر. مررنا بين صفوفهم المخيفة، دَفَعَتْ زوجتي مشفقة بنفسها إلى العربة حتى تكونَ هي أوّلَ من يَتَلَقّى أيَّ

مفاجأة يُخفِيها هؤلاء الانقلابيّون لي، ثم رَكِبَتْ صالحة ناجية هانم التي كانت تحتضن أصغرَ أبنائي عابد أفندي في صدرها. كان المسكينُ نائمًا لا يَدري هوْلَ هذه اللحظات. ثم دخل تِلْوَهَا الأبناء. وركب في العربة الثانية بناتي الأميرة عائشة والأميرة شادية والأميرة رفيعة وزوجتي بيوستة هانم أمّ الأمير عبد الرحيم، وسازكار أمّ الأميرة رفيعة.

إلى أين كنّا نذهب؟ إلى الموت إلى الظلام، إلى أين؟ لم نكن ندري، ولم يكن مُهمًّا أن ندري. لقد استوتِ الأمورُ عند هذا الحدّ. كان آخرَ من بقي يودِّعنا عزّت أفندي صاحبُ سجّادة الصلاة. وذلك خيرُ وداع. انطلقتِ العربة تجري في ليل استانبول الدامس ومضت في إثرها العربة الثانية وعربة المرافقين لنا من بعض الخدم الأوفياء. كانت شوارع المدينة آهلةً بالأشباح. لقد أخرجوا خليفةَ المسلمين في جُنْحِ الليل حتى لا يتظاهر الشعب ضِدَّهُم. وأخيرًا وصلنا إلى محطّةَ القطار سيركجي. لم أشأ أن أخرجَ من العربة حتى تلتحِقَ بي العربة الثانية والتي بعدَها. مشينا بين صَفَّيْن من العساكر حتى القطار. طلعتُ السلّمَ بوقار وثبات، ثم صعدَتْ زوجتي مشفقة وباقي الزوجات وصعد الأولاد ثم باقي الحاشية الصغيرة من الآغوات والحريم. أمّا باقي النساء اللائي تخلّفْنَ في القصر فقد منعوهنّ من الذهاب معنا وأقفلوا عليهنّ دائرة الحريم.

بمجرّد ما دخلنا القطار أقفلوا علينا الأبواب بالأغلاق. تحرّك الإكسبرس بسرعة ودخلتُ مقصورة صغيرة، وجلس باقي المجموعة في صالون القطار. أمضى القطارُ الليلَ كاملاً يَقْطُر كالبرق المنفلت من ماء السحاب على سكّة الموت حتى وصلنا في ليل اليوم

الموالي إلى محطّة خلاء. جاء العساكر وطلبوا منّا النزول. وقد قفزنا لِبُعْدِ سلّم القطار عن الأرض، فلم يعد لنا حجر نعتمد عليه مثل حجر الركوب في يلدز. لكنّي طلبت من شابّ فرنسي أشقر الشعر اسمه المسيو موريس كان مفتّشًا في القطار ليساعدني على النزول، ثم ساعد باقي الوفد ممّن لا يستطيعون القفز. شكرتُه ثم صعدنا في طريق مظلم فوجدنا عربات أخرى تنتظرنا فركبناها. وبعد نصف ساعة وصلنا قصر آلاتيني. كان عددُ الوفدِ أربعًا وعشرين فردًا، إضافةً إلى السلطان. لم أمنعْ خاطرًا جال بذهني أنّ أفرادَ هذا الوفد على عدد كلمات الفاتحة، فبادرتُ إلى تلاوتها بصوت خافت حتى يجعلَ الله لنا يسرًا بعد هذا العسر.

صعدنا طريقًا مظلمًا إلى أن توقّفنا عند العربات التي ستُقِلُّنا إلى وجهتنا الجديدة التي لا نعلَم عنها شيئًا. ركبنا العربات بالترتيب السابق نفسه، ورافَقَنا عساكر الخيّالة على الجانبين. كانت نفسي قد ضاقت طوال مدّة الرحلة، فقلتُ لأحد عساكر الخيّالة: هلّا أعطيتني سيجارة يا ابن بلدي؟

أخرج العسكري سيجارة وولّاعَة فأشعلتُ السيجارة ثم سحبتُ نفَسًا عميقًا وأرسلْت الدخان في ليل سلانيك البارد. كانت الأضواء مشتعلة في القصر فخفَّفَ ذلك من لحظات وصولنا لهذا المكان الغريب. كان في انتظارنا عند أعلى السلّم شابّ وسيم، فلمّا نزلتُ من العربة قدَّم لي التحيّة وعرَّفني بنفسه قائلاً: اسمي فتحي بك قائد الجيش الخاصّ، وقد رافقتُكم منذ خروجكم. دخلنا القصر فوجدنا أنفسَنا في قاعة كبيرة خالية من الأثاث. وبمجرّد دخولنا أُقْفِلَتْ وراءَنا الأبواب فعلمنا أنّنا

سجناء. كانت نوافذُ القصر مغلقةً هي الأخرى فانتابني شعور بالحزن الشديد، وأحسستُ بمثله عند باقي أفراد أسرتي والمرافقين لنا. لقد فقدتُ في لحظة مأساويّة كلَّ شيء، عرشي وتاجي وقصري ومالي وملكي، لكنّ الله أبقى على روحي طاهرة نقيّة، فتقبّلتُ هذا البلاءَ بنفس راضية. لكنّي كنت حَزينًا لأجل أولادي الصغار، ما ذنبُهم كي يُسجَنوا ويُحْرَمُوا من طفولتهم وبراءتهم؟ هل سيُكتَبُ لهم أن يعيشوا شبابَهم كباقي الأطفال؟ كانت تلك بعض الأسئلة التي تُؤَرِّقُني، لكنّي كنتُ أُحِسُّ بالقوّة في نَظراتهم رغم ذُلِّ الأَسْر وبُؤْسِ العُسْر. كنتُ سلطانًا يتسابق الأكابِرُ لتقبيل ذيل ثوبه فأصبحتُ في لحظة مختلَسة من الزمان في أسوَأ مُنْقَلَبٍ. التَفَّ حولي أبنائي وزوجاتي يُمِدُّونَني بطاقَةٍ للمقاومة، إذ كنتُ السراجَ الذي يُضيءُ ليلَهُم، والأملَ الذي يُبْقِي جِذْوَةَ الحياة في أرواحهم. سعدتُ باتّحاد الأرواح والأَنْفُسِ في صَعيد واحد كي تدفعَ عنها شَرَّ البلايا واحترامَ المنايا. لم يكن في القاعة سوى مائدة ضخمة ومقعدين كبيرين، فألقيتُ بجثماني على أحدهما.. وراوَدَتْنِي نفسي مرّة أخرى أنّ حياةَ الإنسان لا تعدو أن تكونَ بين كرسيين كما هي مدوّنة في كُرَّاسَيْن، واحدٍ يخطُّه مَلَكُ اليمين والثاني مَلَكُ الشمال. فهل يا ترى لهذين الكرسيين خادِمان أو مَلَكان يحصيان هذه الأنفاس الثقيلة؟ لقد جلستُ بصورة تلقائيّة. على أحدهما ثم انتبهتُ لعلّي أكون قد أخطأتُ في اختيار كرسي الشمَال، لكنّي كنتُ قد جلستُ على كرسي اليمين بصورة تلقائيّة لم أنتبِهْ لهذا إلّا بعد أن فكَّرْتُ في الأمر. ارتاحت نفسي لهذا الاختيار، إذ المؤمنُ لا يختار إلّا اليمين، وعجبتُ أنّه في مثل هذه الظروف يُصِرُّ المرءُ على مثل هذه الجزئيّات الصغيرة

ويتعلَّقُ بها ويَذُودُ عنها، ليصارعَ الموتَ الذي يَدِبُّ إليه ليقتلَ فيه روح المقاومة، ويعانقُ جِذْوَةَ الحياة التي تُحَرِّكُه. تأمَّلْتُ في الحياة فأدركتُ أنّ لحظات التعَاسَة يَطْبَعُهَا الانتظار ويَسبقها دومًا. ثم وقفتُ فجأة يحدوني الأملُ في الحياة، فقلت: لستُ أدري ماذا نفعل؟

لقد كان نظامُ حياتنا في يلدز مضبوطًا ومحدَّدًا ولم أَكُنْ حتى لأُفَكِّرَ في مثل هذا السؤال. كانت الحياة تنساب بشكل طبيعي، واليوم ونحن في الأسر، فإنّي أدرِكُ رهبةَ هذا السؤال ومأسويّته. إنّه سؤال العدم بعد أن كان الوجود يملأ عليّ أوقاتي، فلا أنتبه إلى ملابسته لي ومخاللته لأنفاسي. ثم في لحظات الأسر ينقَضُّ على الأسير ريح العدم بثقله وفراغه. حاولت أن أستنجد من هذا الفراغ الوجودي بالآخرين، فقلت: وأنتم ماذا ستفعلون؟ فأجابوني بصوت واحد: أفندينا لا تشغلوا بالكم، فنحن واجدونَ حلًّا لذلك.

لم يَكُنِ المساكين يملكون حلًّا للحالة التي نحن فيها، لكن ما كان بوُسعِهم أن يقولوا غيرَ هذا الكلام حتى يَشْحَنُوا هِمَّتِي بالأمل. وحتى أُداري من مأسويّة المشهد تقدَّمْتُ نحو غرفة في الجهة اليسرى هذه المرّة. تردَّدْتُ أوّلاً، لكن صاحبَ القصر لم يكن يُفَكِّرُ بمثل ما أُفكِّرُ فيه بأفضليَّة الجهات، فوضعَ غرفةً على الجهة اليسرى. لكنّي أردتُ أن أَجِدَ تعليلاً لاختياري، فقلتُ إنّها لجِهَةِ القلب. وبعد أن عاينتُها قلت: هذه الغرفةُ مناسبة. ثم سألتُهم مرّة أخرى: وأنتم ماذا ستفعلون؟ فأشاروا إلى غرفة تقابلها وقالوا: هذه تَكفينا يا أفندينا. ثم شمَّروا عن سواعدهم وسَحَبوا المقعدين الضخمين إلى غرفتي وألصقوهُما مع بعضهما ليصنعوا لي منهما

سريرًا للنوم، وقالت زوجتي مشفقة: هيَّا يا أفندينا يمكنُكم الاستراحة الآن.

ثم قامت إحدى القلفاوات بتَفَقُّد الطابق العلوي، لكنّ السلَّم كان مظلمًا ولم يكن هناك من سبيل للصعود، فذهب بعض المصاحبين ينادي على فتحي بك ليأتينا ببعض الماء والصابون والشموع. فجاءنا بما طلبنا. نضحنا الماء على وجوهنا وأزلنا ما عَلِقَ بها من وعثاء السفر، ونفضنا الغبار الذي علق بثيابنا. ثم جاءنا بما نَتَبَلَّغُ به من الجوع الذي كان ينهشنا. كانت الوجبة عبارة عن بعض الخبز واللحم البارد، بينما طلبتُ أن يأتيني بمياه معدنيّة وقليل من الزَّبادي على عادتي في وجبة المساء. لقد كان فتحي بك رجلاً طيّبًا فلبَّى رغباتنا البسيطة بدون تَرَدُّد. ازدرد الأولاد اللحمَ بأيديهم إذ لم يكن في القصر سكاكين أو أشواك أو مناديل، لكنّهم أكلُوا وشبِعوا وضحِكوا من حالتهم وهم يأكلونَ على هذه الصفَة. ثم غسلوا أيديهم بالماء والصابون، وأخذوا قميصًا استعملوه مِنْشَفَة. وبعد أن استردُّوا وعيَهم أَوْقَدُوا الشموع وراحوا يكتشفون الطابقَ العلوي للقصر. ولحسن الحظّ فقد وجدوا سريرًا حديديًّا في بعض الغرف وأغراضًا أخرى مثل بعض المقاعد والأغطية والمناديل البالية فأنزلوها إلى الطابق السفلي. ثم قام فتحي بك بجلب بعض الأغطية والألحفة والوسائد من فندق قريب من القصر. فرحنا بهذه الهديّة البسيطة التي كانت في هذه اللحظات شيئًا ثمينًا له بال رغم قَذارتها. اختاروا لي أنظفَها ثم صنعوا لي سريرًا مناسبًا وتقاسموا الباقي بينهم. نام الأولاد على أرضيّة القصر الخشبيّة الخشنة، واختار كلّ واحد أن ينامَ قربَ نافذة أو باب من

الأبواب مُصِرِّينَ على حراستي من غَوائل ليل سالونيك وطوارقه. ونام المرافقون خلف بهو الصالة الكبيرة.

هكذا مَرَّتْ أوَّلُ ليلة لنا في سالونيك في رُعْبٍ وتَعَب وحزن خشية أن يَحْدُثَ لنا مكروه، فقد كان وَقْعُ أقدام العساكر على حصباء القصر يَقْرَعُ قلوبَ أولادي وزوجاتي حتى أشرقَتْ شمسُ الصباح. طلع علينا نهار جديد ونحن في هذه الحالة المزرية، ولمّا تسلَّلَتْ أشعّة الشمس الأولى نهضَ الأولاد وتعانقوا مع بعضهم وحمدوا الله على سلامتنا في أوّل ليلة قضيناها في قصر ألاتيني. فتحوا مصاريع النوافذ فتسلَّلَ الضوءُ ينشُرُ رحمةَ الله في القلوب فانتعشوا لذلك، وأطَلُّوا على الحديقة فتناهَتْ لنا أصواتُ الطيور تزقزِقُ وتغرِّدُ مُرَحِّبَةً بنا. ارتاحت عيوننا لخضرة الأشجار وألوان الأزهار وشَدْوِ الطيور، فجاءني الأولاد والأهل وقبَّلوا يدي وتبادلنا تحيّة الصباح والدعاء بالخير، فرددتُ عليهم ثم سألتُهم: كيف كانت ليلتكم؟

فقالوا على سبيل التهوين: لقد كان نومًا مريحًا.

ابتسمتُ من جوابهم ثم قلت: لم أنَمْ إلّا قليلاً، واليومَ أشعُرُ بالتعب، ولن يذهبَ تعبي ما لم آخذ الحمّام الذي اعتدتُ أن آخذَه كلَّ صباح منذ شبابي، فلا راحةَ لي بدونه. إنّها عادتي للأسف، وأرجو أن تعذُروني.

فقال أحدهم: لقد وجدنا حمّامًا في الطابق العلوي ليلة أمس، وسوف نُعِدُّهُ لكم يا أفندينا لو صبرتُم علينا قليلاً.

ثم التفَتُّ وسألتُ زوجتي مشفقة: ماذا أكلَ الأولاد هذا الصباح؟

فأجابت: لا يوجد شيء يُؤكَلُ الآن، ولكنّهم لن يتركونا بدون طعام، فلا تُشْغِلْ بالك.

فقلت لا بدّ أن أرى فتحي بك اليوم، وأشرحَ له حالَنا. ثم أرسلتُ أحد المصاحبين للمناداة عليه. وبعد قليل جاء فتحي بك وتحدَّثْتُ إليه عن احتياجاتنا فطمأنني. وإنّهم سيُحضرون اثنين من طبَّاخينا في يلدز، وسيصرف لهم المصروفات حتى يشرعوا في عملهم ابتداء من اليوم التالي. ثم أرسلوا لنا جبنًا وخبزًا وزيتونًا وبعض اللحم البارد والقهوة والزبادي والمياه المعدنيّة. ثم أتونا بِمَوْقِد. وهكذا مرَّ اليوم الأوّل على هذه الصورة.

وبعد مرور ثلاثة أيّام انحلَّتْ مشكلة الأكل بعد وصول الطبّاخين والمصروفات. ثم طلبتُ من فتحي بك أن يأتينا بأغراضنا التي بَقِيَتْ في يلدز وسلَّمتُ له مفتاحين وعيَّنتُ ما يجبُ أن يأخذَ من الخزائن. ثم ذكرتُ له موضع المفاتيح الأخرى التي تركتُها على المنضدة بعد خروجنا من قصر يلدز.

وبعد مرور أحد عشر يومًا مرَّتْ في عُسْر شديد على الأولاد والنساء بسبب الظروف القاسية للأسر بدون ملابس تغيير أو أَسِرَّة للنوم أو غير ذلك ممّا يلزم إنسانًا عاديًّا، فما بالُك بحياة الأمراء والأميرات؟ لم يَعُدْ فتحي بك بالأغراض فقط بل أحضرَ معه مرضعة ابني الصغير عابد أفندي، والخزندار دلبسته قلفة. فلمّا دخلتا ارتمتا على النساء والأولاد وجرت الدموع واختلطت مياهُها فأذهبَتْ ما بالنفوس من آلام. وقد أحضرتا القطّة باموق التي كنتُ أُحِبُّهَا.

ثم حكتْ لنا السيّدتان ما جرى منذ خروجنا من سراي يلدز. فكان أوَّلُ ما أخبرتنا به النهبَ الذي حَلَّ بالقصر، فقد انتهبَ

الجنودُ كلَّ ما خفَّ حمله وغلا ثمنُه، وقد أُخْرِجَتِ الصناديقُ والخزائن ليلاً. أمّا حريمُ السلطان، فقد نَقَلُوا كُلّ من كان به من نساء إلى بناية أخرى، فجاء أقاربهنّ وأخذوهُنّ. وقد فتَّشوا جميع القلفاوات وسلبوهنَّ أغراضهُنّ التي أَمْضَيْنَ سنينَ طويلة في جمعها من عَرَقِ جبينِهِنّ. وقد حرص فتحي بك على احترام ما طلبتُ منه وكان رجلاً مؤدّبًا وشريفًا، فاستدعى بعض القلفاوات إلى القصر وطلب منهنّ أخذَ الأغراض التي طلبتُ منه ثم أقفلَ الخزائنَ الخاصّة من جديد، لكنّ الأشياء الثمينة كانت قد نُهِبَتْ ولم يَبْقَ إلّا الملابس وأغراض خاصّة. وعلى الرّغم ممّا سمعنا فإنّ الأولادَ كانوا سعداء لأنّنا بقينا على قيد الحياة، ثم إنّهم سيستطيعون تغيير ملابسهم. اختار كلّ واحد غرفة مناسبة له.

وبعد مرور واحد وعشرين يومًا التحق بنا بعض القلفاوات الأخريات اللائي لم يتمَكَّنَّ من المجيء معنا، فأدخلَ حضورُهنّ سرورًا على الجميع وحكوا لنا ما حصل بعد فراقنا. فقد ذكرنَ لنا أنّ ما يقرُبُ من ثلاثمائة صندوق من الوثائق قد تمَّ إخراجُها من قصر يلدز في اليوم الثاني لخروجنا. وقد أشرفَ على العمليّة محمود شوكت باشا. لمّا علمتُ بأمر صناديق الوثائق أدركتُ أنّ جماعة الاتّحاد والترقّي لم تُرِدْ أن تتركَ للناس فرصة الاطلاع على تاريخ الدولة وعلى ما صنعتُهُ من أجل صيانة البلاد وحفظ الأمّة. لم يكن يهمُّني ما سرقوا من أموال خاصّة جمعتُها بكدِّي، في حين لم يكن لدى إخوتي ما لديّ نظرًا لعملي في ترشيد النفقات. أمّا أموالُ الدولة فلم أَكُنْ أُعطي أبنائي منها ولو قرشًا واحدًا. لقد احتفظتُ بكنوز الدولة التي تمّ جمعُها عبر القرون في قصر طوب

كابو وغيره. وقد نهبَها هؤلاء الأوباش، إنّها مِلْكٌ للأمّة وللشعب، ولا حقَّ لهم في أخذها.

سألتني ابنتي عائشة عن السرّ الذي جعلهم ينقلوننا إلى سالونيك، فأجابتها إحدى زوجاتي: إنّهم نقلونا إلى قصر ألاتيني اليهودي التابع لجماعة الاتّحاد والترقّي تشفّيًّا من والدك الذي طرد الصهاينة الذين عرضوا عليه بيع فلسطين والقدس الشريف.

فقلت: ليس هذا هو السبب الحقيقي، وإن كان الصهاينة من جماعة الاتّحاد والترقّي قد رغبوا في إذلالي، لكنّي أكاد أجزم بأنّهم فضَّلوا نقلي إلى سالونيك لأنّ للجماعة أنصارًا كثيرين من اليهود. ولم يغامروا بإبقائي في استانبول خوفًا من ثورة شعبيّة عارمة ضدّهم. إنّهم يعلمون أنّ الشعب يحبُّني. ولقد نصحهم الإنجليز والألمان بإخراجي من استانبول حتى لا أستطيعَ العودة إلى العرش. إنّني لن أكون سلطان الإنجليز أو الألمان، وهم يدركون هذا، لكنّهم أَعَدُّوا العُدَّةَ لكلّ الاحتمالات، ومنها احتمال إعادتي إلى العرش في حال حُدوث ثورة شعبيّة ضدّ الانقلابيّين وأنصارهم من الإنجليز والألمان. أرأيتِ يا ابنتي إنّهم يمنعوننا من الصحف والجرائد حتى لا نَطَّلِعَ على ما يجري ومنعونا أيضًا من الخروج لحديقة قصر هذا اليهودي؟

في قصر ألاتيني شغلت نفسي بقراءة الروايات التاريخيّة لألكسندر دوما وغيره، أو ممارسة حرفة النجارة وتربية بعض الحيوانات.

ثم نقلوا القائد الخاصّ فتحي بك إلى استانبول، وعيّنوا بدلاً منه راسم بك، وكان فظًّا غليظ القلب، قبيحَ الهيئة، عابسَ الوجه.

ورغم أنّي لم أكن أعلم بما يجري خارج القصر لأنّ راسم بك عمل كلّ ما في وسعه على منع وصول أيّ خبر كان إلينا، فإنّ الله قد حباني قدرة على فهم ما يجري، وكنت أخبر به راسم بك أو أفراد أسرتي فيندهشون. وفي البداية لم يكن بالإمكان التحقّق ممّا يحدث، لكن راسم بك كان يزيد في تشديد الحراسة علينا وتزداد شكوكه، ظنًّا منه أنّي كنت أتواصل مع الجرائد من بعض الجند مقابل المال، لأنّ ما كنت أخبره به وأنصحُه أن يبلِّغه لرؤسائه كان يقعُ كما كنت أذكر له. وتلك كرامة من كرامات الله عليّ.

وذات يوم سمعنا حركة غير اعتياديّة في حديقة القصر فسألنا، فأخبرني أحد أبنائي بأنّ الضبّاط يستقبلون ضيفًا كبيرًا يدعى ساندانسكي صديق الأتراك، وهم يقيمون له وليمة على شرف حبسنا. طلبت حضور راسم بك فجاءني وأخبرني بزيارة ساندانسكي، فقلت له: هل أصبحَ عدوُّ الأمس صديقَ اليوم؟ فأجابني هذا العسكري المغفَّل: إنّنا اليوم أصدقاء. ضحكتُ من جوابه وقلت له: يا راسم بك، إنّكم مخدوعون، وساندانسكي وأمثالُه لا يمكنهم أن يصبحوا أصدقاء للترك. إنّكم في غفلة من أمركم. أَفِيقُوا، إنّه شيء مؤسف. لقد أراق هؤلاء الإرهابيّون اليهود دمَ آلاف الأتراك. ومُنَايَ أن لا تَندموا في النهاية. إنّ وليمة تُقَدَّمُ لأحد أعداء الترك على شرف مصيبتي لا بدّ أن تكون أليمةً بالنسبة لكم أكثر ممّا هي لي. إنّني آسف أشدّ الأسف أنّكم لم تدركوا هذه الحقيقة المُرَّة!

ثم انصرفتُ إلى غرفتي حزينًا كئيبًا من غفلة هؤلاء المراهقين الذين لا يفهمون في السياسة والتحالفات. تعالت الأصوات

والجلبة والقهقهات في الحديقة على شرف مصيبتنا، فزاد ذلك من ألمنا.

وذات مرّة جلستُ أشرب القهوة بعدما تناولتُ طعام الغداء رفقة زوجتي مشفقة وزوجتي صالحة نجيّة هانم وابنتي عائشة، وكنّا نتحدَّث عن حياة السراي في الماضي، فقالت عائشة: آه أفندينا ليتَكُمْ منحتُم الدستورَ قبل ذلك الوقت.

نظرتُ إلى ابنتي واستغربتُ من كلامها، فقلت: «ابنتي، أأنتم أيضًا تُخطِئون التفكير؟ لقد كنتُ دائمًا مع الدستور حتى إنّي كنت أُصِرُّ في الأيّام الأولى من حكمي على أن يقبلَ وزراء ذلك العهد مَنْحَ الدستور، لكنّهم كانوا يعارضون. وقد كان تَعطيلنا له فيما بعد لإدراكنا أنّ الأمّة سوف تتعرَّض لِمَضَارَّ كثيرة. فلم يكن قد بقي إلّا بعضُ رَمَقٍ، والعياذُ بالله، على انهيار دولتنا. وعلى من يتَّهمونني بأنّني لست مع الدستور أن يكونوا واثقين أنّه سيأتي يوم يُدركونَ فيه أنّهم كانوا على خطأ. واعلمي جيّدًا يا ابنتي أنّي منحتُ الأمّة هذا الدستور بمحض إرادتي».

أخذتُ نفَسًا ثم أردفتُ: «إنّي أعلم علم اليقين ماذا يجب عليّ أن أفعلَه. وأنا قد أمرتُ قبل إعلان الدستور بترجمة القوانين الأساسيّة لكلّ الدول. فقد كنتُ أريدُ اختيارَ ما يُوافقنا منها. ثم أقومُ عقبَ ذلك بإعلان الدستور. ولكن ما الحيلة؟ لم يكتب الله لنا نصيبًا».

ثم اغرورقَتْ عينايَ بالدموع، وقلت: «لقد كنتُ عازمًا على أن أكونَ أبًا محنّكًا على رأس الأُمَّة حتى أعملَ بهذه الصورة في سبيل سلامة الوطن، غير أنّ أعدائي لم يُتيحوا لي هذه الفرصة

ووضعوا في طريقي شتّى العقَبات ولفّقُوا الافتراءات. إنّني لم أتجاوَزْ خُطوةً واحدة حدودَ ما يفعلُه حاكمٌ دستوري مُقيّد، إلّا أنّهم كانوا عاجزين عن طردي منذ البداية بصورة أخرى. إنّني أؤمنُ بالقدَر، وهذا الذي حدث تقدير إلٰهي، ولا بدَّ أنّ التاريخَ سوف يكشِفُ هذه الحقيقة يومًا من الأيّام، ولهذا السبب فإنّ قلبي مطمئنّ. ابنتي، إنّني لم أشأ، وحقِّ الله، أن يتضارب تركيّان، أو أن يضرب أولادي العساكر أحدهم الآخر من أجلي شخصيًا، وأن تسيل الدماء. إنّني أُحِيلُ إلى الله كلَّ من تحاملوا عليّ بهذا الافتراء».

خَجِلَتْ ابنتي من نفسها ونَدِمَتْ على فتح هذا الموضوع وعلى الصورة الخاطئة التي كانت لديها، وطَفِقَتْ لا تستطيع أن تنظر إليّ، بل بقيَتْ عيناها مُسمَّرتين على الأرض حتى قلتُ لها: «ابنتي، ها هم لا يقدِّمونَ لنا جريدة أو كتابًا ويُخْفُونَ عنّا ما يجري، غير أنّي أشعر أنّ ما نحن ماضون فيه ليس خيرًا، ولكن ما جدوى أن نعرفَ ما يجري؟»...

ثم توجَّهتُ إلى ابنتي وزوجتي مشفقة، وصالحة نجيّة هانم: «لا تَقُلْنَ شيئًا يُسيء إلى هذا أو ذاك ممّن خانوا العهدَ والأمانة، وارْضَيْنَ بقَدَرِكُنَّ، فالشَّرُّ والخير مَقْدُور ولا تَنْتَظِرْنَهُ من أحد، إنّها أمور لا طائلَ من ورائها. فأنتُنَّ تَعلَمْنَ أنّ هناك من أجدادنا من عانى أكثرَ منّا... أمّا أنا فأجلسُ بين أولادي وعيالي، وأشكرُ الله على هذا، وأنتُنَّ أيضًا عليكُنّ أن تشكرْنَ الله، وعليكنّ بالدعاء للأمّة، فلا قدَّر الله لها زوالاً».

أَلقيْتُ السيجارة التي كانت بين يدي، وكأنّها احترقَتْ لهذا

الكلام الذي يُدمي الأحياء والأموات، ثم قمتُ واقفًا وقلت لهنّ: لقد حان وقتُ الصلاة وعليَّ بالوضوء. ثم رأيتُ ابنتي تمسَح دموعَها بعدما نَكَأَتْ ببراءتها جروحًا مؤلمة.

مرَّت الأيّام وكان الاتّحاديّون يرتكبون أخطاءَ فادحة، ثم ضغطوا عليّ كثيرًا من أجل سلب أموالي المودعة في البنك الألماني. وكنت قد عمِلت منذ ولاية العهد على إنجاح مشاريعي المختلفة، وجمعت أموالاً كنت أنوي تخصيصها لأبنائي وبناتي وأسرتي، لكنّ الاتّحاديّين كانوا مُصِرِّينَ على أخذ هذه الأموال عدا ما سرقوه من قصر يلدز. وكان راسم بك يتردَّد عليّ كلّ مرّة ليُعيد عليَّ الطلب نفسه حتى قلت له: إنّني ربُّ عائلة كبيرة العدد، وقد عملت في مزارعي وأودعتُ النقود التي كسبتُها من عملي في البنك حتى يأخذَها أولادي وعيالي من بعدي، ولقد حافظتُ على المجوهرات الخاصّة بالخزينة، فلم أَهَبْ أحدًا شيئًا من مال الدولة، كما لم أُعْطِ لأحد من أولادي هذه النقود، أو حبَّةً واحدة من تلك المجوهرات. وقد وفَّقني الله في التخفيف من عِبْءِ ديون الدولة أيّام سلطتي... ولم أستطع أن أُزَوِّجَ بناتي الأميرات شادية وعائشة ورفيعة... أمّا زوجاتي فليس في أيديهنّ شيء من النقود على الإطلاق، وكذلك أولادي الذكور عبد الرحيم، ونور الدين، وعابد. وماذا سيحدث في المستقبل؟ إنّني لكلّ هذه الأسباب لا أستطيع أن أعطيهم نقودي المودَعَة في البنك.

فقال راسم بك: لا بدّ أن تعطونا النقود، إنّكم مجبرون على ذلك.

ثم أردفَ مُهدّدًا: إنّهم سيضطرُّونكم أنتم وبناتكم للنزول إلى

البِدْرُوم ويحبسونكم فيه.

وهكذا راحوا يرهبون العمّال والأولادِ حتى صار الأهل يقولون لي: الله هو الرزّاق، وعليك أن تعطيهم النقود حتى تنقذَ نفسَك وتنقذنا معك.

وبعد لَأْيٍ وافقتُ على إعطائهم النقود شريطة تزويج بناتي وإطلاق أولادي من الأسر، وتخصيص جزء منها للإنفاق على دراسة ولدي الصغير عابد أفندي، وتسريح بعض العمّال من الأسر، فوافقوا على هذه الشروط. كان أصعبُ شيء هو الفراق مجدّدًا مع أولادي وبناتي وبعض زوجاتي. أمّا مشفقة وصالحة فقد قَرَنَتَا حياتهما بحياتي حتى يُفرِّقنا الموت. جاء مدراء البنك واصطحبوا معهم قنصل ألمانيا وطلبوا ملاقاتي شخصيًّا وتسليمي النقود المودعة عندهم. ولمّا وصلوا إلى القصر طلبوا من راسم بك والباشوات الانفراد بي لإتمام الإجراءات. تلكَّأَ الاتّحاديّون لكنّهم وافقوا في النهاية. فلمّا خرجوا إلى الحديقة سُمِعَ الهَرَجُ من نظرائهم الذين انتقدوهم على قبولهم السماحَ للألمان بالانفراد بالسلطان المعزول. كان الألمان يحملون ستَّ حقائب مليئة بالأموال والمستندات الماليّة وتمّ التوقيع. وعند خروجهم قاموا بالتحيّة، لكنّهم خرجوا بدون أن ينظروا جهة عصابة اللصوص أو يُوجِّهوا لهم التحيّة المطلوبة بعدما عاينوا عن كثب استيلاءهم على أموال عائلتي زورًا وظلمًا. وبمجرّد خروجهم وقفتُ على باب الشرفة ثم أشرتُ إلى العصابة فهَبُّوا نحوي راكضين متلهِّفِينَ، فَأَشَرْتُ إليهم وقلت في نفسي: خُذوا الحقائب.

ثم عاينت وُجوهَهم الشرِهَةَ قد استحالت مثل تلك الحقائب.

بعد أسبوع من هذا الحادث، كنت واقفًا ذات صباح أمام الشرفة لأَشُمَّ الهواء، فأطلق عليّ أحد الضباط النارَ ورأيته يختفي بين أشجار الغار. لم أَخَفْ بل بقيتُ واقفًا في مكاني وقلت له: اخرجْ من هناك، خرجَ وانتصبَ على قدميه لكنّه لم يستطع أن يطلقَ الرصاص مرّة ثانية بعدما زَلْزَلْتُ تَدْبِيرَهُ الجَبَانَ بثباتي. ثم حضر راسم بك حالاً بعد أن أَخبرَه الضبّاط بما حصل، فلمّا وقف أمامي طلبتُ منه أن يعطيني الرصاصةَ للذكرى، فأخرجها من جيبه حتى عاينتُها ثم أودعَها مرَّة أخرى في جيبه وقال: إنّه لشيءٌ جلَلٌ، فلا تؤاخذونا وسوف أطرُدُ الفاعلَ الآن من هنا، فلا تشغلوا بالَكم.

كان هذا الضابط واسمه سالم الكردي من الذين أحسنتُ إليهم فيما سلَف، فقابلوا إحساني بهذه الخيانة المنكرة. وكان هذا التَّافِه يظنّ أنّه سينالُ بطولةً وشرفًا بالتَّخَلُّص منّي. لقد سدَّد نحوي رصاصةَ الجَمِيلِ الذي صنعتُه معه.

كنت أعهَد خلال أسري إلى الكاتب محسن بك بكتابة مذكّراتي، فبلغ الأمر إلى راسم بك فحبسه من دون طعام في البدروم خلال شهر رمضان. لم أكن أعلم بالأمر حتى أخبرني ولدي الأمير عبد الرحيم الذي كان قد تصادق مع بعض الضبّاط فأخبروه بحقيقة ما حصل. ولمّا أخبرني حزنتُ لما حصل له فاستدعيت راسم بك وقلت له: لماذا حبستم محسن بك؟ ما هو ذنبه؟ فأجابني راسم بك: سيّدي، إنّكم تُمْلُونَ عليه مذكّراتكم، وذلك أمر ممنوع، ولهذا السبب حبسناه. فقلت له: أرجوكم لا تَدَعُوا المسكين في هذه الحال ونحن في شهر رمضان المبارك، ولن أملي عليه شيئًا بعد اليوم. إنّني لم أَتصوَّرْ أنّ كتابةَ مذكّراتي جُرْمٌ.

وبعد وصول الإذن بخروج أبنائي وبناتي من قصر ألاتيني إلى استانبول رَكِبَنا حُزْنٌ شديد.

ولمّا اقتربَ موعدُ الخروج كان الحزنُ يزداد والعيونُ تَذْبُلُ من شدّة البكاء. وفي مساء الفِراق حضر المغادرون واحدًا واحدًا للوداع فكنت أنصحُهُم واحدًا واحدًا. دخلَتْ عليّ عائشة وكانت في حالة من الذُّبول والاصفرار والكَمَد ممّا لا تُطيقه الجبال الشامخة. كانت ابنتي تبكي وترتعِد. كنت مُتعَبًا ذلك اليوم فجلستُ على فراشي وغطَّيت ركبتي بغطاء. هَرَعَتْ عائشة نحوي وجَثَتْ على ركبتيها ثم أمسكَتْ بيديها قدميّ من تحت الغطاء وراحت تقبِّلهما والدموعُ تجري سواقي من عينيها الذابلتين الكسيرتين. ثم صارت تنتحبُ حتى كادت تختنقُ حزنًا. عجزَتْ بنيَّتي عن الكلام فاكتفَتْ بترديد: بابا، بابا، بابا. أمسكتُ رأسَها وخلّلت أصابعي بين جدائل شعرها الناعم ثم قلت لها بصوت حزين: تشجَّعي يا بنيّتي ولا تبكي. لكنّي طفقتُ أبكي أيضًا ولم أستطع أن أمنعَ الدموعَ عن نفسي، فكيف يا تُرى أنصحُها بما كنتُ عاجزًا عن استيفائه؟ ثم كانت زوجتاي مشفقة وصالحة تبكيان وتنتحبان. كنّا نمرُّ بأتعَس لحظات حياتنا وأثقلِها على القلوب، لكنّي تمالكْتُ وطفقتُ أَرْبِتُ بيدي على كتفها وشعرها وأقول: ابنتي، ملاكي، إنّه قدرُنا. اصْغي جيّدًا لما أقول ولْتَظَلَّ كلماتي في رأسك ولا تَنْسَيْهَا طولَ عمرك. إنّ أسرتَنا أسرةٌ معذّبة مرَّت بها مثل هذه المصائب العظام، ولكن يجبُ التسليم لقدَر الله علينا. لقد تعذَّبتم معي ولا أريدُ أن تُضَحُّوا أكثرَ من هذا. ابنتي إنّ أعظمَ نصيحة لك وآخرَها هي أن تُحافظي على عِرْضِ العائلة وشرفها أكثر من محافظتك على

روحك. ولا تنسيْ أبدًا أنّك ابنتي واحذري كلّ تصرُّفٍ يسيءُ إليّ، وحافظي على نفسِك، ولا تُلَطِّخِي اسمي. ابنتي مَلاكي، إنّك فتاة ذكيّة، ولا أنتظر منك إلّا الخير وأدعو لك بالسعادة... وطلبي إليك أن تكتبي لي كثيرًا ما أمكن، وتخبريني بأحوالكنّ وصحّتكنّ.

ثم تناولتُ دبُّوسًا صغيرًا من البلاتين كنت أعلِّقُه على ربطة عنقي لمّا خرجنا من استانبول إلى سالونيك، فناولتُه لعائشة وقلت لها: خذي يا ابنتي، إنّه تِذكار منّي إليك.

احتضنَتْ عائشةُ قدميَّ مرّة أخرى وقبَّلتهُما. ثم عانقتني وعانقتها واشتبكنا في العناق والقبلات واختلطت دموعنا، ثم تشجَّعتُ وقلت لها: دعواتي لك بالسعادة يا بنيّتي. فردَّت عليّ: كان الله في عونكم يا والدي. وكاد أن يغمى عليها حتى جذبَتْهَا أمُّها زوجتي مشفقة ومعها زوجتي صالحة، من ذراعي وقالت لها: ماذا تفعلين؟ عودي إلى رُشدك، إنّك تؤلمين أفندينا. ثم أمسكَتْ بها مشفقة حتى أخرجَتْها من الغرفة.

ثم قابلتُ جميع المغادرين وودَّعتُهم واحدًا واحدًا حتى العمّال والخدم والقلفاوات والآغوات. كان الظلام حالكًا حيث أطفأوا الغازات والأضواء، فخرج الوفد في ظلمة دامسة لا يُضاهيها سوى ظلمة الحزن الذي كان ينهَش الأحشاء حتى عادت كالأشلاء.

* * *

كان راسم بك ينتظرُ الجميع عند سُلَّم مدخلِ باب القصر. ثم اقتاد البناتِ إلى غرفة كبيرة وقال لهنّ: لَن تخرجن دون تفتيش. وعلى الفور دخلت سيِّدتان، واحدةٌ عجوز والأخرى شابّة. رفضتِ البنات التفتيش. فأَصرَّ راسم بك، فقالت له عائشة: وَاأَسفَاهُ عليكم، يا لكم من أُناس بلا رحمة ولا ضمير. لكنَّ راسم بك بدأ يغضب فخافت البنات من سوء العاقبة فأَسْلَمْنَ أَمْرَهُنَّ لله. جرَّدت السيّدتان البناتِ من ثيابهنّ حتى لم يبق شيء يُغَطِّي عوراتهنّ وكنَّ في حالة من الحرج والغضب والخوف ممّا لا يعلمه إلّا الله. بكت إحدى الأميرات من هذا الإذلال السافر وتناثر شَعْرها الأشقر فحاولت أن تخفي به جسدها الأبيض الناتئ بحبيبات القُرّ التي كانت آخرَ شكل من أشكال مقاومتها لهذا الانتهاك. ثم فعلوا ببعض زوجات عبد الحميد الشيء نفسه. لم يعلم السلطان بما جرى. ولو علم لمات كمدًا وحزنًا.. لكنّهم لم يطلعوه على ذلك، وأخفوا الأمر عنه ودنَّسوا بأياديهم الآثمة حرمة أجساد بناته وزوجاته.

وبعد التفتيش أركبوا الوفد البالغ عدده تسعة عشر فردًا في العربات التي أوصلتهم إلى محطّة القطار ومنها أقلعوا إلى استانبول، وتركوا مرغمين والدهم الحبيب عبد الحميد. لكنّ السلطان كان أبًا للجميع والشعبُ يحبُّه حبًّا جمًّا، إلى درجة أنّه كان يناديه «بابا حامد». فهو أب الكلّ، ولهذا عمل الاتّحاديّون على عدم اغتياله حتى يقايضوا به سمعتَهم.



تلقَّينا عدّة رسائل من عائشة أرسلتها لنا، وأخبرتنا بزواجها الذي تمّ بصورة متواضعة. حَزِنت كثيرًا بعد مغادرة الأولاد والبنات، ومرضتُ حتى أَشْفَيْتُ؛ لكن عزائي الوحيد كان في ولدي الصغير عابد أفندي الذي بقي بقربي مع أُمِّهِ، فكان وجودُه تِرياقًا للحالة التي كُنَّا عليها من الضِّيق والنَّكَد ومفارقة الأولاد.

سكنني الموت في قصر ألاتيني، وتفكَّرتُ في هذه المصيبة لعلّي أفهم عنها شيئًا. وتفكَّرتُ في السجن، وكيف يتحوَّل قصر كبير مثل ألاتيني إلى سجن يضيقُ بالروح؟ لم يكن من السهل الحديثُ عن الموت. وقام بي سؤال عميق لم يَقُمْ بي من قبل بمثل هذه الحِدَّة: ما هو الموت؟ ولماذا نموت؟ كنت أخاطب نفسي وأقول لها: إنّ أقصى ما تُخبِر به الأديانُ أنّه انتقال وعبورٌ لحياة أخرى. وبالجملة إنّه بعثٌ جديد. لكنَّ مثلَ هذا القول مُجْحِفٌ بحقيقة الإخبار عن الموت، ولأنّ الاكتفاء به يحجب عنّا حقيقةَ هذا الغيب العظيم، وأسرارَ هذا العُبور إلى الحياة الأخرى. ولعلَّ المرءَ المؤمنَ يَستشعِرُ نوعًا من الطمأنينة لدى قوله إنّه عُبور، في

حين أنّه غافِلٌ عن حقيقته التي وصفَها القرآن بأنّها مصيبة. إنّ الإيمانَ بالبعث استسهالٌ لحقيقة الموت لأنّه يحجُبُ عنَّا هذا الهائِل الغيبي الذي يُخرِجُنا مِنَ الوُجود إلى العدم. فلا نَحنُ أَدْرَكْنا حقيقةَ الوجود، ولا نحن عَلِمْنا حقيقةَ العدم. إنّ البعثَ أمَلٌ في حياةٍ أخرى، وهو مُسَكِّنٌ لهذا القلق الوجودي الذي يقوم بكلّ إنسان حاولَ أن يفهمَ حقيقةَ الموت، وفكَّر فيه. كيف كان حيًّا ثم انقطع عن الحياة! إنّه سؤال مُزلزل ومُرعِبٌ إلى أقصى درجات الرعْب، لهذا كان الإيمانُ بالغيب، وكانَ الإيمانُ باليوم الآخِر تِرْيَاقًا وُجوديًا لصدمة التفكير في الموت. هل يدرك الإنسانُ، أيُّ إنسانٍ حقيقةَ أن يكونَ مَحَلًّا لخاتمةِ أَمْرٍ مَا؟ وهل يدرِكُ هذا الإنسان نفسه أن يكونَ خاتمةً لأمرٍ عظيم كالخلافة التي هي نيابةٌ عامَّةٌ في الكون عن سيِّدِ الكَوْن؟ إنّه شعورٌ يزلزلُ الجبالَ الراسِيات. . شعورٌ يَجْعَلُكَ خِتامًا لأمرٍ عظيم. ولعلَّ السلوان اليتيمَ لهذا الشعور المزلزل كونُ النبيّ كان خاتمًا للرُّسُل، لَكِنْ هيهاتَ بينَ مَنْ كان ختامُه نُورًا للبشريّة، ومن كان ختامُه للخِلافة إيذانًا برُجوع ذلك النُّور إلى مِشكاتِه وانْحِسَارِ أَنْوَارِهِ، وبداية عصر جديد من الظلمَة والاستبداد! كان هذا الشعور يزلزِلُ كِياني إلى الحَدّ الذي لم يكن ممكنًا أن يتحمَّلَه أحدٌ إلّا قلبُ الخلافة الياسيني. لم أَكُنْ أَجِدُ العزاءَ في مثل هذا السؤَال الذي قام بي حول مُصيبةِ الموت. وهل من الممكن أن نُفكِّرَ في أَمْرٍ لا عَزاءَ فيه؟ إنّ رَجْعَ الصدَى أمام هذا السؤال يُشْعِرُ الإنسان بغربة وجوديّة تُعادل العَدَم. لقد قذف بي هذا الصدى وحيدًا في فلاة لا ماء فيها ولا حياة. هل من الممكن أن يكونَ نعيمُ الجِنَانِ تَسليةً وعزاءً عن مصيبة الموت العظمى؟ إنّ كلَّ حياةٍ في الوُجود غاليةٌ إلى أقصى ما يمكن توقُّعُهُ، وإلى الحَدِّ الذي

يجعلنا نُدرِكُ أنّ فناءَ حياةٍ واحدةٍ هو فَناءٌ للكَونِ كلِّه. ليس هناك ما يُبَرِّرُ نهايةَ حياةِ مخلوقٍ واحدٍ ما. لقد أدركتُ ذوقًا فِطريًّا دائمًا هذه الحقيقةَ الكبرى، وبالذَّات في اللحظات التي كنتُ أُدافِعُ فيها عن وجودي وحياتي وبقائي، لكنّي لم أقبَلْ يومًا أن أنتزِعَ حياةَ غيري لأعيشَ وأَدُوم! لقد رفضتُ سَحْقَ تَمَرُّدِ الجيش والانقلابِ عليَّ لإيماني بالحياة، كما أنّي حَلُمْتُ على أعدائي، وحوَّلْتُ أحكامَ الإعدام في حقِّ كثيرين منهم إلى السجن رغم خيانتهم العظمى للأمّة والدولة والوطن، ثم أطلقتُ سراحَهم بعد ذلك. لقد كنت دومًا أُؤمِنُ بأنّ المداومةَ على الوُجودِ تتمثَّلُ حقيقةً في رفْضِ انتزاعِ حياةِ أيِّ مَخلوقٍ تحت أيِّ سَبَبٍ كان. إنّ مثلَ هذا الإيثار صعبٌ للغاية، لكن من قامَتْ به حقيقةُ الرحمة الإلٰهيّة تجعله لا يَتَرَدَّدُ في مثل هذا الاختيار الوجودي، والانتصار للحياة والرحمة على الموت والقَسْوَة. من الرحمة أن نَعيش ونترك غيرنا يعيش، ومن الظلم والقَسوة أن نُوقِفَ حياتنا أو حياةَ غيرنا. إنّ وعيي بهذه الحقيقة الكبرى، وبتمَنُّع الموت على الإدراك لا ينفي أبدًا الإيمان، بل إنّ عدمَ الإدراك شرطٌ في الإيمان والرحمة بالخلْق. كثيرٌ من رجال الدين في كلّ الأديان يعتقدون أنّهم يمتلكون حقيقةَ الجواب عن مصيبة الموت، لكنّه غُرور يُخفي جهلاً وجوديًّا لا يُكَيّف. وبالمقابل إنّ المُلْحِدَ الذي حُرِمَ مِنْ نِعْمَةِ الإيمان يرتكبُ الجهالة نفسها حينما يستسهِلُ حقيقةَ الموت إلى درجة إفراغه من كلّ معنى، ويدَّعِي أن لا شيءَ بعد الموت. إنّ الحديثَ عن الموت يفترِضُ أن يتبَرَّأَ الإنسانُ من كلِّ منطق، وإلّا فما معنى أن يُؤتَى بالموتِ يوم القيامة على صورة كبش لِيُذْبَح، كما ورد في الخبر؟ كيف يموتُ الموت؟ كلُّ الأشكالِ المنطقيّة التي نخترِعُها لتَسييج إدراكنا لمصيبة

الموت تذوبُ وتنمحي في حقيقة المعنى الذي نريد وصفَه أو الحديثَ عنه. إنّ أعظمَ لا مُفَكَّرٍ فيه هو الموتُ رغم كثرةِ ما قيلَ فيه وعنه. وإنّ كثرةَ التفكير في الموت لا تَزيدنا علمًا بحقيقة الموت، لكنَّ تَذَكُّرَ الموت مُنتج للمعنى «أَكْثِروا ذِكْرَ هَادِمَ اللّذّات». هذا هو الدواء لهذه المصيبة العُظمى، والجوابُ عن هذا القلقِ والانقطاعِ في خَطِّ الحياة. إنّه تَوَقُّفٌ للوَعْي ولِلزَّمن، توقُّفُ سَيَلانِ الوُجودِ الإنساني في لحظةٍ لا يعلمها أو قد يعلمها. وفي الحقيقة لا يمكن التفكير في الموت، لكن عدمَ التفكير هو الخطوةُ الصحيحة على دَرْبِ مَعْرِفَةِ الموت. الموت معرفة ذوقيّة، ولا خبر ولا معنى عند من لم يَذُقْ تلك التجربة.

كانت هذه الخواطرُ تنتابني في قصر ألاتيني في سالونيك. طلبتُ الموتَ ليس ضدًّا في الحياة وإعراضًا عنها، بل لطلب حياة أسمى وأعلى. لم أكن لأُمِيت نفسي، لكنّي كنت أستدعي الموت بكلّ كياني. وأزعم أنّي اتَّخَذْتُ الموتَ ذِكْرًا لي في بعض الأحيان حتى أُخَلِّصَ رُوحي ممّا طُوِّقْتُ به. لقد كان هذا القصر اللاتيني مثل معبد اللاَّت التي نصبها لي أعدائي صنمًا محيطًا. لقد كنتُ سجينًا في هذا القصر، لكنّي لم أَكُنْ أَعْرِفُ ما هي التهْمَةُ الحَقِيقِيَّة التي وُجِّهَتْ إليّ، أمّا الافتراءات التي لُفِّقَتْ لي فلا تَرْجَحُ في ميزان، لأنّ الباطلَ لا وجودَ له على الحقيقة مهما عَلاَ صَخَبُه. لم أَكُنْ أَعْلَمُ لماذا أنا مَسجونٌ في هذا القصر! هل أضحى لحياتي الخاصّة معنى؟ أو على الأصَحّ هل أضحى للحياة معنى؟ لم أَعُدْ أُمَيِّزُ بين العامّ والخاصّ، وما معنى أنّها حياتي الخاصّة. إذا كانت خاصّة فهي خاصّة لإنسان ما، وبالتالي فهي

تَهُمُّ كلّ شخص، وكوني إنسانًا خليفةً يعني أنّي من ضمن اهتمامات كلّ إنسان يُقَدِّرُ المراتِبَ ويَعْرِفُهَا. فهل من العدلِ أن أكون على هذا الوضع؟ وهل من العدل أن أعيش؟ وهل من العدل أن يكون عبد الحميد هو الذي يختِمُ الخلافةَ على هذه الصورة الحزينة؟ لا أملكُ جوابًا عن أسئلتي المزلزلة، كما لا يملكُ أحدٌ الجوابَ عنها. إنّها أسئلة لا بُدَّ أن تبقى مفتوحةً بلا جَوابٍ. قد قال لي راسم بك مرارًا بأنّي محظوظٌ لأنّ العسكرَ تركوني أَعيش. لم يكن يدري، ولم يكُنِ المساكينُ يدرونَ أنّ مثلَ هذا الامتياز يذوبُ عندَ رَشْحَةِ خَاطِرٍ وَاحِدٍ من هذه الخواطر التي أَبُثُّهَا بيني وبين نفسي. لقد كنتُ كما كان راسم بك وكما يكون كلُّ إنسان، مثلَ الحوانيت المغلقة، لكنّه لمّا تكلَّم معي في هذا الموضوع، تَبَيَّنَ لي مَنْ مِنَّا العَطَّارُ، وَمَنْ مِنَّا البَيْطَار. فاحَتْ رائحةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ حَانُوتِ كَلامه. فما في الإنسان ظهر على فِيه. كان الفرق بيني وبينه كالفرق بين الإنسان الحيوان والإنسان الكامل في إنسانيّته. لم يتصوَّر المسكين أن لا شيءَ يُبَرِّرُ أن يعيشَ المرءُ بعد أن يفنى كلُّ شَيْءٍ مِنْ حوله. لقد كان يرى أنَّ أقصى مرادِه أن يعيشَ لحيوانيّته، وكنت أرى أنَّ أهدى ما يعيشُ إليه الإنسانُ لِكَمَالِ إنسانيّته. ما معنى أن أعيشَ وقد مات كلُّ مَا مِنْ أجلِهِ كُنْتُ أَعِيش؟ لقد سألتُ مَرَّةً مِنَ المَرَّاتِ راسم بك قائلاً: لماذا لم يدخُلْ غيري لهذا السجن؟ فأجابني بعبارة قاتلة: لم يَكُنْ بِمَقْدُورِ أَحَدٍ سِوَاكَ أَنْ يَدْخُلَ إلى هذا السجْنِ، لأنّ بابَه كان مُخصَّصًا لك أنتَ وَحْدَكَ. فاسمَحْ لي أن أَذْهَبَ الآن لأُغْلِقَهُ.

سقطتْ هذه العبارةُ كالسيف على عنقي، لأنّي أدركتُ أنّ كُلَّ واحد يصنعُ سجنَه وبابَ سجنه ويَسْتَحِقُّهُمَا.

* * *

مرَّت الأيّام واشتعلَتِ الحرب في البلقان، وقد اشتغلتُ بمطالعة الكُتب والروايات ومُزاولة حِرفتي في النجارة. لكنّ الوضعَ ساء حيث كان يبلُغُني بين الحين والآخر وجودُ قَلاقِلَ في البلاد. وذات يوم استدعيتُ راسم بك الذي كان نموذجًا فعَّالاً لقائدِ سجنٍ حازم. ولو قُدِّرَ أن أرجعَ إلى السلطنة لعيَّنتُه قائدًا على إدارة السجون العثمانيّة، لأنّه يعرفُ مقدارَ الرِّجالِ وما يستوجِبُونَ من العقاب، لكنْ هيهاتَ أن يعودَ ما لم يَكُنْ. جاءني فسألتُه عن حقيقة ما يجري فتردَّد في إخباري، لكنّي أَلْحَحْتُ عليه فأخبرني بأنّ القَلاقلَ اشتعلَتْ في مقدونيا. وسألتُ عن الحلول التي اتَّخذها الاتّحاديّون لحلِّ الأزمة، فأخبرني بأنّ الاتّحاديّين أصدروا قانونَ الكنائس والمدارس لتهدئة العناصر المختلفة. لم أتمالكْ نفسي وصرتُ أندُبُ حظَّ البلاد التي وصلَ إلى رأسها رجال لا يفهمون في السياسة، وقلت له: «أوَّاه، انتظرِ الآنَ اتِّحادَ البلغار واليونانيّين معًا، وسرعان ما سَيَشُنُّونَ غاراتهم علينا. لقد عملتُ طولَ ثلاثيَن سنة كي أَحولَ دون هذا الاتّحاد فيما بينهم بكلّ ما استطعتُ إليه سبيلاً».

لقد كانت طوائفُ الروم والبلغار واليونانيّين في صراع دائم، لأنّي لم أمنحْ تسييرَ الكنائس والمدارس لأيّ طرَفٍ منها، وعملتُ دومًا على إعطاء الأمَلِ لكلّ فرقة منها حتى لا تَتَّحِدَ ضِدَّنا، لكن حَلَّ المسألة بالطريقة التي سلكها الاتّحاديّون سَيُؤَدِّي لا محالةَ إلى كارثةٍ على الدولة.

ثم قلتُ لراسم: إنّكم لم تستوعبوا الدروسَ ولم تستخلصوا العِبَرَ، وما زلتم تقومونَ بالأخطاء القاتلة نفسها، بحيث إنّكم تتَّخذون القرارات لا لشيءٍ إلّا لأنّها تُخالِفُ سياساتي السابقة عليكم. وهذا موقف عَبَثِي وصبياني مُعانِد، وستندَمون على هذه الأخطاء قريبًا لأنّها ستُكلِّفُنا الكثيرَ من التضحيات الجِسام.

فقال راسم بك: لقد أُعلِنَ الدستور، وطَلَبَتْ جماعتنا تَشكيلَ لجنة ترمي إلى حلِّ الخلافات بين الطوائف، وأَصدرتِ اللجنة قانونَ الكنائس. وهذا قرار دستوري.

فقلت له: إنّ القانون يا ولدي لا يُجَنِّبُ الأُمَّةَ الحربَ، وإنّما الذي يُجَنِّبُهَا ذلك هو اتِّخاذُ القرارات الصائبة التي تُفْشِلُ كُلَّ المحاولات ضدَّ الدولة. وسوف ترى أنّ الرُّومَ والبلغارَ واليونانيّينَ سيتَّحدونَ مُستفيدينَ من هذا القانون الذي أخبرتني عنه. وإنّي أرجوك أن تُوصِلَ رأيي إلى قيادتِكم حتى يُصَحِّحُوا هذا التوجُّه. كما أرجو أن تُبْلِغَهُمْ بأن يُبْقُوا الجيشَ بعيدًا عن السياسة، والحرص على عدم تدخّله في شؤون البلاد. ولو استمرَّ الأمر على هذا المنوال، فإنّ ذلك سيؤَدِّي إلى نتائج كارثيّة. إنّ الجيشَ يدافعُ عن الوطن والأمّة، أمّا أن يُصبحَ تابعًا لهذا الطرف أو ذاك فهو أمرٌ خطير، لأنّه في اللحظة التي سيشعُرُ فيها الناس أنّه أصبحَ طرفًا مُواليًا لجهة على حساب الجهات الأخرى، سيثورون عليه. ومن بين أُولى نتائج تَدخُّل الجيش في السياسة صعوبةُ تطبيق الأوامر العسكريّة ممّا سينتُجُ عنه خسارةُ أوّل معركة ستدخلُها البلاد. إنّك تعلمُ أنّ الجيشَ مكوَّن من عدّة عرقيّات، وتعدُّدُ الولاء سيعود علينا بالكارثة. لقد عَمِلْتُ كلَّ ما في وسعي من أجل إبعاد الجيش عن

السياسة وعدم التدَخُّل فيها وإبقاء ولاء العساكر للأمّة، لكن أصدقاءك لم يستفيدوا من هذه السياسة وعاندوا بمخالفة كلّ قرار اتَّخَذْتُهُ، وكأنّما الذي يَهُمُّهُم هو عبد الحميد وليس مصلحة البلاد. أرجوك أن تُبْلِغَهُمْ بما أخبرتُك به.

* * *

مرَّت الأيّام وتحقَّق ما كنتُ أتوقَّعه تمامًا، لكنّي لم أَعُد شيئًا مذكورًا، فقد نسيني الاتّحاديّون، وقامت الحرب، واتَّحَدَ البلغار والروم واليونانيّون ضدّ الدولة وخسرنا أجزاء من البلاد ومات كثير من الجنود وخُرِّبَتْ أجزاء من الدولة. وَصَلَتْ إلى مسامعنا طلقات الرصاص، وخَشِيَ ما بقي من أهلي على حياتي وحياتهم. لم يهتمّ أحد بنا؛ وكان الاتّحاديّون منشغلين في غمرة الارتباك والاضطراب الذي أصابهم بعد خسارة الحرب. وفي تلك الأثناء تفاجأتُ بقرار ألمانيا تهريبي من سالونيك التي أوشكَتْ أن تَسْقُطَ في يد اليونانيّين. تعجَّبت من قرار ألمانيا التي كانت سببًا في عزلي عن السلطة وأوعزَتْ إلى الاتّحاديّين بنقلي إلى سالونيك. وها هي هذه المرّة تريد أن ترحِّلَني منها وتنقِذَني من الموت. كنت أعلمُ أنّ لألمانيا نوايا خفيَّة غير هذه الأسباب الإنسانيّة. لقد كنت على علاقة قويّة مع الإمبراطور ولهلم الثاني، لكنّ الألمان طوَّروا علاقات مميّزة مع الاتّحاديّين لمّا أرسلوا رجالهم لتكوين ضُبّاطنا في الكلِّيّة العسكريّة. ولأنّ المنافسة كانت قويّة مع الإنجليز فقد عملوا على التضحية بالسلطان الذي كانت إنجلترا أيضًا تريدُ إسقاطه. لكنّي اليومَ أصبحتُ ورقة محوريّة يمكن أن يستعملها هؤلاء للضغط على أولئك. إنّني ما زلت أُشَكِّلُ خطَرًا وورقةً

للمنافسة بين الدوَل الكبرى، ولكنَّهم لم يكونوا يعلمون بأنّي لستُ ذلك السلطان الذي يستعمِله هؤلاء وأولئك، إنّني خليفةُ رسول الله على المسلمين، وسأعمل ما حَيِيتُ على الالتزام بهذا الأمر الإلٰهي.

جاءني راسم بك في ساعة متأخّرة من الليل يخبرني بضرورة نقلي فورًا إلى استانبول، فرفضتُ وقلت له لماذا؟ فأخبرني بأنّنا نخوضُ معركة شرِسةً ضدّ بلغاريا واليونان والصرب والجبل الأسود. تعجَّبت من قوله لدخولنا في هذه الحرب التي كنت أتوقَّعها بسبب السياسات الخرقاء التي انتهجها صبيان الاتّحاديّين، لكنّي قلت له: ما دام أنّنا دخلنا في الحرب، سأقاتل دفاعًا عن سالونيك ضدّ أعدائنا. إنّني جندي مثل باقي الجند. إنّ سالونيك هي مفتاح استانبول ولو سقطَتْ فسنُصْبِحُ في خبرِ كان. ثم رفعتُ كفّيَّ قائلاً: اللَّهُمّ اقهَرْ هؤلاء الذين وضعوا الأمّة في هذا الوضع المشين. لقد تفَسَّخَتْ إمبراطوريّتنا وانفرطَ عِقْدُها وفُتَّ في عضدها.

لكن راسم بك أخبرني بأنّه تلقَّى أوامر صارمة بنقلي على متن الباخرة الألمانيّة «لورليا»، وأنّ سالونيك على وشك أن تسقطَ، وأنّه لا يستطيعُ تأمين حياتي أو حياة من معي لو تأخَّرْتُ ساعات قليلة. استمرَّ النقاش مع راسم بك وقتًا طويلاً وانضمَّ إليه قائد الجيش لإقناعي بالخروج، وأنا مُصَمِّمٌ على البقاء.. إلى أن أصبح صُبْحُ يومْ ثلاثين أكتوبر سنة ١٩١٢، وحضر أصهاري على متن الباخرة التي رسَتْ في الميناء فانضمُّوا إلى باقي الوفد لإقناعي وأخبروني بأنّ أخي السلطان هو الذي يُصِرُّ على نقلي إلى استانبول. كنت رجلاً يحترم المراتب والأوامر العليا، فطلبتُ

الحديث مع أهلي. خرجتُ وتركتهم ينتظرون!

كان الأهل مستيقظين طول الليل يستمعون خلف الأبواب. وبدأن في النحيب والبكاء، واختلطتْ أصواتهنّ بأصوات المدافع المدوّية. فلمّا دخلتُ عليهنّ ألححنَ عليّ في مغادرة سالونيك وحبّبن إليّ ملاقاة الأبناء في استانبول، فقبِلْتُ على مَضَضٍ لأنّي لست رجلاً يهربُ أمام العدوّ في ساحة القتال. أنا جنديٌ أقاتلُ حتى الموت، لكنّ الأمر لم يعد بيدي اليوم. أَثْنَتِ النساء على الإمبراطور الألماني لتفكيره في نقلنا بعدما نسي الباقون أمرَ وجودنا، فقلت لهنّ: لا تعتقدنَ أنّ الإمبراطور فعل ذلك لدواع إنسانيّة فقط رغم العلاقات الجيّدة التي كانت تجمعنا! إنّه كان يخشى أن يؤدّي سقوط سالونيك في يد اليونانيّين الذين كانوا مدفوعين من إنجلترا إلى أن يكون لها الكلمة العليا على أثينا. وحينئذ ستعمل على التلويح باستعمالي أداة تهديد قويّة ضدّ الاتّحاديّين. لكن لا بأس سنغادر سالونيك لأنّها وَكْرُ الشياطين وموطن التدجيل إلى مدينة إسلامبول مدينة الإسلام ومدينة الخلافة التي اقتُلِعْنَا منها. سنعودُ إلى إسلامبول التي تشبه الشجَرَة التي تحدّث عنها القرآن بأنّها لا شرقيّة ولا غربيّة. إنّ خلافتَنا لم تكن شرقيّة ولا غربيّة أو على الأصحّ إنّها كانت شرقيّة وغربيّة في الآن نفسه.

هيّا الآن نستعدُّ لمغادرة سالونيك. جاءت السيّارات أمام باب القصر لتقلّنا. وحينئذ تجمهر الناس في سالونيك واقفين على أرصفة الشوارع، والدمع يجري في العيون رافعين أصواتهم بالصياح قائلين: لمن ستتركُنا يا بابا حامد، إلى أينَ أنتَ ذاهب؟

دمعت عيناي، وقلتُ لأهلي: انظروا هذا هو الشعب البسيط الذي يعرف عبد الحميد، أمّا أولئك الخونة فقد وصلوا إلى الحكم بمساعدة الأمم الاستعماريّة. ثم اقتفى الشعبُ المسكين السيّارات حتى ميناء سالونيك. تَأثَّرتُ لمنظر النساء والأطفال الذين يبكون على رحيلي، بيد أنّه لم يكن بيدي حلٌّ ولا عَقْدٌ. ركبنا الباخرة، ثم نزلتُ منها عدَّة مرّات لمّا رأيتُ جموع الشعب تناديني بالبقاء، لكن أهلي كانوا مصرّين أيضًا على بقائي في السفينة وهم يستغيثون بي. تَقَطَّعْتُ بين النداءين، وتمزَّقَتْ روحي بين الأمرين كما تمزَّقَتْ أشلاءُ الخلافة بين الشرق والغرب، بين عبد الحميد والاتّحاديّين الغاصبين! وأخيرًا قلتُ لجموع الشعب بعيون دامعة: أستودِعُكُمُ الله، إنّه نصيرُ المظلومين. ثم لوّحت بيدي مسلّمًا سلامي الأخير وودَّعتُهم مُكْرَهًا. تقدَّمتُ إلى الباخرة للمرّة الأخيرة بخطى ثقيلة وبطيئة تُحاذرُ الإقدام وترجو الإحجام، لكن لم يكن من الأمر بُدّ! وما إن ركبتُ حتى أسرعَ الربَّانُ بالإقلاع خوفَ أن أطالبَهم بالنزول. جاءني قائد الباخرة الألماني واستقبلني بمراسم عسكريّة، وقال لي: لقد أمرني القيصر بأن أذهب بنيافتكم إلى الجهة التي تختارونها. ثم كرَّر عليّ القنصل العَرْض نفسه خُفْيَةً ورَغَّبَ إليّ في الذهاب إلى ألمانيا. لكنّي لم أكن لأرضى أن أكون لعبة في يد الألمان، أو لأموت في بلاد الغربة طريدًا، بل قلت له: سأموتُ وسأدفنُ في الدولة التي شيَّدها أجدادي، وماتوا ودفنوا في ترابها، سأموتُ في استانبول. ثم قلت لأهلي: لن أكون أَقَلَّ من إمبراطور القسطنطينيّة الذي مات دفاعًا عنها. ثم قلت لقائد الباخرة: اتَّجِهْ نحو استانبول.

كان الشعب المسلم في سالونيك يُلَوِّحُ ويبكي مُوَدِّعًا السلطان، أمّا باقي الشياطين من اليهود واليونانيّين فقد وقفوا على بعد كيلومترين يضربون الطبولَ ويهتِفونَ بمغادرتي واستقبال الجيش اليوناني. توجَّهْتُ إلى أهلي وأصهاري وقلت لهم: هزيمتان في سنة واحدة، أليس هذا كثيرًا!؟ هزيمةُ الحرب التركيّة الإيطاليّة وهزيمةُ حرب البلقان. كيف اتَّفَقَتْ شعوبُ البلقان على الدولة مع أنّهم جُبِلُوا على التقاتل فيما بينهم لعِدَّة قرون؟ لا شكّ أنّ سياسة الاتّحاديّين كانت على قدر كبير من الغَباء حتى جعلتهم يتَّحدون. لقد أظهرتِ الأيّام أنّي لم أَكُنْ مخطئًا وأنّ أعدائي نادمون اليوم على ما اقترَفوه. ثم سألتُ صهري عن وزير خارجيّة إنجلترا الحالي فأخبرني بأنّه السِّير إدوارد جراي. تعجَّبت وقلت له: ألم يَدُرْ بِخَلَدِ الاتّحاديّين أن يُقَدِّمُوا له مائة ألف قطعة ذهبيّة. ولو فعلوا لَعَمِلَ ما في إمكانه لإفساد الاتّحاد بين البلغار واليونانيّين، أو حَالَ دون نُشوب الحرب!

أبحرتِ السفينة ووصلَتْ إلى استانبول يوم ١٢ نوفمبر ٢٠١٢، وذهبوا بنا إلى قصر بكلربكي، القصر الذي تُوفِّيَتْ فيه والدتي إثر إصابتها بداء السلّ. أمّا قائد الجيش العثماني فقد سلَّم سالونيك إلى اليونانيّين دون إطلاق رصاصة واحدة. ويا لها من كارثة حلَّت بالدولة!

إنّ الدستور الذي وعد الاتّحاديّون بأنّه سيجلبُ الرَّخَاء والحرِّيّة للبلاد لم يأتِ لها إلّا باستبداد الاتّحاديّين، وهو عين ما سمَّاه الرسول الأكرم بالملك الاستبدادي، إنّه حكم العسكر وملكهم الذي بدأ في الدولة وسينتشر في باقي أطراف الأمّة..

ويعلم الله متى سينتهي ذلك الحكم. قبل أن تعودَ الخلافةُ التي على منهاج النبوّة. لقد أساؤوا استعمال الحرِّيّة بصورة تجاوزوا فيها قانون حرّيّة الصحافة على وجه الخصوص، ولم يكن بينهم من اتَّصَفَ بالحكمة والمسؤوليّة والتوازن المنطقي. فهم من أديان مختلفة وطوائف متعدّدة وعرقيّات متباينة وأمم شتّى لا هَمَّ لهم سوى التنَابُذ والتحريض على بعضهم بعضًا باسم حرّيّة الرأي والصحافة. «لقد كان هؤلاء الشباب يريدون الدستور منّي. وها قد جاء اليوم الذي سوف يدركون فيه مَلِيًّا الخَطأَ الذي ارتكبوه». «لقد أُعلنَ الدستور، فماذا حدث؟ هل انخفضَتْ ديونُ الدولة؟ هل كَثُرَتِ الطرقات والموانئ والمدارس؟ هل رُتِّبَتِ القوانين بصورة أكثر تعقُّلاً وانتظامًا؟ هل باتت التراخيص الشخصيّة أكثر أمانًا من ذي قبل؟ هل أصبحت الظروف الدوليّة أكثر ملاءمة لمصالحنا؟ ومهما تعدَّدت الأسئلة، فلن يستطيعَ واحد منهم الإجابة عنها بالإيجاب. يجب ألّا يَظُنَّ أحد أنّني ذو فكر مناهض للحكم الدستوري. وعندما يكونُ الدواء في يد رجال ليسوا أطبّاء ولا يعرفون استخدام الدواء، فإنّه حينئذ يكون سُمًّا قاتلاً حتى ولو كان الطبيب رجلاً صوفيًّا».

أمّا الأرمن فقد استفادوا من جوّ الحرِّيّة وعادوا لعمليّاتهم الإرهابيّة بشكل مضاعف.

* * *

لم يتغيَّر شيء من حالة الأَسْر سوى سماحهم لي بقراءة الجرائد، وشعوري بالقرب من الأبناء والبنات وباقي الأهل. ثم إنّ شروط الأَسْر خفَّتْ قليلاً حيث كانوا يسمحون بنقل أخبارنا كلّ يوم

جمعة مع الآغوات إلى الأهل. ثم تطوَّر الأمر إلى أن سمحوا بزيارة البنات أوّلاً مرّة في السنة في عيد الأضحى، فكنّا نمضي يومًا حافلاً باللقاء، وتطوَّر الأمر بعد ذلك لمّا سمحوا بزيارة الأبناء، فاكتمل الفرح رغم ما كانت تَمُرُّ به البلاد من أزمات.

لقد كان من نتائج الحرب التركيّة الإيطاليّة وحرب البلقان ضياعُ أراضي الإمبراطوريّة التي كنّا نمتلكها في أوروبا وأفريقيا. وسُلِبَ منّا في غُضون أربع سنوات نصف الميراث الذي خلَّفْتُهُ بعد عزلي. «ولو كنت بَقِيتُ على عرش السلطة لما حدث هذا البَتَّة».

ثم إنّ الذي أقلقني وأرَّقَني هو التقارب الروسي الإنجليزي، فاستدعيتُ راسم بك وقلت له: «لسوف ترى أنّ الاتّحاديّين سَيَجُرّون هذه الدولة إلى مغامرات مُفجعة مُهلكة تجلُبُ المصائب على استانبول. وأنا أخشى على البلاد من حَمِيَّةَ الطورانيّة لأنّ الاتّحاديّين بصنيعهم هذا سوف يدخلون في حرب ضروس مع كلّ من روسيا القيصريّة والإمبراطوريّة البريطانيّة العظمى، حاشا لله. فإذا حلَّت هذه الكارثة فلسوف تشهد بِعَيْنَيْ رأسِكَ تَفْتِيتَ الإمبراطوريّة العثمانيّة وتمزيقَ أوصالها. إنّني لا أظنّ أبدًا أنّ إنجلترا سوف تخسر هذه الحرب إذا ما دخلَتْها».

رجوتُ راسم بك أن يُبلِّغَ قادته تخوّفاتي، فقال لي: إنّ الاتّحاديّين سيُعلنون الجهاد إذا ما تَمَّ تهديدُ أمنِ البلاد.

فقلت له: يا راسم بك، إنّ الجهادَ يجب أن يبقى تهديدًا وقوّة للرَّدع، ولا يمكن استعماله في ضوء التردِّي العامّ للإمبراطوريّة. لقد عملتُ دومًا على أن أُرْهِبَ الدول العظمى بهذا التهديد ولطالما قلت لهم، يكفي أن يتلفّظَ خليفةُ المسلمين بأربعة أحرف حتى تقوم

القيامة عليكم في كلّ مكان، وتسقطَ مستعمراتُكم في لحظة واحدة. وبهذا كنت أجعلُهم يتراجعون، ويتخوَّفون من استعمال هذا السلاح المعنوي. أمّا الحقيقة، فهي أنّي كنت أعلم أنّ الجهاد لم يكن في الوقت الحالي قوّة مادّيّة بقدر ما كان قوّة معنويّة للردع.

ثم أضفت: يا راسم بك، إنّ إعلانَ الجهاد كان ممكنًا لمّا كان للأمّة خليفة يحكم، لكنّكم اليوم سلبتم منه كلّ شيء وأصبح أثرًا بعد عين. إنّ أخي لا يمكنه أن يعلن الجهاد لأنّه مجرَّد من صلاحيّاته، ولهذا فلن يستجيب المسلمون لدعوته. إنّ الجهاد يا راسم بك أمر خطير وعظيم، وليس مناورة سياسيّة مرحليّة. لا بدّ لمن يعلن الجهاد أن يكون ذا مصداقيّة تُخَوِّلُهُ للنطق به.

هزَّ راسم بك كتفيه، مُظهرًا عدم الإقرار، لكنّه في سريرته كان مُقِرًّا بصدق ما أقول.

وحدث ما توقَّعت، فدخلنا الحرب الكبرى، وكان خطأ كبيرًا من القائمين على الأمور بالتحالف مع ألمانيا والنمسا والمجر ضدّ الدول الكبرى. كنت أعلم أنّه ما كان علينا أن ندخلَ في هذه الحرب التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل، ولا يمكِنُها إلّا أن تُعَقِّدَ من أوضاعنا، لكن لا حياةَ لمن تُنادي. لقد عمِلتُ طوال فترة حكمي على الحفاظ على الدولة وتَجْنِيبِها الحروبَ بنَهْجِ سياسة الحِياد الإيجابي وإذكاء المنافسة بين الدول الاستعماريّة حتى لا تستطيعَ أن تنال منّا، لكنّ الاتّحاديّين أخطأوا بدخول الحرب العالميّة الكبرى إلى جانب ألمانيا وحليفاتها.

خُرِّبَتْ استانبول بفعل هجمات الإنجليز والفرنسيّين علينا، وقرَّر الاتّحاديّون نقلي إلى مدينة بورصة فَرَفَضْت. كما نصحوا أخي

محمّد رشاد بالانتقال إلى قونية واتِّخاذِها عاصمةً مُوقّتة. ولمّا أخبرني راسم بك بهذا القرار غضبتُ وقلت له: لسنا أقلَّ من آخر أباطرة بيزنطة الذي فضَّلَ الموتَ هنا على أن يَخْرُجَ من هذه المدينة. ماذا يفعل أخي؟ ومن أفتى عليه هذا الرأي الجبَان؟ يجب أن يبقى هنا وأن يدافِعَ عن المدينة حتى لا تَسقُط. وأنا لن أخرجَ من هنا وسندافع كلُّنا عن استانبول صغارًا وكبارًا. فأنا راضٍ بالموت هنا كما مات أجدادُنا من قبل دفاعًا عن الدولة.

ولَطَفَ الله بنا، فلم نُغادر استانبول. ولمّا سُدَّتِ الأبواب في وجه الاتّحاديّين وندِموا على قراراتهم التي اتَّخذوها لمعاكستي، بدأوا يزورونني في قصر بكلربكي طلبًا للنصيحة بعدما أضحى الأناضول قلب الإمبراطوريّة مهدَّدًا بالسقوط هو الآخر. لقد عمل الاتّحاديّون على إقامة استبداد حقيقي، فجميعُ القرارات يتَّخذها أشخاص قلائل هم طلعت باشا الصدر الأعظم، وأنور باشا قائد الجيش، وعوني باشا. لقد جاء لزيارتي الصدر الأعظم فأسمعتُه ما يجب أن يسمَع وعدَّدْتُ له أخطاءَه بإثارة العرب والأرناؤوط حتى سقطَتْ منّا الولايات العربيّة. أمّا أنور باشا، فلم يَكُنْ يَصلُحُ لأن يكونَ قائدًا للجيش، بل أقصى ما كان أن يبلُغَه هو قائد لواء. والثالث كان رجلاً حَقُودًا غَضُوبًا لا يصلُح لتسيير الأمور. كان هؤلاء الثلاثة يتشاجرون فيما بينهم ويتصارعون ويَلْعَنُ كلٌّ واحد منهم الآخر. لم يكن بيدي ما أصنَعُهُ أو أقدِّمُه لهم لأنّي لم أَكُنْ أَتحكَّمُ في الأمور. كان الحلُّ هو في إعادة ترتيب الأوراق من جديد وِفْقَ مَنْطِقِ الحِيَادِ المطلق، لكنَّ الأوانَ كان قد فات ودخلنا الحربَ وعلينا أن نبقى فيها حتى النهاية.

لم تنته الحربُ لكنّنا خَسِرْنا كلَّ الولايات العربيّة في اليمن والحجاز والعراق وفلسطين وسوريا. وإنّ أَشَدَّ ما أَقَضَّ مضجعي ما بلغني عن وَعْدِ وزير خارجيّة إنجلترا جيمس بلفور لليهود بمنح فلسطين وطنًا قوميًّا لهم. فكيف يا ترى تُقَدِّمُ إنجلترا وعدًا لما لا تَمْلِكُ إلى مَنْ لا يَسْتَحِقّ؟ إنّها لغريبة عجيبة، وأغربُ منها أن قالوا «أرضٌ بلا شَعْب لشعبٍ بلا أرض» ليبرِّروا هذه السرِقَةَ الدوليّة في واضحة النهار. لقد صدق الشيخ ظافر رحمة الله عليه لمّا أشار إلى مثل هذا في إشراقاته الربّانيّة. لقد أرادوا زرع هذا الكيان لمنع الأمّة من التوَحُّد واكتساب أسباب القوّة والمنَعَة. سيُصبح هذا الكِيان شوكةً في خاصِرة البلاد الإسلاميّة حتى يأذَنَ الله بزواله من جديد. وإنّ ممّا زاد في حزني وغضبي التحَالُف بين إنجلترا وروسيا الذي عَمِلْتُ طوالَ فترة حُكمي على إفشاله لمصلحة الدولة. ولمّا جاء الاتّحاديّون أفسدوا كلّ شيء، وتَمَّ التحالف بين الإمبراطوريّتين الروسيّة والإنجليزيّة. وقد فعلتُ ذلك بتَرويضِ الروس ومُلاطَفتِهم ما أمكنني الأمر فنجحتُ فيما فَشِلَ فيه مَنْ جاء بعدي. كنتُ أعلمُ أنّ إنجلترا قوّة عظمى لا يمكنُ المغامرة في دخول الحرب ضِدَّها فعمِلْتُ على الحَدِّ من أطماعها بالدَّهَاء والحيلة. وقد كنت دائمًا أنصح الإمبراطور الألماني وليام الثاني بعدم دخول الحرب ضدّها، وأعربتُ له بصراحة أنّ موقفَ الإمبراطوريّة العثمانيّة سيكون ملازمة الحياد في هذه الحرب. لم يعجبه رأيي، وكان هذا من الأسباب التي جعلَتِ الألمانَ يتخلّوْنَ عنّي ويبحثون عن حليفٍ لهم من داخل المؤسّسة العسكريّة العثمانيّة، فتحالفوا مع الاتّحاديّين لعزلي رغم صداقتي مع الإمبراطور وليام، لكن ألمانيا كانت عازمة على دخول الحرب ضدّ إنجلترا. وحصل بالفعل ما كنتُ أخشاه وما توقَّعتُه،

فالحربُ ضدَّ ثلاث دول عظمى مُجازفةٌ لا يُقْدِمُ عليها إلّا من كان غِرًّا لا يفهَمُ في السياسة. اصْطفَّتْ إنجلترا وفرنسا وروسيا في صَفٍّ واحد، وكان مُتوقَّعًا أنّنا سنخسَرُ الإمبراطوريّة بسبب سَذاجة الاتّحاديّين وقوميَّتهم الطورانيّة الفارغة.

أصابني حزن شديد على نتائج هذه السياسة الخرقاء، وتمنَّيت الموتَ قبل أن تنتهي الحرب، حتى كنت أُرَدِّدُ لمن حولي: «إنّني أُوثر الموتَ على أن أَستمِرَّ في رؤية الإمبراطوريّة وهي تَحْتَضِرُ أمام ناظري».

ثم مرضتُ وأصابتني كآبة كبيرة عَقِبَ هذه الويلات والهزائم، ولجأتُ إلى الذكر والدعاء والصلاة على النبي والضراعة إلى المولى لتخفيف شِدَّةِ الحال. وأصابني وَجَعٌ شديد في الجهة اليسرى من صدري فأخبرني الأطبّاء بأنّه مرضُ ذَاتِ الرئَة، لكنّي كنت أعلم أنّ قلبَ الخلافة قد أُصيبَ في مقتل وأنّ النكتةَ السوداء قد توسَّعَتْ أكثر. لم يَعُدْ قلبي الذي حمَلَ الخلافة ثلاثًا وثلاثين سنة يتحمَّل أن يَصمُدَ أمام تفتيت الإمبراطوريّة وتمزيقِ الأُمَّة إلى أشلاءَ، والعَبَثِ بالخلافة إلى الحدِّ الذي لم يَعُدْ لها وجود إلّا بالاسم. إنّه الحكم الاستبدادي ماثِلٌ أمام العِيان.

في مساء يوم السبت ٢٧ ربيع الثاني عام ١٣٣٦، الموافق تاسع فبراير سنة ١٩١٨، جلستُ كعادتي على مائدة الطعام رفقة مشفقة وصالحة، وقلت لهما: لقد فقدتُ شهيّةَ الطعام.

فقالت مشفقة: أرجوك يا أفندينا، لقد مضت أيّام وأنت على حالك من فقدان الشهيّة فلم تتناول شيئًا.

ثم قالت صالحة: أرجوك يا أفندينا، خذ هذه القطعة من الكفتة.

تناولتُ القطعةَ حتى لا أَكسِفَ أهلي الذين ضَحُّوا معي طوال هذه المدّة في الأسر، وبدأتُ آكلُ القطعة ببطء حتى أنهيتُها.

ابتسمَتْ مشفقة، ثم أَخَذَتْ ملعقةً من القَرْع وناولتنيها فأكلتُها. ثم أخذَتْ ملعقة أخرى فأكلتُها من يدها.

تعجَّبتُ من قدرتي على الأكل، فتشجَّع الأهل وتوسَّلوا إليّ لكي أتناولَ طبق المُهَلَّبِيّة فأخذتُه وراقني مذاقُه بعد أن كنتُ قد عَدِمْتُ كلَّ لذّة وشهيَّة.

ثم وقفتُ على قدميَّ وأحسستُ بألم شديد في صدري، فقلت لزوجتي مشفقة: أشعرُ بألم في الجهة اليسرى من صدري يمتدُّ إلى الجهة اليمنى.

فقالت: لا بأسَ عليك يا أفندينا. ثم نادت على إحدى القلفاوات لتستدعي الطبيب. بَيْدَ أنّي قلتُ لها: لا داعي يا مشفقة، فقد أَذِنْتُ له في الذهاب إلى منزله.

ثم أخبرتِ القلفةُ راسم بك فأرسلَ يستدعي ألكسياندیس أفندي طبيب أخي الأصغر وولي العهد، محمّد وحيد الدين أفندي، الذي كان يسكن قريبًا من قصر بكلربكي.

جاء الطبيبُ وفحصني بعدما كنتُ في حالة سيّئة. ثم رأيتُه يحدِّثُ راسم بك الذي استطلَعَهُ عن حالتي، فسمعتُه يقول: «إنّ مرضَ السلطانِ خطيرٌ على قَدْرِ خَطَرِ السلطان نفسِه».

لم أمنَعْ ابتسامةً عرضَتْ لي لدى سماع تشخيص الطبيب،

وقلت لنفسي، لقد صدقْتَ أيّها الطبيب، فكيف لا يكونُ المرضُ خطيرًا والدولةُ على حافّة الانهيار، والخلافةُ في رَمَقِهَا الأخير. لقد شاء الله أن تُخْتَمُ الخلافةُ بالحمد، فالحمد لله الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحات. لقد قمتُ بواجبي على قدْر ما ألهمني الله، وقد راعيتُ ذِمَّةَ الخلافة وحُرْمَتَها حتى انتقلَتْ إلى مَنْ جاء بعدي. ولستُ مسؤولاً عمّا حدث بعد ذلك، فإنّ مُهِمَّتي انتهَتْ بعزلي.

أسرعَ راسم بك بإخطار أخي السلطان محمّد رشاد، وقائدَ الجيش أنور باشا على الفور. ثم جاء الطبيبُ عاطف بك ففحصني مرّة أخرى وخَلُصَ للنتيجة نفسها! لكنّهم استدعَوا أشْهَرَ أطبَّائِنا الدكتور عمر بك. ظلَّ هذا الطبيب يفحَصُني وَيَدْخُل ثم يخرُج. وكلّما خرج من غرفتي لمحتُ ابني الغالي عابد أفندي يتعقَّبُه ليسألَه عن حالي رجاء أن يبشِّرَه بأمل يتعلّق به.

أمضَيْنا الليلَ كلَّه هكذا، ولم ينَم أحدٌ في القصر، ولا أظنُّ أنّ أحدًا يمكنه أن ينام. إنّها ساعةُ احتضارِ القلب الذي حمَل أمانةَ الخلافة ثلاثًا وثلاثين سنة بِسِرِّ الاسم المفرد.

كنت خلال ليلتي في ضيافة سورة ياسين، أُقَلِّبُهَا ذات اليمين وذات الشِّمال، أَتَفَيَّأُ في ظلالها وأَنْعَمُ بِجِنَانِهَا. كانت ياسينُ قلبَ القرآن الذاتي، والفرقانِ الصفاتي الأسمائي. وكذلك الإنسانُ الخليفة، قلبٌ قرآني أَحَدِيٌّ جَمْعِيّ، وقلبٌ فرقاني لتوارد التَّجلّيات عليه. ثم ردَّدْتُ أبيات الشيخ الأكبر:

إذا كُنْتَ قُرآنًا فَقَلْبُكَ **يَاسِينُ** وَإِنْ كُنْتَ فُرْقَانًا فَمَا لَكَ مِنْ قَلْبِ

فَإِنَّ وُجُودَ الحَقِّ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ وَمَا لَكَ مِنْ قَلْبٍ فَمَا لَكَ مِنْ قَلْبِ

الإنسان الخليفة المؤمن مثل القرآن وقلبه الياسيني ثابت لا يتقلّب لأنّه وسع الحقّ، ثم هو فرقان بكثرة الشؤون والتجلّيات التي تَعْرِضُ له. لقد انكتب في ذاتي كتابُ الياء، وهو كتابٌ قرآني ثابتُ الشُّهود قد وَسِعَ الحقَّ فكان سمعَه ويدَه ورجلَه، وانكتبَ فيها كتابُ السِّين وهو كتابٌ فرقاني مُتقَلِّبٌ في كلِّ آنٍ بين أُصبُعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمن، تترادف عليه أنواعُ الشُّؤونِ والتَّجَلِّيَات. وما لهذا الإنسانِ الخليفة من قلبٍ لأنّ قلبَه أصبح عين الحقّ، فما له من قلب. وكيف له أن يتقلّب والحقّ عينه؟ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾. فما لك من قَلْبٍ إليه يا عبدَ الحميد أو انقلاب، إذ أضحى الحقُّ قلبَك.

لم أشعُرْ بمرور الليل. وعند الصباح خاطبتُ زوجاتي قائلاً: آه، ما أسرعَ الصباح!؟

ثم أشرتُ بإعداد الحمَّام الذي اعتدتُ أن أَدْخُلَهُ كلّ صباح. منعني الطبيب من رغبتي، وثَنَّتْ بذلك زوجتي وأَصَرَّ على القرار ابني وقلفتي. حاولوا صرفي عن عادتي، لكنّي كنتُ أعلَمُ أنّي أُعِدُّ نفسي لِمَنِيَّتِي. لقد جاءت ساعةُ غَسْل الميت. ولم أرضَ أن أُحْرَمَ من هذه النعمة قبل لَفْظِ أنفاسي. ولمّا ترادفَ إصرارهُم قلتُ لهم: «أن تحرِموني من حقّي في الحمّام، فلن أسامِحَكُم أبدًا». كنت أنطقُ هنا بلسان الخليفة الذي أدرَكَ انتقالَه ولحاقَه بنبي الرحمة، وسلسلةِ الأطهار والأشراف من خلفاء الأمّة، الذين حكمُوا بسرِّ الاسم وبمَعاني الوراثة المحمّديّة.

لم يستطعْ أحد أن يقفَ في وَجْهِ هذا الوعيد الأُخروي، فسارعتْ قلفتي **كلشن** تُعِدُّ حمَّام ألف ليلة ومائة ليلة. إنّ حكمَ

الأسماء من أسرار الله في الوجود. لقد بدأ عصرُ **كلّ شَيْنٍ** بعد مرور ألف ليلة من ليالي الخلافة. وذلك هو اليوم الذي قال فيه الحبيب المصطفى «إن صَلُحَتْ أمّتي فلها يوم». وهذه كانت البشارة، أمّا الأخرى فعِلْمُهَا عند الله. لقد أتى حكم الترك وانتهى حكم الخلافة بعد مرور ألف سنة.

أعدَّتْ كلشن الحمَّام على غير رغبة الطبيب والأهل وما سواهم. وخلال الاستحمام عاينتُ أحوالَ الأمّة في الحدود الفاصلة بين الحياة والموت كما يقول أهل الدنيا، وهي قطعًا اللحظاتُ الجامعة بين الحياة والموت. لكن لا خبرَ عن هذا الحين لمن لم يقم به، وإنّما هي أمور ذوقيّة، فَمَنْ نَالَ المعنى لم يَكُنْ أعمى. ومَنْ لم يُدْرِكِ المعنى كان في بُؤْسٍ مُعَنًّى.

خرجتُ من الحمَّام أتصبَّبُ عرَقًا بعد المجاهدات التي قطعتُها في رحلة الحياة والموت، وتَرادُفِ أحوال الآخرة، ورأيتُ الصُّوَرَ التي يراها الصالحون من عباد الله. فرأيتُ صورة عملي وصورة علمي وصورة نَبِيِّي... إلى أن استوفيتُ المجموع فحمدتُ الله.

خرجتُ من الحَمَّام ودخلتُ باب الحِمَام. نظرتُ إلى أهلي، فلم تُطِقْ مشفقة النظرَ إليّ واستنجدَت بصالحة لعلَّها تجد في عينيها بعض الأمل، لكنّ الدَّمعَ فارَ من تَنُّورِ المآقي فسقطَتْ مياهُه على ذراعي فأحسستُ بِحَرِّهَا. ثم جلستُ ووضعوا لي وسادة تحت إبطي حتى أَتَّكِئَ عليها. ثم طلبتُ أن أُصَلِّي قاعدًا، إذ لم أَكُنْ أَقْوَى على القيام. صلَّيْتُ الصُّبْح. ثم طلبتُ لَبَنًا مخلوطًا بمياه معدنيّة كما دأبتُ على ذلك. شربتُ هنيًّا وشعرتُ براحة، فقلت: «الحمد لله يا ربّي، إنّي أحسنُ حالاً». لقد شربتُ شرابَ الفِطرة،

شرابَ العلم، شرابَ الصَّفاء.

تأبَّطتُ ذراعَ زوجتي مشفقة ودخلتُ غرفةَ نومي؛ ثم جاء من أبلغني سلامَ أخي السلطان محمّد رشاد الذي بعث بالأطبّاء من السراي، فقلت: «لا، إنّني لا أريد أطبّاء، فأنا بخير». لم أكن أريدُ أن أُفسِدَ هذه اللحظات القليلة التي بقيَتْ لي في عُمْرِ الحياة الدنيا مع هؤلاء. لا شكّ أنّهم من الكلِّيّة الطبِّيّة التي عشَّشَتْ بأفكار الاتّحاديّين، فلن أُسْلِمَ روحي بين أيديهم. لا بدّ أن تكونَ النهايةُ وِفْقَ السُّنَّةِ النبويّة بين سَحْرِ وَنَحْرِ زوجتي، كما حصل لرسول الله مع السيّدة عائشة.

قالت لي مشفقة: أرجوكَ يا أفندينا لا تُغْضِبْ أخاك، واسمَحْ لهم بفحصكَ مرّة واحدة.

لمّا سمعتها تقول ذلك، لم أُرِدْ أن أُغْضِبَ خليفةَ المسلمين أو أخالفَ أمره، فأنا أعلمُ الأصول. أجبتُ النداء وقَبِلْتُ بدخولهم.

كان عددُ الأطبّاء أربعة، هم عاقل مختار بك، ورفعت بك السلانيكي، وعاطف بك، وألكسيانديس أفندي. ثم وقف ابني الحبيب عابد أفندي بعينين دامعتين، فلمّا رأيته على هذه الحال قلت له: لا تَبْكِ يا بنيَّ، إنّني بخير فلا تحزَنْ. إنّها ساعةٌ وتَمُرّ. فما أحلى اللقاءَ بسيّد الخلائق بين يَدَيْ رَبِّ العزّة.

طلبتُ من الأطبّاء أن يأخذوا منّي بعض الدَّم حتى أقوى على التَنَفُّس. وفي باطني، كنت أريدُ أن أُزيل أثَرِ نكتة الدم السوداء التي حلَّتْ في قلب الخلافة.

فلمّا فَصدوني شعرتُ بتحسُّن، ثم اقترحوا حقني بالمورفين،

إلّا أنّي رفضتُ أن يخالطَ دمي شيء غير ذكر «لا إلٰه إلّا الله».

خرج الأطبّاء ودخلَ راسم بك قائد الحرس الذي رافقني منذ سنوات في الأسر، فقبَّل يدي وفاض الدمع من عينيه وقال لي: «سلطاني، سامحني، لقد كنتُ مُخطئًا في حَقِّك. لقد كنّا مخطئين في حقِّك».

نظرتُ إليه وحمدتُ الله أن أبلجَ نهارَ الحقيقة اليومَ في لحظات وداع الفانية، فقلت له: لقد سامحتك يا راسم بك في حقّي، لكنّي لا أملك حقّ مسامحة الشرور والآلام التي لحقت بالضحايا والأبرياء الذين قَضَوْا وتعذَّبوا.

لم يدرك راسم بك عمق إجابتي، فقال لي: لقد كنت الخليفة، وبإمكانك أن تنوب عن الضحايا وتسامح وتعفو في هذه اللحظات الأليمة.

ابتسمت قليلاً، ثم قلت له: إنّ الضحايا الذين ماتوا لم يعطوني سلطة لأسامح باسمهم ما لحق بهم وبأسرهم. إنّ هذا الحقّ لا يملكه إلّا الأموات، أمّا الأحياء فلا حقّ لهم في ذلك.

فقال راسم بك: وأين هي رحمة الله من كلّ هذا؟

قلت: إنّ العدل الإلٰهي يا راسم بك يفرض علينا أن لا نتكلّم باسم الأموات. وهل يستطيع ضمير من يطلب العفو باسم الآخرين أن يتحمّل ولو للحظة يتيمة كلّ المعاناة التي تعرّض لها هؤلاء الضحايا والشهداء؟ اسمع يا راسم بك، ليس هناك شيء اسمه العفو بالوكالة، لكن يبقى النسيان، ويبقى الاعتذار عن الجرائم التي ارتكبت باسم الأحياء لا باسم الضحايا الأموات حتى لا

تتحمّل الأجيال التالية تبعات ما اقترفه آباؤهم وأجدادهم. إنّني يا راسم بك لا أملك إلّا أن أعفو عن أعدائي ما ارتكبوه بحقّي، لكنّي لا أملك أن أتكلّم باسم الضحايا الأموات وغيرهم. إنّ هذا الحقّ لا يتقادم ولا يقبل الوكالة.

ارتبك المسكين، لكنّي أضفت قائلاً: لا تجزع يا راسم بك، فقد غفرت لك فيما يخصّني.

تنهَّد راسم بك وتغيَّرَتْ نظرته وشَعَّ في باطنه أملٌ عجيب، ففارَقَتْهُ قساوَتُه المعتادة، ثم خرج يمشي مثلما يمشي الضحايا.

لقد كنتُ دائمًا أغتَفِرُ لأعدائي ما اقترفوه ضدّي، ولو لم أفعل ذلك لبقيتُ أعيش في سجن وضعيّة الضحيّة الأبديّة. لم أقبل يومًا ما أن أسجُنَ نفسي في الجروح المعنويّة التي تلقَّيْتُها، وعملتُ على ترويض هذه الشرور وتحويلها إلى آلام أتحكَّمُ فيها.

ثم دخَلَتْ زوجتي مشفقة وزوجتي صالحة ناجية، فابتسمتُ لهما وقلت: «إنّ راسم بك قطعَ أمَلَهُ فينا، فقد قبَّل يدي وطلب منّي أن أُسامحَه في حقّي».

ثم تأوَّهْتُ وقلتُ: «لقد أسدَلُوا ستارةً سوداءَ على كلِّ خدماتي، وليس لي حقٌّ لدى أَحَدٍ أطالبُه به». ثم جرى الدمع من عينيَّ، أَمِنْ فرح أو من حزن؟ لم أكن أدري. اختلطَتْ في هذه اللحظات مشاعري بين التفكير فيما مضى، أو التفكير فيما هو آت. وتلك هي فتنة البرزخ التي تتداخلُ فيها المراتب. فَمَنْ كان من أهل الرسوخ عاينَ بعين الوراثة المحمّديّة مراتبَ كلِّ شيء ومَيَّزَ بينها.

ثم أخرجَتْني مشفقة من مشاعري الفيَّاضة بجيش الدموع،

وقالت: أفندينا، مرضتُم قبل ذلك بما هو أخطر، وبمشيئة الله تَطِيبُونَ أيضًا هذه المرّة. وحقُّكُمْ لا بُدَّ بَاقٍ عند الله».

ولمّا فهم أخي السلطان رشاد بقرب نهايتي، سمح لأكبر أولادي محمّد سليم أفندي بعيادتي فأخبر بقيّة العائلة فجاء معه ولدي أحمد أفندي. استأذَنا في الدخول فأمهلتُهُما قليلاً ريثما أطلبُ فنجانًا من **القهوة** أستمرِئُ به مَعالمَ وراثة الأخلاق الإلٰهيّة. ثم تأبَّطْتُ ذراع مشفقة واستويتُ جالسًا. أخذتُ الفنجانَ وشربتُ منه رشفة.

بعد احتساء القهوة، دخلتُ في أنفاس الهزيع الأخير من مفارقة الأنام، فبدأتُ أُودِّعُ، وبدأتُ بزوجتي مشفقة فأخذتُ يدها وقبَّلتُ راحتَها وقلت لها: جزاكِ الله خيرًا على سنوات العِشْرَة التي قضيناها معًا. ثم أمسكتُ يد زوجتي صالحة ناجية وودَّعتُها وقلت لها: سامحيني في حقِّك. كانت القلفة كلشن تنظر ناحيتي فقلت لها: ابنتي جزاك الله خيرًا.

ثم أخذتُ رشفةً أخرى من القهوة فاستطبتُها، وحاولتُ أن أستزيدَ فلم أَقْوَ على حمل الفنجانْ إلى شفتي فانسكبَ ما فيه على كفّ زوجتي مشفقة الآخذة بيدي، ولمع نورٌ من عالم الغيب فقلتُ بأعلى صوتي: الله.

* * *

سقط رأس عبد الحميد على ذراع مشفقة فصرخَت قائلة: لقد أُغمي على أفندينا، دَعُوا الطبيب يُسْعِفه.

هرع عاطف بك وأدرك الحقيقة المفجعة، إلّا أنّه لم يخبرهم

بشيء. بقيتْ مشفقة تحتضن زوجها بين سَحْرِهَا ونَحْرِهَا، ولا ترغبُ في أنْ تتركَه للطبيب، فقال لها: اتركيه لي، إنّه مُغْشًى عليه، وسوف أقومُ بعلاجه، وعليكم أن تخرجوا فورًا.

ثم أخرجها بصعوبة مع عابد أفندي. وبعد ذلك انتهر القلفة: مَالَكِ تَتَسَمَّرِينَ أمامي، هيًّا أحضِري قطعةً من الشَّاش حتى نُلَثِّمَه.

صرخ أحدُ أغوات السلطان المخلصين قائلاً: آهٍ، راحَ أفندينا. ثم سقط على الأرض مَغشيًّا عليه.

وَقْتَهَا أدرك الحاضرونَ حقيقةَ ما جرى، عَلَتِ الأصوات بالنحيب والبكاء والصراخ. وانطلق عابد أفندي يصرخ ويبكي ويقول: لا أُصدِّق، لقد كان يجلسُ قبل قليل في فراشه.

ثم دخل ضبّاط الحرس وأدَّوا له التحيّة الأخيرة.

لقد رحل عبد الحميد وحيدًا في يوم الأحد.

جاءت الوفود إلى قصر بكلربكي، تبكي رحيل القائد العظيم الذي رفع رأس الدولة عاليًا، وعمل على حفظ أمانة الخلافة. وتعاقبَ الأهلُ والأقرباء والأصدقاء والأعداء على القصر. كلُّهم يبكيه ويعرِفُ فَداحةَ الخسارة التي مُنِيَتْ بها الأمّة والدولة. لقد جلس ضبّاطُ الحرَس الذين أساؤوا إليه عند رأسه يقرأون القرآن باكين منتحِبينَ. كانوا أساؤوا إليه لكنّه قابلَ إساءَتهم دومًا بالإحسان.

اندلعَ خبرُ وفاة عبد الحميد في استانبول، فهبَّ الناس من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ يبكون وينتحِبون ويَنْدُبُونَ حَظَّ البلاد العاثِر الذي أذهبَ هذا الرجل العظيم في ساعةٍ من أَحْلَكِ ساعات الأُمَّة. لقد

طلبَ السلطانُ صباحَ رحيله اللبنَ الممزوج بالماء فأحسَّ براحة لقاء الآخرة. ثم طلب القهوة لأنّه أدركَ ساعتَها الظلمةَ التي طوَّقَتْ دارَ الإسلام بارتفاع الخلافة إلّا أن يأذنَ الله برجوعها.

كانت جموعُ الشعب تهتِفُ وتقول: أبونا، لمن تتركُنا وتمضي؟!

كانوا يعلمون أنّ صِبْيَةَ الاتّحاديّين غرَّروا بالبلاد والعباد، ولوَّحوا لهم بأُرجوحَة الدستور حتى يتلَهَّوْا بها، فقَادوا الدولةَ إلى الانهيار التامّ. ولن تنتهي الحربُ الكبرى حتى ينخَرِمَ عِقْدُ ما بنى الأجداد. كان الشعب البسيطُ قد أدركَ هذه الحقيقة البسيطة، وخَرَسَتْ أبواق الصحافة التي طالما حقَّرتِ السلطان وصوَّرته في أبشَع صورة. أمّا المجرمون فكانوا يعلَمون قدْرَ عبد الحميد، ولهذا أحرقوا كلّ الوثائق التي انتهبوها من قصر يلدز حتى لا يَطَّلِعَ الناسُ على الحقيقة.

خرجتِ الجنازةُ في شوارع استانبول التي مُنِعَ منها خليفة المسلمين حيًّا وسُمِحَ له أن يَمُرَّ منها محمولاً على الأكتاف. كانت شوارعُ استانبول غاصَّةً بجُموع الشعب الذي فقد كلَّ شيء. كثيرةٌ هي الأُسَرُ التي فَقَدَتْ أبناءَها في الحرب العالميّة الناشِبَة. كان الآباء والأمّهاتُ يصرُخْن: إلى من تتركُنا يا أبانا؟ إلى مَنْ؟ إلى أين أنت ذاهب؟

حضر كلُّ أعداء عبد الحميد الذين ناصبَوه سابقًا العداء وشوَّهوا صورتَه، أيضًا في صفوف المشيِّعين. كانت دموعُهم تجري لعلّها تشفَعَ لهم يوم الحساب على ما اقترفُوه في حقِّ الأمّة من مصائب وكوارث. وكانوا يُدركون قيمةَ الرجل الذي شهدَ له

الأعداءُ قبل الأصدقاء من زُعماء العالم بالعبقريّة الفذَّة. لقد أدركوا قيمةَ الرجل بعد رحيله. لم تشهَدْ استانبول طول تاريخها ازدحامًا مثل الذي شهدَتْهُ أثناءَ جنازة عبد الحميد! كان في طليعة المشيِّعين الصدرُ الأعظم طلعت باشا الذي غطَّى وجهه من الخجل، وهو يمشي خلف التَّابوت مُجْهِشًا بالبكاء.

كان الوقتُ وقت تَطْفِيلٍ وأصيلٍ، واصْفَرَّ عصرُ ذلك اليوم حتى لم يَعْهَدْ له الناس مثيلاً. وتقدَّموا بنعشه إلى مقبرة جدِّه محمود فَوَارُوه التُّراب مع أُفول آخر شعاعِ شَمْسٍ على الإمبراطوريّة العثمانيّة وعلى الخلافة الإسلاميّة، وانجمَعَ الحَمْدُ الذي في السَّماء (محمود) مع الحمد الذي في الأرض (عبد الحميد).

لم تمرَّ أشهر قليلة حتى لفظت الإمبراطوريّة نفَسَها الأخير بعد هزيمة الحرب العالميّة الأولى، وانتُهِبَ ما بقي من تلك الإمبراطوريّة المترامية الأطراف كما خلَّفها عبد الحميد. تحطَّمتِ الدولة تمامًا ولم يبق منها شيء، ولم يبق أمام الاتّحاديين سوى أن يَفِرُّوا بجلودهم خارج البلاد، فاستقلُّوا في جُنْحِ الليل أوَّلَ باخرة ألمانيّة هاربين من المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم. لقد باعوا البلاد ولطَّخوا سمعةَ عبد الحميد لكنّ الحقيقة انبلَجَتْ أخيرًا. لن يَهْرُبُوا بعيدًا بسفينتهم، فدعوةُ الخلفاء والأئمّة ليس بينها وبين باب السَّماء حِجَاب. لن يهربُوا بعيدًا، فدعوةُ الخلافة تطاردهم أينما رَحلوا.

لم تمض أشهر قليلة على هروبهم حتى حصَد الرصاص هؤلاء الاتّحاديّين الهاربين، بمن فيهم الصدر الأعظم طلعت باشا، وقائد الجيش أنور باشا، وجمال باشا وباقي كبرائهم. أمّا زعيم

المعارضة الموالي للإنجليز، الأمير المزيّف صباح الدين ابن أخت عبد الحميد فمات في أوروبا في حالة من الإفلاس والمَخْمَصَة والبؤس والذلّ. وقد أدَّى جميعُ من أساءَ إلى خليفة المسلمين ثمنًا باهظًا سواء كان من كبار الاتّحاديين أو من صغارهم.

لقد نهبوا قصر يلدز وخرَّبوه، وقد فهم عبد الحميد أنّ ذلك كان بدايةَ نَهْبِ وتخريب الإمبراطوريّة العثمانيّة والخلافة الإسلاميّة. لقد هرب الاتّحاديّون إلى أوروبا لكنّهم أُصيبوا بالهوان، وصَدَقَتْ فيهم دعوة إمام المسلمين، وتحذير مفتي الدولة.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

# السياق التاريخي لإلغاء الخلافة الإسلاميّة

«انصحوا الدكتور هرتزل بأن لا يتَّخِذَ خطوات جدّيّة في هذا الموضوع، فإنّي لا أستطيعُ أن أتخلّى عن شبر واحد من أرض فلسطين... فهي ليست ملك يميني... بل ملك الأمّة الإسلاميّة.. لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمائه... فليحتفظ اليهود بملايينهم... وإذا مُزِّقَتْ دولة الخلافة يومًا، فإنّهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن... أمّا وأنا حيّ، فإنّ عمَلَ المِبْضَعِ في بدني لهو أهونُ عليّ من أن أرى فلسطينَ قد بُتِرَتْ من دولة الخلافة، وهذا أمرٌ لا يكون. إنّي لا أستطيعُ أن أُوافقَ على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة».

**السلطان عبد الحميد الثاني**

**استانبول ١٩٠١**

* * *

عَادَتْ أَغَانِي العُرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ   وَنُعِيتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الأَفْرَاحِ

كُفِّنْتِ فِي لَيْلِ الزِّفَافِ بِثَوْبِهِ   وَدُفِنْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الإِصْبَاحِ

شُيِّعْتِ مِنْ هَلَعٍ بِعَبْرَةِ ضَاحِكٍ     فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَسَكْرَةِ صَاحِ

ضَجَّتْ عَلَيْكِ مَآذِنٌ وَمَنَابِرٌ     وَبَكَتْ عَلَيْكِ مَمَالِكٌ وَنَوَاحِ

الهِنْدُ وَالِهَةٌ وَمِصْرُ حَزِينَةٌ     تَبْكِي عَلَيْكِ بِمَدْمَعٍ سَحَّاحِ

وَالشَّامُ تَسْأَلُ وَالعِرَاقُ وَفَارِسٌ     أَمَحَا مِنَ الأَرْضِ الخِلاَفَةَ مَاحِ

وَأَتَتْ لَكِ الجُمَعُ الجَلاَئِلُ مَأْتَمًا     فَقَعَدْنَ فِيهِ مَقَاعِدَ الأَنْوَاحِ

يَا لَلرِّجَالِ لِحُرَّةٍ مَوْؤُودَةٍ     قُتِلَتْ بِغَيْرِ جَرِيرَةٍ وَجُنَاحِ

إِنَّ الَّذِينَ أَسَتْ جِرَاحَكِ حَرْبُهُمْ     قَتَلَتْكِ سِلْمُهُمُو بِغَيْرِ جِرَاحِ

هَتَكُوا بِأَيْدِيهِمْ مَلاَءَةَ فَخْرِهِمْ     مُوشِيَّةً بِمَوَاهِبِ الفَتَّاحِ

نَزَعُوا عَنِ الأَعْنَاقِ خَيْرَ قِلاَدَةٍ     وَنَضَوْا عَنِ الأَعْطَافِ خَيْرَ وِشَاحِ

في رثاء الخلافة **لأحمد شوقي**

* * *

كانت الدول الاستعماريّة الغربيّة تدرك خطورة الخلافة على مصالحها، فَسَعَتْ إلى تقويض الدولة العثمانيّة وأطلقت عليها منذ ١٨٥٣ لقب «رجل أوروبا المريض». وقد قيَّض الله لهذه الدولة قبل سقوطها رجلاً وَقَفَ بصلابة في وجه هذه الأطماع الاستعماريّة، فحاولت اغتياله وإسقاطه مرارًا، لكنّها فشِلَت لمدّة ثلاث وثلاثين سنة. وقد عمِلت من جهة على التشكيك في صِحّة الخلافة العثمانيّة من خلال تشجيع الدعوة إلى قوميّة الخلافة واشتراط القرشيّة، كما شجَّعت من جهة ثانية على ظهور الحركات القوميّة العربيّة والتركيّة والكرديّة والأرمنيّة والألبانيّة. واستعانت ثالثًا بالحركات الهدّامة مثل الماسونيّة والصهيونيّة والدونمة وجماعة الاتّحاد والترقّي

وغيرها لتفكيك الدولة وإسقاط الخلافة والاستيلاء على خيراتها. كما استعانت رابعًا بأقلام مأجورة انساقت مع هذا المخطّط الجهنّمي، بوعي أو بدون وعي لتصوير السلطان في صورة الحاكم المستبدّ والطاغية الذي يرفض النظام الدستوري، ونعتوه بوصف «السلطان الأحمر»، وردَّدَتِ الصحف في البلاد العربيّة والإسلاميّة رَدْحًا من الزمن هذه التُّهم الباطلة التي نشرتها إنجلترا والاستشراق الغربي. ولم يجد السلطانُ السَّنَد إلّا لدى العقول النيّرة لدعم الخلافة والمحافظة على قلب الأمّة، فأطلق فكرة الأمميّة الإسلاميّة أو الجامعة الإسلاميّة. ولمّا كان السلطان قد اعتمد على الصلحاء والعلماء في إطلاق ونشر فكرة الجامعة الإسلاميّة في العالم الإسلامي، فقد تَفَتَّقَتْ عبقريّة الاستعمار في إفشال الفكرة والتشكيك فيها بإنشاء فرق ضالّة ومُضلّة هي القاديانيّة العميلة لإنجلترا، لإضعاف خطر فكرة الجامعة الإسلاميّة في شبه الجزيرة الهنديّة، التي هدَّدت بقوّة الوجود الإنجليزي في هذه البلاد. ثم انعقد مؤتمر بال في ١٨٩٧، وقرّر اختيار فلسطين وطنًا قوميًّا لليهود، وقد وقف السلطان عبد الحميد سَدًّا منيعًا أمام هذا المشروع، ورفض جميع الإغراءات والرشَاوي الماليّة لبيع فلسطين، كما رفض الرضوخ لتحالف الدول الاستعماريّة والصهيونيّة من أجل دفعه إلى تسليم فلسطين. وكانت الخطوة العمليّة التي اتَّخَذَهَا هي فَصْلُ سَنْجَق القدس عن سوريا، وجَعْلُه تابعًا له بشكل مباشر، بعد أن اتَّضَحَتْ له الأخطار المحدقة بفلسطين. كما انتهج السلطانُ سياسةَ التقريب بين السُّنَّة والشِّيعة واعتمد على جمال الدين الأفغاني في التقَرُّب من إيران الفارسيّة، وأطلق بناء سِكَّة الحديد التي ساهم في بنائها المسلمون من أنحاء

العالم، انطلاقًا من استانبول إلى بلاد الحرمين الشريفين، لِتُجَسِّدَ عمليًّا فكرة الوحدة الإسلاميّة، ولقي تأييدًا شعبيًّا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ثم انتهج «سياسة التوازن الدولي» بين الأمم الاستعماريّة لإبعاد أطماعها عن الممالك العثمانيّة. ولم تستطع هذه القوى بفضل ذكاء السلطان عبد الحميد وحِنكته أن تَتَّفِقَ بشأن اقتطاع أوصال الإمبراطوريّة العثمانيّة إلّا تحت طائلة خراب الممالك الأوروبيّة نفسها.

لقد كانت الخلافة الإسلاميّة نظامًا سياسيًّا يُجَسِّدُ التضَامُنَ بين الشعوب الإسلاميّة عبر القرون، واستطاع أن يحفَظ للأمّة تماسُكَها وقوَّتَها حتى في عصور الانحطاط، ولهذا حاولت القوى الاستعماريّة تقويضَ هذا النظام للاستيلاء على أراضي وخيرات العالم الإسلامي.

وقد نجحَتْ هذه القوى الاستعماريّة في استقطاب جزء من النخبة العثمانيّة من حزب تركيا الفتاة والاتّحاد والترقّي التي كان أغلبُ أفرادها من الحركة الماسونيّة المتحالفة مع الصهيونيّة، فخلعوا السلطان سنة ١٩٠٩، وأمعنوا في إذلاله وإذلال الخلافة الإسلاميّة لمّا أصرُّوا على أن يتولّى أحد أعضائهم من اليهود الماسونيّين إبلاغَ السلطان نَصَّ عزله، بدل أن يتولَّى ذلك رجل تركي أو عربي مسلم.

ساءت أحوال الدولة بشكل كبير بعد عزل السلطان، وضاعت منها أقاليم وولايات كثيرة. وبعد إسقاط الخلافة في ثالث مارس سنة ١٩٢٤، أُصيبَ المسلمون بصدمة قويّة ما زالت نتائجُها المدمِّرة بادية إلى اليوم، وقامت محاولات لإعادة الخلافة من

جديد في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، لكنّها فَشِلَتْ. واستيقظَ أخيرًا كثيرٌ من القوميّين والوطنيّين الذين غُرِّرَ بهم حين ساوَوْا الخلافة العثمانيّة بالاستعمار تحت تأثير القوالب الفكريّة للاستشراق، وأَعْلَوْا من شأن الثورة العربيّة والتحَرُّر من «الاستبداد العثماني». وهي آراء لا يمكن لإنسان مسلم أو باحث محايد أن يقبلَها لما فيها من تزوير للتاريخ وتَشْوِيهٍ للحقائق، لا سيّما حينما تَعْمَدُ إلى تصوير الكماليين الطورانيين بالأبطال، على حين أنّ العكس هو الصحيح، إذ كان أتاتورك نموذجًا للحاكم المطلق المستبدّ الذي ضيَّع وحدةَ الأمّة، وأعلن عن عنصريّة طورانيّة مَقِيتَة. وبلغَتْ به الخيانةُ مداها حتى إنّه وهو على فراش الموت استدعى السفير البريطاني، ورجاه أن يَخْلُفَهُ في منصب الرئيس، فبعث السفير برقيّة إلى حكومته يُطلِعُها على الأمر. وقد نشرَتْ جريدة الصانداي تايمز نصّ البرقيّة، ونقلتها عنها جريدة الأهرام بعد ذلك في عددها الصادر في ١٥ فبراير سنة ١٩٦٨. إنّ الحركة الكماليّة من وجهة نظر المسلمين تُعْتَبَرُ انتكاسةً حضاريّة، وليست تقدُّمًا نحو الأفضل، إذ عزلَتْ تركيا عن باقي العالم الإسلامي، وحوَّلَتْهَا إلى ذيلٍ من ذُيول العالم الغربي، تابعٍ له بعد أن كانت قوّةُ الدولة العثمانيّة حصنًا منيعًا لحماية العالم الإسلامي لعدَّةِ قرون.

وحتى في الرمق الأخير من حياته لم ينس آخر خلفاء بني عثمان، الخليفة عبد المجيد الثاني أن يؤدّي الأمانة التي عليه ويُوصي[1] بإرسال النعال النبويّة التي كانت بحوزته إلى سلطان

(١) انظر ما نقله الدكتور عبد الكريم الخطيب أحد أقطاب الحركة الوطنيّة في المغرب عن قدّور بن غبريط مدير التشريفات الملكيّة ومدير معهد مسجد باريس عن =

المغرب آنذاك الراحل محمّد الخامس الذي كان يرى فيه الوارث الحقيقي الوحيد للخلافة. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ بناءَ مسجد باريس[1] في قلب العاصمة الفرنسيّة وتدشينه مباشرة بعد سقوط الخلافة سنة ١٩٢٦ من قبل سلطان المغرب، جاء كإحدى النتائج على إقرار الغرب بمسؤوليّته التاريخيّة المباشرة في التآمر على الخلافة، وتنازله الجزئي بالسماح بتأسيس مسجد باريس لترضية العالم الإسلامي.

بعد سقوط الخلافة الإسلاميّة، تطوَّرت الفكرة ونضجَتْ حتى كانت حادثة إحراق المسجد الأقصى الإجراميّة، فدعا الملك الحسن الثاني، والملك فيصل رحمهما الله إلى إنشاء منظّمة المؤتمر الإسلامي[2]، ثم تطوّرت وأصبحت لها منظّمات ووكالات

---

الخليفة عبد المجيد الثاني الذي أوصى ابن غبريط قبل وفاته في باريس. وقد بقيت رفاة عبد المجيد في مسجد باريس مدّة عشر سنوات قبل أن يُنقل إلى البقيع الشريف: «من عادة أمراء المؤمنين أن تكون لديهم بعض آثار النبي ﷺ، وأنا عندي نعاله عليه السلام، ولا يستحقّها الآن من أمراء المسلمين إلّا محمّد الخامس، **فأطلب منك بعد وفاتي أن تهديها له كوارث للخلافة**». ص ١١٨: «الدكتور عبد الكريم الخطيب: مسار حياة»، تقديم نلسون مانديلّا، منشورات إفريقيا الحرّة، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.

(١) إنّ أوّل مسجد سمحت فرنسا ببنائه على أراضيها هو مسجد **نور الإسلام** في مدينة سان دوني في جزيرة لاريينيون، والذي بناه المسلمون من أصول هنديّة هناك سنة ١٩٠٥.

(٢) تغيّر اسمها إلى منظمة التعاون الإسلامي سنة ٢٠١١. لقد أُلغيت الخلافة في ٣ مارس ١٩٢٤، ونلاحظ أنّ الملك الحسن الثاني الذي كان مع الملك فيصل رحمهما الله وراء تأسيس منظّمة التعاون الإسلامي في الرابط بالمغرب، قد اختار يوم ٣ مارس عيدًا للعرش، فهل كان هذا محض صدفة أم إرادة حقيقيّة من هذا القائد بصفته أميرًا للمؤمنين على ضرورة استمرار حمل سرّ لخلافة الإسلاميّة في آل البيت؟

متخصّصة، من أبرزها وأهمّها منظّمة الإيسيسكو التي أضحت بيت خبرة للعالم الإسلامي في مجالات اختصاصها، بفضل ما توَفَّرَ لها من نِيَّات صادقة وقدرات بشريّة وإدارة رشيدة وحكيمة. وبهذه المناسبة يسعدني أن أُقَدِّمَ خالصَ تشكّراتي لمعالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العامّ لهذه المنظّمة الرائدة، والمفكّر الحضاري الدولي، والأديب الألمعي، والشاعر المجيد الذي تابع هذا المشروع الروائي منذ بدايته، وشجَّعني عليه. ويكفي أن أُورِدَ هنا هذه الأبيات الرائعة التي تقطُر سحرًا، والتي نظمَها جوابًا على قطعة صدَّرْتُ بها رواية **طواسين الغزالي**:

«إلى الأخ د. عبد الإلٰه بن عرفة، مع التحيّة:

| | |
|---|---|
| قد عَرَفْتُ اليَوْمَ مِنْ أَيْنَ النَّفَسْ | فِي عِبَارَاتٍ لَهَا سِحْرٌ هَمَسْ |
| عَبْقَرِيُّ الفِكْرِ صُوفِيُّ الجَوَى | خَاتِمِيُّ اللَّفْظِ مِنْ طٰهَ قَبَسْ |
| فَهَنِيئًا لِلإِيسِيسْكُو بِالَّذِي | نَثَرَ الدُّرَّ وَطَاسِينَ الْتَمَسْ |
| شَاعِرٌ مَهْمَا تَخَفَّى مُبْدِعٌ | نَاثِرٌ يَشْفِي فُؤَادًا قَدْ وَقَسْ |
| فَلَهُ مِنِّي، وَذَا الغَيْثُ هَمَى | شُكْرُ مُمْتَنٍّ إِذَا ذَاقَ انْغَمَسْ» |

فله منّي خالص الشكر وفائق التقدير، عرفانًا بجهوده المباركة في خدمة العمل الإسلامي المشترك، ممّا بَوَّأَ منظمّة الإيسيسكو الصدَارَةَ في العمل الدولي الجادّ جنبًا إلى جنب مع كبريات المنظّمات الدوليّة، ومكَّنَها من الاضطلاع بهدف البناء الحضاري للعالم الإسلامي، كما أهَّلَهَا لتجسيد فكرة التضامن بين الدول الإسلاميّة في مجالات اختصاصها. وهذا الدور الذي تقوم به مع غيرها صورة من صور استمرار فكرة الخلافة في الضمير الإسلامي الجمعي.

وأختم هذا التذييل بقصيدة نظمتُها حول الخلافة:

تلكَ الخِلافَةُ تَبْكِي حَظَّهَا العَثِرَا ... لما طَمَا بحرُ الاستبدادِ بالوَحَلِ
راحَتْ تَجُرُّ ذُيُولَ الحزن بَاكِيَةً ... لما انطفى الرُّوحُ في القلبِ وفي الدُّوَلِ
راحَتْ وراحَ إمامٌ عادلٌ أَرِبٌ ... دَلَّتْ على ذاكَ آثارٌ من الأُوَلِ
ماتَ الخليفةُ مَنْ كان لها سنَدًا ... ذاك الهُمامُ كَحِيلُ العَيْنِ من كَحَلِ[1]
تناوشَتْهُ أيادي الغَدْرِ كائدةً ... ما بين غَرْبٍ وَمَاسُونٍ مِنَ الهَمَلِ
عبدَ الحميدِ رَعَاكَ الله من جَبَلٍ ... صُنْتَ الخِلافةَ من مَكْرٍ ومن زَلَلِ
اُنْظُرْ إلى أُمَّةٍ من غير قَائِدِهَا ... تَسُوسُهَا أُمَمٌ جاءَتْ على عَجَلِ
يا صاحبي هل لهذا الأَمْرِ من فَرَجٍ؟ ... أَمْ أنَّ ذاكَ تَصاريفٌ من الأَزَلِ
قلبُ الخِلافة ياسينُ الهُدَى وَلِهٌ ... مُيَسَّرُ الذِّكْرِ مَحْفُوظٌ مِنَ الوَجَلِ
فالبَسْ مِثالَ نِعَالٍ قَاسَهَا قَدَمًا[2] ... أهلُ العِنَايَةِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ

**عبد الإله بن عرفة**

---

(١) إشارة إلى سهده واكتحال عيونه بالسهر في رعاية مصالح الناس.

(٢) إشارة إلى مثال النعال النبويّة التي قاسها أهل الوراثة المقتفين أثر المصطفى، فصارت لهم بمنزلة قدم الصدق ﴿وَبَشِّرِ الذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

# حِسابُ الجُمَّل الكبير

| الترتيب النَّفَسي | | الترتيب المشرقي | | الترتيب المغربي | |
|---|---|---|---|---|---|
| ء | 1 | ا | 1 | ا | 1 |
| ه | 2 | ب | 2 | ب | 2 |
| ع | 3 | ج | 3 | ج | 3 |
| ح | 4 | د | 4 | د | 4 |
| غ | 5 | ه | 5 | ه | 5 |
| خ | 6 | و | 6 | و | 6 |
| ق | 7 | ز | 7 | ز | 7 |
| ك | 8 | ح | 8 | ح | 8 |
| ج | 9 | ط | 9 | ط | 9 |
| ش | 10 | ي | 10 | ي | 10 |
| ي | 11 | ك | 20 | ك | 20 |
| ض | 12 | ل | 30 | ل | 30 |
| ل | 13 | م | 40 | م | 40 |
| ن | 14 | ن | 50 | ن | 50 |

| التّرتيب النَّفسي | | الترتيب المشرقي | | الترتيب المغربي | |
|---|---|---|---|---|---|
| ر | 15 | س | 60 | ص | 60 |
| ط | 16 | ع | 70 | ع | 70 |
| د | 17 | ف | 80 | ف | 80 |
| ت | 18 | ص | 90 | ض | 90 |
| ز | 19 | ق | 100 | ق | 100 |
| س | 20 | ر | 200 | ر | 200 |
| ص | 21 | ش | 300 | س | 300 |
| ظ | 22 | ت | 400 | ت | 400 |
| ث | 23 | ث | 500 | ث | 500 |
| ذ | 24 | خ | 600 | خ | 600 |
| ف | 25 | ذ | 700 | ذ | 700 |
| ب | 26 | ض | 800 | ظ | 800 |
| م | 27 | ظ | 900 | غ | 900 |
| و | 28 | غ | 1000 | ش | 1000 |

**ملحوظة**: للحصول على قيمة «يس» نضيف قيمة حرف «ي» (١٠) إلى قيمة حرف «س» (٣٠٠) بالمغربي، فنحصل على مجموع ٣١٠. أمّا بالمشرقي، (١٠ + ٦٠ = ٧٠). أمّا عدد «يس» بالنَّفَسي فهو (١١ + ٢٠ = ٣١). وهناك شبكات من المعاني التي يمكن استنباطها من «يس» التي تعدل عشر مرّات القرآن. وهذه السورة هي منزل النفَس الرحماني.

# فهرس المحتويات

# إصدارات للكاتب

* رواية **يس قلب الخلافة**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٣.
* رواية **جبل قاف** حول سيرة ابن العربي الحاتمي، منشورات ضفاف، دار الأمان منشورات الاختلاف. بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠١٣.
* رواية **ابن الخطيب في روضة طه**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٢.
* رواية **طواسين الغزالي**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١١.
* رواية **الحواميم**، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، ٢٠١٠.
* رواية **بلاد صاد**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.
* رواية **بحر نون**، دار الأمان، الرباط، المغرب، ٢٠٠٧.
* رواية **جبل قاف**، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢.

* * *

* **لماذا نفرح بالمصطفى؟** (مع آخرين). رابطة مجمع الصلاح، ٢٠١٣.

* **السماع الصوفي** (مع آخرين). الرابطة المحمديّة للعلماء، الرباط، المغرب، ٢٠١٢.

* **الرواية العرفانيّة في تجربة عبد الإلٰه بن عرفة**، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب، ٢٠١٢.

* دراسة وتحقيق لكتاب **الشهاب موعظة لأولي الألباب لابن سيدبونة الخزاعي الأندلسي** (٥٢٤ ـ ٦٢٤ هـ)، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥.

* كتاب **حول علم الدلالة ونشأة المفاهيم في اللغات**، (بالفرنسيّة)، دار المنشورات الجامعيّة، ليل، فرنسا، ١٩٩٧.

* **أعمال أخرى**.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تتناول هذه الرواية العرفانيّة السيرة الملحميّة للسلطان عبد الحميد الثاني، أكبر وأعظم الخلفاء العثمانيين. حافظ على إرث الإمبراطوريّة المترامية الأطراف بحكمة ودهاء نادرَيْن مدّةَ ثلاث وثلاثين سنة قضاها على رأس الدولة العليّة. وقد عملت القوى الاستعماريّة على تقويض حكمه فتوسّلت لذلك بطرق عدّة ومكائد



وفي مواجهة تلك المؤامرات وقف السلطان يدعو إلى فكرة الجامعة الإسلاميّة واستعان بكبار العلماء والصلحاء، وانتهجَ سياسةَ الحِياد المطلق بين الأُمَم لِيُقَوِّضَ الأطماعَ الاستعماريّة حينًا من الدَّهر، حتى كان ما كان من عَزله وسَجْنِه إلى أن تُوُفِّيَ رحمةُ الله عليه في سجنه مهمومًا مغمومًا

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-265-8

